﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً، وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

سورة التوبة - الآية: ١٢٣

الفصل الأول

١ - الغرب الصليبي.
٢ - العثمانيون يحملون راية الجهاد.
٣ - تدمير الحملات الصليبية الأولى في البلقان.
٤ - تيمورلنك - وتجاوز العثمانيين للنكبة.
٥ - القسطنطينية والفتوح العظمى.
٦ - الدولة في ذرى المجد.
٧ - الحروب البحرية العثمانية.
٨ - الحرب في بلاد فارس.
٩ - ليبانتي والطريق للهزائم.
١٠ - الحرب المتجددة على جبهة الغرب.
١١ - روسيا تفتح جبهة جديدة.
١٢ - نابليون في مصر - ورياح الثورة.
١٣ - محمد علي باشا الألباني.
١٤ - حرب اليونان - ومعركة نافاران.
١٥ - محمد علي في مواجهة الدولة العثمانية.
١٦ - حرب القرم.
١٧ - المسألة اللبنانية (طوشة النصارى) .

١ ـ الغرب الصليبي.

استقبل الفرنج الصليبيون بجزع كبير وحزن عميق أنباء انتصارات المسلمين في بلاد الشام، ونجاحهم في طرد بقايا الفرنج ورموزهم من عكا وسواها سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. غير أنه لم تعد لدى أوروبا تلك الحماسة أو تلك القدرة لتوجيه حملة جديدة، فقد استنزف المسلمون قدرة الغرب الصليبي على كافة الجبهات، وباتت شعوب أوروبا بحاجة لتضميد جراحاتها النازفة، فيما كان هناك آخرون ينعمون بما غنموه من الثروات، وقد توافرت لهم أسباب الراحة والرخاء. ولم يبق هناك من لديه الاستعداد للاستجابة لما قد يقوم به قساوسة من أمثال بطرس الناسك ووولتر المفلس من تحريض لا يستند إلا إلى النبوءات الكاذبة والأوهام الخيالية، بمثل تلك الإستجابة الساذجة والجاهلة التي ظهرت قبل قرنين من الزمن. ولم يعد مواطن الغرب قانعاً بما انطوت عليه الامتيازات المبذولة من وعود، وقد صدم بما حدث من استخدام الحرب المقدسة لتحقيق مكاسب دنيوية ومغانم مادية.

ظهر أن البابا نقولا الرابع [1] كان أشد الناس جزعاً وأكثرهم حزناً لما تعرضت له الصليبية من الكوارث والنكبات في السنوات الأخيرة، وربما كان هو الوحيد الذي يمتلك استعداداً للعمل، غير أنه ما من أحد من الرجال يستطيع العمل معه. فما كان للبابوية من مكانة في السابق، قد انهارت بسبب فشل الحرب في صقلية، ولم يعد الملوك يهتمون بالانصياع لأوامر البابا، إذ أن امبراطور الغرب الذي حطم البابا ما كان له من سلطة عالمية، قد انصرف انصرافاً كاملاً لمعالجة أمور بلاده ـ ألمانيا ـ وهو على استعداد لقيادة حملة إلى ايطاليا فقط، وليس لأي مكان آخر. أما ملك فرنسا (فيليب

---

(١) نقولا الرابع: (NICOLAS' IV) بابا روما (من سنة ١٢٨٨ إلى سنة ١٢٩٢ م).

الرابع)[1] فبالرغم مما اشتهر به من الكفاءة والقدرة، فانه صرف كل جهده لإعادة بناء دولته وتنظيمها قضائياً وإدارياً. وكان ملك انكلترا بدوره (ادوارد الأول) غارقاً في مشكلاته مع اسكتلنده خاصة. وكانت فرنسا وانكلترا تسيران على خط المنافسة المتصاعد الذي أدى في النهاية إلى اندلاع حرب المائة عام. وكانت مملكة (أراغون)[2] هي المملكة الوحيدة التي تستطيع ارسال حملة صليبية جديدة إلى فلسطين، غير أن ملكها جيمس الثاني كان هو وأخوه فريدريك المطالب بعرش صقلية، مشتبكان بالقتال مع ملك نابولي التابع للبابا ـ شارل الثاني ـ والذي توافرت لديه الرغبة ـ من الناحية النظرية ـ لارسال حملة صليبية، غير أنه كان لزاماً عليه قبل كل شيء طرد الارغونيين من صقلية، ولم يكن الوصول إلى هذا الهدف بالأمر السهل، فقد كان للارغونيين أضخم اسطول حربي في البحر الأبيض المتوسط.

لم تكن مملكة الروم ـ البيزنطيين ـ في موقف أفضل من الموقف الذي كانت تعيشه ممالك الغرب. وقد انصرف امبراطور الروم لمواجهة تهديدات الأتراك المسلمين على جبهته الشرقية، فيما كان يواجه خطراً أكبر على جبهته الغربية بعد أن تشكلت حديثاً مملكتي البلقان (بلغاريا والصرب) ولذا لم يأمل البابا في أن يظفر بدعم الروم ـ البيزنطيين ـ الذين كانوا بحاجة لمن يدعمهم. وكذلك لم تكن المدن التجارية لإيطالية (جنوه وفينيسيا وسواهما) على استعداد للمغامرة بمصالحها التجارية وقد

---

(١) فيليب الرابع: (PHILIPPE IV) ابن فيليب الثالث وايزابيلا ملكة أراغون: (ARAGON) ولد في فونتينبلو (١٢٦٨ ـ ١٣١٤ م) وأصبح ملكاً لفرنسا سنة ١٢٨٥ م تميزت مدة حكمه بالاضطراب. فقد حكم في البداية شامبانيا ونافار: (NAVARRE) وورث عن زوجته جان الاولى ملك نافار واضطر لخوض حرب ضد ملك انكلترا ادوارد الأول: (EDOUARD I) بسبب فتنة وقعت بين البحارة الانكليز والنورمان. ولكن البابا تدخل لإيقاف هذه الحرب.

(٢) أراغون: (ARAGON) هي المملكة القديمة الواقعة في شمال ـ شرق اسبانيا والتي ضمت أقاليم وشقة (HUESCA) وسرقسطة: (SARAGOSSE) وتيرويل: (TERUEL) والتي تم توحيدها في القرن الثاني عشر تحت اسم (CATALOGNE ـ كاتالونيا) ثم توسعت بعد ذلك على حساب بلاد مسلمي الأندلس. فضمت فالانسيا: (VALENCE) وجزر الباليئار وكورسيكا وسردينيا وصقليا وبقيت عاصمتها سرقسطه وقد تم توحيد مملكة أراغون بمملكة قشتالة (القلاع) CASTILLE سنة ١٤٦٩، وذلك بزواج ملك أراغون فرديناند بملكة قشتاله إيزابيلا، فتم لهما إخراج المسلمين من غرناطة والأندلس.

أخذت في التكيف مع الأوضاع الجديدة التي خلقتها انتصارات المسلمين في مصر وبلاد الشام. ولهذا لم تقدم أي وعد للبابا بالمساعدة.

بقي ملك قبرص وملك أرمينيا هما أشد الملوك اهتماماً بمشكلة الحرب الصليبية، سيما وأن مملكتيهما أصبحتا على خط المواجهة الأول مع المسلمين. ولا بد لأيتهما أن تصير قاعدة لكل حملة صليبية جديدة. ولكنهما كانا في الوقت ذاته يحرصان أشد الحرص على عدم إثارة غضب امراء المماليك المسلمين. كما تحتم على ملك قبرص أن يجد حلاً لمشكلة اللاجئين الذين طردهم المسلمون من عكا وسائر بلاد الشام ومصر. ولم يعد بالمستطاع الاعتماد على دعم المغول، بعد أن اعتنق الايلخان قازان دين الإسلام (سنة ٦٩٥ هـ = ١٢٩٥ م) وقام عشرة آلاف من التتار - وهم المعروفين تحت اسم الاويرانية - بالتوجه إلى مصر، فأكرم الملك العادل وفادتهم، وأنزلهم بالحسينية، ورتب لهم الرواتب، وبالغ في تقربهم، فاستجلبوا طائفة كبيرة منهم إلى مصر. وتوقف قازان عن ارسال السفارات إلى البابا، وأصبح الإسلام هو الدين الرسمي للايلخانية التتارية في بلاد فارس. ولم يعد للبابا أمل في أن تصير بلاد فارس دولة مسيحية.

لكن ماذا بشأن الطوائف الدينية العسكرية وهي التي ما نظمت أصلاً، ولا ظهرت، إلا للقتال في بلاد الشام، من أجل العالم الصليبي، وبقي ذاك واجبها الأساسي؟

المعروف هو أن طائفة فرسان التيوتون - الألمان - كانت قد انتقلت من عكا إلى البندقية سنة ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م. ثم انتقلت إلى أملاكها في مارينبورغ في بروسيا سنة ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م وانتشرت على ضفاف بحر البلطيق. ولكن طائفتي فرسان الداوية والاسبتارية اتخذتا مقراً لهما في جزيرة قبرص. وإذ عجزت الطائفتان عن ممارسة أعمالها على النحو السليم في قبرص، تدخلتا في السياسات المحلية. والراجح أن البابا كان يقدرهما لما قد تبذلانه من مساعدة فيما إذا أمكن توجيه حملة صليبية جديدة، وكانتا تمتلكان أموالاً ضخمة وممتلكات كبيرة في جميع أنحاء أوروبا. ولكنهما أظهرتا أنهما عاجزتين عن القيام بحملة ما لم تتلقيا دعماً ومساعدة من دول الغرب.

لقد فشل البابا نقولا الرابع في إثارة الغرب، ولم يقدم له مستشاروه شيئاً من العون أو المساعدة، وكل ما فعله ملك نابولي - شارل الثاني - هو أنه أيد الاقتراح الذي

سبق عرضه منذ بضع سنوات، والذي يقضي بدمج الطوائف الدينية العسكرية من أجل القضاء على المنافسة القائمة بينها، غير أنه اعتقد أنه من المحال القيام بعمل حربي في بلاد الشام ومصر في الوقت الراهن، ولكن بالمستطاع فرض حصار اقتصادي ومقاطعة تضر ضرراً كبيراً بالمصالح التجارية للمسلمين وحكامهم المماليك. ولم يكن تنفيذ هذا الاجراء ممكناً من الناحية العملية، إذ أن رخاء المدن التجارية ونماء ثروتها، سواء كانت مدناً إيطالية أو بروفنسالية أو أرغونية، إنما يتوقف على استمرار تجارتها مع الشرق. كما أن قدرة هذه المدن على الاحتفاظ بأساطيلها الكبيرة في البحر الأبيض المتوسط، إنما يرتبط بدوره باستمرار التجارة مع المشرق الإسلامي، فإذا ما ضعفت قدرة هذه الأساطيل، صار باستطاعة أساطيل المسلمين استعادة سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط بيسر وسهولة. والأهم من ذلك كله هو أنه لم يكن لدى الفرنج ما يصدرونه إلى الشرق - سوى أسلحة يصنع الشرق ما هو أفضل منها - بينما كانوا يستوردون من الشرق معظم ما يحتاجونه. وهكذا أضحت التجارة يومها أقوى من سلطة البابا نقولا الرابع الذي مات كمداً بعد أن خاب أمله في كل جهوده.

لم يعدم الغرب رجالاً عرفوا حلاوة استثمار الحماسة للحرب الصليبية، فراح هؤلاء في النفخ في رماد الحرب والدعوة لها. غير أن هؤلاء الدعاة لم يكونوا كأسلافهم قبل قرنين من عمر الزمن: متشردين أفاقين أو مفلسين، بل كانوا دعاة مثقفين، ألفوا الكتب والعجالات كي يبرهنوا على ضرورة ارسال حملة مقدسة، وانفرد كل مؤلف بخطة لتسيير الحملة.

لعل أول الدعاة في هذا المضمار راهب فرنسيسكاني اسمه (**فيدنتشيو بادوا**) كان البابا قد أوفده في السابق مرات عديدة في سفارات دبلوماسية، مما أتاح له الطواف في اقاليم كثيرة في الشرق، وأصدر عجالة سنة ١٢٩١ م بعنوان (**كتاب عن استعادة الأرض المقدسة**)★ وأهداه إلى البابا نقولا الرابع. واشتمل بحثه على دراسة عن تاريخ البلاد المقدسة، مع مناقشة قضية الجيش الذي يجب ارساله لاستردادها، والطرق

★ (LIBER DE RECUPERATIONE TERRA-SANCTE)

المختلفة التي يمكن لهذا الجيش اتباعها. وفي السنة التالية (١٢٩٢ م) نشر الراهب **(ثاديوس نابولي)** تقريراً عن (سقوط عكا) واعتبر هذا التقرير قصة حية موشاة بما جرى الاسراف في توجيهه من الاتهامات بالجبن لكل من اشترك في الدفاع عن عكا، في الأيام الأخيرة التي سبقت إعادة فتحها على أيدي المسلمين. وكان (ثاديوس) يقصد من ذلك تحميل الغرب - عامة- عار ما حدث وتحريضه على تجريد حملة صليبية. وختم كتابه بما وجهه من نداء حار إلى البابا والأمراء - والمؤمنين - لتخليص البلاد المقدسة التي اعتبرها تراث المسيحيين.

تأثر طبيب كان يعمل بالبلاط البابوي، وأصله من جنوه، واسمه **(جلفانو ليفانتي)** تأثراً كبيراً بتقرير (ثاديوس) فأصدر كتاباً سنة ١٢٩٤ م وأهداه إلى ملك فرنسا فيليب الرابع، وكان هذا الكتاب عبارة عن خليط من الأقيسة المستخلصة من لعبة الشطرنج، ومن عظات رجال الدين الداعية للزهد. فكان بالتالي محروماً من كل اتجاه عملي.

ظهر في تلك الفترة ذاتها كتاب فاق في أهميته ما تضمنه كتاب ثاديوس أو كتاب جلفانو. وقد وضع هذا الكتاب مبشر اسباني كبير اسمه **(ريمون لل)** وهو من مواليد جزيرة ميورقه. وقد أصدر كتابه سنة ١٢٩٥ م. وقدمه إلى البابا على شكل مذكرة عن (الاجراء المطلوب لقتال المسلمين). ثم أصدر كتاباً آخر سنة ١٣٠٥ م اكتسب شهرة واسعة، إذ تضمن عرضاً منهجاً يصح استخدامه من الناحية العملية. فقد عرض فيه (ريمون لل)[(١)] أفكاره بالتفصيل، وأكد على أنه من واجب المبشرين الذين نالوا حظاً كبيراً من التعليم بذل كل جهد مستطاع للانتصار على المسلمين وعلى سائر الكنائس المسيحية المنشقة والملحدة على أنه لا بد في الوقت ذاته من إعداد حملة مسلحة. وأن يتولى قيادتها ملك محارب، وأن تتوحد الطوائف الدينية العسكرية تحت

---

(١) ريمون لل - ولد في جزيرة ميورقة سنة ١٢٣٢ م، اكتسب شهرة واسعة على أنه واحد من الزهاد، تعلم اللغة العربية وأتقنها، وطاف بكثير من الأقاليم الإسلامية. أصدر سنة ١٣٠٥ م كتابه تحت عنوان. (LIBER DE FINE) واقترح توجيه حملة بقيادة ملك محارب (REX-BELLATOR). وتقرر إعدامه رجماً بالحجارة في بوجيه بشمال أفريقية سنة ١٣١٥ م.

قيادته في طائفة واحده، تعتبر العمود الفقري للجيش. واقترح (ريمون لل) على الحملة الصليبية، أن تعمل على إخراج المسلمين من الأندلس، ثم العبور إلى أفريقية، والتحرك على امتداد الساحل إلى تونس، ثم إلى مصر. على أنه أوصى فيما بعد بإرسال حملة بحرية للإستيلاء على مالطة وردوس للإفادة من مرافئها الرائعة واتخاذها قاعدتين. وقد يكون من الأفضل أن تنتزع الحملة القسطنطينية من اليونانيين، ثم تمضي في سيرها عبر بلاد الأناضول. وتضمنت دراسته نصائح عملية عن تنظيم الجيش والاسطول وعن كميات المواد التموينية الغذائية والأعتدة القتالية المطلوبة، فضلاً عن التوجيهات والتعليمات التي لا بد للمبشرين من التزود بها لدى مرافقتهم للجيش.

جرى في البلاط البابوي وفي باريس خلال تلك الفترة، إعداد ودراسة الخطط اللازمة لتسيير حملة صليبية. وأعلن ملك فرنسا فيليب الرابع عن رغبته في توجيه هذه الحملة، دون أن يعرف أحد أن ما يضمره الملك فيليب هو إتخاذ ذريعة الحملة المزعومة حجة لانتزاع الأموال من الكنيسة. وخرج الملك فيليب منتصراً من شجاره مع البابا بونيفاس الثامن. ووقع الاختيار في سنة (١٣٠٥ م) على (البابا كليمنت الخامس) [١] الذي حاول جهده تقديم نصائحه. غير أن الملك فيليب لم يعرض إلا للمذكرات الهامة، حيث تقدم إليه واحد من رجال القانون الفرنسيين اسمه (**بطرس ديبوا**) بمذكرة تضمنت في قسم منها توجيهاً إلى أمراء أوروبا، للاشتراك في الحملة، بزعامة ملك فرنسا. كما تضمنت توصيات خاصة بالطريق الذي يجب اتباعه والسير عليه، والوسائل اللازمة لتمويل الحملة. ومنها سحق طائفة فرسان الداوية ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، وفرض ضريبة التركات على رجال الدين. بالإضافة إلى بعض المقترحات العامة حول السماح للقسس بالزواج، وتحويل الأديرة إلى مدارس للبنات. أما الشطر الآخر من المذكرة فلم يكن أكثر من نصيحة إلى الملك باختيار الكرادلة ممن

---

(١) كليمنت الخامس: (CLEMENT V) واسمه (BERTRAND DE GOT) اشغل منصب البابا من سنة ١٣٠٥ حتى سنة ١٣١٤ م. وهو فرنسي من مواليد آفينيون (AVIGNON) وقد استقر في موطنه ونقل إلى بلدته آفينيون المقر المقدس. وأظهر الانصياع الدائم للملك، وبادر إلى أن يجمع المذكرات ليسترشد بها الملك.

يؤيدونه للسيطرة على الكنيسة، وحثّه على إقامة امبراطورية شرقية يتولاها أحد أبنائه. جاء بعدئذ كبير مستشاري الدبلوماسيين في بلاط الملك فيليب **(واسمه وليم نوجاريت)** فأرسل مذكرة إلى البابا سنة ١٣١٠ م بشأن الحملة الصليبية، وضمنها بعض المقترحات الاستراتيجية الثانوية، إلا أنه ركز بصورة أساسية على التمويل، حيث يجب على الكنيسة تقديم كل الأموال، مع العمل قبل كل شيء على تدمير طائفة فرسان الداوية.

عمل البابا على التماس النصيحة من **الأمير الأرمني هيثوم** أو **(هايتون كوريكوس)** الذي كان قد لجأ إلى فرنسا وأضحى مقدماً لدير في برايمونسترانت (قرب بواتييه). واستجاب هيثوم لطلب البابا. فأصدر في سنة ١٣٠٧ م كتاباً★ لقي رواجاً كبيراً في سوق البيع. وقد تضمن هذا الكتاب خلاصة لتاريخ الشرق (بلاد الشام ومصر) ومناقشة لحالة دولة المماليك. وقد أوصى هيثوم بتوجيه حملة مزدوجة، تسير بحراً، وتتخذ من قبرص وأرمينية قاعدتين لها، وأيد التعاون مع الأرمن، والتحالف الوثيق مع المغول.

كان هناك دبلوماسي بابوي قد طاف في أقاليم الشرق ووصل في أسفاره حتى الهند **(واسمه وليم آدم)** فجاء بأفكار مماثلة لآراء الأمير هيثوم. غير أنه أضاف اقتراحاً بارسال اسطول صليبي إلى المحيط الهندي كيما يقطع تجارة مصر مع الشرق. كما طلب إلى الفرنج - اللاتين - استرداد السيطرة على القسطنطينية. وجاء اسقف مينده **(وليم ديورانت)** فقدم للبابا رسالة سنة ١٣١٢ م، أوصى فيها باستخدام الطريق البحري، وأكد على ضرورة تنظيم حملة، وأشار بصفة خاصة إلى مراعاة سلوك أفرادها. أما أمير البحر الجنوي الشيخ **(بنيتو زكريا)** والذي سبق أن كان اسقفاً لطرابلس، فإنه أثبت آراءه عن القوات البحرية المطلوبة. على أن ما يفوق هذه الاقتراحات من الناحية العملية، كانت تلك التي وضعها ثلاثة من الأعلام الذين لا بد لهم وأن يشتركوا في كل حملة صليبية. ولما كان مقدم الداوية ومقدم الاسبتارية في (أفنيون) سنة

★ كان هذا الكتاب بعنوان: (FLOS HISTORIORUM TERRE ORIENTIS)

١٣٠٧ م، فقد طلب إليهما البابا كليمنت الخامس تقديم مقترحاتهما في موضوع الحملة القادمة، فبادر **مقدم الداوية (جيمس مولاي)** على الفور إلى إرسال تقريره الذي ضمنه اقتراحه بارسال عشر سفن كبيرة في أول الأمر لتطهير البحر، على أن يتبعها جيش يتراوح عدد مقاتليه عن اثني عشر حتى خمسة عشر ألف فارس، بالإضافة لأربعين حتى خمسين ألف راجل ـ مشاة ـ. وهو عدد لن يجد ملوك الغرب صعوبة في حشده، إلا أنه يجب ارغام الجمهوريات الإيطالية على نقل قوات الحملة التي لا بد لها من أن تحتشد في قبرص للهبوط على ساحل بلاد الشام، والابتعاد عن النزول في قيليقية. **أما مقدم الإسبتارية فولك فيلاريت** فقد تأخر في تقديم تقريره حتى سنة ١٣١١ م حيث قدمه إلى ملك فرنسا فيليب الرابع ـ فيما كان رجال الكنيسة يعقدون مؤتمرهم في (مجمع ڤيينا). وقد ضمن فولك فيلاريت تقريره شرحاً لما قامت به طائفته من الاستعداد للحملة المرتقبة. وقام ملك قبرص (هنري الثاني) بتقديم تقريره إلى مجمع ڤيينا وأشار فيه إلى ضرورة حصار اقتصادي على دولة المماليك المسلمين. إلا أنه أظهر في تقريره عدم ثقته بالجمهوريات الإيطالية، وأصر على أنه ينبغي على الحملة الصليبية ألا تعتمد عليهم في عملية النقل البحري. وأيد فكرة شن هجوم على مصر ذاتها.

ولكن، وعلى الرغم من كل هذه المذكرات وهذه الحماسة، فقد استبدت الدهشة وخيبة الأمل بكل إنسان في الغرب ـ ما عدا الملك فيليب ـ حينما لم تتحرك أية حملة صليبية، فقد حقق فيليب هدفه في استخدام الذريعة المناسبة للحصول على المال من الكنيسة. ولم يلبث أن أظهر آراءه الحقيقية بما شنه من هجوم على طائفة الفرسان الداوية الكبيرة والتي كان لها دورها الأساسي في كل حملة صليبية.

جابهت الطوائف الدينية العسكرية حالة من القلق والاضطراب، بسبب طردها من بلاد الشام. وقد حل فرسان التيوتون مشكلتهم بالانتقال إلى بلاد البلطيق. إلا أن الداوية الاسبتارية تعرضتا للقيود في قبرص. ولم يلق فرسانهما ما كانوا يتوقعونه من التقدير. وإذ كان الاسبتارية أكثر تعقلاً وحكمة من الداوية، فقد أخذوا يبحثون عن وطن آخر. وتصادف أن وصل إلى قبرص (في سنة ١٣٠٦ م) قرصان جنوي اسمه

(فينولو - دي - فينولي) كان قد حصل من الامبراطور البيزنطي (اندرو نيقوس) على عقد باستئجار جزيرتي كوس وليروس، فعرض على مقدم الاسبتارية - فولك فيلاريت - بأن يقوم مع الاسبتارية بفتح جميع جزر أرخبيل الدوديكانيز، واقتسامها معاً، على أن يحتفظ لنفسه بالثلث. وبينما أقلع (فولك) إلى أوروبا ليحصل على موافقة البابا على الخطة، وصل إلى جزيرة رودس أسطول صغير للاسبتارية، يسانده بعض السفن الجنوية، وشرع في تؤده باخضاع الجزيرة. وقاومت الحامية اليونانية المدافعة عن الجزيرة قوات الغزو بعناد كبير، بحيث لم تقع قلعة فيليرمو الكبيرة في قبضة الغزاة إلا في تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٣٠٦ م، بينما ظلت مدينة رودس ذاتها تقاوم بضراوة حتى ١٥ - آب - أغسطس - سنة ١٣٠٨ م. فبادر الاسبتارية على الفور بإقامة مقرهم في الجزيرة (رودس) وجعلوا من المدينة بمينائها الرائع أمنع حصن في شرقي البحر الأبيض المتوسط. وإذ تحقق ذلك الفتح على حساب اليونانيين المسيحيين، لقي ترحيباً كبيراً في الغرب باعتبار أنه انتصار صليبي. والواقع أن فتح رودس قد منح الاسبتارية قوة جديدة، وهيأ لهم الوسيلة التي تساعدهم على المضي في تحقيق أهدافهم ضد المسلمين لفترة إضافية أخرى اتصلت بالأزمنة الحديثة.

كان فرسان الداوية أقل حظاً من الاسبتارية في المغامرة، ودونهم في الحظ أيضاً، غير أنهم تفوقوا عليهم في الغنى والثراء، كما تفوقوا عليهم بقدرتهم على إثارة العداء. والمعروف أن الداوية ظلوا زمناً طويلاً وهم يحتكرون أعمال الصيرفة وتقديم القروض المالية. وأحرزوا نجاحاً كبيراً في ممارسة مهنة غير محترمة. وجرى دائماً وصف سياستهم بأنها تقوم على الأثرة والأنانية وانعدام المسؤولية. وعلى الرغم مما اشتهر به فرسانهم من شدة البأس في القتال - أيام الحرب - فإن نشاطهم المالي جعلهم على اتصال دائم بالمسلمين - الباطنية - واتخذ كثير منهم أصدقاء في صفوف الباطنية، واهتموا بالديانة الإسلامية ودراساتها وعلومها.

وترددت الشائعات أن الداوية يدرسون وراء أسوار قلاعهم فلسفة غريبة، ويمارسون أعمالاً جرى وصفها بالكفر والهرطقة. وكان للمبتدئين - المريدين - فيما قيل شعائر منافية للدين والأخلاق، وكثر الهمس عما يصحب ممارسة الرذائل المنافية

للطبيعة من شعائر العربدة. ولم يكن من الحكمة استبعاد هذه الشائعات واعتبارها تلفيقاً وزوراً حاكها أعداء الداوية، والراجح أنه توافر بهذه الشائعات من المادة ما يكفي لتكوين قناعة بضرورة مهاجمة الداوية وتنظيماتهم.

كان مقدم طائفة الداوية (جيمس مولاي) متوجهاً إلى فرنسا (سنة ١٣٠٦ م) للبحث مع البابا كليمنت الخامس في خطة الحملة الصليبية التي جرى وضعها، عندما علم بالتهم التي وجهها الملك فيليب إلى طائفته، فطلب إلى البابا إجراء تحقيق عام، ولما كان يعرف تصميم البابا على سحق طائفة الداوية، ولما كان - البابا - غير قادر على إثارة غضب ملك فرنسا، فإنه لم يستجب للطلب. واستمرت أثناء ذلك الاتصالات السرية، حتى إذا ما كان شهر تشرين الأول - اكتوبر - ١٣٠٧ م، أعلن الملك فيليب - مباغتة - قراره بالقاء القبض على جميع من كان بفرنسا من رجال الداوية ومحاكمتهم بتهمة الإلحاد، التي قام بصياغتها فارسان اشتهرا بسوء السمعة، وسبق طردهما من صفوف الطائفة. وأدلى المتهمون بما لديهم من بيانات، وأعربت الغالبية عن ارتياحها للاعتراف بكل ما لديها من معلومات. فلما كان ربيع السنة التالية (١٣٠٨ م) أصدر البابا - بناء على طلب الملك فيليب - الأوامر إلى كل أمير يحوز الداوية ممتلكات ببلاده بإلقاء القبض عليهم، وتقديمهم للمحاكمة. واستجاب له سائر ملوك أوروبا. واعترف عدد كبير من الداوية بما هو مطلوب منهم. وتعرض عدد كبير منهم في فرنسا للقتل حرقاً، بينما ألقي بهم في جميع أنحاء اوروبا في السجون، أو جرى الإبقاء عليهم في حالة بؤس وفقر.

لقد كان من المهم بالنسبة للبابا أن تتعاون معه حكومة قبرص للقضاء على الداوية الذين اتخذوا من الجزيرة مقراً لهم وموطناً. وهذا ما حملهم على دعم إملريك للإطاحة بأخيه الملك هنري الثاني. فقام إملريك بمكافأة فرسان الداوية بتأمين الحماية لهم. فتوافر لهم بذلك ما يكفي من الوقت لتنظيم الدفاع عن أنفسهم، بقيادة مارشالهم (إيميه اوزيليه). على أنهم اضطروا للاستسلام في أول تموز - يوليو - سنة ١٣٠٨ م. بعد أن استخدموا السلاح لفترة قصيرة. وتقرر نقل أموالهم - باستثناء شطر كبير منها أتقنوا إخفاءه فلم يتيسر كشفه - من ليماسول إلى دار إملريك في نيقوسيا، بينما تم فرض

الحراسة على الفرسان في كافة المدن القبرصية. وتمكن الملك هنري الثاني من استعادة ملكه (في أيار - مايو - سنة ١٣١٠ م) فقرر محاكمة الداوية. وألقي بعدد كبير منهم في السجون حتى سنة ١٣١٣ حيث حضر مندوب بابوي حاملاً قرار البابا الذي تلاه على الأساقفة وكبار رجال الدين في الجزيرة. وهو القرار الذي كان قد صدر في ١٢ - آذار - مارس - ١٣١٢ م ونص على قمع طائفة الداوية، وتسليم كل ما لها من ثروة وأملاك للاسبتارية، بعد أن تحصل السلطات المدنية ما بذلته من نفقات على المحاكمات المختلفة. وأدرك الملوك في جميع أنحاء أوروبا أن هذه النفقات كانت باهظة جداً بحيث لم يحصل الاسبتارية إلا على جانب صغير من الأموال والممتلكات الحقيقية.

أضحت مملكة قبرص، بعد استئصال الداوية وهجرة الاسبتارية إلى رودس، هي الحكومة المسيحية الوحيدة التي اشتد اهتمامها بالحملات الصليبية. والمعروف أن ملك قبرص قد اعتبر من الناحية الإسمية ملكاً للقدس. وظل الملوك لأجيال عديدة تالية وهم يحرصون بعد أن يتم الاحتفال بتتويجهم ملوكاً على قبرص في نيقوسيا، على أن يتلقوا تاج مملكة القدس في (فاماغوستا) باعتبارها أقرب مدينة لمملكة القدس.

يضاف إلى ذلك أن ساحل بلاد الشام كان بالغ الأهمية من الناحية الاستراتيجية لجزيرة قبرص. إذ أن كل حكم على هذا الساحل ينزع إلى الاعتداء سوف يهدد حياتها. غير أن حاكم مصر والشام في تلك الفترة - الأشرف خليل - لم يكن يعتزم استخدام سواحل الشام للهجوم على قبرص، مما حمله على تدمير كل المناطق الساحلية حتى لا يستفيد منها الفرنج إذا ما قاموا بغزوة جديدة، وأصبحت المدن الساحلية في الشام مهجورة أو شبه مهجورة. وأفاد ملك قبرص هنري الثاني من ذلك، فأرسل في سنة ١٢٩٢ م قوة بحرية من خمس عشرة سفينة تساندها عشر سفن من لدى البابا، فأغارت على الاسكندرية. وكان الفشل من نصيب هذه الحملة التي زادت من تصميم الأشرف خليل على إعادة فتح قبرص. فأمر ببناء مائة سفينة وهو يهتف قبرص... قبرص... قبرص. ولكن الأشرف خليل كان قد أعطى الأفضلية لسحق المغول

وطردهم من بغداد، وتم اغتياله (في ٣١ كانون الأول - ديسمبر - ١٢٩٣ م) قبل أن يكمل مشاريعه.

واجه المماليك حكام مصر والشام - بقيادة السلطان الناصر محمد قلاون - هجوم المغول بقيادة قازان الذي كان قد استبدل لقب ايلخان بلقب السلطان بعد أن أشهر إسلامه. واستطاع قازان الانتصار على المماليك في سلمية قرب حمص (في ٢٣ كانون الأول - ديسمبر - ١٢٩٩ م) ثم أذعنت له دمشق بعد شهر، واعترفت بسيادته، فعاد إلى بلاد فارس بعد أن أعلن أنه لن يلبث أن يعود لفتح مصر. وعندما عاد قازان في سنة ١٣٠٣ م انتصر عليه المماليك في مرج الصفر. ثم عاد قازان في سنة ١٣٠٨ م فأغار من جديد على بلاد الشام، ووصل حتى القدس. وأشاع الفرنج أن قازان سيسلمهم القدس، ولكن مات قازان سنة ١٣١٦ م، ولم تتح للفرنج فرصة العودة إلى القدس، كما لم تفلح محاولاتهم للاتصال مع قازان والتحالف معه، وأفادت قبرص من انصراف المسلمين (المغول والمماليك) بعضهم لقتال بعض، فشرعت في الإعداد للحملة الصليبية المرتقبة والتي طال الإعداد لها.

عاد الحديث عن الحرب الصليبية ومخططاتها مع صعود (فيليب السادس)[1] لحكم فرنسا، حيث أظهر أنه أكثر صدقاً في نواياه وأكثر إخلاصاً لقضية الحرب من عمه فيليب الرابع. وأسرع البابا يوحنا الثاني والعشرين لتشجيع ملك فرنسا الشاب للمضي فيما أعلنه. وأسرع المتطوعون لتقديم نصائحهم ومواعظهم للبلاطين البابوي والفرنسي. فوضع طبيب ملكة فرنسا (جاي فيجيفانو) تقريراً عما تحتاجه الحملة من الأسلحة. على أن خطة تزيد اسهاباً وتفصيلاً أرسلها إلى ملك فرنسا أحد رجال الكنيسة (واسمه بوركارد) كان قد عمل على ضم الكنيسة الأرمنية في كيليكيا (قليقية) إلى روما. وعلى الرغم من وفرة اقتراحات بوركارد، إلا أنها لم تكن بالغة النفع للفرنج

---

(١) فيليب السادس دوفالوا: (PHILIPPE VI DE VALOIS) ابن شارل دوفالوا ومارغريت الصقلية وحفيد فيليب الجميل (١٢٩٣ - ١٣٥٠ م) أصبح ملكاً لفرنسا سنة ١٣٢٨ م، واصطدم بملك انكلترا ادوارد الثالث: (EDUARD III) الذي طالب بالحصول على عرش فرنسا بحجة أنه حفيد فيليب الجميل أيضاً، مما أدى إلى انفجار حرب المائة عام بين فرنسا وانكلترا.

الصليبيين، إذ أن ما أظهره من العداء والكراهية للمسيحيين الملحدين والانفصاليين - بزعمه - قد زاد على كراهيته للمسلمين، فاعتبر الإستيلاء على الصرب الارثوذكسية وعلى دولة الروم - البيزنطيين - هو الأساس لكل حملة صليبية. وعلى كل حال فقد أدى انشغال ملك فرنسا فيليب السادس بحرب المائة عام مع انكلترا، إلى انصرافه عن التفكير بأية حملة صليبية.

كان المؤرخ (مارينو سانودو) قد أعد في تلك الفترة مشروعاً ازداد اتساماً بالناحية العملية، ولم يتطلب حملة عسكرية ضخمة. والمعروف أن سانودو ينتمي إلى بيت دوقات ناكسوس، وتجري في عروقه الدماء اليونانية، وكان جاد الملاحظة، ومن رواد المشتغلين بالاحصاء. وشمل كتابه (أسرار الصليب المقدس)★ الذي صدر حوالي سنة ١٣٢١ م، تاريخاً للحروب الصليبية، وبرغم ما خالطه من أغراض الدعاية، فإنه اهتم أساساً بمناقشة تفصيلية للوضع الاقتصادي في شرقي البحر الأبيض المتوسط. ورأى (سانودو) أن أشد ما يضعف مصر هو فرض الحصار الاقتصادي عليها. غير أنه أدرك أنه ليس من المستطاع وقف التجارة فجأة مع الشرق، فلا بد من التماس طرق وموارد بديلة، ولا بد من أن تتعاون جميع الدول الأوروبية معاً، وهو أمر لم يكن من المستطاع وقتئذ تحقيقه.

لقد استمرت الروح الصليبية في البحث عن جسد ينفذ لها رغبتها، فلم تجده في ملوك الغرب. إلى أن عثرت على ضالتها في ملك قبرص (بطرس الأول) الذي تولى مقاليد الحكم سنة ١٣٥٩ م، والذي اعتبر أول ملك بعد ملك فرنسا لويس التاسع سيطرت عليه الرغبة واتقدت فيه الحماسة لإشعال نار ما أطلق عليه اسم (الحرب المقدسة).

وكان هذا الملك قد نظم وهو شاب طائفة جديدة من الفرسان، أطلق عليها اسم (فرسان السيف) وجعل هدفها الوحيد هو العمل لاستعادة القدس لحكم الصليبيين. وتحدى غضب وسخط أبيه الملك (هيو الرابع) بأن حاول الرحيل إلى الغرب ليظفر

(★) أسرار الصليب المقدس: (SECRETA FIDELIUM CRUCIS).

بمجندين لحملته الصليبية. وكان أول ما فعله بعد أن أصبح ملكاً هو اشعال نار الحرب مع الأتراك في الأناضول، حيث حصل على قاعدة له باستحواذه على حصن كوريكوس من الأرمن. ثم انطلق للقيام بجولة عامة في أرجاء العالم الغربي الصليبي (سنة ١٣٦٢ م). فبدأ بزيارة جزيرة رودس حيث حصل على وعد من طائفة الاسبتارية بالمساعدة، ثم انتقل - بحراً - إلى البندقية حيث لقي ترحيباً وتشجيعاً لمخططاته وأهدافه، وقام بزيارة ميلانو قبل أن يرتحل إلى جنوة، وانكب في جنوه على تسوية ما كان قائماً من خلافات بين مملكته (قبرص) والجمهورية الجنوية. وعندما وصل إلى (أفينيون) في ٢٩ - آذار - مارس - سنة ١٣٦٣ م، كان قد مضى عدد من الأشهر على اعتلاء (ايربان الخامس) عرش البابوية، فكان أول ما عمله هو الدفاع عن حقه في اعتلاء عرش قبرص إزاء هيو أمير الجليل - ابن أخيه الأكبر - فتقرر تعويض هيو بمرتب سنوي قدره خمسون ألف بيزنتة. وقدم في تلك الفترة إلى أفينيون ملك فرنسا يوحنا الثاني، فالتقى بملك قبرص بطرس، وأصدر الملكان بياناً أعلنا فيه اتفاقهما على الاشتراك في حملة صليبية. ومعهما عدد كبير من نبلاء فرنسا وقبرص. ووجه البابا ايربان الخامس في الوقت ذاته نداء للاشتراك في الحملة الصليبية، وعين الكاردينال تاليران مندوباً عنه. وتابع الملك بطرس جولته، فطاف بأقاليم الفلاندر وبرابانت وبلاد الراين. وعاد إلى باريس (في شهر آب - أغسطس) والتقى بالملك يوحنا مرة أخرى، فقررا بأن تتوجه الحملة إلى المشرق في شهر آذار - مارس - من السنة التالية.

غادر ملك قبرص بطرس الأول باريس فمر بمدينتي روان وكاين قبل أن يبحر إلى انكلترا حيث أمضى شهراً في لندن، تمَّ خلاله إقامة حفل كبير للمباراة في الفروسية تكريماً له. (في سميث فيلد) وأهداه الملك إدوارد سفينة رائعة اسمها (كاثرين) ومنحه مالاً لتغطية نفقاته التي صرفها حديثاً، على أن قطاع الطرق الانكليز سلبوه هذا المال وهو في طريق عودته إلى الساحل، ورجع إلى باريس ليمضي بها عيد الميلاد، ثم توجه جنوباً إلى أكيتانيا للاجتماع في مدينة بوردو (بالأمير الأسود). على أنه حزن عندما علم وهو في بوردو بوفاة الكاردينال تاليران (في كانون الثاني - يناير - ١٣٦٤ م) والذي تبعه ملك فرنسا يوحنا الذي مات في شهر أيار - مايو -. فذهب

ملك قبرص بطرس لتشييع جنازة الملك يوحنا في (سان دييه) وانتقل بعدها إلى (ريمس) لحضور حفل تتويج ملك فرنسا الجديد (شارل الخامس). ومضى بعدئذ إلى ألمانيا، حيث تقدم إليه سكان مدينتي (ايسلنجن وايرفورت) وفرسانها بطلب اشراكها في الحملة الصليبية، على أن حاكم فرانكونيا ودوق ساكسونيا (رودولف الثاني) أعلماه أن قرارهما للاشتراك في الحملة رهن بموافقة الامبراطور. وعندئذ توجه في صحبة رودولف إلى براغ، حيث كان يقيم الامبراطور شارل، وأظهر شارل الحماسة، ورافق ضيفه إلى كراكاو، حيث عقد مؤتمراً مع ملك بلاد المجر وبولندا، فتقرر توجيه نداء إلى جميع أمراء الامبراطورية للاشتراك فيما قيل عنه (الحرب المقدسة).

قام بطرس الثاني بزيارة لعاصمة النمسا ـ ڤيينا ـ حيث حصل من دوق النمسا على وعد بتقديم مساعدة إضافية، ثم انتقل إلى البندقية (في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٣٦٤ م) حيث استقبل فيها بجفاوة بالغة، نظراً لما قدمه جيشه من مساعدة للبنادقة ـ منذ فترة قريبة ـ وذلك لاخماد نار فتنة اندلعت في جزيرة كريت. وأقام بالبندقية حتى حزيران ـ يونيو ـ ١٣٦٥ م، وعقد أثناء مقامه بها معاهدة مع جنوة لتسوية جميع الاختلافات البارزة.

دأب البابا إيربان على العمل دونما كلل في تلك الفترة، فكتب إلى أمراء أوروبا وحثهم على الاشتراك في الحملة، ولقيت جهوده دعماً قوياً من المندوب البابوي الجديد في الشرق (بطرس سالينياك دي توما ـ وهو البطريرك الاسمي للقسطنطينية) وهو رجل قوي الشخصية، شديد المعارضة للملحدين والمنشقين والمسلمين. على أن ما اتصف به من التفاني والاخلاص لقضية الصليبية، جعله موضع الاحترام حتى من اولئك المسيحيين الذين اضطهدهم. واشترك معه في النشاط تلميذه (فيليب مزيير) الصديق الحميم لملك قبرص بطرس، والذي سبق أن عينه رئيس ديوان الانشاء في قبرص. ولكن كل ما بذلاه من جهد لم ينجم عنه من أعداد العساكر ما كان الملك بطرس يتوقعه، وما سبق أن وُعد به. فلم يصل مقاتلين من ألمانيا، ولم يأت أحد من كبار النبلاء في فرنسا وانكلترا والبلاد المجاورة، باستثناء من جاء من (أيميه) أمثال كونت جنيفا، ووليم روجر، وفيكونت تيرين وإيرل هيرفورد. على أن عدداً كبيراً من

صغار الفرسان قد جاؤوا، بل إن منهم من قدم من جهات نائية مثل اسكتلنده، فاجتمع في البندقية قبل أن يغادرها الملك بطرس جيش ضخم بالغ الخطورة، وما أسهم به البنادقة في هذا الجيش كان كبير النفع غير أن الجنويين تقاعسوا. تقرر أن تحتشد الحملة الصليبية في شهر آب ـ أغسطس ـ سنة ١٣٦٥ م في جزيرة رودس، ولكن وجهتها المقبلة ظلت في طي الكتمان، إذ أن ما قد يفضي به أحد تجار البندقية (فينيسيا) من أنباء إلى المسلمين، قد يتسبب للحملة بأخطار شديدة. ووصل الملك بطرس في بداية شهر آب ـ أغسطس ـ وأبحر كل الاسطول القبرصي الى الميناء في ٢٥ ـ آب ـ أغسطس ـ وقد ضم هذا الاسطول ثماني ومائة سفينة ـ ما بين سفينة كبيرة وسفينة نقل وسفن تجارية وزوارق خفيفة. وانضم الى هذه السفن مجموعة أخرى أرسلها الاسبتارية من جزيرة رودس، فبلغ مجموع سفن الاسطول خمس وستين ومائة سفينة. وأقلت هذه السفن حمولة كاملة من الرجال، مع عدد كبير من الخيول، ومقادير وافرة من المؤن والأسلحة، حتى قيل بأنه لم يحشد منذ الحملة الصليبية الثالثة قوة كمثل هذه التي حشدها الملك بطرس. ومع أنه خاب رجاء الملك بطرس في اشتراك كبار الأمراء من الغرب. فإن ذلك قد حقق ميزة وهي أن الملك بطرس أصبح القائد الأوحد للحملة، وهو صاحب القرار في كافة شؤونها. وكتب الملك بطرس إلى الملكة اليانور أراغون، بأن كل شيء أضحى جاهزاً، وأصدر في الوقت ذاته أمراً إلى رعاياه في سوريا ينذرهم باقتراب العودة إلى الوطن، ويمنعهم من ممارسة التجارة بها، وأراد من وراء ذلك أن يعتقد الناس أن سوريا هي هدفه. وألقى البطريرك بطرس من السفينة الملكية موعظة مثيرة على الملاحين المحتشدين (يوم ٤ تشرين الأول ـ اكتوبر) فهتف الملاحون والحشد:

«يعيش، يعيش بطرس ملك بيت المقدس وقبرص، رغم أنف العرب المسلمين الكفرة».

وأقلع الأسطول في ذلك المساء، ولما أضحت جميع السفن في عرض البحر، جرى الإعلان أنها تقصد الإسكندرية بمصر.

كان يحكم المماليك في تلك الفترة السلطان الأشرف شعبان بن قلاون، وكان صبياً

لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، فكانت السلطة بيد الأمير يلبغا. وكذلك كان والي الاسكندرية (خليل بن عرام) يؤدي فريضة الحج، فناب عنه في حكم الاسكندرية الأمير جنغره، وكانت حامية المدينة ضئيلة العدد، ولا تكفي للدفاع عنها. ولكن أسوار الاسكندرية كانت بالغة القوة والمنعة، وتمتد بضخامتها على واجهة الميناء.

وصل اسطول الفرنج الصليبيين إلى مياه الاسكندرية مساء يوم ٩ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٣٦٥ م، واعتقد أهالي المدينة لأول وهلة أنه اسطول تجاري كبير، ولكنهم بوغتوا في صبيحة اليوم التالي عندما دخلت سفن الاسطول إلى الميناء الغربي، ولم تدخل الميناء الشرقي المخصص لسفن غير المسلمين. فأسرع الوالي جنغره لحشد رجاله على حافة الساحل في محاولة لمنع الفرنج من النزول إلى اليابسة. ولكن فرسان الفرنج استطاعوا شق طريقهم إلى الساحل رغم المقاومة الضارية للمقاتلين المغاربة. وبدأ الفرنج هجومهم على الفور على السور الغـربي، إلا أن الحامية المدافعة عن السور ردت قوات الهجوم على أعقابها. فنقلت هذه القوات هجومها إلى السور الشرقي حيث كانت المقاومة أضعف، ونجح الهجوم، وتمكن جند الفرنج من الوصول إلى قلب المدينة ظهر يوم الجمعة (١٠ تشرين الأول - اكتوبر). وظل القتال على أشده في الشوارع. وشن المسلمون هجوماً عنيفاً في الليل - عبر البوابة الجنوبية. ولكن الفرنج نجحوا في صد الهجوم المضاد واحباطه. وتمكنوا من إحكام قبضتهم على المدينة في ظهر اليوم التالي (السبت ١١ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٣٦٥ م).

احتفل الفرنج الصليبيون بانتصارهم بما ارتكبوه من وحشية لا مثيل لها، وما وقع من أحداث خلال الحملات الصليبية التي استمرت طوال مائتي وخمسين عاماً لم تعلم الفرنج شيئاً عن الإنسانية في الحرب. فما أجروه من المذابح لم يضارعها سوى تلك التي حدثت في القدس سنة ١٠٩٩ م، وفي القسطنطينية سنة ١٢٠٤ م.

كانت الاسكندرية قد امتلكت ثروة ضخمة، فاهتاج جنون الفرنج عندما شهدوا هذه الغنيمة الوفيرة، وأقبلوا على نهب المتاجر والمحلات والمستودعات والدور، وأغار الغزاة على المساجد والمقابر، فسلبوا ودمروا كل ما استطاعوا سلبه وتدميره. ودخل الفرنج المنازل يقتلون وينهبون. وجرى حمل ما اختاروه من السبي لبيعه رقيقاً. وما

حازه الفرنج من المتاع، حمله قطار طويل من الخيول والإبل إلى السفن الراسية بالميناء، وعبقت كل المدينة بالرائحة الكريهة الصادرة من جثث البشر والحيوان.

حاول الملك بطرس عبثاً أن يعيد الأمن إلى نصابه، إذ كان يأمل أن يحتفظ بالمدينة ولكن جند الفرنج الذين لم يفكروا وقتئذ إلا في أن يحملوا إلى بلادهم بكل ما تهيأ لهم من سرعة ما حصلوا عليه من الغنائم، عملوا على إحراق أبواب الاسكندرية، ودمروا الجسر الواقع على القناة الكبيرة والذي يجتازه الطريق المؤدي إلى القاهرة. وعلم الفرنج أن جيش المسلمين قد تحرك من القاهرة. فأظهروا عدم الرغبة بالاشتباك معه، وتقدم شقيق ملك قبرص إلى أخيه بطرس فأعلمه بأنه ليس بالمستطاع الاحتفاظ بالمدينة، بينما أشار الفيكونت تيرين ومعظم الفرسان الانكليز والفرنسيين إلى أنهم لن يبقوا بعدئذ في المدينة. وضاعت هباء كافة الاحتجاجات التي أطلقها الملك بطرس والمندوب البابوي. وهكذا لم يبق في الاسكندرية حتى يوم الخميس (١٦ تشرين الأول - اكتوبر) إلا عدد قليل من أفراد الجيش القبرصي، بينما عاد معظم أفراد الحملة إلى السفن استعداداً للرحيل. ولم يعد بإمكان بطرس، وقد علم باقتراب جيش المسلمين، إلا أن يصدر أمره بالجلاء عن المدينة، واستقل سفينته، وبلغت حمولة السفن من الثقل أنه كان لا بد من إلقاء مقادير كبيرة من الغنيمة إلى البحر، وظل الغطاسون المصريون شهوراً يستخلصون التحف الثمينة من المياه الضحلة في خليج أبي قير.

أودع الملك بطرس والمندوب البابوي ما حصلا عليه من الغنائم في جزيرة قبرص، وإذا طمأنا إلى ما أودعاه، عاد الأمل فراودهما في أن ينهض الغرب الصليبي مرة أخرى لمرافقتهما في حملة جديدة. غير أن جند الفرنج شرعوا في الاستعداد للرحيل لأوطانهم في الغرب، بمجرد وصولهم إلى فاماغوستا. وتجهز المندوب البابوي لاقتفاء أثرهم، كيما يظفر بمجندين جدد ليحلوا محلهم. غير أن الموت اختطفه قبل أن يغادر جزيرة قبرص. وأقام الملك بطرس قداس الشكر، عند عودته إلى نيقوسيا، غير أن قلبه كان كسيرا جريحا، فانطوى تقريره إلى البابا عما أحرزه من انتصار، وما أصابه أيضاً من خيبة أمل مريرة.

استقبل الغرب أنباء نهب الاسكندرية استقبالاً مثيراً، فجرى التهليل له في بداية

الأمر على أنه انتصار حربي على المسلمين، وابتهج البابا وقرر دعم ملك قبرص مباشرة بقوات تحل محل تلك التي فضلت الرجوع إلى أوطانها. وقطع ملك فرنسا شارل على نفسه وعداً بارسال جيش من أشهر فرسانه (برتراند دي جويسلين) وكونت سافوي (أماديوس) المعروف في القصص باسم (الفارس الأخضر) الذي كان يستعد للرحيل إلى الشرق، فقرر أن يرحل إلى جزيرة قبرص. وتصادف في تلك الفترة أن أشهر البنادقة أمر الصلح الذي عقده ملك قبرص مع سلطان مصر. فعمل الملك شارل على استدعاء جيشه، وتوجه جويسلين للقتال في الاندلس، بينما مضى أماديوس إلى القسطنطينية.

اختلف البنادقة عن البابا في أنهم لم يرتاحوا لما أسفرت عنه الحملة الصليبية من نتيجة، إذ كانوا يأملون في توطيد مركزهم التجاري في بلاد المسلمين. ولكن حدث عكس ذلك، فما كان لهم من أملاك كثيرة في الاسكندرية تعرضت للدمار، فضلاً عن توقف كل تجارتهم مع مصر. فكاد نهب الاسكندرية يدمرهم باعتبارهم دولة تجارية. وابتهج لذلك الجنويون الذين ظفروا بالمكافأة لامتناعهم عن الاشتراك في الحملة. ولم يلبث جميع الغرب أن تأثر بنتائج الحملة الصليبية، إذ ارتفعت أثمان التوابل والمنسوجات الحريرية وسائر المتاجر الشرقية التي ألفها الناس في الغرب واعتادوا عليها.

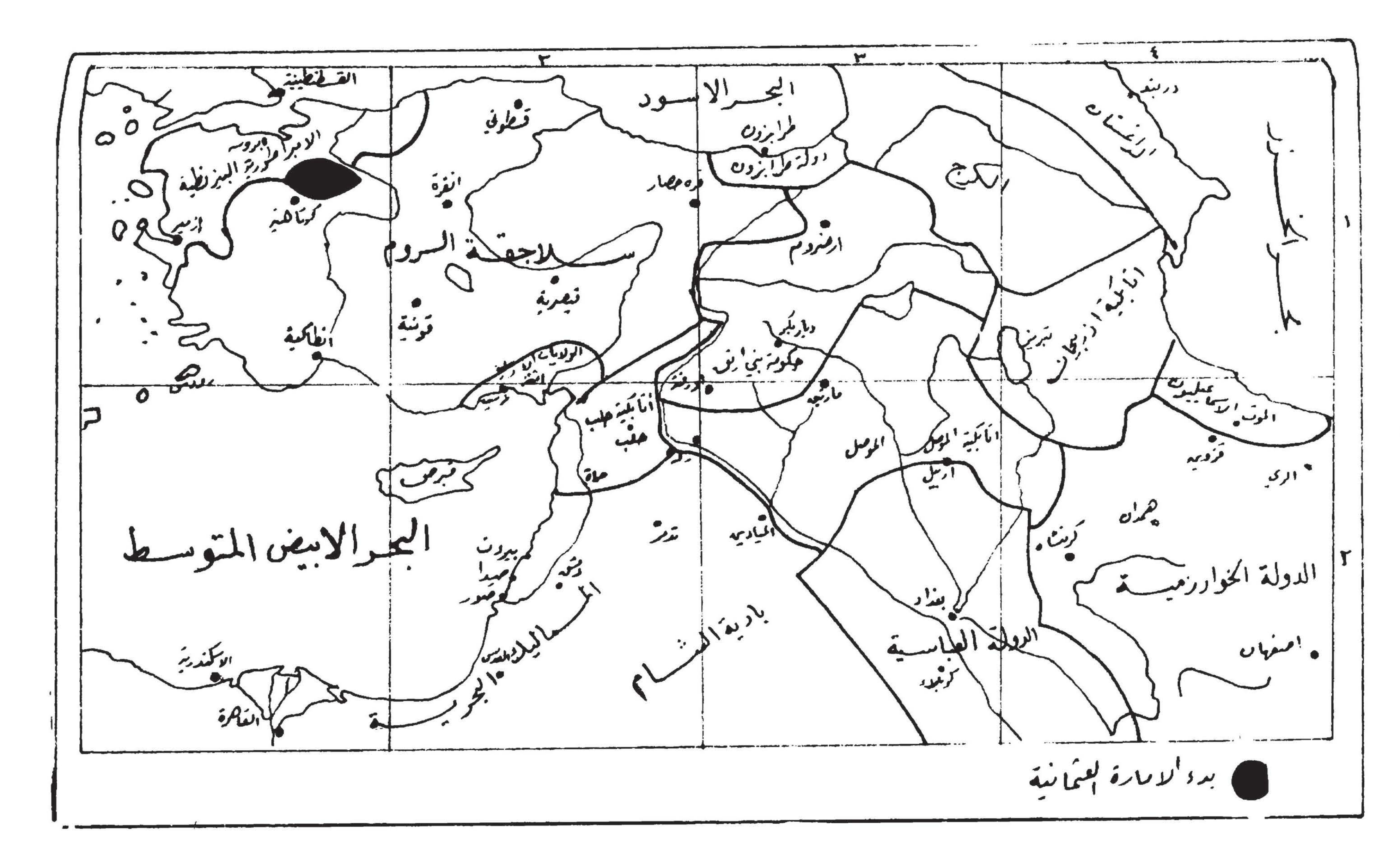
شرع ملك قبرص - بطرس - في إجراء المفاوضات مع مصر، غير أن تجدد العدوان ترك مرارة عميقة في النفوس أعاقت عقد الصلح، إلا أن المفاوضات استمرت، وكان هدف مصر هو إطالة أمد المفاوضات ريثما يتم الانتهاء من بناء الاسطول وغزو قبرص. ويظهر أن الملك بطرس كان يرغب بدوره في كسب الوقت والماطلة، ولهذا فقد اشتط في طلباته مقابل التخلي عن البلاد المقدسة - التي لم يكن يملكها إلا بزعمه -. وقام بغزوات على سواحل بلاد الشام للضغط على حكام المسلمين. غير أن هوسه بالحرب الصليبية أخذ يزعج رعاياه الذين خافوا على استنفاذ موارد الجزيرة في قضية ضاع الأمل في تحقيقها. فلما أعد أحد فرسان بطرس أمر اغتياله سنة ١٣٦٩ م، لم ينهض أحد حتى إخوته لانقاذه. وانعقدت معاهدة الصلح مع

المماليك في مصر ـ في السنة التالية ـ فتم تبادل الأسرى، وتوصلت مصر وقبرص إلى صلح قلق.

اعتبرت مذبحة الاسكندرية، بأنها النهاية أو الفصل الختامي لتلك الحملات الصليبية التي جعلت من استرجاع الأرض المقدسة هدفاً مباشراً لها. وهناك شك ما إذا كانت هذه الحملة قد خدمت مصلحة العالم المسيحي، حتى لو تعلقت آمال جميع الصليبيين بها، بمثل ما تعلقت بها آمال الملك بطرس. فعندما جرت الحملة، كان قد مضى زهاء نصف قرن ومصر تعيش مع الفرنج في حالة من السلام، وخفت حدة التعصب التي اشتهر بها المماليك من قبل، وتحسنت معاملتهم لرعاياهم المسيحيين، وأضحى الحجاج الفرنج أحراراً في التوجه إلى الأماكن المقدسة. وراجت التجارة بين الشرق والغرب. وأما ما حدث من مذبحة في الاسكندرية، فقد بعث الكراهية من جديد، فتعرض المسيحيون من جديد للاضطهاد، ونزل الدمار بكنائسهم، وأغلقت كنيسة القيامة أبوابها لمدة ثلاث سنوات. وأما مملكة قبرص التي سبق للمماليك المسلمين أن أظهروا استعدادهم للتساهل في الابقاء عليها، فإنها أضحت عدواً يجب استئصاله. وظلت مصر تنتظر ستين سنة للأخذ بالثأر. فما حلّ بجزيرة قبرص سنة ١٤٢٦ م، من تخريب مريع، لم يكن إلا عقاباً مباشراً لما سبق أن تعرضت له الاسكندرية من النهب.

لقد اعتبرت الحملة الصليبية التي قادها الملك بطرس بأنها خطأ تاريخي، وأنها جاءت ضد تيار الزمن، إذ أنها حملت العالم الصليبي الغربي أخطر النتائج، في وقت كان هذا العالم يحتاج توجيه الجهد لتحقيق أهداف أخرى. فقد كانت أنظار الغرب تتجه نحو جبهة أخرى وهي جبهة الأناضول (آسيا الصغرى). فالذين وضعوا مخططات الحملة الصليبية الأولى، عرفوا أن الوصول إلى بلاد الشام والقدس انما يرتبط بالسيطرة على با د الأناضول. غير أنه ما من أحد من رجال السياسة في الغرب، منذ وفاة البابا ايربان الثاني، توافر له من الحكمة والتعقل ما يجعله يدرك أن الاحتفاظ ببلاد الأناضول يعتمد على قوة دولة الروم ـ البيزنطيين ـ. على أن التحركات الصليبية في القرن الثاني عشر، حيرت الامبراطور البيزنطي وجعلته يصرف جهده لمواجهة تهديد الفرنج الصليبيين ـ الغرب ـ. الأمر الذي أفسح المجال أمام الأتراك لتوطيد

مركزهم في آسيا الصغرى (الأناضول). وعندما أدرك الامبراطور البيزنطي، وأدرك معه ملوك الغرب أن الموقف قد بات أشد خطورة مما كانوا يتوقعونه، جاء بطرس ملك قبرص فقاد حملته إلى الاسكندرية، فكان ذلك بمثابة شرف لا يمكن احتماله. غير أن الضجيج الانفعالي الذي رافق الحملة استطاع حجب حقيقة الموقف، وعندما زال الضجيج، وظهرت حقيقة الموقف، شعر الغرب بالندم، وظن أن باستطاعته تصحيح ما وقع فيه من الخطأ عن طريق إعادة توجيه الجهد لقتال الأتراك المسلمين.



القسطنطينية
البحر الاسود
طرابزون
دولة طرابزون
قسطموني
انقرة
قره حصار
الكرج
الامبراطورية البيزنطية
بروسه
كوتاهية
ازمير
سلاجقة الروم
ارضروم
قيصرية
قونية
انطاكية
ديار بكر
حكومة بني ارتق
تبريز
اتابكية اذربيجان
ماردين
اتابكية حلب
حلب
حماة
قبرص
الموصل
اتابكية الموصل
اربيل
قزوين
الري
همدان
كرمنشاه
البحر الابيض المتوسط
تدمر
بيروت
صيدا
صور
الدولة الخوارزمية
بادية الشام
بغداد
الدولة العباسية
كربلاء
اصفهان
الاسكندرية
القاهرة
المماليك البحرية
بدء الامارة العثمانية

٢ ـ العثمانيون يحملون راية الجهاد.

لم تعرف مناطق التخوم الفاصلة بين بلاد الشام وبين بلاد الروم ـ البيزنطيين ـ. لا الهدوء ولا الاستقرار لفترات طويلة، وبقيت هذه التخوم هي مسرح الصراع المسلح بين غزاة المسلمين المجاهدين في سبيل الله، وبين مرتزقة الروم. ومضت قرون ـ منذ الأيام الأولى للفتح ـ وقوات الطرفين المتصارعين تجتاح الحدود غير المعترف بها للجانبين، للتوغل عميقاً في بلاد العدو، فكان النصر في معظم الأحيان حليفاً للمجاهدين، ولكن أحداً لم يتمكن من حسم الصراع حسماً نهائياً. فتشكلت عند حدود الصراع جماعات من مجاهدي المسلمين وجند الروم، استطاعت التعايش مع هذا النوع من (اللاسلم واللاحرب) إذا ما جاز التعبير. حتى إذا ما جاء الأتراك السلاجقة، ورفعوا قواعد دولتهم، جابهوا تهديدات الروم، مما أرغم ألب أرسلان لقيادة جيش صغير عبر الأناضول، وأمكن له الانتصار على قوات الامبراطور البيزنطي (رومانوس ديوجين) في معركة (ملاز كرد) الشهيرة سنة ٤٦٤ هـ = ١٠٧١ م ووقع الامبراطور ذاته أسيراً في قبضة السلطان ألب أرسلان الذي أطلق سراح خصمه، وأكرمه، بعد أن عقد معه صلحاً شريفاً. غير أن استمرار الصراع، وعزل رومانوس ديوجين عن منصبه وعدم اعتراف الروم بالصلح الذي عقده مع ألب أرسلان، دفع بالسلطان (ملكشاه بن ألب أرسلان) إلى توجيه قوات جديدة من الأتراك الى آسيا الصغرى (الأناضول ـ في السنة التالية (٤٦٥ هـ = ١٠٧٢ م) فقام قائد هذه القوات (سليمان بن قتلمش) بقيادة هجوم جريء اجتاح فيه الجزء الشمالي الغربي من آسيا الصغرى، وطرد منه الروم البيزنطيين، واتخذ من (نيقية) عاصمة له (سنة ٤٧٤ هـ = ١٠٨١ م). غير أن الأتراك السلاجقة لم يتمكنوا من الاحتفاظ بما حصلوا عليه، فقد عاجلتهم الحملة الصليبية الأولى، وانتزعت منهم نيقية وقسماً من ممتلكاتهم في الأناضول (سنة ٤٩١ هـ = ١٠٩٧ م) فانصرف سليمان بن قتلمش إلى

الشرق ليعوض عمّا خسره من بلاده في الغرب. وجاء ابنه (قلج أرسلان) فعمل على إقامة قاعدة جديدة له في الجنوب الشرقي من الأناضول - إلا أنه اصطدم. بزعيم تركي آخر (اسمه دانشمند) كان قد استطاع أن يوطد سلطانه في (سيواس) وتوسع في الشمال فضم إليه أنقره وأماسية وانكسار، وحتى (ألبستان) جنوباً، وانتزع من غبريئيل الأرمني مدينة (ملطية) في سنة ٤٩٥ هـ = ١١٠١ م. وهكذا لم يتمكن قلج أرسلان من الاستيلاء على ملطية، وتوطيد سلطته في (ميافارقين) إلا بعد وفاة زعيمه المنافس - دانشمند - سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م. حيث تابع قلج أرسلان سياسة أبيه في السيطرة على شرق الأناضول، إلا أنه لم يلبث أن لقي حتفه فيما كان يتقدم الى الموصل - في معركة نشبت على ضفاف الخابور (سنة ٥٠١ هـ = ١١٠٧ م).

توطدت سلطة الأتراك السلاجقة في الأناضول (آسيا الصغرى) ومضى مسعود بن قلج أرسلان لتنظيم أمور دولته وحمايتها وتنظيم الدفاع عنها. واستطاع الامبراطور الالماني فريدريك بربروسا الاستيلاء على قونية، غير أنه قضى نحبه في لجج نهر اللامس في قيليقيه، بينما كان يتقدم نحو فلسطين في الحملة الصليبية الثالثة، وبذلك لم يتمكن فريدريك بربروسا من الاحتفاظ بقونية لأكثر من أربعة عشر يوماً (١٨ - ٢٦ أيار - مايو سنة ١١٩٠ م = ٥٨٦ هـ) إذ أسرع السلطان مسعود لاستعادتها وطرد الفرنج منها وتوطيد حكم المسلمين فيها.

لقد عرف السهل الممتد من قونية حتى قيسارية (قيصرية) بخصبه الكبير، وعندما أقام الأتراك السلاجقة دولتهم، تركوا لمن استوطن من الروم حريتهم، شأنهم في ذلك كشأن أسلافهم من العرب المسلمين، وظلت مملكتهم تدعى (الروم) بوصفها أرضاً بيزنطية قديمة. وقد حاول الامبراطور البيزنطي (ايمانويل - أو عمانوئيل) استعادة السيطرة على أقاليم الشرق، فتصدى له قلج أرسلان الثاني ابن مسعود، وهاجمه بصورة مباغتة في مضيق جارداق، ووقعت مجموعة من المعارك ضد الروم البيزنطيين وحلفائهم الأرمن انتزع منهم ملطية (سنة ٥٧٣ هـ = ١١٧٧ م) وقضى على دولتهم (سنة ٥٧٦ هـ = ١١٨٠ م) وبذلك أمن حدود بلاده ضد كل عدوان بيزنطي.

أفاد الأتراك السلاجقة من ضعف دولة الروم، واستيلاء الفرنج الصليبيين على

عاصمتها القسطنطينية (سنة ٦٠٣ هـ = ١٢٠٣ م). فقاد كيخسرو وابنه كيكاوس جيشهما وعملا على توسيع الدولة على اتجاهي الشمال والجنوب، واستوليا على (أطاليه - أو أنطالية) و(سينوب) وهما ثغران هامان أولهما على البحر الأبيض المتوسط وثانيهما على البحر الأسود. وبذلك انفتحت مملكتهما للتجارة العالمية، واستطاعت بما عقدت من معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية أن تفيد من المقايضة بمحاصيلها الزراعية الوافرة، مما ساعد على ازدهار الصناعات اليدوية الفنية، وتطوير فن العمارة، التي أصبحت مدرسة تعلم منها الغرب عن طريق إرمينية والروسيا.

لقد استنزفت الحروب المستمرة قدرة الدولة التركية - السلجوقية - وتوافر لها من الثروة ما ساعدها على استخدام المجندين المرتزقة من الروم والأرمن. مما زاد الدولة ضعفاً على ضعفها، ولهذا لم تتمكن من مقاومة اجتياح المغول الذين اقتحموا أبواب آسيا الصغرى، وأنزلوا بقوات كيخسرو الثاني هزيمة منكرة (في قوز طاغ سنة ٦٤١ هـ = ١٢٤٣ م) مما أرغم كيخسرو على دفع غرامة ثقيلة للمغول، وعندما توفي سنة ٦٤٣ هـ = ١٢٤٥ م نشب صراع بين ولديه عزّالدين وركن الديـن. فتدخل هولاكو بينهما، وحدد الخط الممتد على طول نهر (قِزِل إرماق) حداً فاصلاً بين ممتلكات كلٍ منهما. وعمل عزّ الدين على التحالف مع المماليك الذين نجحوا في كسر شوكـة المغول (في عين جالوت). فتدخل المغول وطردوه من مملكته، وفرضوا على أخيه ركن الدين رقابة صارمة (تولاها عامل مغولي اسمه بَرْوانه) ولم يلبث هذا العامل حتى عمل على خلع ركن الدين، وانفرد بالحكم بصفته وصياً على غياث الدين ابن ركن الدين. وعندها استنجد أمراء الأتراك السلاجقة بالسلطان الظاهر بيبرس الذي قاد جيشه وهزم المغول عند (ألبستان) سنة ٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م. واندفع فاتحاً حتى بلغ قيساريه. وعندما رجع - بيبرس - إلى بلاد الشام، تقدم جيش مغولي بقيادة أباقا، فأنزل أشد العقاب بالامراء الاتراك. وبذلك قضى على دولة السلاجقة.

لم تخمد روح الجهاد في سبيل الله بالقضاء على السلاجقة على أيدي المغول التتار، فعندما كان الفرع الوثني من هؤلاء المغول يجتاح بلاد الشام بعد أن دمر الخلافة العباسية، كان هناك فرع آخر قد اعتنق الإسلام (القبائل الذهبية) واستقر في القرم.

وجاء في أعقاب هؤلاء المغول دفق جديد من الدم التركي الذي قذفه جوف آسيا نحو آسيا الصغرى. وضمت هذه الموجة من الترك ـ كما هي العادة ـ رجال تفقهوا في الدين وآخرون ممن اختاروا حمل السيف، فنزلوا في بلاد الأناضول، وعندها وجدوا أنفسهم في مواجهة التحدي الصليبي ـ البيزنطي ـ. وبذلك اجتاح الأتراك غربي آسيا الصغرى من جديد، وأقام قادة الجهاد في سبيل الله دويلات مستقلة لهم في مختلف المقاطعات. فنزل (القرمانيون) في ليقاؤونية القديمة وايسوريا. ونزل (الكرمانيون) في كوتاهية، واستقر (الحميديون) في ميسيه. و(الصاروخان) في مغنيسية. وبينما كانت هذه الإمارات تتوسع براً، كانت هناك واحدة من أقدم هذه الإمارات وأعظمها شأناً قد نشأت نشأة بحرية، فقد اندفع الأتراك بزعامة قبيلة المنتشا من سواحل ليقية وبمفيلية، الى قاريا (منتشا). وتوغلوا في حوض نهر مندرس، ثم اجتاحوا شواطىء بحر إيجه، وفتحوا جزيرة رودس حتى استولى عليها فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) سنة ٧١٠ هـ = ١٣١٠ م. وكان ذلك تحولاً جديداً في الصراع، فالمعروف أن الجمهوريات الايطالية اهتمت منذ زمن طويل بجزائر بحر إيجه. فكان من الطبيعي أن يمتد اهتمامهم، واهتمام العالم اللاتيني بأكمله إلى البر المواجه لهذه الجزائر. فلما قام حاكم ايدين الأمير عمر، والذي سيطر على إزمير والتي تعتبر مرفأ بالغ الروعة بتنظيم اسطول للعمل في مياه بحر إيجه، بادر البنادقة وفرسان الاسبتارية في رودس باتخاذ إجراء لمناهضته، ففي سنة ٧٤٥ هـ = ١٣٤٤ م توجه لمهاجمة أزمير اسطول أسهمت فيه البندقية وتوابعها بعشرين سفينة، وبذل فرسان الاسبتارية ست سفن، كما قدم كل من البابا وملك قبرص أربع سفن. وتولى قيادة الاسطول بطريرك القسطنطينية (هنري أستي). وتعرض أمير آيدين للهزيمة البحرية في معركة وقعت مقابل مدخل خليج أزمير. ثم تابعت قوات الحملة تحركها، فوصلت الى أزمير، وهاجمتها، واستولت عليها بعد معركة قصيرة، غير أن القلعة ظلت صامدة. وحاولت قوات الحملة التوغل في الإقليم فتعرضت لهزيمة ساحقة على بعد بضعة أميال من المدينة (أزمير). وحاولت القوات التركية استعادة المدينة، ففشلت، وانتهى الأمر بعقد معاهدة في سنة ٧٥١ هـ = ١٣٥٠ م. ظلت بموجبها القلعة بأيدي الأتراك، واحتفظ الاسبتارية بالمدينة

«وبقيت تحت حكمهم إلى أن انتزعها منهم تيمور الأعرج (تيمورلنك) سنة ٨٠٥ هـ = ١٤٠٢ م).

كان العثمانيون من بين أولئك الأتراك الذين حملوا راية الجهاد في سبيل الله ضد الروم البيزنطيين، فحالفهم الحظ بتحقيق نجاحات رائعة. وتذهب الرواية التاريخية التي تعرض لنشأتهم إلى أن عشيرة قايي - إحدى قبائل الغز التركية - اضطرت إلى أن تتراجع في وجه المغول المجتاحين لأراضي خراسان، وتلتمس الحماية من خوارزم شاه جلال الدين منكبرتي الذي هداها إلى المراعي القائمة في شمالي غربي إرمينية. حتى إذا صرع حاميهم، عزم زعيمهم سليمان على العودة بهم إلى نجاد آسيا الوسطى. ولكنه لم يلبث أن قتل فيما هو يضرب في البلاد، عند مخاضة على الفرات قرب مشارف حلب. فانقلب ابنه (أرطغرل) بالقسم الأصغر من القبيلة - على الأقل - وهو يضم نحواً من مائة أسره - ومضى نحو بلاد العجم، وعندها وقع الحدث الذي رسمه القدر لمستقبل **(أرطغرل بن سليمان شاه التركماني)** ولمن كان معه. إذ بينما كان أرطغرل ذات يوم يعتلي مرتفعاً من الأرض، ليمتع نظره فيما حوله، إذ وقع نظره على قوتين تخوضان صراعاً مريراً، وكان لا بد لهذا المشهد من أن يستثير حمية الرجل المحارب، وعندما شاهد إحدى القوتين وقد اقتربت من حافة الهزيمة، هبّ ورجاله لنجدتها ودعمها، وهاجم القوة الثانية بقوة وشجاعة عظيمتين حتى وقع الرعب في قلوب الذين كادوا يفوزون بالنصر، وأعمل فيهم قتلاً وأسراً، حتى هزمهم شرّ هزيمة.

لم تكن القوة التي دعمها أرطغرل وانتصر لها ونصرها، سوى جيش سلطان قونية (إحدى الإمارات السلجوقية) الأمير علاء الدين. فكافأه علاء الدين على مساعدته له بإقطاعه عدة أقاليم ومدن، وصار لا يعتمد في حروبه مع مجاوريه إلا عليه وعلى رجاله، وكان يقطعه عقب كل انتصار مزيداً من الإقطاعات والأموال. ثم لقب قبيلته بمقدمة السلطان، لوجودها دائماً في مقدمة الجيوش، وتحقيق النصر على أيدي رجالها الشجعان.

ولما توفي أرطغرل سنة ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م، عين الملك علاء الدين أكبر أولاده مكانه، وهو (عثمان بن أرطغرل)[١].

لم تكن حدود اقطاع أرطغرل تتجاوز منطقة المستنقعات الواقعة في مواجهة بلاد لروم البيزنطيين ـ عند سكود في وادي الفرات الغربي (قره صو) وجبلي طو مانيج ,أرمني طاغ. فكان أول ما فعله عثمان عندما تولى الحكم بعد أبيه أن قاد قواته، وقام بفتح (قره جه حصار)[٢] سنة ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م. ونقل مقره من سكود إلى قره جه حصار التي تقع الى مسافة أبعد نحو الجنوب، والتي كانت تحمل اسم (ملانجنون) وحصل عثمان (من السلطان علاء الدين) على امتيازات جديدة، ومنحه لقب (بك) وأقطعه كافة الأراضي والقلاع التي فتحها، وأجاز له ضرب السكة (النقود) وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة، وبذلك صار عثمان بك ملكاً بالفعل لا ينقصه إلا اللقب.

أغار المغول التتار على آسيا الصغرى سنة ٦٩٩ هـ = ١٣٠٠ م وقتلوا السلطان علاء الدين (في قونية) وقتلوا ابنه غياث الدين، فانفتح المجال لعثمان للاحتفاظ بجميع الأراضي التي كان يحكمها، ونقل مقره إلى (يكي شهر)[٣] وأخذ في تحصينها وتحسينها، ثم أخذ في توسيع دائرة مملكته نحو (أزميد) ثم (أزنيك)[٤] ولما لم يتمكن

---

(١) عثمان بن أرطغرل: (٦٥٦ ـ ٧٢٦ هـ = ١٢٥٨ ـ ١٣٢٦ م) اعتبر أول الخلفاء السلاطين العثمانيين، وإليه تنسب الدولة العثمانية، اشتهر بشجاعته وسداد رأيه تزوج من مال خاتون ـ ابنة شيخ الصوفيه (أده بالي). ولقب نفسه بلقب (باديشاه آل عثمان) وشاه تعني ملك. ولكنه إذا جاء بعد الاسم فانه يعني السيد. كما أن مسلمي الهند وباكستان يطلقونه على أولاد السيدة فاطمة للتعظيم.

(٢) قره جه حصار: اسم تحمله أماكن عديدة في تركيا، وتعني (القلعة السوداء). والمقصود هنا بلدة أفيون قره جه حصار القريبة من (قونية).

(٣) يكي شهر (YENISEHIR) وتلفظ يني شهر ومعناها (البلد الحديث) وتقع الى الشمال الشرقي من بورصه، وهي تسيطر على مخاضة نهر سقارية.

(٤) أزميد: (IZMIT) مدينة يونانية قديمة في آسيا الصغرى، أصل اسمها (نيكوميدس) كانت عاصمة مملكة بثينيه (أو بوثينيا) وتقع على بحر مرمره. ويدخل ميناءها أكبر السفن وبها مياه معدنية ومعامل للحرير، ويربطها خط حديدي بمدينة بورصة.

=

من فتحها عاد إلى عاصمته. واشتغل في تنظيم البلاد. حتى إذا أمن اضطرابها وتجهز للقتال. أرسل إلى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى يخيرهم بين ثلاثة أمور: الإسلام أو الجزية أو الحرب.

وتردد صدى النداء للقتال ضد الروم بقوة، فتقاطر إليه المجاهدون من أرجاء آسيا الصغرى جميعاً، ومن القبائل التركية على اختلافها - ولحق (الأخوان - أو الأخيان) وهم جماعات الصناع والتجار المنظمة على غرار الطرق الصوفية والمنتشرة لذلك العهد في طول آسيا الصغرى وعرضها، وانضموا الى المجاهدين من أجل تأمين متطلباتهم وخدماتهم. ولحق بالمجاهدين أيضاً العلماء ورجال الدين.

وقاد عثمان شعبه القوي، وقد رفدته القبائل التركية كلها بدماء جديدة زادت من قوته وحيويته، واتجه به الى بحر مرمره والبحر الأسود. كما اتجه به غرباً إلى (يكي شهر).

اختلفت ردود فعل الروم وتباينت لدى مجابهتها لهجمات الأتراك العثمانيين، إذ أعلن بعضهم دخوله في الإسلام، وانضم الى جموع المجاهدين في سبيل الله، فيما ارتضى آخرون الجزية وأقروها على أنفسهم، بينما تولى الباقون شطر المغول التتار ينتصرون بهم على المسلمين. فما كان من السلطان عثمان إلا أن وجه لمحاربتهم جيشاً كبيراً بقيادة ابنه اورخان، وسير معه عدد ليس بقليل من أمراء الروم، ومن بينهم صديقه الذي أسلم على يديه (كوسه ميخائيل) [1] حيث دارت مع التتار رحى معارك ضارية، انتصر

= أما ازنيك فهي بدورها مدينة قديمة اسمها (نيقة) تقع على بعد ثمانين كيلومتراً من بورصة وإلى الشرق منها، وتقع أزنيك على ضفة بحيرة تحمل اسمها (بحيرة أزنيك) وتشتهر بصناعة الخزف وصناعة السجاد.

(١) كوسيه ميخائيل، كان من كبار قادة الروم، أسره عثمان وعدد من أمراء الروم وأحسن إليهم، وأعجب كوسيه ميخائيل بفضائل عثمان، فأشهر إسلامه وأصبح من أصدقائه الخلص، وخاض معه معظم حروبه، واشتهرت عائلته في التاريخ العثماني باسم (عائلة ميخائيل أوغلي) وكلمة أوغلي تعني (ابن) أي (ابن ميخائيل).

فيها أورخان، وشتت شمل التتار، وعاد مسرعاً لحصار مدينة (بورصه) [1] الشهيرة، وألقى عليها الحصار سنة ٧١٧ هـ = ١٣١٧ م. وقام أثناء الحصار بالهجوم على (حصن أردنوس) الواقع على قمة (جبل أولمب) [2] فافتتحه عنوة، ثم تابع جهده حتى تم له فتح كافة القلاع والحصون المحيطة بمدينة بورصة، والتي استمر الحصار مضروباً عليها طوال عشر سنوات. وعرف ملك الروم أن المدينة أصبحت في قبضة أورخان وتحت رحمته، فأرسل من القسطنطينية أمراً إلى حاكمها بالانسحاب، فأخلاها، ودخلها أورخان وجند المسلمين دون قتال، ولم يتعرض أهلها لسوء، فأسلم حاكمها (أفرينوس) ومنحه أورخان لقب (بك) وصار من مشاهير قادة العثمانيين.

لم يكد أورخان ينجز عمله في (بورصة) حتى وصله أمر من والده (عثمان) باستدعائه إلى (سكود) فتعجل العودة. وعندما وصل وجد أن والده في حالة الاحتضار، ولم يلبث أن فارق الحياة، وأوصى له بالحكم من بعده، لما عرفه فيه من علو الهمة والشجاعة والاقدام. وتجاوز بذلك ابنه البكر (علاء الدين) لميله الى الورع والعزلة ودراسة الفقه. لقد أصبحت الدولة العثمانية، وقد تركها مؤسسها، في حالة من القوة والمنعة، إلا أن الطريق أمامها لازال شاقاً وعسيراً.

لقد ظهرت الحاجة بسرعة لإعادة تنظيم المملكة وتوطيد دعائمها. فما كان من (أورخان بن عثمان - أو أورخان الأول) [3] إلا أن أخرج أخيه من عزلته، وكلفه

---

(١) بورصة (بروسة) مدينة بآسيا الصغرى، شهيرة بجودة هوائها ومناظرها الطبيعية الرائعة ومياهها المعدنية. أصبحت عاصمة دولة العثمانيين من سنة ١٣٢٧ حتى سنة ١٣٦١ م ثم انتقلت العاصمة إلى ادرنه ثم الى استانبول سنة ١٤٥٣ م.

(٢) جبل أولمب (أو أولمبوس) واسمه بالتركية (أناطولي طاغ) أو (كشيش طاغ) واسمه اليوم الجبل الكبير (ULU-DUG) وكلمة طاغ بالتركية تعني (الجبل) وقد كتبت (داغ) لأن الأتراك يلفظون الطاء مخففة وقريبة إلى الداء. وجبل أولمب هذا هو غير جبل أولمبوس الذي كان يعتقد اليونان أنه مسكن آلهتهم والواقع في القسم التركي - الأوروبي - على حدود بلاد مقدونية.

(٣) أورخان الأول بن عثمان - اعتبر ثاني خلفاء بني عثمان (٦٨٠ - ٧٦١ هـ = ١٢٨١ - ١٣٦٠ م) تولى الحكم سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٦ م. عاش ٨١ سنة ومدة حكمه ٣٥ سنة. شيد جامع بورصة الشهير الذي حلت نقوشه ما أضفاه على نفسه من الألقاب وهي: «السلطان، ابن سلطان الغزاة، الغازي =

بإشغال منصب (وزارة المملكة ـ والتي عرفت فيما بعد باسم الصدارة العظمى أو رئاسة مجلس الوزراء). وقبل علاء الدين هذا التكليف الذي أتاح له الفرصة لابراز ما كان يمتلكه من القدرات التنظيمية الرائعة، والإمكانات الإدارية العالية.

انصرف (علاء الدين) بن عثمان لمعالجة الأمور الداخلية، وترك لأخيه اورخان الحكم والفتوحات الخارجية ومجابهة التحديات الخارجية. فكان أول ما عمله (علاء الدين) هو أن أمر بضرب النقود من الفضة والذهب، ووضع نظاماً للجيوش وتحويلها الى جيوش عاملة ـ محترفة ـ. وكانت من قبل تعتمد على نظام النفرة ـ أو الاستنفار ـ بحيث لا يتم جمعها وحشدها إلا في حالة الحرب. وكانت الدولة في حالة حرب دائمة، مما كان يستدعي وجود جيش نظامي دائم. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان (علاء الدين) يخشى من تحزب كل فريق من الجند إلى القبيلة التي ينتمي إليها، مما يهدد وحدة القوات المقاتلة التي كانت تسعى الدولة العثمانية لارساء قواعدها وتوطيد بنيانها. وتقدم أحد المقربين من علاء الدين (واسمه قره خليل ـ لم يلبث أن أصبح الوزير الأول أو الصدر الأعظم باسم خير الدين باشا) واقترح عليه عزل الشبان من أسرى الحرب وفصلهم عن كل ما يذكرهم بجنسهم وأصلهم، وتربيتهم تربية إسلامية بحيث تزول من نفوسهم العصبية، وبحيث لا يعرفون إلا الولاء للدولة، ولا يتقنون عملاً إلا الحرب والجهاد في سبيل الله. وأعجب السلطان أورخان بهذا الاقتراح، وأمر بتنفيذه على الفور. فتم تكليف (الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية) بأماسيه[1] بالدعاء لافراد الجيش بالنصر على الأعداء. فدعا لهم، وقال: «فليكن اسمهم بني تشاوي» والتي تعني بالعربية (الجيش الجديد) وتكتب بالتركية (بكيجاري) ومنه (انكشاري).

= مرزبان الآفاق، بطل العالم». وقد اعتبرت هذه الألقاب بمثابة برهان ثابت على أن مفهوم السلطان في الحكم ودوره فيه هو: قيادة الغزو ـ والجهاد في سبيل الله.

(١) أماسية: مدينة تقع في شمال شرق آسيا الصغرى ـ الأناضول ـ جنوب صامسون الكائنة في شمال تركيا على البحر الأسود. وهناك بلدة أخرى تحمل الاسم ذاته (أماسية) وتقع الى الجنوب الشرقي من أزمير. وهذه هي المقصودة هنا، لأن أماسية الأولى لم تكن قد دخلت بعد تحت حكم العثمانيين.

لقد اشتهر الأتراك في الواقع، ومنذ خروجهم من نجاد آسيا الوسطى، بأنهم فرسان بارعون ويمتلكون من الإقدام والجرأة ما يصل بهم إلى حدّ التهور، بيد أنهم كانوا يفتقرون للتنظيم الفني. ولئن برهنوا على تفوقهم في حرب الحركة ضد المرتزقة البيزنطيين وسواهم إلا أنهم كانوا بحاجة لقدرات عسكرية خاصة من أجل التعامل مع حرب المواقع والحصون والأماكن المنيعة، وقد كانت هذه الحاجة هي السبب في تنظيم جيش المشاة الذي اقتصر العمل فيه على الأتراك وحدهم - تقريباً - في البداية. فكانت الدولة تدفع إلى أصحاب الإقطاعات العسكرية المنتخبين لفرق المشاة. راتباً يومياً محدداً طوال مدة الحملة. وكانت هذه الفرق مقسمة إلى وحدات تتكون من عشرة جنود، ومائة جندي، وألف جندي. ولكن هذا التنظيم لم يصمد للتجارب، ذلك بأن هذه الخدمة العسكرية التي لم يكن للأتراك عهد بها من قبل، حملت الناس على المغالاة في مطالبهم، فوطن أورخان نفسه على حلّ هذه القوة والاستعاضة عنها باحياء العرف الإسلامي الذي يقضي بتخصيص خمس الغنائم لبيت مال المسلمين، وإنفاقها للجهاد، وبذلك ضمن للدولة مورداً ثابتاً يكفي للإنفاق على جيش نظامي واجبه الاستعداد الدائم للقتال والحرب.

لقد ارتبطت عملية إعادة التنظيم العسكري بإعادة تنظيم إداري. إذ كان الامراء حكام الأقاليم الذين يحصلون على الاقطاع بأمر السلطان. يقومون بدورهم بتوزيع أرض الإقطاع على أبناء قبائلهم، ممن أبلى بلاء حسناً من إخوانهم المجاهدين، وذلك مقابل تعهدهم بتقديم الفرسان للحرب، ولهذا لم يكن غريباً أن يطلق على هذا الإقطاع اسم اللواء أو الراية (سنجق). وأصبحت بورصة بعد فتحها عاصمة لسنجق جديد أقطع لولي عهد (مراد) وعرف باسم (أرض الحاكم - خُداوند). ثم إنه نظم بعد ذلك سنجقان، أولها سلطان أونو (سلطان اوكي) ويضم الأقاليم الجنوبية الشرقية. وثانيها (قوجه إيلي) وشمل الأقاليم الساحلية في الشمال الغربي، وحملت اسم فاتحها وواليها الأول (أقجه قوجه). وبذلك أمكن تحديد الموارد المالية والبشرية لإعادة تنظيم جيش المشاة. وقد أفاد الفرسان (الخيالة) بدورهم من إعادة التنظيم الشامل لتكوين قوة أكثر إحكاماً وتماسكاً. وقد جعل - اورخان - في أساس هذا التنظيم، جيشاً يضم الفرسان

المختارين ذوي الرتب النظامية، وقسم الى أربع فرق (بولوكات) ولم يكن عدد أفراد هذا التنظيم يتجاوز في بداية الأمر ٢٤٠٠ فارساً من نخبة الرجال الأشداء، والذين صقلتهم تجارب الحرب، ثم ارتفع هذا العدد إلى ستة عشر ألف فارس. ولقد كلّف هؤلاء بأمر حماية الراية السلطانية (التي استعيض عنها بعدئذ وفي عهد السلطان سليم الأول بالراية النبوية). وبالإضافة الى هذه الفرق ظلت هناك كتائب الفرسان الإقطاعية ـ أو المسلمون المتطوعون ـ وكانت هذه الكتائب تعمل تحت قيادة امراء السناجق (البكوات).

استطاع أورخان أن يواصل حملاته بهذه الجيوش المنظمة تنظيماً جديداً، وعمل على ممارسة ضغط متزايد ضد المدن الساحلية، مما أرغم هذه المدن على الدخول في طاعته وذلك للمحافظة على مصالحها التجارية. وأرسل قادة جيوشه الظافرة لفتح ما بقي من بلاد آسيا الصغرى. ففتحوا أهم مدنها. وفتح السلطان ذاته مدينة أزمير، ولم يبق من مدن الروم المهمة في البر الآسيوي إلا مدينة أزنيك، فحاصرها وضيق عليها الحصار حتى دخلها بعد سنتين، فزال بسقوطها نفوذ الروم في بلاد آسيا. وسار السلطان أورخان في سياسته تجاه البلاد التي فتحها، على نهج أسلافه من العرب المسلمين، فعامل المواطنين بالرفق واللين، ولم يحرمهم من حرية إقامة شعائر دينهم، وسمح لمن أراد الهجرة بأخذ ممتلكاته كلها وبيع عقاراته، وبادر على الفور لتأسيس المدارس، والتكايا للفقراء والمعوزين. وأسس في أزنيك وفي بورصه مدرسة عالية (جامعة) وأجزل العطايا للعلماء والأدباء والشعراء. وعين ابنه الأكبر (سليمان باشا) حاكماً على أزنيك، وعينه صدراً أعظم بعد وفاة عمه علاء الدين. واشتهر سليمان باشا بفتح عدة مدن.

لقد توافرت ظروف جيدة أفاد منها السلطان أورخان لتوسيع حدود مملكته وتوطيد نفوذه. ففي سنة ٧٣٦ هـ = ١٣٣٦ م، ضم السلطان أورخان إلى مملكته إمارة (قره سي) [١] بسبب وقوع خلاف بين ولدي أميرها بعد موته. وفي سنة ٧٥٦ هـ = ١٣٥٥ م أرسل إليه ملك الروم بالقسطنطينية (جان باليولوج) [٢] وفداً يطلب منه أن

---

(١) قره‌سي: إمارة صغيرة في غرب الأناضول جنوب بحر مرمره، وإلى الشرق من بحرا إيجه.

(٢) جان باليولوج: هو من أسرة باليولوج: (PALEOLOGUE) التي حكم أباطرتها بلاد الروم البيزنطيين

يمده بالدعم والمساعدة لصد إغارات ملك الصرب (اسطفان دوشان) [1] الذي عمل على جمع كافة قبائل الصقالبة (السلاف) الغربية تحت قيادته، وفتح بمساعدتهم بلاد البلغار، زحف على مدينة القسطنطينية. وعرض ملك الروم على السلطان أورخان أن يزوجه ابنته مقابل هذه المساعدة. فأجاب السلطان اورخان طلبه، وأرسل إليه جيشاً كبيراً لمساعدته. ولكن الموت عاجل (دوشان) قبل وصوله بجيوشه الى القسطنطينية.

عاد العثمانيون من مهمتهم دون أن يشتبكوا بقتال، غير أن عبورهم الى الشاطىء الأوروبي لم يكن معدوم الفائدة أو محروم القيمة، وكانت العملية بمجموعها بمثابة الاستطلاع المسلح للموقف على الجبهة الأوروبية حيث وصل العثمانيون الى قناعة عن ضعف مملكة الروم. وما بلغته من الإنحلال، بحيث باتت عاجزة عن طلب الدعم بالأوروبيين أو الإستعانة بهم بعد أن تبين للأباطرة البيزنطيين مطامع البابا والصرب واليونان في ممتلكاتهم. ولهذا شرع السلطان - أورخان - بتجهيز الكتائب سراً لاجتياز البحر واحتلال بعض النقاط على الشاطىء الأوروبي، تكون مركزاً لأعمال العثمانيين في أوروبا، حتى إذا سنحت الفرص، وساعدت المقادير، حاصروا مدينة القسطنطينية براً وبحراً ودخلوها فاتحين. ولم يلبث سليمان باشا أكبر أولاد السلطان أورخان وولي عهده وصدر مملكته الأعظم أن اجتاز مضيق (بوغاز) الدردنيل، ومعه أربعون من أشجع جنوده تحت أستار الظلام، حتى إذا وصلوا إلى الضفة المقابلة (الاوروبية) استولوا على ما كان بها من السفن والقوارب، وعادوا بها الى الضفة الشرقية حيث احتشدت القوات التركية - العثمانية، فتم نقل ثلاثين ألفاً من الجند الذين عملوا على احتلال

= من سنة ١٢٦١ م حتى سنة ١٤٥٣ م.

(١) اسطفان دوشان: (ETIENNE DUSAN) الملقب بالقوي. ولد بمدينة (اشقودره) الواقعة اليوم في شمال غرب البانيا (الأرناؤود - أو الأرناؤوط) سنة ١٣٠٨ م. وصار أميراً لبلاد الصرب وملحقاتها سنة ١٣٢٢ م، وأعلن نفسه ملكاً سنة ١٣٣١ م، ثم امبراطوراً سنة ١٣٤٦ م، كان بعيد الآمال، كبير الطموح، عمل على تكوين مملكته ببعث الروح العنصرية - السلافية - وأراد فتح القسطنطينية وبقية مملكة الروم الشرقية. مات في ٢٠ كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٣٥٥ م فنقلت جثته إلى (برزرند) بالقرب من اشقودره، ودفن في إحدى الكنائس، واعتبره السلاف بطلاً قومياً لأنه بعث الروح القومية في بلاده.

ميناء (تزنب). وساعدتهم المقادير إذ انهار قسم من أسوار (غاليبولي) [١] في أعقاب زلزال شديد، فدخلها العثمانيون بدون كبير عناء، واحتلوا عدة مدائن أخرى منها (أبسالا) [٢] و(رودستو) [٣] وغيرهما وذلك سنة ٧٥٩ هـ = ١٣٥٧ م. وتوفي سليمان باشا سنة ٧٦١ هـ = ١٣٥٩ م. وصارت ولاية العهد بذلك إلى أخيه مراد، وتولى منصب الصدارة بعده الوزير خير الدين باشا. ولم يلبث السلطان أورخان أن توفي أيضاً، فانتقل الحكم الى ابنه (مرادخان الأول) [٤].

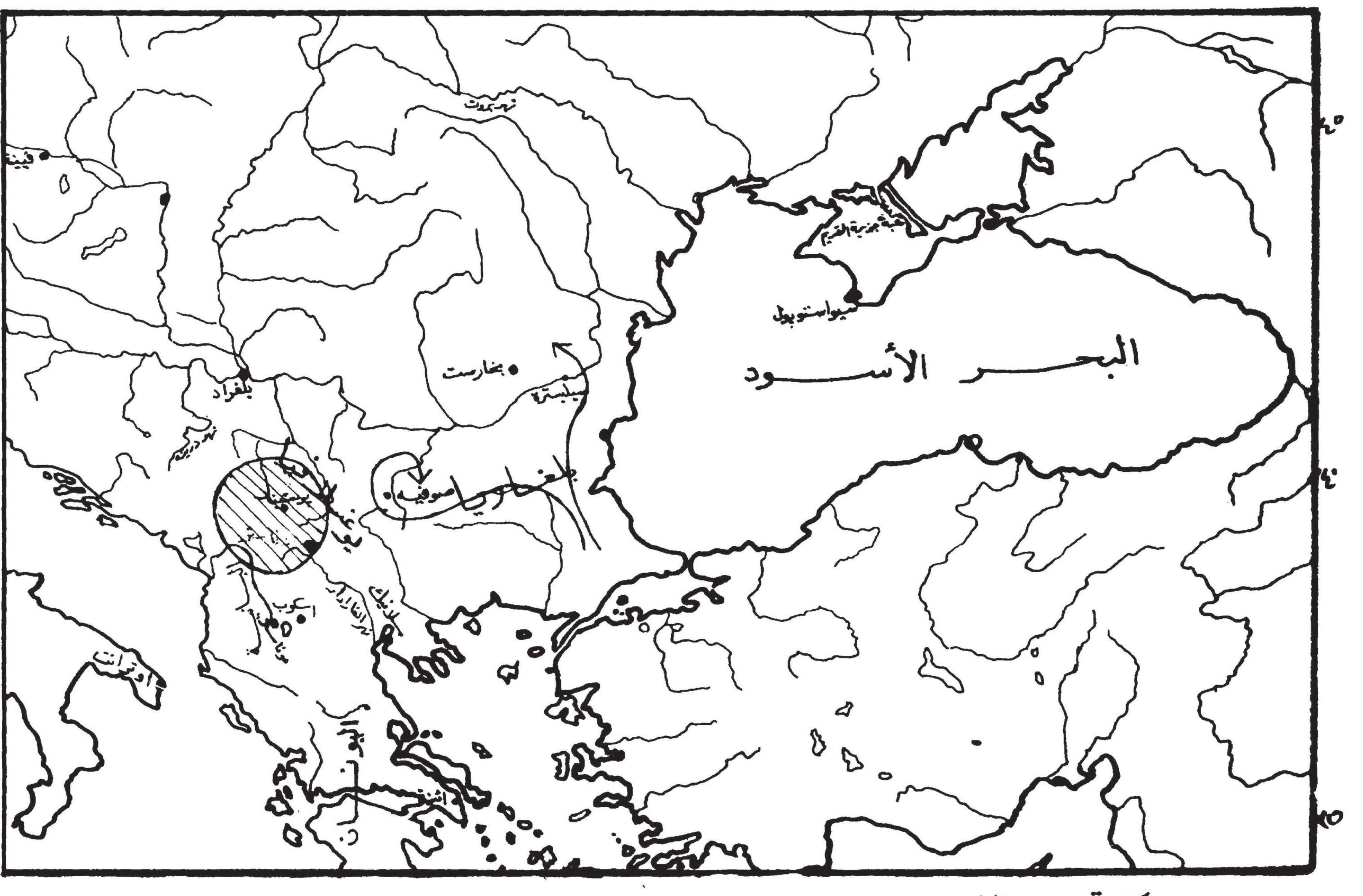
---

(١) غاليبولي: (GELIBOLU أو GALLIPOLI) مدينة في تركيا - الأوروبية تقع على مضيق يحمل اسمها. وقد اكتسبت المدينة أهميتها العظمى بسبب وقوعها على ضفة مضيق الدردنيل الذي هو الممر الوحيد بين بحار اوروبا وبحر مرمره، وهي تبعد عن مدينة أدرنة مسافة مائة وأربعين كيلومتراً تقريباً. وتقع في آخر مضيق الدردنيل في الجانب الاوروبي - وتقابلها (جنا قلعه) في أول مضيق الدردنيل على الجانب الشرقي.

(٢) أبسالا: مدينة تقع في شمال مضيق الدردنيل على الجانب الأوروبي.

(٣) رودستو: (RODOSTO) ويسميها الأتراك تكرطاغ أو تكفورطاغ، وتقع على بحر مرمره من الجانب الغربي.

(٤) مرادخان الأول: ثالث خلفاء العثمانيين (٧٢٦ - ٧٩١ هـ = ١٣٢٦ - ١٣٨٨ م). توفي عن خمس وستين سنة، وبلغت مدة حكمه ثلاثين سنة، ودفن في مدينة (بورصة). عاصمة الدولة والتي دفن بها الخلفاء الستة الأول من بني عثمان. قتل في معركة قوصوه (الطيور السود) وهو في أوج انتصاره. واشتهر بالكفاءة القيادية العالية، والإدارة الناجحة، والقدرة التنظيمية. ولقب نفسه بلقب (خداوندكار) أي الله - فاسمه مراد الله.



⊛ معركة قوصوة الشهيرة ١٥ حزيران ١٣٨٩م

٢ ـ تدمير الحملات الصليبية الأولى في البلقان.

لم يكن الغرب الصليبي غافلاً عما يحدث من تطورات مثيرة على جبهة الغرب (البلقان) وفي الواقع، فإن تعاظم قوة العثمانيين قد استأثر منذ البداية باهتمام بعض الغربيين. ولعل أمير ڤيينا (همبرت الثاني) الذي كان من النبلاء الفرنسيين هو أول من أيقظ الانتباه لضرورة مجابهة ما أطلق عليه اسم: خطر الأتراك المسلمين. وأعرب عن رغبته في التوجه بحملة صليبية إلى الشرق، ومع أنه كان رجلاً ضعيفاً تافهاً، فإنه كان صادق التقوى ـ من وجهة نظر الصليبيين ـ ومجرداً من الطموح الشخصي. وتقرر بعد مفاوضات مع البابا أن يتوجه لتعزيز جهد الصليبيين في أزمير، فخرج من مارسيليا في جماعة من القسس والفرسان (في سنة ٧٤٦ هـ = ١٣٤٥ م) ولحقت به أثناء رحيله صوب الشرق عساكر من شمال ايطاليا. فوصل أزمير في السنة التالية، بعد مغامرات لا طائل تحتها. وخاض معركة ضد الأتراك، ثم عاد في صيف سنة ٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م إلى فرنسا. ولم تحقق حملته شيئاً، **واقتصرت أهمية حملته على أنها أقنعت الكنيسة لاعتبار كل حملة ضد الأتراك هي حملة صليبية يجب على الكنيسة دعمها ومساندتها.**

حدث بعد ذلك أن قام ملك قبرص (بطرس) بانتزاع حصن كوريكوس من الأرمن، وأفاد من دعم الاسبتارية له، فاستولى على ميناء أضاليا التركي (٧٦٢ هـ = ١٣٦١ م) وفرض سيطرته على أمراء علايا ومونوفجات. وبذلك وقف وجهاً لوجه أمام الأتراك (القرمانيين) الذين كانوا أكبر قوة في تلك المنطقة. غير أن أكبر تطور في الصراع على تلك الجبهة قد حدث بسبب النزاع القائم والمستمر بين الروم ذاتهم من جهة، وبينهم وبين خصومهم المجاورين لهم على جبهة الغرب ـ من جهة ثانية ـ مما أتاح للأتراك فرصة استثمار قوتهم المتفوقة على خصومهم مجتمعين ومتفرقين. والمعروف

أن امبراطور الروم (أندرونيقوس الثاني) كان قد تسرع فاستأجر لخدمته جماعة من المرتزقة الكاتالانيين بقيادة أحد فرسان الداوية (روجر فلور) والذي جمع ثروة طائلة من سلوكه المشين عند نهب عكا. وأظهر روجر ضراوة في صراعه ضد الأتراك المسلمين إلى أن لقي مصرعه سنة ٧٠٦ هـ = ١٣٠٦ م. إلا أن جماعة الكاتالانيين استمرت في ممارسة أعمالها العدوانية، واضطرت أثناء صراعها للاستعانة بكتائب تركية كان الامبراطور قد استخدمها في الأناضول. وعندما انفجرت الحرب الأهلية بين الامبراطور (اندرونيقوس الثاني) وحفيده (اندرونيقوس الثالث) بعد رحيل الكاتالانيين، استخدم الجانبان الكتائب التركية، إلى أن مات الامبراطور اندرونيقوس الثاني سنة ٧٢٩ هـ = ١٣٢٨ م. ثم اندلعت الحرب الأهلية من جديد في الامبراطورية البيزنطية سنة ٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م بين (يوحنا الخامس) وصهره (يوحنا كانتاكوزينوس) مما دعم من نفوذ الأتراك وسيطرتهم. ولكن اوروبا بقيت مطمئنة على جبهتها اعتماداً منها على القدرة المتعاظمة لدولة الصرب. غير أن الدولة الصربية لم تلبث أن تداعت بموت ملكها (اسطفان دوشان) سنة ٧٥٦ هـ = ١٣٥٥ م. وكان هذا هو الموقف يوم تولى السلطان مراد مقاليد الحكم. إذ جابه مع بداية حكمه تمرد الامراء المستقلين بقيادة سلطان القرمان (علاء الدين) والذي ظن أن انتقال الحكم من أورخان إلى ابنه مراد، هو فرصة مناسبة للحد من سلطة العثمانيين ولاضعاف نفوذهم، فما كان من السلطان مراد إلا أن أسرع لِقيادة جيشه، وسار إلى (أنقره) عاصمة القرمانيين، واستولى عليها. مما أرغم (علاء الدين) على التماس الصلح، وتقرب من السلطان مراد بأن زوجه ابنته لتمكين عرى الاتحاد بينهما. وصار باستطاعة السلطان مراد توجيه جهده نحو البلقان فأرسل جيشاً بقيادة البكلر بك (لالة شاهين) ففتح مدينة (أدرنة) [١] (سنة ٧٦٢ هـ = ١٣٦١ م) بعد مقاومة ضعيفة، حيث قام قائد حامية الروم بتسليم المدينة لشعوره بالعجز عن مقاومة الجيش العثماني. وعمل السلطان مراد على الفور على نقل عاصمته إلى أدرنة، نظراً لأهمية موقعها الجغرافي. ووجودها

---

(١) أدرنة - واسمها بالرومية (أدريانابوليس) نسبة للامبراطور أدريان الرومي الذي أجرى فيها تحسينات كبيرة مما أوجب إطلاق اسمه عليه. وتوفي الامبراطور سنة ١٣٨ م.

عند ملتقى ثلاثة أنهار. كما فتح (لالة شاهين) أيضاً مدينة (فيلبة) [1] عاصمة الروم الشرقية. فيما قام القائد (أفرينوس بك) بفتح مدينتي (وردار) و(كلجمينا) [2]. وبذلك صارت القسطنطينية مطوقة من جهة أوروبا بقوات المسلمين ـ العثمانيين ـ وعزلت عن باقي الإمارات الصليبية الصغيرة والمتناثرة على أرض شبه جزيرة البلقان، وأصبحت الدولة العثمانية متاخمة لإمارات الصرب والبلغار وألبانيا (الارناؤود). اهتاج ملوك وأمراء الدول المسيحية المتاخمة للدولة العثمانية، وطلبوا من البابا (اوربانوس الخامس) [3] العمل مع ملوك اوروبا الغربيين لإرسال حملة صليبية تحارب المسلمين وتخرجهم من أوروبا، خوفاً من امتداد فتوحاتهم إلى ما وراء جبال البلقان، إذ لو اجتازوها بدون مقاومة أو معارضة، فإنه لن يتمكن أحد بعد ذلك من ايقاف تيار فتوحاتهم. ويخشى بعدها على جميع ممالك أوروبا وإماراتها. واستجاب البابا لطلب الاستغاثة، وكتب لجميع الملوك بالتأهب لمحاربة المسلمين وحرضهم على محاربتهم.

أسرع ملك الصرب (أوروك) والذي جاء بعد (دوشان القوي) للتحرك، ولم ينتظر وصول الدعم إليه من أوروبا الغربية، واستعان بأمراء (بوسنة) و(الفلاخ) [4] وبعدد عظيم من فرسان المجر، وسار بهم لمهاجمة مدينة (أدرنة) عاصمة الدولة العثمانية،

---

(١) فيلبه ـ اسمها بالرومية (فيليبوبوليس) نسبة لمؤسسها فيليب والد الاسكندر الأكبر المقدوني ـ وتكتب PHILIPPOPOLIS ـ وتقع الى الجنوب الشرقي من صوفيا، وهي على خط واحد مع أدرنه.

(٢) كلجمينا ـ اسم محرف أو مصحف عن: (KOMOTINI) وتقع إلى الجنوب الغربي من أدرنه وعلى بعد ٢٥ كم شمال بحر إيجه. وتقع وردار: (VARDAR) إلى غرب كوملنجه، وعلى نهر يحمل هذا الاسم.

(٣) ايربان ـ أو أوربانوس الخامس: (URBAIN V) واسمه غليوم دوغريمور (GUILLAUME DE GRIMOARE). وهو فرنسي المولد ـ ولد سنة ١٣١٠ م، وانتخب لمنصب البابا سنة ١٣٦٢ م. ومات سنة ١٣٧٠ م.

(٤) بوسنة: (BOSNIE) إحدى الجمهوريات الاتحادية اليوغوسلافية، مساحتها ٥٢ألف كيلومتر مربع، وعاصمتها سيراجيفو: (SARAIEVO). فصلت عن تركيا بموجب معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ م، واحتلتها الدولة النمساوية ـ الهنغارية، ثم ضمتها إليها سنة ١٩٠٨ م وانفصلت عنها سنة ١٩١٨ م، واتحدت مع يوغوسلافيا. أما الفلاخ ـ أو(الأفلاق) كما كان يسميها الأتراك، فهي إمارة من إمارات الدانوب، أصبحت تابعة للدولة العثمانية سنة ١٣٩٦ م، واستقلت سنة ١٨٥٦ م واتحدت مع مولد افيا سنة ١٨٥٨ م فكونتا الدولة الرومانية.

على أمل تحقيق نصر حاسم على العثمانيين نظراً لانصراف السلطان مراد بمحاصرة مدينة (بيجا)[1] القريبة من بورصة بآسيا الصغرى، فلما علمت القوات العثمانية بتحركهم أسرعت لمقابلتهم، وباغتتهم بهجوم ليلي عاصف، فمزقتهم شرّ ممزق، وهرب من استطاع الهرب (سنة ٨٦٦ هـ = ١٣٦٣ م). وكان هذا الانتصار الذي أحرزه المسلمون على ضفاف (نهر ماريتزا)[2] عاملاً في مساعدة السلطان مراد على متابعة فتوحاته في آسيا الصغرى، حتى إذا ما حقق أهدافه، انصرف لإعادة تنظيم أمور الأقاليم التي تم فتحها، ولإعادة تنظيم قواته. وقد شعرت الإمارات المجاورة بضعفها، وبدأت بالتماس السبل للتعايش مع الدولة العثمانية الفتية، فأرسلت (جمهورية راجوزة)[3] الى السلطان مراد في سنة ٨٦٨ هـ = ١٣٦٥ م رسلاً أمضوا معه معاهدة ودية تجارية تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها (٥٠٠ دوكا ذهبية). وكانت هذه هي أول معاهدة تم توقيعها بين الدولة العثمانية والدول المسيحية.

كان كونت سافوي (أماديوس السادس) قد أخذ في الإعداد لقيادة حملة صليبية، فيما كان البابا ايربان الخامس منصرفاً الى الدعوة لحملة صليبية - بالنيابة عن ملك قبرص (بطرس).

ووطن أماديوس العزم على المضي إلى الأرض المقدسة. غير أنه كان ابن عم شقيق للامبراطور البيزنطي - يوحنا الخامس - وكان يريد أن يعمل على مساعدته، فأذن له الامبراطور بأن يستهل حملته بقتال الأتراك، بشرط أن يكفل إخضاع الكنيسة اليونانية. وبذل البنادقة قصارى جهدهم لوقف حملته الصليبية لتخوفهم من تدخلها في

---

(١) بيجا: (BIJA) تقع إلى الجنوب من بحر مرمرة، وبالقرب من رأس مضيق الدردنيل.

(٢) نهر ماريتزا: (MARITZA) أو (MARICA) ينبع من غرب بلغاريا وبحر اليونان ويصب في بحر إيجه وهناك بلدة في بلغاريا للذاهب بطريق البر من تركيا إلى صوفيا. سميت باسمه لقربها منه، وهي تبعد عن الحدود التركية مسافة ١٦٣ كم، وتبعد ١٧٠ كم إلى الجنوب من صوفيا، وتقع وسط غابة جبلة.

(٣) راكوزه: (RAGUSE) بلدة تقع حالياً في يوغوسلافيا، وتسمى اليوم دويروفنيك: (DUBROUNIK) على شاطيء البحر الأدرياتيكي. بقيت عاصمة جمهورية أرستقراطية من سنة ١٤٠٣ حتى سنة ١٨٠٩ م. وهي شبه قلعة مبنية على شاطيء البحر.

سياستهم التجارية. ولهذا فقد عملوا حتى لا ينحاز كونت سافوي الى ملك قبرص (بطرس). ولهذا شعروا بالارتياح لما حققته شائعتهم عن عقد معاهدة بين بطرس والسلطان المملوكي في مصر من نتائج، إذ أعلن كونت سافوي أنه سيركز جهده للعمل على جبهة الروم - البيزنطيين -، وحشد نخبة مختارة من الفرسان. غير أنه صادف منذ البداية عقبات حول المال.

وبلغت قوات حملة كونت سافوي مضيق الدردنيل في شهر آب - أغسطس - سنة ١٣٦٦ م (٨٦٩ هـ).

فألقت الحصار على غاليبولي فوراً. وتمكنت من احتلالها. ثم تابع الكونت أماديوس طريقه بحراً إلى القسطنطينية - بدلاً من النزول في تراقيا ومحاربة الأتراك المسلمين واخراجهم منها وفقاً لما كان قد تم إعلانه من قبل -. وعندما وصل أماديوس الى القسطنطينية، علم أن الامبراطور البيزنطي قد وقع غدراً في أسر ملك بلغاريا - شيشمان الثالث -. ولذا وجه أماديوس كل جهده لإنقاذ ابن عمه، غير أنه لم يتمكن من تخليصه إلا بعد أن هاجم ميناء فارنا (البلغاري). ولما تم إنقاذ الامبراطور يوحنا، اكتشف أماديوس أنه أنفق كل ما لديه من المال، فضلاً عن المال الذي ابتزه من السكان المحليين، والذي اقترضه من الامبراطورة، فكان لزاماً عليه أن يعود إلى وطنه. غير أنه حصل من الامبراطور البيزنطي على وعد بأن تخضع كنيسته لروما وذلك قبل عودته. ولما قدم بطريرك القسطنطينية (فيلونيوس) برفقة فارس يوناني، إلى سفينة أماديوس لإعلامه بأن اليونانيين سيخلعون الامبراطور عن عرشه إذا ما وافق على طلبه بإخضاع كنيسة الروم البيزنطيين للبابا، قام أماديوس باختطافهما ونقلهما معه إلى إيطاليا، وعاد أماديوس إلى وطنه سنة ٨٧٠ هـ = ١٣٦٧ م.

وفقدت حملته كل ما حققته، إذ سرعان ما عاد الأتراك المسلمون ففتحوا غاليبولي من جديد.

تربع على عرش مملكة الصرب بعد قتل اوروك، الملك (لازارجر بلينانوفتش) الذي أقام اتحاداً مع أمير البلغار (شيشمان الثالث) بهدف محاربة المسلمين، سنة

٧٨١ هـ = ١٣٧٩ م. وأعقب ذلك حدوث اشتباكات خفيفة عرف الصرب والبلغار من خلالها أنه لا قبل لهم بمجابهة العثمانيين، فأسرع الصرب والبلغار لعقد صلح مع السلطان مراد، على أن يتزوج السلطان ابنة أمير البلغار، وعلى أن يدفع له الأميران خراجاً سنوياً معيناً.

توفي (البكلربك لالة شاهين) فعين السلطان مراد مكانه (ديمورطاش باشا) والذي ينسب إليه تنظيم فرق الخيالة الخفيفة (سباهي - أو الصبايحية) تنظيماً جديداً، واختار أن تكون أعلامهم باللون الأحمر الذي لا يزال شعار الدولة العثمانية حتى الآن، وأقطع كل نفر منهم جزءاً من الأرض يزرعه أصحابه الأصليين - سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين - مقابل دفع مبلغ معين لصاحب الإقطاع، وذلك بشرط أن يسكن الجندي في أرضه في وقت السلم، ويستعد للحرب ويشترك بها على نفقته، وأن يقدم أيضاً جندياً آخر معه، وما زاد عن دخله - إيراده - السنوي عشرين ألف غرش (يسمى تيمار)[١]. وما زاد إيراده على ذلك يسمى (زعامت). وكانت هذه الإقطاعات لا يرثها إلا الذكور من الأعقاب، وإذا انقرضت الذكور، ترجع إلى الحكومة وهي تقطعها إلى جندي آخر بهذه الشروط ذاتها.

لقد بقي النظام الاجتماعي المهيمن خلال تلك الحقبة هو نظام القبيلة، ولهذا لم يكن غريباً أن يعمل السلطان مراد على توطيد علاقاته بامراء الاقاليم عن طريق المصاهرة والزواج من ذلك - على سبيل المثال - تزويج ابنه بايزيد - الملقب بلقب يلدرم أي البرق - بابنة أمير (كرميان)[٢] الذي قدم للسلطان مدينة (كوتاهية)[٣] الشهيرة بمثابة صداق - أو مهر - لابنته، على ما جرت به العادة.

ما إن اطمأن السلطان مراد إلى ما حققه من انجازات في مجال إعادة التنظيم الإداري

---

(١) تيمار: كلمة فارسية ومعناها الأصلي كل ما يعطى للمريض أو للحيوان أو حتى للأرض والنباتات من مؤونة أو عناية. وأطلق هذا اللفظ آنذاك على أراضي الدولة التي كانت تعطى للجنود الفرسان ليعيشوا منها.

(٢) كرميان: إقليم يقع في غرب الأناضول، ما بين أسكي شهر شمالاً وأفيون قره حصار جنوباً.

(٣) كوتاهية: مدينة تقع إلى شرق باليقصير وغرب أسكي شهر.

لبلاده، وإعادة تنظيم قواته المقاتلة، حتى استأنف فتوحاته بإيقاع متسارع، فألزم السلطان أمير اقليم (الحميد) [1] بالتنازل له عن بلاده. ووجه جيشاً بقيادة (ديمورطاش باشا) لمحاربة الصرب والبلغار، بعد أن تبين له عودتها للغدر، وامتناعها عن دفع الخراج المتفق عليه. فقام (ديمورطاش باشا) بفتح مدائن (موناستر) [2] و(برلبه) [3] و(استيب) [4].

ووقعت مدينة (صوفيا ـ عاصمة بلغاريا في قبضة العثمانيين بعد حصار استمر ثلاث سنوات (٧٨٣ ـ ٧٨٥ هـ = ١٣٨١ ـ ١٣٨٣ م).

وقام الصدر الأعظم خير الدين باشا في أعقاب ذلك بفتح مدينة **(سالونيك)** الشهيرة.

حدث في تلك الفترة أن أعلن أحد أولاد السلطان مراد تمرده على أبيه ـ وكان اسمه صاووجي ـ واتفق مع ابن امبراطور الروم حنا باليولوج على التمرد ضد أبيه لأن والده حنا كان قد حرمه من الملك، وأوصى به من بعده لابنه الأصغر مانويل. وانضم إلى هذين المتمردين بعض أمراء الأقاليم. ولكن جيش السلطان مراد قضى على المتمردين في معركة وقعت في قونيه سنة ٧٨٨ هـ = ١٣٨٦ م. وقتل فيها صاووجي وجميع من كان معه من أشراف الروم. لقد كان فتح (سالونيك) [5] على أيدي الصدر الأعظم خير الدين باشا انجازاً ضخماً، فلما مات خير الدين باشا، حاول

---

(١) الحميد: إقليم يقع في جنوب غرب الأناضول ـ غرب قرمان وشرق منتشا وشمال تكن.

(٢) موناستر: بلدة يوغوسلافية تحمل اليوم اسم BITOLA ـ وتقع بالقرب من الحدود اليونانية. الألبانية ـ وهناك بلدة في تونس اسمها موناستر أيضاً.

(٣) برلبه: PRIELEP بلدة في يوغوسلافيا شمال بينولا.

(٤) استيب: STIP ـ بلدة في وسط يوغوسلافيا الى الجنوب الغربي من مدينة اسكوب.

(٥) سالونيك أو سلانيك: (SALONIQUE) مدينة قديمة جداً، تقع في جوف خليج سالونيك الذي يشكله بحر إيجه في جنوب مقدونيه MACEDONIE. كان اسمها ترما، وعندما تولى (كساندر) المتوفي سنة ٢٩٨ ق.م. ملكاً على مقدونية، أطلق عليها اسم زوجته أخت الاسكندر الكبير المسماة تسالونيك: (THESSALONIQUE).

الطامعون الإفادة من الموقف، فاتحد أمير القرمان[١] علاء الدين - الذي سبق ذكره - مع بعض الأمراء المستقلين واستعدوا للقتال، وقاموا ببعض الاستفزازات والاشتباكات، غير أن السلطان مراد لم يمهلهم، وأسرع فوجه جيشاً لمحاربتهم بقيادة (ديمورطاش باشا) الذي تمكن من قهر المتمردين في سهل قونية، وأخذ علاء الدين أسيراً. وتوسطت ابنة علاء الدين والتي كان السلطان مراد قد تزوجها في أعقاب حربه الاولى مع أبيها، ولهذا لم يعمل السلطان مراد على تجريد علاء الدين من أملاكه، وعاد فأقره على حكمها مقابل دفع إتاوة معينة سنوياً - وذلك سنة ٧٨٨ هـ = ١٣٨٦ م. وظنّ الصرب والبلغار أن الفرصة مناسبة للتمرد بسبب انصراف معظم الجيوش التركية للحرب في الأناضول، ومعها أفضل القادة والأمراء. وفاز الصرب في المرحلة الأولى من الهجوم (سنة ٧٨٩ هـ = ١٣٨٧ م). وكان ملك بلغاريا (شيشمان الثالث) يستعد للانضمام بجيشه إلى ملك الصرب (لازار) عندما باغته الوزير علي باشا ابن قره خليل جاندرلي بهجومه، حيث قام علي باشا ومعه ثلاثين ألفاً من المقاتلين بعبور مضيق - مجاز - نادر، واحتل مدينتي (ترنوه)[٢] و(شمله)[٣] مما أرغم شيشمان على الهرب واللجوء إلى (نيقوبوليس)[٤] سنة ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ م. من أجل إعادة تنظيم قواته الممزقة والاستعداد لمعركة جديدة.

قامت قوات الأتراك العثمانيين بتطويق (شيشمان الثالث) في نيقوبوليس إلى أن اضطر لدفع الجزية، ويتنازل لهم عن (سلستره) حتى إذا خرق هذا الاتفاق حاصروه كرة أخرى عند نيقوبوليس وأكرهوه هذه المرة على التسليم دون قيد أو شرط،

---

(١) تقع بلاد القرمان ما بين أنقره شمالاً والبحر الأبيض المتوسط جنوباً وقيصرية شرقاً، وقونية غرباً - وعاصمتها قونية.

(٢) ترنوه: (TURNOVO) وتقع في الجانب الشرقي من بلغاريا.

(٣) شومله - هي شومن: (SHUMEN) وتقع إلى شمال تورنوفو (ترنوه).

(٤) نيقوبوليس: (NICOPOLI) مدينة بلغارية تقع على نهر الدانوب، ومعناها (مدينة النصر) أسسها الامبراطور الروماني - تراجان - المتوفي سنة ١١٧ م وذلك عقب انتصاره على أعدائه، وهي في شمال بلغاريا على حدود رومانيا.

وعندما حمل شيشمان أسيراً الى السلطان مراد، لم يأمر بقتله، بل أنعم عليه بمنحه الحكم على نصف بلاده، ورتب له ما يقوم بمعاشه وذلك سنة ٧٩٢ هـ = ١٣٨٩ م. وعندما علم ملك الصرب (لازار) بانهيار حلفائه البلغار، قرر المضي في الصراع حتى نهايته، واتجه بجيوشه نحو الغرب، حيث انضمت إليه جيوش إضافية من البشناق والمجر والبلغار والالبانيين (الأرناؤوط). وأسرع السلطان مراد، فقاد بنفسه جيشه ومعه ابناه بايزيد ويعقوب وأتباعه أمراء صاروخان ومنتشا وآيدين وحميد. وسار لقتال ملك الصرب، وتم اللقاء في (**ميدان قوصوه**) [1] حيث دارت معركة عنيفة تنازع فيها الفريقان راية النصر، غير مرة، وأبدى الصليبيون من شديد المقاومة ما كلف العثمانيين خسائر فادحة، وبقيت الحرب بينهما سجالاً مدة من الزمن، وصبر الفريقان حتى ظنّ كل منهما أنه الفناء. وأخيراً فرّ صهر الملك لازار (واسمه فوك برانكوفتش) ومعه عشرة آلاف فارس، وانضم إلى جيش المسلمين، مما أضعف من مقاومة الصربيين وحلفائهم، ودارت الدائرة على الصربيين، وجرح لازار ووقع أسيراً، وقتل مراد نفسه، فبينما تزعم بعض الروايات أن أحد الصربيين (واسمه ميلوك كوبلوفتش) سقط جريحاً، وعندما شاهد السلطان مراد يتجول في ميدان المعركة متفقداً الجرحى، انقض عليه وطعنه بخنجره طعنات قاتلة، تزعم روايات أخرى - أن مجموعة من اثني عشر صربياً تعاهدوا على قتل السلطان مراد، وباغتوه في خبائه فقتلوه، غير أن الرواية الأولى هي الأكثر صدقاً، ولو أن الصربيين يفضلون الأخذ بالرواية الثانية التي جعلوا منها ملحمة شعبية، ومهما كان عليه الأمر، فقد أعقب اغتيال مراد اجراء عمل انتقامي حيث تم قتل جميع الامراء الأسرى وفي مقدمتهم الملك لازار. وقام ولي العهد بايزيد بإعادة تنظيم الجناح الأيسر الذي كان يقوده، وقاده للنصر النهائي والحاسم.

---

(١) ميدان قوصوه: وهي مركبة من كلمتين (قوص) ومعناها الواسع أو الكبير. و(أوه) وتعني السهل - فتكون (السهل الواسع) - ويطلق على ميدان المعركة اسم (ميدان الطيور السود). وقد وقعت المعركة يوم ١٥ حزيران - يونيو - سنة ١٣٨٩ م في هذا السهل الذي تنبع منه أنهار ثلاثة: إيبار، وفاردار، ودرين، ويسمى السهل باليوغوسلافية: (KOSOVO POLJE) ومركزه بريشتينا PRISTINA - وهو في جنوب يوغوسلافيا بين بلغاريا وألبانيا واليونان.

وبذلك انتهت معركة قوصوه الشهيرة ـ التي هزت أوروبا بكاملها ـ والتي كان من أول نتائجها القضاء على دولة الصرب قضاءً تاماً، وإلحاق أقاليمها بالدولة العثمانية.

لقد بدأ الغرب بمواجهة الدولة العثمانية في مراحلها الأولى بقوات متفرقة وبحملات صغيرة ـ نسبياً ـ. مما ساعد العثمانيين على تحقيق انتصاراتهم المتتالية، وعندما زاد ثقل الهجمات، عمل العثمانيون على زيادة حدة الصراع المسلح وتصعيده، فلما جاء (السلطان بايزيد) [1] واجه التحدي الثقيل، فانصرف بكليته وبأكثر مما فعل أسلافه، إلى الاهتمام بأمور الحرب وشؤونها، ولم يعد يعالج هذه الشؤون باعتباره زعيماً أو قائداً لجماعة من الغزاة المجاهدين، بل باعتباره سلطاناً لدولة عظمى. وقد كان أول عمل قام به بايزيد هو تعيين الأمير (أسطفان) بن لازار ملك الصرب حاكماً عليها، وتزوج أخته (أوليفيرا) وأجازه أن يحكم بلاده بحسب قوانينها وتقاليدها وأعرافها، ولم يضم بلاد الصرب إلى أملاكه ويجعلها ولاية مثل باقي الولايات حتى يكتسب عواطف الصربيين وقد عرف فيهم حبهم للاستقلال وتعصبهم العرقي ـ السلافي ـ. وهذا مما يساعده بالتالي لمعالجة أمور بقية الجبهات، والتفرغ لشؤونها، واشترط بايزيد على اسطفان ـ مقابل ذلك ـ دفع جزية معينة، وتقديم عدد معين من الجنود للانضمام إلى جيوش المسلمين في وقت الحرب. وعندما شعر بايزيد باستقرار الأمور، وانتشار الأمن على جبهة الغرب، قاد جيشه نحو آسيا، وفتح مدينة (آلاشهر ـ المعروفة عند الغرب

---

(١) السلطان بايزيد خان الأول ـ رابع السلاطين العثمانيين (٧٦١ ـ ٨٠٥ هـ = ١٣٦٠ ـ ١٤٠٣ م) تولى السلطنة بعد استشهاد أبيه، واتفق أركان الدولة على توليته، وكان له أخ أصغر منه بقليل اسمه يعقوب اتصف بالإقدام وعلو الهمة والطموح فخاف أمراء الدولة وقادة الجيش من أن يؤدي به هذا الطموح إلى الانشقاق والتمزق والانهيار، فاتفقت كلمتهم على قتله بالاستناد ـ وفقاً لما تزعمه المصادر الغربية ـ إلى فتوى شرعية تجيز القتل تجنباً للفتنة، بناء على قوله تعالى «والفتنة أشد من القتل». وقد يكون من الصعب الأخذ بمثل هذه الرواية أو رفضها، إذ من شأن أسرار مثل هذه الأحداث أن تموت مع أصحابها، غير أن الأمر الثابت هو أن يعقوب اختفى من مسرح الأحداث منذ استلام أخيه السلطنة.

باسم فيلادلفيا) [1] سنة ٧٩٤ هـ = ١٣٩١ م وهي آخر مدينة كانت قد بقيت للروم في آسيا. وهابه أمير (آيدين) [2] فترك له أملاكه وانتقل للعيش بسلام وأمن في إحدى المدن البعيدة عن النفوذ العثماني، وكذلك ترك أميرا (منتشا) [3] و(صاروخان) [4] ولايتيهما واحتميا عند أمير (قسطموني) [5]. وتنازل حاكم بلاد القرمان (علاء الدين) عن جزء كبير من بلاده للسلطان بايزيد حتى يؤمنه على الباقي. وبعد هذه الفتوحات التي تم أغلبها بدون حرب، عاد السلطان بايزيد إلى أوروبا وحارب امبراطور الروم (مانويل باليولوج) وحاصره في القسطنطينية، وبعد أن ضيق عليها الحصار، ترك حولها جيشاً كبيراً، وقاد جيشاً آخر لغزو بلاد الفلاخ (الأفلاق) فقهر أميرها (الدوق مانيس) وأكرهه على التوقيع على معاهدة اعترف فيها بسيادة الدولة العثمانية على بلاده، وتعهد بدفع جزية سنوية، مع إبقاء بلاده تحت حكمه، يحكمها بموجب قوانين أهلها وعاداتهم وتقاليدهم (وذلك سنة ٧٩٦ هـ = ١٣٩٣ م).

حاول أمير القرمان (علاء الدين) استرداد ما تنازل عنه من قبل للسلطان بايزيد، مستفيداً من انصراف بايزيد للقتال على جبهة أوروبا. فجهز جيشاً ضخماً، واستعان ببعض مجاوريه، وسار على اتجاه (أنقره) فاصطدم بجيش كان يقوده (ديمورطاش باشا) واستطاع علاء الدين الانتصار على هذا الجيش وأخذ قائده أسيراً. وعندما علم السلطان بايزيد بما حدث، قاد جيشه وسار به إلى الأناضول، واصطدم بجيش علاء الدين عند موقع يعرف باسم (آق جاي). وأسفرت المعركة عن انتصار بايزيد، وأسر علاء الدين ومعه ولديه محمد وعلي، وقام بايزيد بضم ما بقي من أملاك علاء الدين إلى بلاده، وبذلك تم القضاء على سلطنة القرمان، وصارت ولاية عثمانية. وأعقب ذلك

---

(١) آلاشهر (أو فيلادلفيا) - مدينة تقع في غرب الأناضول - إلى الشرق من مدينة أزمير.

(٢) آيدين: مدينة تقع في غرب تركيا، جنوب فيلادلفيا.

(٣) منتشا: مدينة جنوب آيدين - على بحر إيجه.

(٤) صاروخان: شمال إزمير - على بحر إيجه.

(٥) قسطموني: في شمال الأناضول، على بعد مائة كيلومتر تقريباً من البحر الأسود.

فتح إمارتي (سيواس وتوقات) [1] وكان آخر أمرائها يدعى (الغازي برهان الدين). وزالت من الوجود كافة الإمارات التي قامت على أطلال الدولة السلجوقية ـ ولم يبق منها إلا إمارة قسطموني، خارجة عن أملاك الدولة العثمانية ـ وكان أميرها يسمى بايزيد أيضاً ـ واحتمى ببلاده كثير من أولاد الأمراء الذين فتحت بلادهم، فكانوا بمثابة مركز قوى مضاد للسلطان بايزيد، ويظهر أنهم كانوا يحرضون الناس ضده، مما حمل السلطان بايزيد على توجيه طلب إلى أمير قسطموني بايزيد لتسليمه أولاد صاحب ايدين وصاروخان، فامتنع عن إجابة الطلب. الأمر الذي أرغم السلطان بايزيد على قيادة جيشه بنفسه، والتحرك بالسرعة لاجتياح أقاليم قسطموني، وفتح مدائن ساسون وجانك وعثمانجق، وبذلك انقرضت جميع الإمارات الصغيرة القائمة ببلاد الأناضول، وارتفع العلم العثماني خفاقاً منصوراً فوق صروحها. أما صاحب قسطموني بايزيد فلجأ إلى سلطان المغول التتار (تيمورلنك). ومع استمرار الحصار حول القسطنطينية، ضم السلطان بايزيد بلاد البلغار إلى الأملاك العثمانية، فصارت ولاية عثمانية مثلها كمثل باقي الولايات، بعد أن قتل أميرها شيشمان، وأسلم ابنه وعين حاكماً لسمسون سنة ٧٩٧ هـ = ١٣٩٤ م.

قد يكون من الطبيعي ومن المتوقع أن يتحرك الغرب الصليبي بعنف متصاعد لمجابهة القوة الإسلامية ـ العثمانية، وما ظنه الناس من أن الغرب الصليبي قد أغفل قضية (الصليبية) أو أنه أهملها ونسيها، لم يكن إلا وهماً كبيراً. فقد بقيت الروح الصليبية كامنة في انتظار لحظة دفعها للمقدمة. وقد اغتنم الغرب فرصة قيام السلطان بايزيد بفتح آيدين (فيدين) لبعث الروح الصليبية من مكمنها.

كان ملك المجر (سيجسموند لوكسمبرغ) [2] هو المحرض الأول للحرب

---

(١) سيواس وتوقات: مدينتان تقعان في شمال شرق تركيا.

(٢) سيجسموند لوكسمبرغ SIGIS MOND DE LUXEMBOURG ـ ملك المجر من سنة ١٣٨٧ حتى سنة ١٤٣٧ م، وملك رومانيا من سنة ١٤١١ حتى سنة ١٤٣٧ م وملك بوهيميا من سنة ١٤١٩ حتى سنة ١٤٣٧ م وهو تاريخ وفاته.

الصليبية في هذه المرة، فاستنجد بزملائه ملوك الغرب بحجة تعرض بلاده لخطر الأتراك المسلمين. وأصدر كل من بابا روما (بونيفاس التاسع) وبابا أفنيون (بنيدكت الثالث عشر) مرسوماً بالإعلان عن حملة صليبية جديدة. بينما كتب داعية الحرب الصليبية الكهل ـ فيليب مزيير ـ رسالة مفتوحة إلى ملك انكلترا ريتشارد الثاني طلب إليه التعاون مع ملك فرنسا شارل السادس في إعداد الحملة الصليبية المقبلة. وحصل سيجسموند على دعم قوي في ألمانيا بفضل علاقاته القوية معها، وقد انضم إليه أميري فالاشيا وتراتسلفانيا بسبب تخوفهما الشديد من زحف القوات التركية ـ الإسلامية، وذلك على الرغم من كراهيتهما الشديدة للمجريين.

أما في الغرب، فقد أعرب أمراء ـ دوقات ـ بورغونيا وأورليان ولانكستر عن رغبتهم في بذل المساعدة، ووصلت إلى البندقية ـ فينيسيا ـ في شهر آذار ـ مارس ـ سنة ١٣٩٥ م، سفارة مجرية برئاسة رئيس أساقفة جران (نقولا كانيزاي) بمهمة اقناع دوق البندقية لنقل قوات الحملة على سفن البنادقة. وعندما حصلت السفارة على وعد بتلبية طلبها، انتقل السفراء الى ليون، حيث لقوا ترحيباً كبيراً من دوق بورغونيا (فيليب الجسور) الذي وعدهم بالدعم والمساعدة. ثم قاموا بزيارة (ديجون) لتقديم فروض الاحترام لدوقة الفلاندر (مرغريت) وتوجهوا بعدها إلى (بوردو) للاجتماع بخال ملك انكلترا (دوق لانكستر يوحنا) الذي تعهد بإعداد فرقة انكليزية. وارتحلوا من بوردو الى باريس، وكان ملك فرنسا شارل السادس يعاني يومها من نوبة جنون، غير أن أوصياءه عرضوا بأن يشجعوا النبلاء الفرنسيين على الاشتراك في الحملة الصليبية.

وهكذا بدأ حشد جيش دولي ضخم تحت راية الحملة الصليبية. ونظراً لما يحتاجه هذا الجيش من التمويل، فقد عمل دوق بورغونيا على فرض ضرائب خاصة أمكن بواسطتها جمع مبلغ ضخم قدره سبعمائة ألف فرنك ذهب، وأضاف إليه النبلاء الفرنسيون منفردين ما أسهموا به من أموال، فبذل كونت لاتريموي (جاي السادس) مبلغ أربعة وعشرين ألف فرنك. واتفق النبلاء الفرنسيون والبورغونيون على اسناد قيادتهم إلى أكبر أبناء دوق بورغونيا (يوحنا كونت نيفر) الذي كان شاباً نشيطاً لم

يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره. غير أنه نظراً لحداثة سنه، فقد تم تشكيل مجلس للشورى ضم ابن دوق بار (فيليب) وجاي لاتريموي وأخيه وليم، وأمير البحر سَيد ڤيينا (يوحنا) وسيد شاسيرون (أدوارد). وجرى دعوة أعضاء هذا المجلس للاجتماع في (ديجون) في ٢٠ نيسان - أبريل - سنة ١٣٩٦ م (٧٩٩ هـ) وأصدر دوق بورغونيا قرارات حافلة بالحذر والحرص، عن نظام سير الحملة، وسلوك العساكر الفرنسية والبورغونية.

أسرع السفراء المجريون بالعودة إلى (بودا)[1] لإعلام الملك سيجسموند بما تحقق لهم من النجاح، ولينصحوه بالمضي في استعداداته، وأعقب ذلك تحرك جيش من عشرة آلاف رجل، للسير عبر ألمانيا إلى (بودا). وانضم إليه أثناء الطريق ستة آلاف من الألمان بقيادة كونت بلاتين (روبرت بن روبرت الثاني كونت فيتنباخ) و(إبيرارد كونت كاتسنيلنبوجق) وسار في أعقابهم عشرة آلاف محارب انكليزي بقيادة (ايرل هنتنجدون) وهو أخ غير شقيق للملك ريتشارد. ووصلت الجيوش الغربية إلى بودا في نهاية شهر تموز - يوليو - سنة ١٣٩٦ م. فوجدت أن الملك سيجسموند قد نجح في حشد جيش من ستين ألف رجل، وانحاز إليه حاكم والاشيا (ميركيا فويفود) ومعه عشرة آلاف رجل أيضاً. وقدم من بولنده وبوهيميا وإيطاليا واسبانيا حوالي ثلاثة عشر ألف رجل من المغامرين المرتزقة.

فكان هذا الجيش المتحد الذي زاد عدد مقاتليه على مائة ألف محارب، هو أضخم ما حشده الفرنج الصليبيون لقتال المسلمين.

وفي تلك الأثناء، دخل إلى البحر الأسود أسطول تولى قيادته فرسان القديس حنا الأورشليمي (الاسبتارية سابقاً) بقيادة مقدمهم (فيليبرت ناياك) ومعه سفن البنادقة والجنويين، وألقى هذا الاسطول مراسيه عند مصب نهر الدانوب.

كان السلطان بايزيد يحاصر القسطنطينية عندما وصلته المعلومات عن احتشاد قوات،

---

(١) بودا: (BUDA) وبالالمانية اوفن (OFEN) مدينة اتحدت مع مدينة بست (PEST) في سنة ١٨٧٣ م، فشكلتا عاصمة هنغاريا. وتقع بودابست (BUDAPEST) على نهر الدانوب.

الحملة الصليبية في بلاد المجر، فعمل على حشد كل ما استطاع حشده من القوات فوراً، وأمكن له جمع جيش يناهز قوة جيش الفرنج الصليبيين (مائة ألف رجل). وتوجه به نحو الشمال، الى نهر الدانوب، فكان تحركه أسرع من تحرك قوات الفرنج.

لم يتعلم فرسان الغرب شيئاً من تجربة استمرت ثلاثة قرون، فعندما جرت مناقشة خطة الحملة في (بودا) نصح الملك سيجسموند بالاعتماد على خطة دفاعية، إذ كان يعلم ما عليه خصمه من القوة، فاعتقد أنه لمن الخير أن يستدرج الأتراك إلى داخل بلاد المجر، ثم يهاجمهم من مواقع سبق إعدادها وتجهيزها. ولم يختلف الملك سيجسموند عن الأباطرة البيزنطيين أثناء الحملات الصليبية المتقدمة، إذ أنه اعتقد أن سلامة العالم المسيحي تتوقف على المحافظة على مملكته. غير أن حلفاءه كانوا بدورهم كالمحاربين الصليبيين الأوائل، يرون الاعتماد على خطة هجوم كبير، يمكن بواسطته التغلب على الأتراك المسلمين، مما يفسح المجال أمام الجيوش الصليبية المنتصرة للتقدم في الأناضول، والوصول إلى بلاد الشام، ومدينة القدس، واظهر الفرنج من الشدة ومن العنف ما حمل سيجسموند على الاذعان. وشرع الجيش المتحد في سيره على امتداد الشاطىء الأيسر لنهر الدانوب، حتى بلغ اورسوفا، عند الباب الحديدي، وعبر منها إلى بلاد السلطان. وانقضت ثمانية أيام في نقل الجيش الصليبي في الزوارق عبر النهر، ثم سار جند الجيش ازاء الشاطىء الجنوبي حتى مدينة آيدين (فيدين). وكان حاكم آيدين أميراً بلغارياً اسمه (يوحنا سراخيمير). وكان من أتباع السلطان الذي لم يترك في المدينة إلا حامية صغيرة من الأتراك المسلمين، فلما وصل الفرنج إلى المدينة، انضم إليهم يوحنا سراخيمير، وفتح إليهم أبواب المدينة، ودارت مذبحة أبيدت فيها قوة الأتراك المسلمين. اندفع بعدها الفرنسيون بما عرف عنهم من العنف والتهور بقيادة كونت ايه (فيليب أرتوا) ويوحنا لي مينجر المعروف باسم (المارشال بوسيكوه) وهدفهم الوصول إلى المدينة التالية الواقعة على النهر، وهي مدينة راهوفا، التي كانت تشكل معقلاً منيعاً يحيط به خندق وسوران وتدافع عنه حامية تركية ضخمة. واصطدمت قوات الفرسان الفرنسيين بمقاومة ضارية، وكادت تتعرض للإبادة لو لم يسرع سيجسموند لزج جنده المجريين. ولم يكن باستطاعة الحامية التركية الاستمرار في

مقاومتها طويلاً أمام ثقل هجمة الحملة الصليبية بكاملها، فتم اقتحام (راهوفا) وتعرض للقتل بالسيف جميع سكانها، باستثناء ألف رجل من كبار الأغنياء، احتفظ بهم الفرنج للحصول على فدية ضخمة.

تحرك الجيش الصليبي بعدئذ من راهوفا إلى (نيقوبوليس) التي اعتبرت يومئذ أهم معقل للأتراك المسلمين على نهر الدانوب، وهي تقع في الموضع الذي يصل فيه الطريق القادم من وسط بلغاريا الى النهر. وتم تشييد هذا الحصن بجوار النهر على تل مرتفع، توجت منحدراته الحادة بخطين من الأسوار المنيعة.

لم يحمل الفرنج الصليبيون معهم أدوات الحصار، إذ لم يدرك هؤلاء الغربيون الحاجة إليها، ولم يستعد سيجسموند إلا لاتخاذ خطة الدفاع. وإذ تبين أنه لا فائدة من السلالم التي نصبها الفرنسيون في عجلة، ولا للنقوب التي حفرها المهندسون المجريون، توقع الجيش الصليبي استسلام المدينة حتى لا تهلك جوعاً. وساعدهم على ذلك قدوم اسطول الاسبتاريه الذي سار بالدانوب ووصل إلى أمام أسوار المدينة يوم ١٠ - أيلول - سبتمبر - غير أن المؤن كانت وفيرة في نيقوبوليس، كما أن والي المدينة التركي (دوغان بك) الذي علم بمصير إخوانه في آيدين وراهوفا، لم يكن مستعداً للاستسلام.

اضطر الجيش الصليبي للتوقف مرغماً أمام أسوار نيقوبوليس، وكان هذا الارجاء والتمهل قاتلاً للروح المعنوية، فمضى فرسان الغرب لقضاء الوقت في شرب الخمر ولعب القمار وارتكاب كل أنواع الفسق والفجور. وإذ تجاسر بعض العساكر للتذكير بأن جند المسلمين هم أعداء أشداء، أمر المارشال بوسيكوه بصلم آذانهم عقاباً لهم على روحهم الانهزامية. ووقعت المشاجرات بين مختلف كتائب الجيش، بينما أخذ أتباع سيجسموند من الترنسلفانيين والولاشيين في التصريح عن نواياهم بالتخلي عن الجيش والانسحاب من الحملة.

كانت قوات الحملة الصليبية قد أمضت أسبوعين أمام نيقوبوليس عندما وصلتها المعلومات عن اقتراب الجيش التركي من المدينة.

فقد تحرك جيش السلطان على عجل من تراقيا، كان خفيف التسليح، فاق

فرسانه خيالة الفرنج في سرعة الحركة، واشتهر رماته بروعة التدريب، وتأصل عنده اكتمال النظام والطاعة التامة لقيادة السلطان وحده، والذي اشتهر بالكفاية النادرة.

وكانت بعض قوات الاستطلاع الإسلامية قد تقدمت على الجيش، فاصطدمت بكتيبة فرنسية كان يقودها (سيدكوسى) عند أحد دروب البلقان، وتمكنت الكتيبة الفرنسية من إلحاق الهزيمة بقوات الاستطلاع، مما أثار حقد المارشال بوسيكوه وغيرته. فاتهم كوسى بمحاولة سلب شرف الانتصار من كونت نيفر (يوحنا). مما منع كل محاولة أخرى لوقف الزحف التركي، وأثناء ذلك قرر الفرسان الفرنسيون أن يقتلوا جميع أسرى المسلمين، والذين كانوا قد أسروهم في راهوفا.

أضحت مقدمة الجيش التركي ظاهرة للعيان، فعسكرت في التلال على مسافة ثلاثة أميال من معسكر الجيش الصليبي. وقبل شروق شمس اليوم التالي، قام سيجسموند بزيارة لزملائه القادة، وتوسل إليهم أن يلتزموا بخطة الدفاع، ومع أنه لم يخطرهم صراحة بأنه لم يعد يثق بجنده من الترانسلفانيين والولاشيين، فإنه لم يلق التأييد إلا من (كوسي) ومن سيد ڤينا (يوحنا). بينما عزم القادة الآخرون على المبادرة لبدء المعركة فوراً، ولم يبق أمام سيجسموند إلا الإذعان في ضعف لإرادة الأكثرية، فنظم جيشه وجعله في ثلاثة أقسام: فوضع قوات المجريين في قلب الجيش، بينما تركت الميسرة للمقاتلين الولاشيين وتركت الميمنة للترانسلفانيين، وتألفت مقدمة الجيش من جميع القادمين من الغرب بقيادة كونت نيفر.

أشرقت شمس يوم الاربعاء ٢٣ ذي القعدة سنة ٧٩٨هـ = ٢٧ أيلول - سبتمبر - سنة ١٣٩٦م. ولم يظهر على منحدر التل من الجيش الإسلامي سوى الخيالة الخفيفة الذين لم يكونوا من القوات النظامية. واتخذ المشاة - الرجالة - مواقعهم ومعهم الرماة، وراء حاجز مصنوع من الأعمدة الخشبية المدببة، أما القوة الرئيسية من الخيالة الصبايحية - السباهية - والتي كانت بقيادة السلطان بايزيد ذاته، فإنها بقيت مختفية في قمة التل، وكان على ميسرة السلطان فرقة

من الخيالة الصربيين بقيادة الأمير (اسطفان لازاروفيتش) والذي برهن على أنه من الاتباع المخلصين للسلطان.

أكدت المعركة، بالمقارنة مع مخططات المعارك الحربية السابقة، أن الفرنج الصليبيين لم يتعلموا شيئاً من كافة التجارب القتالية مع المسلمين، فقد اندفع فرسان الغرب للهجوم بالمقدمة، دون أن يعلموا سيجسموند بعزمهم على الهجوم، وما اشبعو به من الحماسة حملهم على مهاجمة التل، ونجحوا في دحر قوات الفرسان الترك الذين انسحبوا الى ما وراء المشاة ـ الرجالة ـ وأعادوا تنظيم صفوفهم. واضطر فرسان الفرنج للترجل عن خيولهم لاقتلاع أعمدة الحاجز التي كانت تعيق تحركهم، واضطروا للقتال مترجلين، مع اقتلاع الأعمدة كلما تقدموا. وأمكن لهم بهجماتهم تشتيت المشاة ـ الرماة ـ الذين انسحبوا بدورهم إلى ما وراء صف فرسانهم الذين أعادوا تنظيمهم من جديد، وظن فرسان الفرنج أنهم قد حققوا نصراً بما حصلوا عليه من الأرض، فأسرعوا في نشوة ظفرهم الخادعة نحو قمة التل، وقد تحاملوا على ما أصابهم من التعب والارهاق، وإذ ذاك وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام فرسان السلطان ـ الصبايحية ـ والصربيين، والذين لم يجدوا صعوبة في الانقضاض على هؤلاء الفرسان المترجلين والذين حلّ بهم التعب، ونال منهم الظمأ، وأرهقهم ما كانوا يحملونه من الأسلحة الثقيلة، فلم ينج من القتل إلا عدد قليل من فرسان الفرنج، فكان ممن هلكوا، وليم لاتريموي وابنه فيليب، ويوحنا كادزوه أمير البحر في الفلاندر، ومقدم الفرسان التيوتون. أما سيد ڤيينا يوحنا وأمير البحر في فرنسا فإنه وقع في الأسر وهو ممسك بلواء نوتردام الكبير الذي كان موكولاً إليه أمر المحافظة عليه، ولم ينج كونت نيفر يوحنا من القتل إلا لأن خدامه هتفوا باسمه وأقنعوه بالإذعان والاستسلام. ووقع معه في الأسر كونتات إيه، ولامارش، وجاي لي تريموي، وانجيراند كوسي، والمارشال بوسيكوه.

اندفعت خيول الفرنج راجعة وحدها إلى المعسكر الصليبي، بعد أن تخلى عنها فرسانها، فقررت الكتيبتان الولاشية والترانسلفانية الانسحاب فوراً لقناعتها بخسارة المعركة، وقامتا بالاستيلاء على كل ما عثرتا عليه من الزوارق لتعبرا بها النهر ـ غير أن سيجسموند أمر جنده بالتقدم لنجدة فرسان الغرب، فقتلوا أثناء سيرهم إلى أعلى

التل، وعندما وصل من بقي منهم إلى أعلى التل، حمل عليهم فرسان السلطان، وطردوهم الى ضفاف النهر بعد أن أنزلوا بهم أفدح الخسائر. ولما تمزق جيش سيجسموند شر ممزق، اقتنع سيجسموند بأنه لم يبق أمامه ما يعمله، فلجأ إلى إحدى سفن البندقية في النهر، فنقلته إلى القسطنطينية، وارتحل منها إلى بلاده عن طريق بحر إيجه والبحر الأدرياتي، إذ كان يخشى أن يرتحل براً، لارتيابه في خيانة الولاشيين له، أما عساكره وفئة قليلة ممن بقي على قيد الحياة من الصليبيين الغربيين، فإنهم بذلوا كل ما بوسعهم من جهد لالتماس الطريق إلى بلادهم، بعد أن أزعجهم السكان الوطنيون المعادون لهم. وافترست ما أرادت الحيوانات المتوحشة افتراسه منهم، فضلاً عن شدائد فصل الشتاء الذي بدأ مبكراً في تلك السنة.

أحرز السلطان بايزيد انتصاراً رائعاً، غير أن خسائره كانت فادحة: وتذكر وهو في ثورة غضبه ما ارتكبه الصليبيون من مذابح، فأمر بقتل الأسرى الذين زاد عددهم على ثلاثة آلاف أسير.

ولم يبق إلا على حياة عدد قليل من النبلاء الذين تعرف عليهم فارس فرنسي كان يجيد التحدث باللغة التركية، فأوفده السلطان بايزيد إلى الغرب للحصول على فدية ضخمة مقابل إطلاق سراح هذه الفئة القليلة من النبلاء. على أنه لم تصل سفارة من الغرب إلى عاصمة السلطان في (بورصة) إلا في شهر حزيران - يونيو - من السنة التالية، فسلمته ما طلبه من المال الذي دفع معظمه الملك سيجسموند ودوق بورغونيا اللذين قدما أكثر من مليون فرنك. ولما أطلق السلطان بايزيد سراح الكونت دي نيفر - تقدم هذا الى السلطان، وأقسم أمامه أنه لن يعود لمحاربة السلطان بايزيد أبداً، فأجابه بايزيد:

«إني أجيز لك أن لا تحفظ هذا اليمين، فأنت في حل من الرجوع لمحاربتي، إذ لا شيء أحب إلي من محاربة جميع مسيحي أوروبا، والانتصار عليهم».

لقد اعتبر الغرب الصليبي - مؤرخيه وكتابه - بأن حملة نيقوبوليس هي أضخم الحملات الصليبية الكبيرة وآخرها.

إذ أن طابعها التاريخي قد احتذى بدقة نهج الحملات الصليبية التي تعرضت

في السابق للكوارث، وكل ما بينها من اختلاف أن ساحة المعركة لم تعد في آسيا بل انتقلت إلى أوروبا. وما وقع فيها من أخطاء وحماقات كانت واحدة.

لقد جاء الفرنج وهم يريدون طرد المسلمين الأتراك من أوروبا، وربما الوصول إلى بلاد الشام، غير أن النتيجة كانت خلافاً لما أرادوا، فقد وصل المسلمون الى نهر الدانوب وشواطىء البحر الأدرياتي، وصار بوسعهم مجابهة تحدي الغرب في جوف العالم الصليبي. ومع أن القسطنطينية بقيت تحت حكم المسيحيين، إلا أنها صارت معزولة. ولم يبق للإجهاز عليها إلا أن تتوافر للسلطان مدفعية قوية تستطيع دك أسوارها الضخمة، مع ما يكفي من السفن لقطع طرق مواصلاتها البحرية. أما فرسان الاسبتارية في رودس، والسادة الإيطاليون الذين فرضوا هيمنتهم على بحر إيجه، فقد وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام قوة الأتراك العثمانيين. ولما يعد باستطاعة ملك المجر وزعماء ألبانيا وحاكمي والاشيا ومولدافيا ضمان الدفاع عن حدود بلادهم، وصار لزاماً عليهم الخضوع للعثمانيين أو التماس الدعم والمساعدة من الغرب. وعكفت الجمهوريات الإيطالية على إعادة تقويم مواقفها، للبحث عن أفضل الوسائل التي تضمن لها المحافظة على مصالحها التجارية المرتبطة بالعالم الإسلامي. واشتد إدراك البابا لما بات يواجه العالم الصليبي، غير أن دول الغرب فقدت حماستها واهتمامها بقضية الصليبية، بعد الكارثة التي نزلت بالحملة الأخيرة، بل إن البابا نفسه ظلّ يتآمر في بلاد المجر لعزل سيجسموند، وإحلال ملك نابولي (لاديسلاس) مكانه، بصرف النظر عما قد تنزله الحرب الأهلية من ضرر بأسباب الدفاع في أوروبا الوسطى، وإذ أضحى ملك فرنسا سيداً على جنوه من سنة ١٣٩٦ م حتى سنة ١٤٠٩ م، فقد بلغ من شدّة انزعاجه على مصير المستعمرة الجنوية (بيزا) المواجهة للقسطنطينية، أنه أرسل ألف ومائة رجل بقيادة المارشال بوسيكوه، الى البوسفور في سنة ١٣٩٩ م، ولكن المارشال بوسيكوه اضطر للانسحاب لافتقاره للمال. وارتحل امبراطور الروم (مانويل الثاني) الى الغرب للحصول على المساعدة. ولكن، وبينما الغرب يبحث عن حل لمشكلاته، وبينما السلطان بايزيد يضع مخططاته، كانت الأعاصير المدمرة تتجمع في الشرق لتقلب الأمور رأساً على عقب.

٤ ـ تيمورلنك ـ وتجاوز العثمانيين للنكبة.

تنفس العالم الإسلامي الصعداء عندما انزاح عن صدره كابوس المغول ـ التتار ـ الذين دمروا حاضرته الإسلامية بغداد، ووصلوا في تقدمهم حتى عين جالوت. في فلسطين، ثم ارتدوا عنها خائبين (سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٥٩ م). وتفاءل المسلمون خيراً باعتناق هؤلاء المغول ـ التتار ـ الإسلام ديناً، عسى أن يبدل الإسلام من طبيعتهم، ويهذب من نفوسهم. غير أن روح المغول الأصيلة لم تلبث أن بعثت من مرقدها بعنف أكبر، وبقوة أشد، مع ظهور زعيم طموح وقوي هو (تيمورلنك)[1] الذي استطاع في سنة ٧٧١ هـ = ١٣٦٩ م، أن يعيد تنظيم أمور المغول، ليبدأ من جديد في توسيع ممتلكاته بشن سلسلة متصلة من الحروب التي لا تعرف الرحمة أو الشفقة، والتزم أول الأمر التؤدة والتمهل والحذر، حتى إذا ما شعر بامتلاكه للقدرة الكافية، عمل على تصعيد حروبه، وزيادة حركته، فاجتاح بلاد الايلخانية المغولية في فارس ما بين سنة ٧٨٣ هـ = ١٣٨١ م وسنة ٧٨٨ هـ = ١٣٨٦ م واستولى على تبريز وتفليس، وانصرف في السنوات الأربع التالية الى توسيع حدوده الشمالية، واستولى على بغداد سنة ٧٩٥ هـ

---

(١) تيمورلنك (تيمور الأعرج) قائد مغولي، وملك مشهور (٧٣٧ ـ ٨٠٨ هـ = ١٣٣٦ ـ ١٤٠٥ م) بدأ حياته أميراً صغيراً في قبيلة تركية مغولية. وكان قد ولد في كش من أعمال ما وراء نهر سيحون (سيراداريا) وهو ينتسب إلى جغتاي ثاني أبناء جنكيز خان، وقد سيطر على ممتلكات جغتاي وجعلها امبراطورية عاصمتها سمرقند، وانطلق لتوسيع ممتلكاته، وبالرغم من أنه كان مسلماً، إلا أن اعتناق المغول للإسلام منذ عهد قريب، لم يؤثر فيهم تأثيراً عميقاً. فسار تيمور على نهج أسلافه التتار، واشتهرت حروبه بالقسوة والوحشية، ولم يمنعه اعتناقه للإسلام من خوض حروب شعواء ضد الاقاليم الإسلامية، والتصدي للدولة العثمانية الإسلامية ومحاولة تدميرها. غير أن الامبراطورية التي أنشأها لم تكن راسخة الجذور، فتمزقت وانهارت بعد موته في أطرر (أترار)، ولم تلبث أن انصهرت في بوتقة العالم الإسلامي.

= ١٣٩٢ م، وتوجه بعدئذ بثقل حملاته الى روسيا لقتال المغول الإسلام (القبيلة الذهبية) ومضى في توغله حتى بلغ موسكو، ثم ظهر في شرق الأناضول سنة ٧٩٨ هـ = ١٣٩٥ م فدانت له أرزنجان وسيواس، وفتح شمال الهند بحملة مثيرة سنة ٨٠١ هـ = ١٣٩٨ م، زاد من أثرها وقوتها ما أجراه من مذابح رهيبة. ثم تحول من جديد في سنة ٨٠٣ هـ = ١٤٠٠ م صوب الغرب فاجتاح بلاد الشام ونهب واستباح المدن الكبيرة جميعها، ونشبت ضده في السنة التالية ثورة في بغداد، فأصدر تيمورلنك أمره بتدمير المدينة التي لم تكد تنتعش من أثر الدمار الذي أنزله هولاكو بساحتها قبل قرن ونصف القرن.

لم يبق بذلك أحد من قادة العالم الإسلامي ممن لم يخضعه تيمورلنك لسلطان باستثناء مصر التي كانت يومهاتحت حكم المملوكي برقوق ومن بعده المملوكي فرج، وإلا الدولة العثمانية التي كانت يومئذ تحت حكم السلطان بايزيد. فقاد تيمورلنك حشوده إلى الأناضول، وقد وطد العزم على قهر السلطان العثماني. ولم تكن هناك حاجة لافتعال أسباب الحرب، فقد كانت هذه الأسباب متوافرة، إذ أن ما قام به السلطان بايزيد من فتوحات، دفعت كثيراً ممن فقدوا إماراتهم وممالكهم إلى التماس الدعم من تيمورلنك واللجوء إليه، من أمثال سلطان قرمان وأمراء قيسارية وتوقات وسيواس وقسطموني. ومقابل ذلك، فعندما اجتاح تيمورلنك بغداد، لجأ أميرها (أحمد جلاير) إلى السلطان بايزيد وانتصر به، فأرسل تيمورلنك إلى بايزيد وطلب تسليمه أمير العراق، وكان من المتوقع أن يرفض بايزيد مثل هذا الطلب، وهكذا أصبح وقوع الحرب أمراً لا مفر منه. وبدأ تيمورلنك أعماله العدوانية ضد العثمانيين باحتلال سيواس، وإبادة حاميتها ذبحاً بالسيف، ولم ينج من هذه المذبحة أحد بمن فيهم (أرطغرل) أكبر أبناء بايزيد، ثم أمضى الشتاء التالي (١٤٠١ - ١٤٠٢ م) في (قره باغ) فيما وراء القوقاز (القبق) بين نهري كور، وآراس، وهناك أعد العدة للمعركة الحاسمة ضد العثمانيين. حتى إذا ما أطل ربيع سنة ١٤٠٢ م، بدأ تيمورلنك هجومه متقدماً نحو سهل أنقره - من طريق أرزنجان وتوقات وسيواس، وهنا ارتضى بايزيد خوض المعركة عند جبق آباد (جبوق آباد).

فاصطدم الجيشان في صباح يوم ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤ هـ (٢٠ تموز - يوليو - سنة ١٤٠٢ م) ولم يظهر الجند العثمانيون في حربهم هذه ضد إخوانهم في الإسلام تلك الحماسة الدينية التي ألهبت مشاعرهم في حروبهم الاخرى. كما أن جند السلاجقة عملوا عندما اصطدموا بالمغول على الانضمام إلى المغول وقد رأوا أمراءهم السابقين يقاتلون تحت راية تيمورلنك،

وبالرغم من ذلك فقد قاد بايزيد معركته بكفاءة نادرة طوال اليوم، وصمد معه عشرة آلاف من الانكشارية وأسفرت المعركة في نهاية اليوم عن وقوع السلطان بايزيد أسيراً في قبضة خصمه تيمورلنك، وأسر معه ابنه موسى، وهرب أولاده، سليمان ومحمد وعيسى، أما ابنه الخامس مصطفى، فقد اختفى كل أثر له. وحاول بايزيد الفرار ثلاث مرات، وفشل في محاولاته، فوضعه تيمورلنك في قفص من حديد حتى مات في ١٥ شعبان سنة ٨٠٥ هـ (١٠ - آذار - مارس - سنة ١٤٠٣ م) وإذ ذاك سمح تيمورلنك لابنه موسى بنقل جثته إلى عاصمته (بورصة) ودفنه هناك بجانب السلطان مراد.

لقد ظهر يومها أن النكبة المدمرة قد نزلت بساحة الدولة العثمانية، بحيث أنه لن تقوم لهذه الدولة بعدئذ قائمة. وزاد من عمق النكبة ما لجأ إليه تيمورلنك من تفتيت الدولة العثمانية عن طريق إعادة بعث الكيانات السلجوقية السابقة، فأعاد أمراء قسطموني وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا، وقرمان إلى إماراتهم.

ولكنه أبقى الروم ايللي (الروملي) للعثمانيين، فآلت الى سليمان بن بايزيد، على أن يحكمها تحت إشراف تيمورلنك، وأن يعترف بالتبعية له. واستقل في هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاخ، ولم يبق تابعاً للراية العثمانية إلا قليل من البلدان.

لم يعمر تيمورلنك بعد انتصاره على بايزيد طويلاً، ومات بينما كان يشن حملة على بلاد الصين. فقام ابنا تيمورلنك (شاه رخ) و(ميران شاه) على اقتسام امبراطوريته إلى قسمين: قسم غربي وقسم شرقي يفصل ما بينهما خط ممتد على محاذاة نجد ايران. وقد

اضطر (ميران شاه) وقد آل إليه أمر العراق وأذربيجان وأجزاء من بلاد القبق (القوقاز) إلى أن يخضع لسلطان أخيه، ليقتل سنة (٨١١ هـ = ١٤٠٨ م) في معركة خاضها ضد زعيم جماعة من التركمان تدعو نفسها قره قيونلي (الخروف الأسود) وتنازع هؤلاء وخصومهم آق قيونلي (الخروف الأبيض) على امتلاك الولايات الشمالية الغربية التابعة لشاه رخ الذي وحد الامبراطورية تحت لوائه، بعد وفاة أخيه. غير أن خلفاء (شاه رخ) لم يتمكنوا من المحافظة على تلك الامبراطورية التي تركها تيمورلنك، ولم يبق من هذه الامبراطورية غير ذكريات المذابح والنكبات.

كان الصراع قد نشب بين أبناء بايزيد بعد استشهاده مباشرة. وحاول سليمان في بداية الأمر إعادة تنظيم الدولة العثمانية، فاتخذ من مدينة أدرنة عاصمة له، بينما هرب محمد - الذي كان أشد إخوته بأساً وأكثرهم نشاطاً، واتجه صوب الشرق، حيث أمكن له الاعتصام في الجبال المحيطة بأماسية وتوقات، واستمر في حرب جنود تيمورلنك. أما عيسى الذي كان مختفياً في مدينة (بورصة) فإنه جمع من كان معه من الجند، وأعلن نفسه خليفة آل عثمان، وأيده القائد (ديمورطاش باشا) وشرع الإخوة في شن الحروب بعضهم ضد بعض، واستعانوا جميعاً بتيمورلنك، واستنجدوا به، فاستقبل وفودهم بكل ارتياح، وشجعهم على المثابرة والصمود في الحرب، وهدفه أن يفني بعضهم بعضاً، فلا تقوم للعثمانيين دولة.

أدرك سليمان مدى الحاجة للحلفاء، فتوجه إلى ملك الروم البيزنطيين (ايمانويل الثاني) وتحالف معه ضد إخوته، وتنازل له عن مدينة سلانيك وسواحل البحر الأسود وتزوج من إحدى قريبات ملك الروم. أما محمد، فقد حاول الاتفاق مع أخيه عيسى لاقتسام الممتلكات الآسيوية بينهما (سنة ٨٠٦ هـ = ١٤٠٣ م) لكن عيسى رفض ذلك فما كان من محمد إلا أن هاجم أخاه الأكبر عيسى وهزمه عند (أولوباد) ثم اندفع نحو بورصة، مما حمل عيسى على الفرار إلى بيزنطة. ووجد سليمان أن يستفيد من أخيه عيسى ضد أخيه محمد، فجهزه بجيش جديد. وقاد عيسى هذا الجيش نحو الأناضول (آسيا الصغرى) ولكنه مني فيها بالهزيمة مرة أخرى، ولقي حتفه في قرمان. ولم يلبث سليمان أن قاد بنفسه جيشه في نهاية سنة ٨٠٧ هـ = ١٤٠٤ م وعبر مضيق الدردنيل،

وأخرج محمداً من (بورصة) حتى إذا كانت السنة التالية أخرجه من أنقرة أيضاً. وعندها قاد موسى هجوماً على بلاد الروملي - وموسى هذا هو رابع أبناء بايزيد كان قد أسر في أنقره ثم أطلقه أمير كرميان السلجوقي، فحصل على تأييد الصرب ودعمهم، ووجهه أخوه محمد لحرب أخيهما سليمان، غير أن سليمان هزم أخاه موسى، في القرن الذهبي، قرب القسطنطينية، وطارده في الدردنيل. ولكن موسى عاود الهجوم على قوات أخيه سليمان - بعد ثلاث سنوات - وهزمه بسبب خيانة أصحابه له، ولاذ سليمان بالفرار (سنة ٨١٣ هـ = ١٤١٠ م) إلا أن الفلاحين قاموا بقتله.

كان من المفروض أن يعترف موسى بسيادة أخيه محمد، إلا أنه لم يفعل، واستهل عهده بحملة انتقامية على الصرب الذين وقفوا ضده قبل ثلاث سنوات وألحقوا به الهزيمة، ففتح (تسالية) حتى إذا ثقلت وطأته على الامبراطور (إيمانويل) تحالف الامبراطور ومحمداً ضده. وقد تم هذا التحالف على يد سفير موسى نفسه، وكان قد عهد إليه في جمع الجزية ببيزنطه، فخلع طاعة مولاه، والتحق بخدمة محمد. وانتهى أول هجوم قام به الحليفان سنة ٨١٣ هـ = ١٤١٠ م الى الإخفاق والفشل - عند (يا جيغيز). وانهمك محمد بعدئذ وطوال السنتين التاليتين، بمحاربة أميري أزمير وأنقرة في آسيا الصغرى، ولم يفرغ لاستئناف الهجوم في أوروبا إلا سنة ٨١٥ هـ = ١٤١٢ م، وبينما كانت جيوش موسى تعسكر على أبواب القسطنطينية، اندفع محمد في اتجاه الشمال حتى نيش، ليتعاون مع الصرب الذين أعلنوا الحرب على موسى. فلما كان الصيف التالي تقدم وحلفاءه من الصرب جنوباً، فلم يكن من موسى إلا أن سار في سنة ٨١٦ هـ (١٠ - تموز - يوليو - ١٤١٣ م) لملاقاتهم على سهل (جامورلي) الضيق - عند منبسط نهر إسكار شرقي صوفيا - ولكنه هزم بعد مقاومة باسلة، وأسر فيما هو يلوذ بالفرار، ليقتل خنقاً في معسكر أخيه. وكافأ محمد الصرب واليونان على مساعدتهم، فمنحهم بعض الامتيازات الإقليمية. واعترف معظم الامراء الصغار في أوروبا وآسيا بسيادة محمد عليهم بعد مقاومة قصيرة. وقد حاول محمد طرد البنادقة الذين كانوا يسيطرون على بحر إيجه من هذا الممر الحيوي، أو اخضاعهم لطاعته، فتصدت له البندقية، ودمرت له أسطوله عند (غاليبولي) سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م). وكان لا بد

من انتظار ظروف أفضل لتطوير الصراع على هذه الجبهة المائية.

أصبح محمد بذلك هو الوريث الوحيد للسلطان بايزيد، بعد أن أزال من طريقه إخوته المنافسين له، وحمل اسم (**السلطان الغازي محمد جلبي**) [1]. فانصرف بكل جهده لإعادة تنظيم دولته داخلياً، وإلى إحباط التحديات الخارجية، وكان لا بد قبل كل شيء من القضاء على مخلفات التدمير الذي تركته أعمال تيمورلنك، وكان باستطاعة السلطان محمد الإفادة من الظروف المحيطة به، إذ بينما كانت دولة المغول التتار تأخذ طريقها نحو التمزق والانهيار، كانت الدولة العثمانية تستأنف إعادة بناء قدرتها على طريق الصراع المتصاعد.

انتهج السلطان محمد سياسة جمعت بين الشدة واللين في تعامله مع خصومه ومناوئيه، وكانت مدة حكمه كلها حروباً داخلية هدفها القضاء على مراكز القوى المناوئة، واسترجاع الأقاليم أو الإمارات التي استقلت خلال مرحلة الفوضى التي أعقبت استشهاد السلطان بايزيد. ولما كان هذا العمل يحتاج إلى استقرار في العلاقات الخارجية، فقد حرص السلطان محمد على الإبقاء على تحالفه مع ملك الروم البيزنطيين، وردّ له البلاد التي فتحها أخوه موسى، واستمر في الوفاء بعهوده حتى آخر حياته. وانصرف لاخضاع إمارة القرمان التي كانت قد استقلت وشكلت مركزاً رئيساً من مراكز القوى المضادة، فحارب أميرها وقهره، ولم يلبث أن عفا عنه عندما أقسم هذا على القرآن الكريم بأن لا يخون الدولة فيما بعد، ثم عاد فعفا عنه ثانية بعد أن حنث في يمينه. وكذلك فعل مع أمير أزمير (قره جنيد) الذي حاربه السلطان محمد وانتصر عليه، ثم عفا عنه، وتناسى ما وقع منه، وعينه حاكماً لمدينة نيقوبوليس. على أن أخطر ما واجهه السلطان محمد هو تلك الحركة الدينية ـ المذهبية ـ التي اتجهت لمناصبة الإسلام العداء، وهددت الدولة

---

(١) السلطان الغازي محمدجلبي (٧٨١ ـ ٨٢٤ هـ = ١٣٧٩ ـ ١٤٢١ م) اعتبر بأنه هو خامس الخلفاء العثمانيين، باعتبار أن إخوته لم يستقروا طويلاً في الحكم، ولم تتوافر لهم وحدة القيادة والسلطة، وكان له دور كبير وحاسم في إنقاذ الدولة العثمانية، وإخراجها من حالة الانهيار والسير بها قدماً على طريق المنعة والقوة. اشتهر بالتقوى والصلاح والوفاء، واعتمد على الرجال الأكفاء، واهتم بالعلوم والآداب والفنون.

بالتمزق. وقد تولى قيادة هذه الحركة قاضي العسكر السابق، وكبير وزراء موسى، وأحد أقرباء أمير قونية السلجوقي (**واسمه بدر الدين الصماونوي**) . **أقام في نيقية** (إزنيق) بعد هزيمة مولاه موسى، وهناك انصرف لتنظيم جماعة من الصوفية المتعصبة التي ترجع في الأصل، من غير شك، الى عقيدة المهدي الواسعة الإنتشار عند الشيعة، والتي أبعدته في آخر الأمر عن الإسلام، وجعلته غريباً عنه بالكلية. وقد أسس بدر الدين مذهبه على مبدأ المساواة في الأموال والأمتعة والممتلكات، وعدم التمييز أو التفريق بين المسلمين والمسيحيين وغيرهم، واعتبر جميع الأديان على السواء. واستعان في نشر مذهبه هذا بشخص يدعى (**بيرقليجه مصطفى**) وآخر يقال أن أصله يهودي واسمه (**طورلاق كمال**) . وقد حظيت دعوته بقبول حسن عند فلاحي آسيا الصغرى والذين عاشت الأفكار النصرانية في ديارهم على اختلافها بعد أن اختلطت بالأفكار الوثنية التي عرفتها آسيا الصغرى في عهودها القديمة. وانتشر مذهب (بدر الدين) بسرعة مذهلة، حتى بات يتهدد الدولة بشر مستطير، وقام (بيرقليجه مصطفى) بجمع أتباعه ومريديه حوله في (جبل ستيلاريوس) عند الطرف الجنوبي من خليج إزمير - تجاه جزيرة خيوس أو ساقز - وشرع أتباعه في الإغارة على البلاد المجاورة حتى اقليم مغنيسية، وعلى رأسهم جماعة من الدراويش - الصوفية - المتعصبين. فأرسل السلطان محمد جيشاً بقيادة ابن أمير بلغاريا الذي كان قد أسلم وأصبح حاكماً على آيدين - . وخرج هذا الأمير واسمه شيشمان متسرعاً، وقاد قواته بحماسة متهورة في مضائق جبل ستيلاريوس، فأوقع به الثائرون، وقضوا عليه وعلى جنوده جميعاً.

تزايدت قوة الثورة بهذا الانتصار، ولهذا لم يتمكن خلف شيشمان - واسمه علي بك - من أن يفعل شيئاً أكثر من أن ينجو بنفسه. الأمر الذي حمل مراد بن محمد الذي كان والياً على أماسيه، على أن يضم قواته إلى قوات أمير الروملي، بايزيد باشا، الذي استند إلى افتاء الشيخ سعيد والتي جاء فيها:

« من أتاكم وأمركم جميعاً على رجل، يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه» .

فسار الى العصاة، وأنزل بهم هزيمة ساحقة عند جبل (قره برون) وصلب

مصطفى. وأما استاذه بدر الدين، فقد هرب الى الأفلاق حيث جمع فلول أتباعه واحتل ممراً جبلياً في (مقدونية - في البلقان). حتى إذا تقدم محمد بنفسه لقتاله، انضمت قوات بدر الدين الى صفوفه، بعد أن فت في عضدها ما نزل بقوات مصطفى من الدمار. وهام بدر الدين على وجهه ومعه البقية الباقية من أتباعه، والتي قررت في النهاية التخلص منه وتسليمه الى السلطان، الذي أعدمه شنقاً في سري (سنة ٨١٩ هـ = ١٤١٧ م) بجريمة الخيانة العظمى، وبذلك اطفئت نار هذه الفتنة التي أقضت مضجع السلطان محمد. الذي ظن أن متاعبه الداخلية قد وصلت نهايتها عندما بوغت بظهور أخاه مصطفى والذي كان قد اختفى منذ يوم معركة أنقره وأسر والده السلطان بايزيد. وأرسل مصطفى الى أخيه محمد وطالبه بالملك، وانضم إليه حاكم أزمير (قره جنيد) وأمده بجنود أرسلها إليه أمير الفلاخ (الأفلاق) سعياً وراء الفتن في داخل الدولة العثمانية. وأغار الأمير مصطفى على إقليم تساليا (في وسط اليونان الى الجنوب من سيلانيك) لكنه لم يتمكن من الانتصار على مقاومة جند أخيه السلطان محمد، فلجأ إلى مدينة سيلانيك التي كانت قد عادت لحكم ملك الروم بعد موت السلطان بايزيد، واحتمى عند حاكمها التابع لملك الروم. فطلب السلطان محمد تسليمه، فرفض ملك الروم ذلك، ووعده أن يحفظه ولا يطلق سراحه مادام السلطان محمد على قيد الحياة، فقبل السلطان محمد بهذا الشرط، ورتب لأخيه مصطفى راتباً سنوياً يحفظ له كرامته ويليق بمكانته.

واستطاع السلطان محمد بذلك، القضاء (في سنة ٨٢٢ هـ = ١٤١٩ م) على كل رواسب هجوم تيمورلنك، وأصبحت الجبهة الداخلية قوية ومتماسكة. فانصرف السلطان محمد لإعادة تنظيم الأقاليم تمهيداً لاستئناف الفتوح. وبينما هو يضطلع بأعباء هذا (الجهاد الأكبر) باغته الموت وعمره (٤٣) سنة، بعد أن أوصى بالملك لابنه مراد - الذي كان حينئذ في أماسيا. وخاف وزيراه بايزيد وابراهيم من الفتنة في وسط الجند إذا ما شاع خبر موت السلطان، فأخفيا خبر موته، وأشاعا أن السلطان مريض، وأرسلا لابنه، فحضر بعد واحد وأربعين يوماً، واستلم مقاليد الدولة وهو شاب لا

يتجاوز عمره الثامنة عشرة (سنة ٨٢٤ هـ = ١٤٢١ م) فسار على نهج أسلافه من عظماء بني عثمان.

كان أول عمل قام به (السلطان مراد الثاني) [١] هو ابرام الصلح مع أمير القرمان، والاتفاق مع ملك المجر على هدنة لمدة خمس سنوات، حتى يتفرغ لاخضاع الولايات المتمردة في آسيا. لكن حدث ما صرفه عن هذا العمل، إذ أن ملك الروم (عمانوئيل) طلب إليه التعهد بعدم محاربته مطلقاً وأن يسلمه اثنين من إخوته رهناً (رهائن) لضمان تنفيذ تعهده، وتهدده بإطلاق سراح عمه - مصطفى بن بايزيد -. ولما لم يجبه مراد الثاني لطلبه، أخرج مصطفى من منفاه، وأعطاه عشرة مراكب حربية تحت أمرة (دمتريوس لاسكاريس) فأتى بها، وحاصر مدينة (غاليبولي) واستولى على المدينة إلا أن القلعة استمرت في مقاومتها له، فترك مصطفى حولها قوة لعزلها والتضييق عليها والاستمرار في محاصرتها. وسار ببقية جيشه قاصداً أدرنه، فخرج الوزير بايزيد باشا لقتاله، إلا أن مصطفى تقدم إلى الجند، وخطب فيهم، وطلب إليهم الطاعة لأنه أحق بالملك من ابن أخيه مراد الثاني، فخضع له الجند وأطاعوه وقتلوا قائدهم بايزيد باشا، وسار مصطفى بقواته لقتال ابن أخيه مراد الثاني الذي كان قد تحصن مع جنده خلف نهر صغير، واستطاع التأثير على بعض القادة الذين كانوا مع عمه مصطفى فتركوه، ولم يلبث معظم جنده أن تخلوا عنه، مما حمله على الفرار واللجوء الى مدينة غاليبولي، حيث سلمه بعض أتباعه إلى ابن أخيه مراد الثاني، فأمر بشنقه، واستراح من شره.

أراد السلطان مراد بعدئذ الانتقام من ملك الروم الذي أطلق سراح عمه مصطفى ليشغله عن فتح القسطنطينية، فسار إليه بجيشه، وحاصره في عاصمته، ثم هاجمها في يوم ٣ رمضان سنة ٨٢٥ هـ (٢١ - آب - أغسطس - سنة ١٤٢٢ م) وبعد قتال عنيف رجع العثمانيون بدون أن يتمكنوا من فتحها، ثم رفع الحصار عنها بعد ذلك بسبب اضطراره للتصدي لعصيان أخ له (اسمه مصطفى أيضاً) وأيده في عصيانه

---

(١) السلطان الغازي مرادخان الثاني (٨٠٦ - ٨٥٥ هـ = ١٤٠٣ - ١٤٥١ م) سادس خلفاء العثمانيين. كانت مدة حكمه ثلاثين سنة، اشتهر بكفاءته العالية في إدارة الحرب.

بعض أمراء آسيا الصغرى. لكن هذه الفتنة لم تلبث أن أخمدت بالقبض على (مصطفى) وقتله مع كثير من جنده، فوقع الرعب في قلوب من ساعده من الأمراء، فتنازل أمير قسطموني عن نصف أملاكه للسلطان وزوجه ابنته سنة ٨٢٦ هـ = ١٤٢٣ م إظهاراً لاخلاصه وولائه. وفي السنة التالية عصى (قره جنيد) واستولى على إمارة آيدين، وأسرع حمزة بك أخو الوزير بايزيد باشا لقتاله، وأمكن له الانتصار عليه، وأسره، وأمر بخنقه، فتخلصت الدولة بذلك من هذا الذي خان وغدر مرات متتالية. وأعاد السلطان مراد الى حكم الدولة ولايات آيدين وصاروخان ومنتشا وغيرها من الإمارات التي كان تيمورلنك قد فصلها عن حكم الدولة العثمانية، وكذلك استرد بلاد القرمان بعد أن قتل أميرها محمد بك، وعين ابنه ابراهيم والياً عليها مع منحه بعض الامتيازات بشرط أن يتنازل له عن إقليم الحميد.

توفي أمير كرميان سنة ٨٣١ هـ = ١٤٢٨ م، عن غير عقب، وأوصى بما كان باقياً له من بلاده إلى السلطان مراد، وبذلك استرد السلطان مراد الثاني جميع ما فصله تيمورلنك عن الدولة العثمانية من البلاد، وصار في إمكانه التفرغ لإعادة فتح ما استقل من البلاد بأوروبا بعد موت بايزيد الأول، فبدأ بشن حرف ضد المجر، وأمكن له بعد معارك قاسية فتح مدينة (كولمباز)[١] والزام ملك المجر بالتوقيع على معاهدة تقضي عليه بالتخلي عن كافة البلاد الواقعة على الشاطىء الأيمن لنهر الدانوب، بحيث يكون هذا النهر فاصلاً بين العثمانيين والمجريين. ولما رأى أمير الصرب (جورج برنكوفيتش) أنه عاجز عن مجابهة قوة العثمانيين ومحاربتهم، قبل أن يدفع جزية سنوية قدرها خمسون ألف دوكا ذهباً، وأن يقدم للسلطان فرقة من جنده للمساعدة وقت الحرب، وأن يزوجه ابنته (مارا) وكذلك أن يقطع علاقاته مع ملك المجر، وأن يتنازل للدولة العثمانية عن بلدة (كروشيفاتس)[٥٧] الواقعة في وسط بلاد الصرب

---

(١) كولمباز (كوتشيفو: KUCEVO) تقع على الشاطيء الأيمن لنهر الدانوب ـ الى الجنوب الشرقي من بلغراد.

(٢) كروشيفاتس: (KRSEVAC) وتعرف عند الأتراك باسم (آلاجه حصار) وهي تبعد ٥٦ كيلومتراً عن مدينة نيش NIS والى الشمال الغربي منها ـ بالقرب من ملتقى نهر موراوا.

لتجعلها حصناً منيعاً تؤوي إليه جنودها منعاً لحصول الفتن. وأعاد السلطان مراد فتح مدينة سلانيك بعد أن حاصرها خمسة عشر يوماً، وهي المدينة التي كان ملك الروم قد تنازل عنها إلى أهالي البندقية. وأراد السلطان مراد بعد ذلك أن يفتح ما بقي من بلاد الصرب وبلاد ألبانيا (الأرناؤوط) والفلاخ قبل أن يعيد الكرة على القسطنطينية حتى لا يكون لها من هذه البلاد عون أو نصير. فوجه اهتمامه أولاً إلى بلاد ألبانيا. فأطاعه سكان (يانية)[1]، وسكان أغلب باقي البلاد بدون عناء كبير، مشترطين عدم التعرض لهم في دينهم ولا عوائدهم. وألزم أمير الجزء الشمالي من بلاد ألبانيا (جان كستريو) أن يسلم أولاده الأربعة رهينة على صدقه وولائه ثم ضم أملاكه إليه بعد وفاته سنة ٨٣٥ هـ = ١٤٣١ م. ولم يلبث أمير الفلاخ (فلاد ـ الملقب دره قول ـ أي الشيطان) أن اعترف بسيادة الباب العالي عليه (سنة ٨٣٧ هـ = ١٤٣٣ م) تجنباً للحرب التي كان لا يشك في نتائجها ضده، لكن هذا الخضوع لم يكن إلا خضوعاً ظاهرياً هدفه كسب الوقت، إذ لم يلبث أن ثار هو وأمير الصرب، اعتماداً منهما على ملك المجر الذي حرضهما ووعدهما بالدعم والمساعدة. فحاربهما السلطان مراد، وقهرهما، ثم سار إلى بلاد المجر، وخرّب كثيراً من بلدانها، وعاد منها في سنة ٨٤٢ هـ = ١٤٣٨ م. ومعه سبعين ألف أسير ـ على ما قيل ـ.

قاد ملك الصرب (جورج برنكوفتش) عصياناً في سنة ٨٤٣ هـ = ١٤٣٩ م. مما دفع السلطان مراد لقيادة جيشه في حملة تأديبية فتح فيها مدينة سمندريه الواقعة على نهر الدانوب والتي لا تبعد أكثر من ٤٥ كيلومتراً عن بلغراد، ثم توجه الى بلغراد ذاتها، وألقى عليها الحصار لمدة ثلاثة أشهر، إلا أن (برنكوفتش) تمكن من مغادرة عاصمته واللجوء إلى ملك المجر (آلبير ـ الذي خلف سيجسمون). وحدثت معارك ضارية، اضطرت السلطان مراد لرفع الحصار عن بلغراد، والتوجه إلى اترنسلفانيا)[2]

---

(١) يانية: (JANINA) تقع على الحدود اليونانية ـ اليوغوسلافية، مقابل جزيرة كورفو: (KORFU).

(٢) ترانسلفانيا: (TRANSLVANIA) وفي اللغة الرومانية آرديل: (ARDEAL) إقليم يقع في رومانيا حالياً وهو بين جبال الكاربات وجبال الألب. وتعني كلمة ترانسلفانيا (ما وراء الغابات) وقد أطلق عليها أهل النمسا هذا الاسم لوفرة غابات الاقليم الكثيفة والتي تفصلها عن النمسا.

حيث أرسل إليها جيشاً قام بإلقاء الحصار على (هرمانستدت) [1] التي كانت تابعة لملك المجر، مما دفع قائد جيوش المجر وحاكم الاقليم (هونياد) [2] للإسراع بقيادة جيشه ومقابلة جيش العثمانيين في معركة حاسمة انتصر فيها هونياد، وقتل من جيش العثمانيين عشرين ألف جندي، وقتل قائدهم أيضاً، فاضطر الجيش العثماني للانسحاب الى ما وراء نهر الدانوب. وعندما علم السلطان مراد بهزيمة جيشه. أرسل جيشاً آخر من ثمانين ألف مقاتل بقيادة (شهاب الدين باشا) فتمكن هونياد المجري من هزيمة هذا الجيش أيضاً وأخذ قائد الجيش العثماني أسيراً بعد معركة طاحنة بالقرب من بلدة يقال لها (وازاج) سنة ٨٤٦ هـ = ١٤٤٢ م وبعد ذلك سار القائد المجري هونياد إلى بلاد الصرب، وتغلب على السلطان مراد ذاته في مدينة (نيش) [3] واقتفى أثره إلى ما وراء جبال البلقان (سنة ٨٤٧ هـ = ١٤٤٣ م) وانتصر عليه في ثلاث معارك أخرى. واضطر السلطان مراد لابرام الصلح مع الصرب وتنازل عن سيادته على بلاد الفلاخ، وأن يعيد إلى ملك الصرب مدائن سمندريه وكروشيفاتس (آلاجه حصار) وأن يهادن المجر مدة عشر سنوات وتم توقيع هذه المعاهدة في (٢٦ ربيع الأول سنة ٨٤٨ هـ = ١٣ تموز - يوليو - سنة ١٤٤٤ م).

يظهر أن الحروب المستمرة، والهزائم الأخيرة قد تركت أثراً عميقاً في نفس السلطان مراد، وجاءت وفاة ابنه الأكبر (علاء الدين) في تلك الفترة، فزادت من

---

(١) هرمانستدت: (HERMANSTADT) وباللغة المجرية (SIBIU) مدينة رومانية في ترانسلفانيا - الى الشمال الغربي من العاصمة (بوخارست).

(٢) هونياد: (HUNYADI) اسم عائلة هنغارية حاكمة من أشهر قادتها جان هونياد (JEAN-CORVIN-HUNYADI) الذي هو ابن غير شرعي للملك سيجسموند، ولد سنة ١٣٨٣ ومات سنة ١٤٥٦ م. عينه الملك لاديسلاس LADISLAS حاكماً لاقليم ترانسلفانيا، فقاد قوات المجر بكفاءة عالية، غير أنه هزم في النهاية واضطر لعقد صلح مهين.

(٣) نيش: (NIS) مدينة تقع إلى الشمال الغربي من مدينة صوفيا، تقع في يوغوسلافيا حالياً - وهي على الطريق الموصل الى الاستانة وسلانيك، مما جعلها مسرحاً لعدد من المعارك الشهيرة، لعل من أكبرها معركة سنة ١٢٥٩ هـ = ١٨٧٨ م. انتصر فيها الصربيون على العثمانيين أثناء انشغال الدولة العثمانية بالحرب مع روسيا القيصرية.

معاناته، وحملته على اتخاذ قراره باعتزال السلطة والحكم، وتنازل عن الملك لابنه محمد الذي لم يكن قد تجاوز الرابعة عشرة من عمره، وانصرف الى (آيدين) لينعم بالهدوء بعيداً عن هموم الدنيا.

لم يتمكن السلطان مراد من البقاء في عزلته لأكثر من أشهر قليلة، إذ أن أنباء تحرك قوات الحملة الصليبية الجديدة قد حملته على التحرك سريعاً لمجابهة الخطر الجديد، وفي الحقيقة، فإن التحرك لهذه الحملة كان قد بدأ منذ سنة ٨٤٤ هـ = ١٤٤٠ م، عندما وجّه البابا بوجينيوس الرابع الدعوة لمحاربة العثمانيين المسلمين، فاستجاب له جورج كستريونا - زعيم ألبانيا وهو الذي نشأ في كنف العثمانيين ورعايتهم باعتباره ابن ملك الصرب، وتظاهر باعتناق الإسلام، فعينه السلطان مراد حاكماً على ألبانيا باسم (اسكندر بك) (١) وعندما وصله نداء البابا أعلن الثورة على الدولة العثمانية. وانحاز اليه ملكه وسيده (جورج - ملك الصرب) ووعد كل من البابا وملك أراغون بإرسال عشر سفن كبيرة، وتولى هونياد قيادة جيش المجر. لكن عقد هذا التحالف لم يلبث أن جمد بتوقيع صلح سكدين أو (سزيجيدين) في سنة ٨٤٨ هـ = ١٤٤٤ م. إذ نصّ هذا الصلح على هدنة لمدة عشر سنوات - على نحو ما سبقت الإشارة إليه -. وظنّ السلطان مراد أنه يستطيع أن يخلد الى السكون والراحة اعتماداً منه على هذه الهدنة، لكن البابا (بوجينيوس الرابع) أدرك أن هذه الهدنة قد عطلت مشاريعه وأحبطت مخططاته، فمضى في تحريضه للمجريين لنقض الهدنة. وكذلك فعل الكاردينال (يوليان شيزاريني) الذي رافق الحملة باعتباره مندوباً عن البابا، إذ أعلن

---

(١) اسكندر بك هذا هو أحد أبناء أمير ألبانيا الشمالية جورج كستريو والذي أخذ السلطان أولاده رهينة وضم بلاد ابيهم إليه بعد موته. وأظهر اسكندر بك وهو الاسم الذي استعاض به هذا الابن عن اسمه السابق، الإخلاص للسلطان، فلما حانت الفرصة بانصراف السلطان مراد لحرب هونياد، أسرع اسكندر بك الى آق حصار (القلعة البيضاء) من دون ألبانيا، وحرض زعماء قبائل الالبان (الارناؤوط) على الثورة، ونجح في ذلك، وحارب العثمانيين بضراوة، وانتصر عليهم في معارك كثيرة، غير أنه هزم هزيمة منكرة في معركة استمرت ثلاثة أيام في ساحة قوصوه سنة ٨٥٢ هـ = ١٤٤٨ م. وهي ذات الساحة التي انتصر فيها مراد الأول على ملك الصرب لازار سنة ١٣٨٩ م. وتوفي اسكندر بك هذا سنة ٨٦١ هـ = ١٤٥٦ م.

أمام ملك المجر : « **بأن عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تعد حنثاً ولا نقضاً** » . كما أقنع قادة الجيش الصليبي : « **بأن كل يمين تبذل لكافر تعتبر باطلة** » . وحثّهم على مواصلة الزحف. فلم يكن من المجريين إلا أن اجتاحوا بلاد البلقان ، بحجة أن العثمانيين لم ينسحبوا من عدد من القلاع الصربية وفقاً لنصوص المعاهدة، وتقدموا على شواطىء البحر الأسود ، واتصلوا بأسطول البندقية في (غاليبولي). ولكن السلطان مراد تقدم بجيشه، **ووقع الصدام تحت أسوار وارنه (ڤارنا) يوم ٢٨ رجب سنة ٨٤٨ هـ (١٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٤٤٤ م)** .

وكان جيش الحملة الصليبية يضم عشرين ألف مقاتل بقيادة يوحنا هونياد ، فيما كان جيش السلطان يتفوق عليه بالعدد وبالروح المعنوية. ودارت معركة قاسية أظهر فيها جيش الحملة الصليبية مقاومة ضارية، وأنزل الله نصره على جيش المسلمين الذين أبادوا جيش الحملة الصليبية ابادة شبه كاملة ، وقتل ملك المجر فلاديسلاف كما قتل الكاردينال الخائن (يوليان شيزاريني).

أما هونياد ، فقد تمكن من الفرار مع فلول جيشه الضئيلة. **وأسدل الستار على حملة ڤارنا الشهيرة.**

انصرف السلطان مراد بعدئذ لمعالجة الأمور الداخلية ، مثل قمع حركة التمرد التي قام بها جند الانكشارية في عاصمة الدولة (أدرنه) ضد أميرهم الشاب محمد الثاني (في مطلع سنة ١٤٤٥ م) ثم وجه جيشه للإغارة على بلاد اليونان ، مستفيداً من إقدام ملك الروم إيمانويل على تقسيم مملكته بين ولديه حيث أعطى الى ابنه حنا ملك مدينة القسطنطينية وضواحيها ، فيما أعطى الملك على بلاد الموره وجزء من تساليا لابنه قسطنطين ـ وهو آخر ملوك الروم البيزنطيين ـ. وعندما علم قسطنطين بتصميم السلطان مراد على فتح بلاده، عمل على تحصين برزخ كورنثه، وشيد فيها قلاعاً جعلت من المتعذر اجتياز المضيق ـ البرزخ ـ لكن هذا السور المنيع لم يقف أمام تصميم القوات العثمانية التي استخدمت المدفعية في معركتها هذه للمرة الأولى ،

فأحدثت ثلماً اقتحمه المجاهدون العثمانيون وفتحوا مدينة كورنثة [١] ولقد سبقت الإشارة إلى أن السلطان مراد لم يتمكن من فتح (بلاه الموره) [٢] بسبب عصيان اسكندر بك ومقاومته، وبسبب اضطرار الجيش العثماني لمجابهة قوات الحملة الصليبية، فلما فرغ السلطان مراد من أمر هذه الحملة، وحقق انتصاره الرائع في فارنا، حشد جيشاً ضخماً من مائة ألف مقاتل، ووجهه لقتال (اسكندر بك)، وبعد معارك متتالية وغير حاسمة. قرر السلطان مراد سحب قواته وإعادة تنظيمها ودعمها لتتمكن من فتح البانيا، واخضاع ثورة (اسكندر بك) غير أن المنية عاجلت السلطان مراد. فمات في يوم ٥ محرم سنة ٨٥٥ هـ (٧ شباط - فبراير - سنة ١٤٥١ م)، فنقلت جثته إلى بورصة. وخلفه ابنه السلطان محمد الثاني. وعندما توفي السلطان مراد، كان قد نجح نجاحاً تاماً في إعادة بناء الدولة، إذ لم يكن بآسيا الصغرى خارجاً عن حكمه إلا جزء من بلاد القرمان ومدينة (سينوب) [٣] ومملكة طرابزون الرومية. وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية وضواحيها. وكان إقليم موره مجزأ بين البنادقة وعدة إمارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الروم أو الفرنج ممن تخلف بعد انتهاء الحملات الصليبية. وبلاد الالبان (الأرناؤوط) و(ايبيروس) [٤] وبلاد البشناق (البوسنة) المستقلة، والصرب التابعة للدولة العلية وكذلك ما بقي من جزيرة البلقان (شبه جزيرة البلقان) والذي خضع للدولة العثمانية.

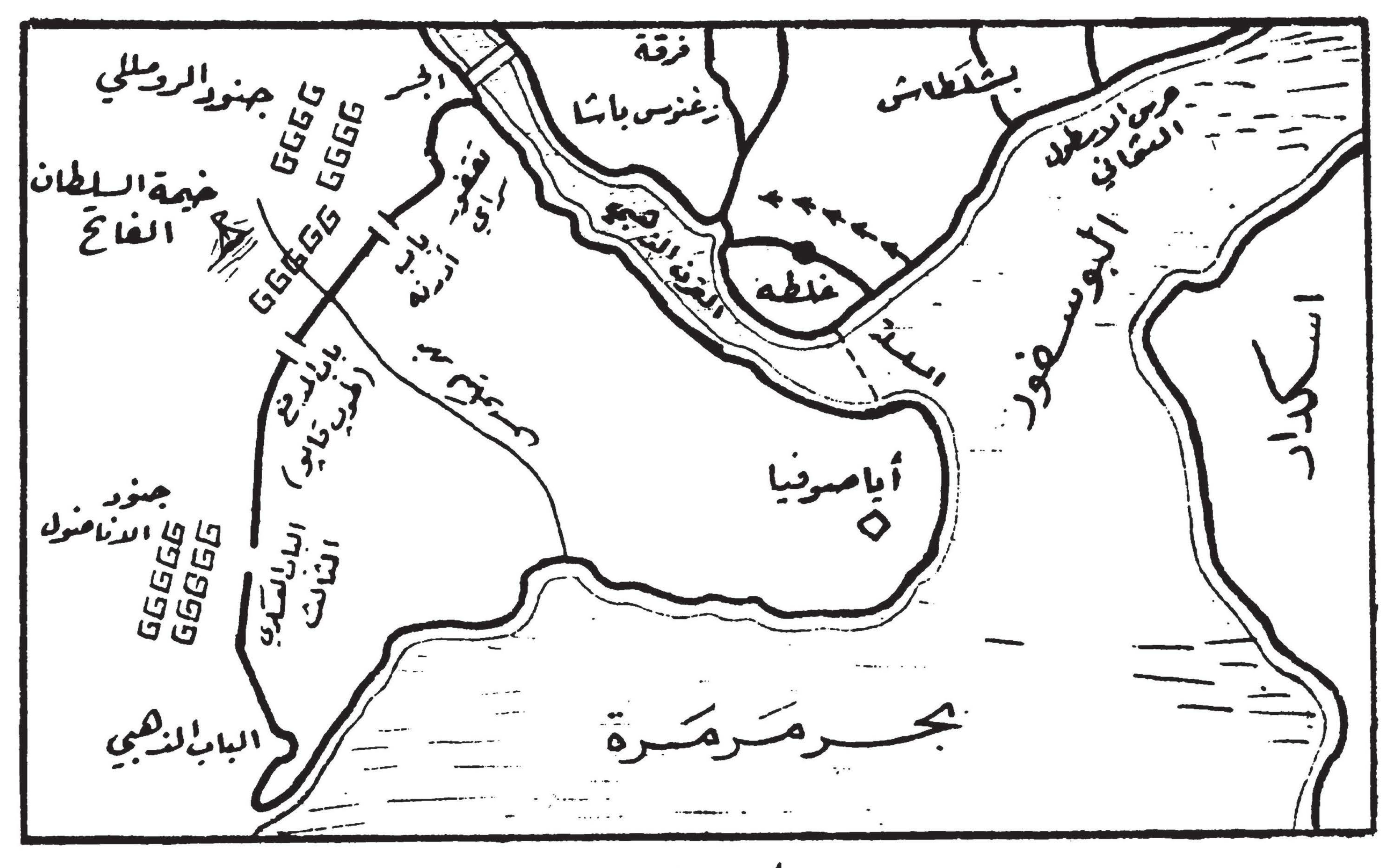
---

(١) كورينث: (CORINTHE) إحدى أكبر المدن التي ازدهرت في اليونان القديمة، وكانت منافسة لأثينا واسبارطة، وهي تقع على الخليج الذي يحمل اسمها بالقرب من قنال كورينث.

(٢) الموره: (MOREE) شبه جزيرة في اليونان، وقد حلت اسمها منذ القرون الوسطى بدلاً من البيلوبونيز: (PELOPONNESE).

(٣) سينوب: (SINOP) مدينة في تركيا، ولها خليج على البحر الأسود، وفيه استطاع الروس هزيمة الاسطول العثماني سنة ١٨٥٣ م (قبل الحرب المعروفة باسم حرب القرم).

(٤) ايبيروس: (EPIROS) هي المنطقة اليونانية الكائنة في جنوب غرب مقدونيا، أو هي الجزء الغربي من اليونان الواقع تحت ألبانيا.



حصار القسطنطينية

٥ ـ القسطنطينية والفتوح العظمى.

لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره، يوم وجد نفسه خليفة لدولة مترامية الأطراف، لكن هذه الدولة كانت على اتساعها، وعلى ما بلغته من القوة والقدرة، إلا كياناً مهتزاً وسط دوامة من الأعاصير العاتية، فالأعداء يتربصون بها في الخارج، وأعداء الداخل أشد خطراً من أعداء الخارج، وهؤلاء وأولئك في حلف غير مقدس وغير مكتوب هدفه تمزيق شتات هذه الدولة الإسلامية الناشئة والتي مضى على تأسيسها حتى يومها زهاء قرنين من عمر الزمن، ما عرفت خلالها لا الهدوء ولا الاستقرار. ذلك هو (محمد الفاتح) [١] ابن الاثني والعشرين ربيعاً، وتلك هي دولته ـ ولهذا فإنه لم يكن من الغريب أن يحاول اعداء الدولة اغتنام الفرصة لبلوغ أهدافهم، لاسيما وأن تدخل أباه في مواجهة الحملة الصليبية في (ڤارنا) قد أظهره بمظهر الشاب المحدود القدرة والمواهب. فحاول أمير بلاد القرمان اعلان التمرد على حكم العثمانيين، على نحو ما كان يفعله أمراء القرمان كلما وجدوا فرصة سانحة لهم. فمضى السلطان محمد بجيشه لإخضاع حركات التمرد في آسيا الصغرى. وبينما هو منهمك في العمل على هذه الجبهة الداخلية، إذ وصله رسول من ملك الروم (قسطنطين التاسع) يعلمه بأنه إذا لم يضاعف مبلغ الجزية السنوية التي كان والده يدفعها إلى البيزنطيين مقابل احتفاظهم بالأمير أورخان حفيد سليمان، فإن امبراطور الروم سيحرض هذا الأمير ويؤيده على المطالبة

---

(١) السلطان الغازي محمد الثاني الفاتح ـ سابع الخلفاء العثمانيين، ولد في ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هـ (٢٠ نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٤٢٩، وتولى السلطنة سنة ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م وتوفي يوم ٤ ربيع الأول سنة ٨٦٦ هـ (٣ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١٤٨١ م) فكانت مدة حكمه ٣١ سنة. لقب بلقب (أبو الفتح) لنجاحه في فتح القسطنطينية. واشتهر بكفاءته العليا في إدارة الحرب، وبقدرته التنظيمية الإدارية، وباهتمامه بالبناء والعمران وفتح المدارس والاهتمام بالعلوم والآداب والفنون الإسلامية ورعايته لها (وأشهرها بناء مسجد آيا صوفيا ومسجد محمد الفاتح في إسلام بول ـ القسطنطينية).

بالعرش. وقد كان هذا التهديد، في الحق، اجراء اتسم بالحماقة وقصر النظر، وقرر مصير الامبراطور وامبراطوريته، إذ لم يلبث السلطان محمد أن رجع إلى أوروبا سنة ٨٥٥ هـ = ١٤٥١ م. وقد نجح في تسوية الأمور مع أمير القرمان، وشرع على الفور بتشييد قلعة (روم إيلي حصار) المنيعة، على بعد سبعة كيلومترات من أبواب القسطنطينية ـ عند أضيق نقطة من البوسفور، والذي كانت تسيطر عليه من الجانب الآسيوي تلك القلعة التي شيدها السلطان بايزيد وأطلق عليها اسم (كوزلجه حصار ـ وعرفت باسم أناضولي حصار). ولما بلغ ملك الروم ما يفعله السلطان محمد، عاد فأرسل سفيراً عرض دفع جزية يحددها السلطان محمد ذاته، لكن الطلب رفض، وسعى السلطان محمد في إيجاد سبب لفتح باب الحرب. ولم يكن من الصعب إيجاد هذا السبب، فقد وقع اشتباك بين بعض الجنود العثمانيين، وبعض جند الروم، عندما اجتاح جند العثمانيين بعض القرى، ووقع قتلى من الجانبين، فكان ذلك سبباً كافياً لإعلان الحرب، فيما تذهب بعض المصادر إلى أن السلطان محمد قد أمر باعدام سفراء ملك الروم الذين جاؤوا للاحتجاج على بناء القلعة، فكان ذلك الاجراء هو إعلان الحرب.

حشد السلطان محمد أضخم جيش عثماني أمكن حشده حتى ذلك الوقت. حيث بلغ عدد أفراد هذا الجيش ربع مليون مقاتل تقريباً (٢٥٠ ألفاً). كما حشد قوة بحرية ضمت مائة وثمانين سفينة. وانتشرت حول المدينة أربع عشرة بطارية من المدفعية [١] وفي أثناء الحصار اكتشف قبر أبو أيوب الأنصاري الذي استشهد أثناء حصار القسطنطينية في عهد معاوية بن أبي سفيان (سنة ٥٢ هـ = ٦٧٢ م). ولما شاهد قسطنطين ـ آخر أباطرة الروم ـ هذه الاستعدادات، استنجد بأوروبا، فأسرع أهالي جنوة لدعمه ومساعدته، وأرسلوا له اسطولاً بقيادة أمير البحر (جوستينياني) الذي جاء بمراكبه وأراد دخول ميناء القسطنطينية، فتصدت له السفن العثمانية، ونشبت بين

---

(١) استعان العثمانيون في صناعة هذه المدافع بصانع مجري شهير اسمه (اوربان) وذكر أن مدى هذه المدافع كان في حدود ميل واحد ـ أو أكثر قليلاً ـ وكان جر المدفع يحتاج الى ٧٠٠ شخص، ويحتاج حشوه بالبارود وإعداده لمدة ساعتين من الزمن. وكانت هذه المدافع تقذف كرات من الحجر وزنها ثلاثمائة كيلو غرام.

القوتين معركة هائلة في يوم ١١ ربيع الثاني سنة ٨٥٧ هـ (٢١ نيسان - أبريل - سنة ١٤٥٣ م) انتهت بفوز جوستينياني، وتمكنه من دخول الميناء بعد أن رفع جند الحامية البيزنطية السلاسل الحديدية الضخمة التي وضعت لمنع المراكب العثمانية من الوصول إليها، ثم أعيدت بعد مروره كما كانت. ووجد السلطان محمد أن قواته تجابه مأزقاً صعباً، إذ كان لا بد من الوصول بمراكبه الى مياه البوسفور لإحكام الحصار البري والبحري على القسطنطينية، فأبدع على الفور طريقة مبتكرة لنقل مراكبه براً واجتياز حاجز السلاسل الحديدية التي تغلق مدخل المضيق، فأمر بإعداد أرضية من الألواح الخشبية لمسافة ستة أميال تقريباً، فرصّت الألواح جنباً إلى جنب، ثم طليت بالزيوت والشحوم لتنزلق المراكب عليها، وبذلك صار بالمستطاع نقل سبعين سفينة في ليلة واحدة، وبوغتت الحامية المدافعة عن عاصمة الروم إذ شهدت مع إشراقة الشمس سفن قوات العثمانيين وهي تمخر عباب مياه البوسفور، وأيقنت قوات الروم بحتمية انتصار العثمانيين، غير أن ذلك لم يضعف من عزيمتهم، بل ازدادوا تصميماً على الدفاع، وقرروا المضي في صراعهم حتى الفناء ورغب السلطان محمد في تجنب خوض معركة أدرك مسبقاً أنها بحكم المنتهية طالما أنه توافرت لها كل عوامل النجاح، فأرسل رسالة إلى امبراطور الروم (قسطنطين في يوم ١٥ جماد الأول سنة ٨٥٧ هـ = ٢٤ أيار - مايو - سنة ١٤٥٣ م. وأنذره بأنه إذا ما سلم إليه البلد طوعاً، فإنه لن يمس حرية الأهالي أو أملاكهم، وأنه يمنحه جزيرة الموره ليحكمها. ورفض قسطنطين قبول الانذار، واعلم السلطان محمد بأنه يفضل الموت على تسليم المدينة، وعندها أصدر السلطان محمد أمره بالاستعداد للهجوم العام الذي حدد موعده يوم ٢٠ جماد الأول سنة ٨٥٧ هـ (٢٩ - أيار - مايو - سنة ١٤٥٣ م). ووعد السلطان محمد جنده بمكافآت مجزية عند تمام النصر، وباقطاعهم أراض كثيرة. وجاءت الليلة السابقة ليوم الهجوم، فأشعل الجند المسلمون الأنوار أمام خيامهم للاحتفال بالنصر المحقق لديهم. وظلوا طوال ليلهم وهم يهللون ويكبرون ويصلون، ويرجون الله نصره، حتى إذا ما لاح نور الفجر، صدرت إليهم الأوامر بالهجوم فانقض في موجة واحدة مائة وخمسون ألف جندي، وتسلقوا الأسوار، واقتحموا المدينة من جميع اتجاهاتها، واعملوا السيف فيمن تصدى لهم

وحاول مقاومتهم. ودخلوا كنيسة القديسة صوفيا (آيا صوفيا)★ وقاتل قسطنطين حتى مات، **ونجح المسلمون أخيراً في فتح القسطنطينية بعد أن فشلت محاولاتهم المتتالية منذ ظهور الإسلام، والتي بلغ عددها أحد عشر مرة، وزالت من الوجود حاضرة الصليبيين في المشرق. واتصلت أوصال الدولة العثمانية، ولم يعد في وسطها كيان غير إسلامي. واستبدل اسم المدينة على الفور، فأصبحت تحمل اسم (إسلام بول) أي مدينة الإسلام.**

دخل السلطان محمد إلى المدينة عند الظهر، وأصدر أمره بمنع كل اعتداء، وايقاف عمليات السلب، فساد الأمن على الفور، ثم زار كنيسة (آيا صوفيا) وأمر بأن يؤذن فيها بالصلاة إيذاناً بتحويلها إلى مسجد ـ جامع ـ للمسلمين. وبعد اكمال الفتح على هذه الصورة، أعلن في كافة الجهات بأنه لا يعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين، وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع للمسلمين، ثم جمع كبار رجال دينهم لينتخبوا بطريقاً لهم، فاختاروا (جورج سكولاريوس). واعتمد السلطان هذا الانتخاب، وجعله رئيساً لطائفة الروم. واحتفل بتثبيته بنفس الأبهة والنظام الذي كان يعمل للبطارقة في أيام ملوك الروم، وأعطاه قوة للحرس من جند الانكشارية، ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بالروم المسيحيين، وعين معه مجلساً ضم كبار موظفي الكنيسة، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسس، ومقابل ذلك فرض عليهم الجزية، مستثنياً من ذلك رجال الدين فقط.

كان امبراطور الروم (قسطنطين) قد بعث بطلب الاستغاثة من البابا ومن ملوك الغرب، غير أنه ما من أحد تحرك لنجدة القسطنطينية وهي تواجه أيامها الأخيرة، واشترط البابا اتحاد الكنيستين ـ الارثوذكسية والكاثوليكية ـ مقابل ما يقدمه من الدعم، وكان الامبراطور مستعداً لتقديم مثل هذه التضحية، غير أن الشعب ورجال

(★) عندما دخل المسلمون العثمانيون كنيسة آيا صوفيا، كان البطرق يصلي فيها وحوله عدد عظيم من الأهالي، ويطلبون النصر، ويعتقد الروم ـ حتى الآن ـ أن حائط الكنيسة قد انشق ودخل فيه البطرق، ومعه الصور المقدسة، وفي اعتقادهم أن الحائط سينشق ثانية يوم يخرج المسلمون من القسطنطينية، ويخرج البطرق منها ويتم صلاته التي قطعها عندما اقتحم المسلمون كنيسته يوم الفتح.

الذين كانوا يفضلون حكم المسلمين لهم على حكم الكاثوليكيين والبابا، فامتنع البابا عن تقديم أي دعم. ولكن دول الغرب الصليبية عزمت على إرسال اسطول لنجدة البيزنطيين. وعندما وصل هذا الاسطول الى (نغربونت) علم بأنباء فتح المسلمين العثمانيين لحاضرة الروم. وإذ أدرك رجاله أنهم وصلوا متأخرين جداً، وأنه لم يعد باستطاعتهم القيام بأي عمل، قرروا العودة إلى قواعدهم - سالمين -.

ما إن فرغ السلطان محمد من إعادة تنظيم الإدارة في حاضرته الجديدة، حتى عاد فقاد جيشه وتوجه به إلى بلاد (موره). ولم ينتظر أميراها (دمتريوس وتوماس - أخوا قسطنطين) وصول العاصفة المدمرة، بل أسرعا لإرسال سفارة الى السلطان، أعلماه بواسطتها اذعانهما وخضوعهما وقبولهما بدفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوكا. فقبل منهما السلطان، وغير وجهته قاصداً بلاد الصرب، والتي لم تكن تأمل في الحصول على دعم المجر بسبب اختلاف المذهب، إذ بينما كان الصرب يأخذون بالمذهب الارثوذكسي، كان المجر يتمسكون بمذهبهم الكاثوليكي ويذعنون لسلطة البابا. فكان الصربيون يفضلون حكم المسلمين لهم على حكم المجريين الكاثوليكيين. ولهذا فقد تقدم أمير الصرب فعقد صلحاً مع السلطان محمد على أن يدفع له سنوياً ثمانين ألف دوكاً وذلك سنة ٨٥٨ هـ = ١٤٥٤ م. وعاد السلطان محمد فقاد جيشه في السنة التالية وكان هذا الجيش قد ضم خمسين ألف مقاتل ومعه ثلثمائة مدفع، فمضى مجتاحاً بلاد الصرب من جنوبها إلى شمالها، دون أن يلقى مقاومة أو معارضة، حتى وصل مدينة (بلغراد) الواقعة على نهر الدانوب، وحاصرها من جهة البر والنهر. وكان (هونياد) المجري قد نظم الدفاع في المدينة، وتولى قيادة الحامية المدافعة عنها، فاستطاع صد كافة الهجمات. ولما طال أمد الحصار، وشعر السلطان محمد أن الوقت لازال مبكراً للاستيلاء على هذه المدينة وفتحها، رفع الحصار عنها، وكان هونياد قد أصيب بجراح قاتلة لم يلبث بعدها أن فارق الحياة، ولما يمض أكثر من شهرين على رفع الحصار عن بلغراد.

جهز السلطان محمد جيشاً جديداً، وأسند قيادته الى الصدر الأعظم (محمود باشا) وكلفه بمهمة فتح بلاد الصرب، فأتم فتحها من سنة ٨٦٢ إلى سنة ٨٦٤ هـ (١٤٥٨ - ١٤٦٠ م) وبذلك خضعت الصرب خضوعاً كاملاً لسلطان المسلمين.

عمل السلطان محمد في هذه الفترة ذاتها على فتح (بلاد موره) سنة ٨٦٢ هـ = ١٤٥٨ م حيث فتح مدينة كورنثه وما جاورها من بلاد اليونان، وجرد توماس باليولوج أخا قسطنطين من جميع بلاده، ولم يترك إقليم موره لأخيه (دمتريوس) إلا بشرط دفع الجزية. ولكن توماس أعلن الثورة بمجرد انسحاب الجيش العثماني من بلاده، وحارب الأتراك وأخاه معاً، فاستنجد (دمتريوس) بالسلطان الذي رجع بجيش ضخم، ولم يرجع حتى تم فتح إقليم موره سنة ٨٦٤ هـ = ١٤٦٠ م. وهرب توماس إلى إيطاليا، ونفي دمتريوس في إحدى جزائر الأرخبيل، وفتحت أيضاً جزائر (تاسوس وايمبروس) (١) وغيرها من جزائر بحر الروم.

لقد كانت هذه الأعمال بمجموعها بمثابة استثمار للنصر العظيم الذي حققه السلطان محمد في القسطنطينية، وقد ضمن زوال دولة الروم للأتراك المسلمين فرصة البقاء في أوروبا وترسيخ أقدامهم فيها، وانفتح بذلك المجال أمامهم لضمان سيادتهم على البحار الشرقية جميعها.

وكان ذلك ايذاناً باقتراب نهاية امبراطوريتي جنوه والبندقية، ومملكة قبرص، والاسبتارية في رودس، بل إن أبواب ڤيينا باتت في متناول قبضة جيوش المسلمين الظافرة. وقد أدرك ملوك وأمراء هذه الكيانات ما يتهددهم من الخطر، بعد أن أصبحت حدودهم مجاورة للمسلمين، كما كان كاردينال ألمانيا (فنسيو) والذي كان يعرف باسم (ايناس سيلفيوس) هو أول من تنبه للخطر، غير أن أحاديثه إلى مجلس الدايات بألمانيا لم تسفر عن نتيجة، كما أن رسائله إلى البابا كشفت عن أنه لم يكن مخدوعاً. ففي سنة ٨٦٢ هـ = ١٤٥٨ م، انتخب لاشغال منصب البابا باسم (بيوس الثاني) وظل طوال فترة بابويته وهو يسعى لتنظيم حملة صليبية جديدة، كالتي سبق لأسلافه الكبار أن أرسلوها. وكاد مشروعه فيما يبدو يؤتي ثماره في سنة ٨٦٧ هـ = ١٤٦٣ م. حيث تم في تلك السنة اكتشاف مناجم للنطرون في أملاك البابوية، مما ضمن

---

(١) تاسوس: (THASUS) وايمبروس: (IMBRUS) جزيرتان تقعان في بحر إيجه إلى الغرب من مضيق الدردنيل.

للبابا امداداً بموارد لم يكن يتوقعها، وهددت بكسر احتكار الترك للنطرون. وكان دوق البندقية الجديد فيما يبدو يؤيد الحرب.

أما ملك المجر الذي تصالح آخر الأمر مع الامبراطور، فكان حريصاً على قيام تحالف صليبي. وأظهر دوق بورغنديا (يوحنا الصالح) عن طيب خاطر اهتماماً واضحاً. وما أصدره البابا من (المرسوم البابوي)★ بشأن الحملة المرتقبة قد عكس تفاؤله. غير أنه كلما مضت الشهور، تضاءلت الحماسة، إذ لم يعرض عليه مساعدة مادية إلا المجريون، الذين كانوا فعلاً يواجهون الحرب التركية، وأظهر البنادقة التردد. وما من مدينة إيطالية كانت مستعدة لتغامر بضياع التجارة الذي يترتب على قطع علاقاتها مع السلطان. وكتب دوق بورغنديا (يوحنا) أن ما دبره ملك فرنسا من مؤامرات جعل من المحال عليه مغادرة بلاده. وعزم البابا في شجاعة على أن يمول الحملة الصليبية ويتولى بنفسه قيادتها، وبناء على أوامره حشد وكلاؤه أسطولاً من السفن في أنكونا، واتخذ البابا الصليب في احتفال جرى في كنيسة القديس بطرس (في ١٨ تموز - يوليو - سنة ١٤٦٤ م) وذلك بالرغم مما كان يعانيه من الارهاق ومن الاعتلال في الصحة. ولم تنقض إلا بضعة أيام حتى توجه إلى الميناء الذي سوف يستقل منه العساكر السفن. وإذ شعر خدامه أنه رجل يشرف على الموت، أخفوا عنه الحقيقة بأنه ما من أحد من أمراء أوروبا قد احتذى نهجه، وأنــه ما من جيوش تسير خلفه لتستقل سفنه إلى الشرق. بل إن ما حدث هو العكس، فحينما اقترب من (أنكونا). اسدلوا ستائر محفته حتى لا يتطلع منها، إذ اكتظت الطرق بالبحارة من أسطوله الذين هجروا سفنهم، وهرعوا للعودة إلى بلادهم، ولم يكد يبلغ أنكونا حتى توفي بها في ١٤ - آب - أغسطس - سنة ١٤٦٤ م إذ تداركه الموت، فجنبه العلم بما انتهت إليه الحملة الصليبية من انهيار تام، في وقت كانت قوات الأتراك المسلمين تسير من نصر إلى نصر، وتحقق الظفر تلو الظفر.

كان السلطان محمد وهو يركز معظم جهده على جبهة أوروبا، يدرك مدى الحاجة

(★) عرف هذا المرسوم باسم (EZECHIELIS).

للعمل أيضاً على الجبهة الآسيوية، وكان ذلك عاملاً في جملة العوامل التي حملته على ابرام صلح مؤقت مع **جورج كستريو الالباني (اسكندربك)** وترك له إقليمي ألبانيا وإيبيروس، وشرع في التوجه بجهده نحو آسيا وهدفه القضاء على آخر سلالات الروم - البيزنطيين في آسيا الصغرى، **وهي سلالة كومنين (أو كومنينس) والتي كانت تحكم مملكة (طرابزون)**. حتى إذا ما كانت سنة ٨٦٥ هـ (بداية سنة ١٤٦١ م) قاد السلطان محمد جيشه، بدون أن يعلم أحداً بوجهته، وهاجم أولاً ميناء (أماستريس)[1] والذي كان مركزاً لتجارة أهالي (جنوه) النازلين في هذا الإقليم، وبما أن سكانها كانوا من التجار الذين يتركز همهم على صيانة أموالهم وتأمين مصلحتهم، ولا يهمهم دين أو جنسية من يحكمهم طالما أنه لا يهدد أموالهم أو أرواحهم، فقد عملوا على فتح أبواب مدينتهم للجيش الإسلامي الظافر، الذي دخل المدينة بدون حرب، ثم أرسل السلطان محمد إلى **أمير مدينة سينوب (اسفنديار)** وطلب منه تسليم بلده والخضوع له، ووجه في الوقت ذاته قوة بحرية ضمت مجموعة ضخمة من السفن لحصار الميناء، فما كان من أمير سينوب إلا أن سلم مدينته طائعاً، فأقطعه السلطان محمد أراض واسعة في إقليم (بيثينيا)[2] مكافأة له على خضوعه.

كان داود كومنين - وهو آخر سلالة أباطرة كومنين التي حكمت طرابزون قد زوج ابنة أخيه وسلفه - كالوجوانس - من خان التركمان المعروفين باسم (آق قيونلي - الخروف الأبيض) والذين اعتنقوا مذهب أهل السنة. ولهذا فقد كان أمير طرابزون يأمل في دعم نسيبه خان التركمان (أوزون حسن) إذا ما هاجمه السلطان محمد. غير أن أوزون حسن كان منهمكاً في حرب خصومه التركمان المعروفين باسم (قره قيونلي - أو الخروف الأسود) والذين كانوا قد انحرفوا الى الشيعة.

---

(١) أماستريس: (AMASTRIS) بلدة تقع على شاطيء البحر الأسود، في منتصف الطريق بين سينوب وإسلام بول (استانبول).

(٢) بيثينيا: (BITHYNIA) اسم قديم لاقليم من أقاليم الأناضول - آسيا الصغرى - ويقع هذا الاقليم في الطرف الغربي - الشمالي من الأناضول، أي أنه يبدأ من شرق أزميت، وينحدر حتى مدينة أسكي شهر، ويسير منها على شكل شريط ساحلي على امتداد شاطيء البحر الأسود إلى قرب سينوب.

كان (أوزون حسن) قد وضع وهو في مقره القبلي (بديار بكر) أساس دولة واسعة في أرمينية، حتى إذا تم له النصر على قبائل (قره قيونلي - الخروف الأسود) المتشيعين، ضم إليه بلاد فارس وجزيرة الفرات. فصار بذلك متاخماً لحدود آسيا الصغرى - الأناضول - ولهذا لم يكن غريباً أن يعلن عن رغبته في السيادة على شرقي آسيا الصغرى. وأرسل الرسل والسفراء الى إسلام بول للإعلام عن هذه الرغبة (في سنتي ٨٦١ و ٨٦٤ هـ = ١٤٥٧ و ١٤٦٠ م) وأفاد أوزون حسن من انصراف السلطان محمد للحرب على جبهة الغرب ليهاجم بقواته البلاد المحيطة بتوقات وأماسيه. فلما كانت سنة ٨٦٥ هـ = ١٤٦١ م، توجه السلطان محمد إلى حرب التركمان، بعد أن فرغ من فتنة سينوب، واستطاع قائد مقدمة الجيش العثماني (أحمد باشا) أن يلحق الهزيمة بطلائع ومقدمات جيش أوزون حسن، مما حمل أوزون حسن على تجنب زج فرسانه المفتقرين الى النظام، ضد الإنكشارية المنتصرين. وكانت (سارة خاتون) والدة أوزون حسن قد أظهرت براعة فائقة في حل منازعات سابقة، ولهذا فعندما وجدت أن ابنها أوزون حسن يواجه مأزقاً صعباً، قصدت بنفسها معسكر السلطان محمد، فمثلت بين يديه، واستطاعت أن تقنعه بالامتناع عن شن أي هجوم جديد على ابنها، غير أنها لم تفلح في ثنيه عن عزمه على فتح (طرابزون) التي قصدها السلطان محمد بنفسه، وفتحها بدون مقاومة تذكر، ونقل ملكها داود وأولاده وزوجته الى (إسلام بول). وخصص جزءاً مما كانت تحتويه خزانة مال طرابزون، ووضعه تحت تصرف ساره خاتون لمصلحة كنتها (كاترينا - زوج داود).

أفاد أمير الفلاخ (الأفلاق) وهو المقاتل الشهير (دره قول - دراكولا، أي الشيطان) من ابتعاد السلطان محمد وجيشه، لفرض سيطرته على الاقاليم، فارتكب الفظائع مع أهالي بلاده من المسلمين، واعتدى على التجار الأتراك النازلين بها. فلما عاد السلطان محمد من آسيا الصغرى الى عاصمته، وبلغه ما قام به هذا الغادر، جهّز جيشاً لمحاربته. فلما اقترب الجيش العثماني من بلاده، أسرع فأرسل وفداً التمس من السلطان قبول جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكاً، مع الموافقة وقبول جميع الشروط الواردة في معاهدة سنة ٧٩٦ هـ = ١٣٩٣ م (والتي كانت قد أبرمت إذ ذاك بين أمير الفلاخ

والسلطان بايزيد). وقبل السلطان محمد الثاني هذا العرض. غير أن الشيطان (دره قول) لم يكن يريد من وراء عرضه هذا إلا كسب الوقت، وإقامة اتحاد مع ملك المجر لمحاربة العثمانيين. فلما علم السلطان محمد باتحادهما، أرسل إليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة، فقبض عليهما، وقتلهما (بوضعهما على عمود محدد من الخشب ـ خازوق). ولم يكتف بذلك، بل قام وجيشه باجتياح بلغاريا التي كانت قد خضعت لحكم العثمانيين، وعاث فيها فساداً، واقتاد خمسة وعشرين ألف أسير من أهلها. فأرسل إليه السلطان محمد سفارة لإقناعه بالعودة إلى الطاعة، وإطلاق سراح الأسرى، فلما مثل أعضاء السفارة أمامه، أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه، وعندما رفض هؤلاء طلبه المخالف لعوائدهم، أمر أن تسمر عمائمهم على رؤوسهم بمسامير من حديد. ولم يبق أمام السلطان محمد وقد استنفذ كل الوسائل السلمية، إلا أن قاد جيشاً ضخماً ضم مائة وخمسين ألف مقاتل، وسار به بسرعة نحو عاصمة الشيطان (بخارست). فوجد أن الشيطان (دره قول) قد أباد على أبواب بخارست مجموعة الأسرى الذين جاء بهم من بلغاريا (رجالهم ونساءهم وأطفالهم). وكانت هذه الوحشية كافية وحدها لإزالة كل أثر من الرحمة والشفقة من قلب الفاتح، فمضى لقتال الجيوش التي حشدها (دره قول) واستطاع تمزيقها وتشتيتها بسرعة، وكان هدفه هو القبض على الشيطان ـ دره قول ـ لتأديبه ومجازاته على ما اقترف من الجرائم والمظالم. غير أن الشيطان استطاع الفرار والنجاة بنفسه، حيث لجأ إلى ملك المجر. فأعلن السلطان محمد عزله عن الملك، ونصب مكانه أخاه (راؤول) الذي كان قد نشأ في رعاية السلطان وعنايته وحظي بثقته. وبذا ضمت بلاد الفلاخ إلى الدولة العثمانية.

كان على السلطان محمد بعدئذ (وفي هذه السنة ذاتها ٨٦٧ هـ = ١٤٦٢ م) أن يخضع بلاد **البشناق (البوسنة)** بسبب تمرد أميرها، ورفضه دفع الجزية، وخاض مجموعة من المعارك المتتالية والصعبة، إلى أن استطاع القبض على أمير البشناق وولده، وأعدمهما، وبذلك انتهت الفتنة. وحاول ملك المجر (مثياس كرفن ـ ابن هونياد) انتزاع البوسنة من العثمانيين (سنة ٨٦٩ هـ = ١٤٦٤ م) فتمكن الجيش العثماني من هزيمة الجيش المجري، وتدمير معظم قواته، وأصدر السلطان محمد أمره بحرمان البوسنة

من الامتيازات التي كان قد منحها لها، وجعلها ولاية مثل بقية الولايات التابعة مباشرة للحكم العثماني، وانضم إلى جيش الانكشارية ثلاثون ألفاً من شبانها، وأسلم أغلب أشراف أهاليها.

جاء دور الحرب مع البندقية، إذ تركت أعمال السلطان محمد في الموره أسوأ الأثر في علاقاته مع البندقية التي بقيت هي القوة الوحيدة والقادرة على مقاومته على الأرض اليونانية.

مما أدى إلى وقوع الخلاف بين الفريقين مرة بعد مرة، حتى بات وقوع الحرب بينهما أمراً محتوماً. ولم تكن هناك حاجة لاصطناع الأسباب لتفجير هذه الحرب، التي بدأت في سنة ٨٦٨ هـ = ١٤٦٣ م، بحجة هروب أحد الأرقاء إلى كورونا التابعة للبنادقة، وامتناع البنادقة عن تلبية طلب السلطان محمد بإعادته، وذلك تحت ذريعة أنه اعتنق الديانة المسيحية. فتوجه الجيش العثماني الى مدينة (أرغوز)★ وغيرها. فاستنجد البنادقة بحكومتهم التي ارسلت اسطولها وأنزلت قواتها في بلاد مورة، فثار سكانها وقاتلوا قوات العثمانيين، وأعادوا تشييد ما كان قد تهدم من سور برزخ كورنثه لمنع وصول امدادات العثمانيين، وحاصروا مدينة كورنثة ذاتها، واستعادوا السيطرة على مدينة (أرغوز). وأسرع السلطان محمد فقدم على رأس جيش من ثمانين ألف مقاتل. فانسحب البنادقة دونما قتال، واجتاحت قوات العثمانيين بلاد الموره، بدون كبير مقاومة، واستعادوا كل ما استولى عليه البنادقة، وأعادوا النظام والهدوء لبلاد موره.

أدرك البنادقة بعد حروبهم المستمرة مع العثمانيين، أنهم لا يمتلكون ما يكفي من لقدرة لمجابهة تيار العثمانيين في أوروبا، فعقدوا معهم صلحاً لم يتمكن من العيش لأكثر من سنة، فلما تجدد القتال بعدها (سنة ٨٧٥ هـ = ١٤٧٠ م) خسر البنادقة (جزيرة نغربونت) [١] والتي كانت قلب مستعمرات البندقية في جزائر الروم.

(★) أرغوز: (ARGUSE).

(١) نغربونت (NEGROPONT) أو (EUBEE) وتعرف عند الأتراك باسم (أغريبوز) وهي جزيرة تمتد أمام الشاطىء اليوناني الشرقي، بمحاذاة أثينا وإلى الشمال.

وشرع البنادقة في البحث عن حليف يمكن له مساعدتهم على مجابهة القوة المتعاظمة للعثمانيين، ووجدوا هذا الحليف في شخص زعيم قبائل التركمان آق قيونلي ـ أو الخروف الأبيض ـ (أزون حسن) والذي كان قد تغلب على منافسيه الشيعة (قبائل التركمان ـ قره قيونلي أو الخروف الأسود) بعد معارك متتالية، كان أهمها ما حدث سنة ٨٧٢ هـ = ١٤٦٧ م، حيث تمكن (أوزون حسن) من فتح بلاد فارس، والقضاء على سلطة زعيم القره قيونلي (جهان شاه) الذي قضى نحبه وهو يطلق ساقيه للريح.

وبذلك امتدت سلطة اوزون حسن، على كافة البلاد ما بين نهري (أموداريا) [١] والفرات، واتخذ من (أذربيجان) [٢] حاضرة له. ولم يمانع (أوزون حسن) في إقامة مثل هذا التحالف مع البنادقة ضد إخوانه في الدين ـ الأتراك العثمانيين فاستقبل في حاضرته رسول البندقية يصحبه سفير تركماني، **وفي السنة ذاتها (٨٧٦ هـ = ١٤٧١ م) بعث البنادقة إلى فارس سفيراً لهم (اسمه جيوسافو باربارو) ومعه ستة مدافع ضخمة، وستمائة بندقية وعتاد حربي، بالإضافة إلى مائتين من الرماة مع ضباطهم.**

غير أن هذا الدعم لم يصل على كل حال إلى بلاد فارس، إذ أنه عندما وصل إلى قبرص، وجد بأن اسطول البنادقة بقيادة (موسينجو) قد احتل عدداً من المناطق الساحلية على الشواطىء الجنوبية من آسيا الصغرى، فانضم إليها، وفي الوقت ذاته، فإن عدم وصول الدعم إلى (أوزون حسن) لم يمنعه من متابعة أعماله القتالية ضد العثمانيين، فأرسل جيوشه التي اجتاحت (توقات وقيسارية) وعملت في الإقليم نهباً وتخريباً. فما كان من السلطان محمد إلى أن بعث لولديه: داود باشا أمير الأناضول ومصطفى باشا

(١) أموداريا: (AMOU-DARIA) ويعرف عند المسلمين باسم (جيحون: DJIHOUN) وهم الاسم القديم لنهر اوكسوس: (AXUS) وهو نهر كبير طوله ١٥٨٠ كم. ينبع من مسطح البامير (قرب بلخ في أفغانستان) ويصب في بحر آرال.

(٢) أذربيجان: (AZERBAIDJAN) مدينة في شرق القفقاس. وتعرف حالياً باسم كيروف ـ آباد: (KIROVABAD) أو (GANDJA) وهي في جملة المدن الإسلامية التي أصبحت تحت حكم الاتحاد السوفييتي. وتبعد عن أقرب نقطة من نهر الفرات مسافة ثلثمائة كيلومتر.

أمير القرمان وأمرهما بالتوجه لقتال (أوزون حسن). فسارا بجيوشهما وقاتلاه على حدود إقليم الحميد، وهزماه شرّ هزيمة. ولكنه عاد لممارسة تحرشاته واستفزازاته، فلم يرَ السلطان محمد بداً من التوجه لمحاربته، فقاد بنفسه جيشاً من مائة ألف جندي (سنة ٨٧٨ هـ = ١٤٧٣ م) إلى شمال أذربيجان، حيث وقعت المعركة الحاسمة عند الجبال الفاصلة بين منابع الفرات ونهر جوروق. ودارت المعركة سجالاً بين الفرسان - لفترة قصيرة، ولكن المدفعية العثمانية والانكشارية تمكنا من حسم الصراع. ولم يحاول السلطان محمد مطاردة (أوزون حسن) عبر المسالك الصعبة والطرق الجبلية. ولم يعد أوزون حسن بعد ذلك لمحاربة العثمانيين إلى أن توفي سنة ٨٨٣ هـ = ١٤٧٨ م، وذلك بالرغم من كافة الجهود التي بذلها البنادقة لحمله على محاربة العثمانيين.

لم تتوقف الحرب على جبهة أوروبا، فصمم السلطان محمد على تصفية بقية القواعد التي كانت لجنوا على أرض شبه جزيرة القرم، الأمر الذي يضمن له في الوقت ذاته إخضاع التتار المستوطنين هناك، والإفادة من فرسانهم المشهورين بشدة البأس والمهارة في القتال. فأرسل قوة بحرية فتحت مدينة (كافا) بعد حصار استمر ستة أيام، وتبع ذلك فتح جميع المدن التي كانت تابعة لجمهورية (جنوا). وبذلك صارت جميع شواطىء القرم تابعة للدولة العثمانية، ولم يظهر التتار المسلمون أي مقاومة لإخوانهم في الدين - العثمانيين - فاكتفى السلطان محمد بفرض جعل عليهم للاسهام في الجهد الحربي. وقام الاسطول العثماني بعد ميناء (آق كرمان) [1] حيث انطلقت منه السفن الحربية إلى مصب نهر الدانوب، لمعاودة الهجوم على إقليم (البغدان) [2] بينما كان السلطان محمد يجتاز على رأس جيش كبير - من جهة البر - نهر الدانوب. وشعر قائد جيش البغدان - اسطفان الرابع - أنه لا يستطيع مجابهة ثقل الهجوم العثماني، فانسحب بجيشه عبر السهول، وتبعه الجيش العثماني، حتى إذا ما أوغل في تقدمه عبر غابة كثيفة،

---

(١) آق كرمان، ميناء في رأس خليج صغير، مقابل شبه جزيرة القرم، يصب فيه نهر دنييستر: (DENIESTR) واسم الميناء الذي هو تابع اليوم للاتحاد السوفييتي: (DHESTROVSKY).

(٢) البغدان: هو الاقليم الشرقي من رومانيا والمتاخم لحدود الاتحاد السوفييتي والواقع بين نهري بروت: (PRUT) وسيرت (SIRET).

يجهل مفاوزها، انقض اسطفان الرابع بجيشه على الجيش العثماني ومزقه وهزمه (سنة ٨٨١ هـ = ١٤٧٦ م) واستقبل الفرنج هذا النصر بالبهجة والفرح. وأطلق البابا على اسطفان الرابع لقب (شجاع النصرانية وحامي المسيحية).

ولكن السلطان محمد لم يترك الفرنج ينعمون كثيراً بفرحة انتصارهم. فقاد جيشه في السنة التالية (٨٨٢ هـ = ١٤٧٧ م) وهاجم بلاد البنادقة، ووصل إلى اقليم (الفريول) [١] فخاف البنادقة على مدينتهم الأصلية، وأبرموا معه صلحاً، تخلوا له بموجبه عن مدينة (كرويا) [٢]. فاحتلها السلطان محمد، الذي طلب منهم بعدئذ تسليمه (اشقودره) [٣] ولما رفضوا التنازل عنها، أمر بحصارها، ونصب عليها المدافع التي شرعت في قصفها لمدة ستة أسابيع متوالية، وفتح ما كان حولها للبنادقة من البلاد والقلاع حتى صارت اشقودرة معزولة تماماً عما كان حولها من البلاد، وكان لا بد من فتحها وقد بات من المحال على البنادقة دعمها أو إمدادها. وأثناء ذلك كانت قوات العثمانيين قد اجتاحت إقليمي (كرواتيا) [٤] و(دالماتيا) [٥] مما أضعف من تصميم البنادقة على متابعة الحرب، وقرروا عقد صلح جديد مع السلطان محمد (وتم التوقيع على

---

(١) الفريول: (FRIAUL) اقليم يقع الى الشمال من الخليج الواقع في رأس بحر الأدرياتيكي.

(٢) كرويا: (KRUJA) بلدة تقع إلى الجنوب من مدينة أشقودرة، وشمال مدينة تيرانا.

(٣) اشقودرة: مدينة قديمة يقال أن مؤسسها هو الاسكندر المقدوني، تبعت بلاد ألبانيا (الأرناؤوط) في تقلباتها السياسية، فملكها الصرب، ثم استقلت مدة ثم امتلكها البنادقة مدة، ثم العثمانيون، ولم تزل تابعة لهم حتى الآن. وهي عاصمة اقليم اشقودرة.

(٤) كرواتيا - أو كرواسيا: (CROATIE) إحدى الجمهوريات الاتحادية في جمهورية يوغوسلافيا، وعاصمتها زغرب. كانت تابعة للمجر منذ القرن الثاني عشر، وانضمت إلى صربيا وسلوڤانيا سنة ١٩١٨ م فشكلت بمجموعها المملكة الكرواتية الصربية السلوڤانية التي أصبحت تعرف باسم يوغوسلافيا، واستقلت كرواتيا في الحرب العالمية الثانية - تحت الحماية الألمانية - الايطالية - ثم استعادت يوغوسلافيا سيطرتها عليها.

(٥) دالماتيا - أو دلماسيا: (DALMATIE) هي الجزء الغربي من يوغوسلافيا والواقع على الشاطىء الأدرياتيكي، وأمامه جزر كثيرة. خضعت دالماتيا لحكم جنوه من سنة ١٤٢٠ م الى سنة ١٧٩٧ م. ثم أصبح جزءاً من ايليريا: (ILLYRIE) وعاصمته ليوبليانا: (LIUBLIANA) وهو مقسم اليوم بين يوغوسلافيا والنمسا وايطاليا.

معاهدة الصلح يوم ٥ ذي القعدة سنة ٨٨٣ هـ الموافق ٢٨ كانون الثاني - يناير - ١٤٧٩ م). وتنازلت البندقية بموجب هذا الصلح عن اشقودرة، وعن جميع ممتلكاتها في ألبانيا وسواها مما استولى عليه العثمانيون. ليس ذلك فحسب، بل إنها اشترت حق التجارة الحرة في الشرق، وحق تعيين عامل في غلطة - في أحد ضواحي إسلام بول، للإشراف على المصالح التجارية للبندقية، على نحو ما كان عليه الموقف قبل نشوب الحرب بينها وبين العثمانيين، وذلك مقابل دفع مائة ألف دوكا، وبجزية سنوية مقدارها عشرة آلاف دوكا. ووجد البنادقة لأنفسهم العزاء بأن ما نزل بساحتهم على أيدي العثمانيين المسلمين كان أفضل مما نزل بخصومهم ومنافسيهم الجنويين، والذين كانت تجارتهم مع الشرق تستمد مزاياها الكبرى من ممتلكاتهم الواقعة على الشاطىء الشمالي من البحر الأسود، وفي شبه جزيرة القرم. ولقد انتزع السلطان محمد من الجنويين ممتلكاتهم، ولهذا فقد كان حظ البنادقة بما بقي لهم من امتيازات تجارية هو أفضل من الجنويين الذين خسروا كل شيء تقريباً.

كان السلطان محمد يعرف بحكم التجارب المتتالية أنه لا يستطيع الوثوق بعهود الصليبيين ووعودهم، ولهذا فما إن تمّ له عقد صلح مع البنادقة حتى وجه جيوشه إلى بلاد المجر لفتح إقليم (ترنسلفانيا) فتصدى لها قائد مدينة (طمشوار) (١) الكونت (كينيس) وأمكن له الانتصار عليها في معركة حاسمة وقعت بالقرب من مدينة (كرلسبرغ) يوم ١٣ تشرين الأول - اكتوبر - ١٤٧٦ م. وقتل في هذه المعركة عدد كبير من جند الجيش العثماني، واحتفل المجريون بما أحرزوه من نصر، بأن ذبحوا جميع أسرى المسلمين بوحشية، ونصبوا موائدهم على جثثهم، وجلسوا يطعمون فوق أكوام الجثث وسيول الدماء.

كانت البحرية العثمانية بقيادة أمير البحر (كدك أحمد باشا) قد اتجهت سنة ٨٨٤ هـ = ١٤٨٠ م لفتح الجزائر الواقعة بين بلاد اليونان وإيطاليا؛ تنفيذاً لأمر

---

(١) طمشوار: (TIMISOARA) أو تمسوار، مدينة في المجر (تابعة اليوم لرومانيا وهي بالقرب من الحدود اليوغوسلافية شمال بلغراد) اشتهرت بقوة تحصيناتها. ضمها العثمانيون لبلادهم من سنة ١٥٥٢ حتى سنة ١٧١٦ م. وأبرمت فيها معاهدة بين العثمانيين والنمساويين في سنة ١٦٦٢ م.

السلطان محمد الذي أقسم - على ما قيل - **«على فتح هذه الجزائر جميعها، وأن يربط حصانه في كنيسة القديس بطرس بمدينة روما».**

وبدأ الاسطول العثماني عمله بالقاء الحصار على مدينة (**اوترانت**) بجنوب إيطاليا، وجرت معارك طاحنة انتهت بنجاح القوات العثمانية باقتحام المدينة عنوة (يوم ٤ جمادى الثانية سنة ٨٨٥ هـ = ١١ - آب - أغسطس - سنة ١٤٨٠ م. وأثناء ذلك، كانت هناك قوة بحرية أخرى قد اتجهت الى (**رودس**) حيث مقر طائفة فرسان الاسبتارية (فرسان القديس حنا الاورشليمي). وكانت هذه الطائفة يومها بقيادة مقدمها الفرنسي بييردوبوسون، تخوض حرباً ضد مصر وتونس، فلما تقدم الاسطول العثماني من رودس، أسرع مقدم الطائفة فعقد صلحاً مع سلطان مصر وباي تونس، ليتمكن من تركيز كافة الجهود لحماية قاعدته التي حاصرتها قوات العثمانيين يوم ١٣ ربيع الأول - سنة ٨٨٥ هـ = ٢٣ - أيار - مايو - سنة ١٤٨٠ م، وظلت المدافع تقذف رودس بقنابلها (الحجرية) طوال ثلاثة أشهر، فتهدم من أسوارها الحصينة، غير أن الحامية المدافعة عن المدينة كانت تقوم بالليل لإصلاح ما قد تهدم في النهار، وحاول قوات العثمانيين خلال ذلك اقتحام المدينة أكثر من مرة، غير أن الفشل كان من نصيب هذه الهجمات التي تركزت بخاصة على أهم قلاع رودس (قلعة القديس نيقولا). حتى إذا ما كان يوم ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٨٥ هـ، أمر القائد العام بالهجوم على القلعة، واقتحامها من الثغرة التي أحدثتها رمايات المدفعية في أسوارها. وقامت الحامية بمجابهة الهجوم وإحباطه، بعد اشتباكات عنيفة، ومعارك ضارية، مما حمل قائد القوة البحرية العثمانية على اتخاذ قراره برفع الحصار، والعودة الى قاعدته، على أمل إعادة تنظيم القوة التي خسرت عدداً كبيراً من مقاتليها. لاستئناف الهجوم مرة أخرى. وجاءت وفاة السلطان محمد لتؤجل، ولو إلى حين، مشروع الهجوم على رودس وفتحها.

لقد توفي أبو الفتح السلطان محمد، وقد زاد من قوة الدولة بما حققه من فتوح. فقد فتح القسطنطينية، وزاد عليها فتح مملكة طرابزون الرومية والصرب والبوشناق - البوسنة - وألبانيا (الأرناؤوط) وجميع أقاليم آسيا

الصغرى، ولم يبق في بلاد البلقان إلا مدينة بلغراد التابعة للمجر، وبعض الجزائر التابعة للبنادقة.

لم يكن السلطان (بايزيد الثاني) [1] الذي تولى الخلافة بعد أبيه (أبو الفتح) يمتلك قدرة أبيه وكفاءته، فقد كان يميل إلى الدعة والسلام، غير أنه كان في الوقت ذاته شديد الحرص على قوة الدولة ووحدتها، وعلى عدم التفريط بما ضمته إليها من الأقاليم. ولقد ابتلي منذ بداية حكمه بتمرد أخيه (جم) وخروجه على إرادته، فعندما توفي السلطان محمد كان بايزيد الثاني أميراً على إقليم (أماسيه) **فيما كان أخوه الأصغر (الأميرجم) حاكماً على (قرمان).**

ولما كان الصدر الأعظم (قرماني محمد باشا) يميل إلى الأميرجم، فقد حاول تنصيبه للخلافة وتسليمه مقاليد السلطة، فتكتم على موت السلطان وأرسل رسولاً إلى الأميرجم يعلمه بموت أبيه ويستعجله الحضور إلى العاصمة. ولكن الإنكشارية علمت بالأمر، فثارت ثائرتها، وقتلت الصدر الأعظم، وعاثت في المدينة سلباً ونهباً وتخريباً، وأقامت ابن السلطان بايزيد (واسمه كركود) نائباً عن أبيه حتى حضوره. وفي الوقت ذاته، أسرع السلطان بايزيد في تحركه، فقاد أربعة آلاف فارس، ووصل إلى (إسلام بول) بعد تسعة أيام، مع العلم أن قطع هذه المسافة يحتاج عادة إلى خمسة عشر يوماً. فقابله أمراء الدولة وأعيانها عند مضيق البوسفور. وفي أثناء عبوره المضيق، أحاطت به عدة قوارب حملت جند الإنكشارية الذين طلبوا منه عزل أحد الوزراء (واسمه مصطفى باشا) وتعيين قائد قوات المدينة (إسحق باشا) مكانه، فاستجاب لطلبهم.

وكذلك عندما وصل إلى السرايا، وجد الإنكشارية وقد اصطفوا أمامها، وطلبوا العفو عنهم لما قاموا به من قتل رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) ولما وقع منهم في نهب المدينة، وأن ينعم عليهم بمبلغ من المال ابتهاجاً بتوليته

---

(١) بايزيد الثاني - ثامن الخلفاء العباسيين - (٨٥١ - ٩١٨ هـ = ١٤٤٧ - ١٥١٢ م) انشق عنه أخوه الأميرجم - والمعروف عند الفرنج باسم (ZIZIM) وتمرد عليه أولاده في نهاية حياته. وفي عهده، أخرج المسلمون من غرناطة (سنة ٨٩٧ هـ = ١٤٩١ م) وتم القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس.

الخلافة، فأجابهم الى مطالبهم، وأصبحت هذه سنة متبعة لكل من تولى بعده - حتى أبطلها السلطان عبد الحميد الأول (سنة ١١٨٧ هـ = ١٧٧٣ م).

أما الرسول الذي كان قد أرسله قرماني محمد باشا الى الأميرجم، فقد قبض عليه حاكم الأناضول (سنان باشا) وقتله، حتى لا يعلم الأميرجم بوفاة أبيه. وعندما علم الأميرجم بوفاة أبيه السلطان محمد، وخلافة أخيه الأكبر بايزيد، أسرع بقيادة قواته، مع من انضم إليه، وتوجه الى بورصة، حيث دخلها عنوة بعد أن هزم ألفي انكشاري، ثم أرسل إلى أخيه، وعرض عليه الصلح على أساس تقسيم المملكة بينهما، بحيث يختص (جم) بولايات آسيا، فيما يختص (بايزيد) بأوروبا. ولم يقبل بايزيد العرض، وقاد جيشه، وقاتل قوات أخيه وانتصر عليها في معركة وقعت قرب مدينة (يكي شهر) يوم ٢٣ جمادى الأول - سنة ٨٨٦ هـ (٢٠ تموز - يوليو - سنة ١٤٨١ م). وطارده حتى حدود بلاد الشام. ولجأ (الأميرجم) الى القاهرة حيث نزل ضيفاً على السلطان (قايتباي - أو قايد باي) لمدة سنة، رجع بعدها إلى حلب، وأرسل رسالة إلى آخر أمراء القرمان (قاسم بك) ووعده أن يرد له جميع أملاك أجداده إن هو دعمه وساعده ضد أخيه بايزيد. واغتر قاسم، فجمع ما توافر له من القوات، وسار مع الأميرجم لمحاصرة قونية عاصمة بلاد القرمان، فصدهم عنها القائد العثماني (كدك أحمد باشا). وأرغم الأميرجم على الفرار، ثم عاد فطلب إلى أخيه بايزيد إقطاعه بعض الولايات، ورفض بايزيد هذا الطلب الذي ينطوي على تقسيم لكيان الدولة، فما كان من الأميرجم إلا أن أرسل رسولاً الى رودس للاتصال بمقدم طائفة فرسان الاسبتارية (طائفة القديس حنا الاورشليمي) وطلب مساعدته، ولم يلبث الأميرجم أن ارتحل بدوره إلى رودس، وتم استقباله بحفاوة بالغة. ولم تمض أكثر من فترة قصيرة حتى استقبل مقدم الاسبتارية وفداً أرسله السلطان بايزيد ومعه عرض لاحتجاز الأميرجم، وإبقائه في الجزيرة، مقابل وعد بعدم التعرض لاستقلال الجزيرة طوال حياته، بالاضافة لدفع ٤٥ ألف دوكا سنوياً لتغطية نفقات الأميرجم. وقبل مقدم الاسبتارية هذا العرض، ورفض تسليمه إلى ملك المجر وامبراطور ألمانيا اللذين طلبا إطلاق سراحه لاستخدامه ضد الدولة العثمانية. ولما تزايد الضغط على مقدم الاسبتارية لتسليم رهينته (الأميرجم)

قام بنقله الى مدينة (نيس) ثم الى مدينة (شمبري) [1] واستمر في نقله من بلدة إلى أخرى طوال سبع سنوات، وأخيراً ضاق مقدم الاسبتارية ذرعاً بهذا الضيف الثقيل، فقام بتسليمه الى البابا (انوسنت الثامن) سنة ٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ م حيث قام هذا البابا بالاتصال بالسلطان بايزيد وطلب إليه الموافقة على السماح له باحتجاز (الأميرجم) مقابل دفع ما كان يدفعه السلطان بايزيد لمقدم الاسبتارية. ووافق السلطان بايزيد. غير أن البابا انوسنت توفي سنة ١٤٩٢ م وخلفه البابا (اسكندر بورجيا) [2] الذي قيل بأنه عرض على السلطان بايزيد أن يخلصه من أخيه - أي اغتياله - مقابل مبلغ ثلثمائة ألف دوكا. وأثناء ذلك قام ملك فرنسا شارل الثامن بهجوم على بلاد إيطاليا، لتنفيذ مشروعه الهادف لفتح القسطنطينية، والوصول إليها عن طريق بلاد البنادقة فألبانيا، وسبق حملته هذه إرسال دعاة الى بلاد مقدونيا واليونان لإثارة الجماهير ضد العثمانيين، وتنظيم المقاومة، الأمر الذي أدخل الذعر في قلوب ملك نابولي وحكام البندقية، فشرعوا في العمل للحد من نفوذه، ووضعوا العقبات أمام مشاريعه وأعماله، وأرسلوا الى السلطان بايزيد فأعلموه بنوايا ملك فرنسا وأعماله، وطلبوا إليه إرسال جيوشه الى بلاد إيطاليا، وأن يتخذ تدابير الحذر في بلاده ضد الأعمال التخريبية التي نظمها ملك فرنسا. وفي هذه الأثناء حاصر ملك فرنسا مدينة روما، وطلب من البابا أن يسلمه (الأميرجم) فسلمه إليه. وقيل يومها أنه دس له السم قبل تسليمه إليه، وحمل

---

(١) شمبري: (CHAMBERY) بلدة فرنسية تقع الى الجنوب من بحيرة اكس لوبان AIX-LES-BAINS - وهي مركز مقاطعة سافوا SAVOIE وتقع على بعد ٥٥٣ كم الى الجنوب الشرقي من العاصمة باريس.

(٢) اسكندر بورجيا: (ALEXANDRE-BORGIA) من مواليد بلدة JATIVA في اسبانيا سنة ١٤٣١ م. وانتخب لمنصب البابا سنة ١٤٩٢ م حتى وفاته سنة ١٥٠٣ م. واشتهرت هذه العائلة بانجاب عدد من المشهورين، منهم قيصر بورجيا (CESAR-BORGIA) دوق فالنتينوا، الذي مات سنة ١٥٠٧ م، واشتهر بالقسوة، وقد اتخذ ماكيافيللي منه نموذجاً للحاكم في كتابه (الأمير). وكذلك أخته لوكريس بورجيا: (LUCRECE) ١٤٨٠ - ١٥١٩ م والتي اشتهرت بجمالها وبرعايتها للعلوم والآداب والفنون، غير أنها كانت أداة - العوبة - بيد أبيها اسكندر بورجيا (السادس) وأخيها قيصر، وقد أصدر فيكتور هيغو في سنة ١٨٨٣ م قصة حياتها في كتاب حمل اسمها وشرح فيه ما ارتكبته وأبوها من الجرائم والآثام.

الأميرجم لمرافقة الجيوش الفرنسية إلى أن توفي (سنة ٩٠٠ هـ = ١٤٩٥ م) في مدينة نابولي، ودفن في بلدة (جاييت) بإيطاليا، ثم نقلت جثته الى بورصة حيث دفنْ في قبور أجداده.

لقد اقتصرت الأعمال القتالية (في عهد السلطان بايزيد) على الاشتباكات المحدودة على تخوم المملكة وحدودها، أو القيام بحملات تأديبية ضد أعمال التمرد والعصيان، ومثل ذلك ما حدث سنة ٨٩٣ هـ = ١٤٨٧ م حيث كادت الحرب تندلع بين العثمانيين وحكام مصر والشام (المماليك) بسبب بعض الاشتباكات بين جند الطرفين عند أطنه وطرسوس الواقعتين على الحدود، ولكن باي تونس أسرع في وساطته لتجنب الصدام بين حاكمين مسلمين. واستجاب له الطرفان، وأمكن الوصول إلى حلّ قبل به الطرفان. وكذلك وقعت اشتباكات كبيرة في سنة ٨٩٧ هـ = ١٤٩١ م والسنين التالية لها، غير أن هذه الاشتباكات لم تسفر عن نتائج هامة، ولم يتم فتح بلغراد التي بقيت مطمح أنظار الدولة لبقائها نقطة سوداء على شاطىء نهر الدانوب الأيمن الفاصل بين أملاك الدولة العثمانية وبلاد المجر.

أصبحت الدولة العثمانية بعد سيطرتها على شطر كبير من أوروبا الوسطى، عاملاً أساسياً وحاسماً في كافة التوازنات الأوروبية. ولهذا لم يكن غريباً أن تصبح مدينة (إسلام بول) مقر نشاط ديبلوماسي مكثف، تتوجه إليه كافة الدول.

وكانت إمارة موسكو أكثر تحسساً لهذا الواقع، لاسيما بعد أن تمكن (ايفان الثالث) [١] من إعادة توحيد إمارات المدن التي مزقها اجتياح المغول - التتار المسلمين. وحقق لها بعض القوة (سنة ١٤٨١ م) وبدأ في إقامة العلاقات بينه وبين الدولة العثمانية، حيث وصل أول سفير روسي إلى (إسلام بول) في سنة ٨٩٨ هـ =

(١) ايفان الثالث: (IVAN III) الدوق الأكبر لموسكو، ولقب بالطيب، دمر هيمنة المغول التتار، وحكم من سنة ١٤٦٢ حتى سنة ١٥٠٥ م. وجاء بعد ذلك ايفان الرابع الرهيب، والذي كان أول من حمل لقب (قيصر) بسبب نجاحه في توحيد إمارات روسيا، وحكم من سنة ١٥٣٣ حتى سنة ١٥٨٤ م.

١٤٩٢ م ومعه جملة من الهدايا للسلطان بايزيد، وبعد ذلك بأربع سنوات وصل سفير روسي آخر، واستحصل من الدولة على بعض الامتيازات التجارية الخاصة لبلاده.

بدأت في عهد السلطان بايزيد أيضاً الاتصالات لإقامة علاقات ودية مع مملكة بولونيا فعقدت بين الدولتين معاهدة صداقة في سنة ٨٩٦ هـ = ١٤٩٠ م، وتجددت هذه المعاهدة بعد سنتين. ولكن العلاقات بين الدولتين ما لبثت أن ساءت وتدهورت بسبب عمل كل من الدولتين على تحقيق سيادتها على إقليم البغدان، وقيام ملك بولونيا بالإغارة على البغدان، فالتزم العثمانيون بطرد المجر منها، والإغارة على حدود بولونيا بمساعدة أمير بغدان ذاته، والذي ارتضى حماية الدولة العثمانية لبلاده. وكذلك بدأت الاتصالات بين الدولة العثمانية وبين البابا اسكندر السادس (بورجيا) وملك نابولي ودوق ميلانو وجمهورية فلورنسا، حيث كان كل منهم يسعى لإقامة تحالف مع الدولة العثمانية، والاستعانة بجندها وأسطولها لمحاربة خصومه وأعدائه، ومحاولة قطع العلاقات بينها وبين خصومه وأعدائه. وتمكن الإيطاليون عبر تلك الجهود إحداث شرخ في العلاقات بين الدولة العثمانية وبين جمهورية البندقية. مما أدى بالتالي إلى وقوع حرب بينهما، فأرسل السلطان بايزيد جيوشه البرية وقواته البحرية لفتح مدينة (ليبانت)[1] من بلاد اليونان وكانت تابعة لجمهورية البندقية، ففتحت بسهولة عقب انتصار البحرية العثمانية على اسطول البندقية والذي حاول ايقاف تقدم الاسطول العثماني عند مدخل الخليج المسمى باسم هذه المدينة. وفي الوقت ذاته، قام والي البشناق (البوسنة) بالإغارة على اقليم فريول، ثم اجتاز نهر ايزونطو، ووصلت طلائعه إلى أرباض مدينة فيشنسا - في شمال إيطاليا إلى الغرب من مدينة تريستا. واضطر لإيقاف القتال بسبب اشتداد البرد. وفي السنة التالية احتل العثمانيون ثغور مودون وكورون و(نافاران)[2] من بلاد

---

(١) ليبانت: (LEPANTE) وتقع على جانب مضيق ليبانت الذي يصل بين خليج باتراس. (PATRAS) وخليج كورنث: (KORINTH) في بلاد اليونان.

(٢) نافاران: (NAVARIN) مدينة تقع شمال مودون (MODON) الواقعة في الرأس الجنوبي الغربي من شبه جزيرة موره. وتتميز نافاران بمينائها الذي اشتهر بمعركة نافاران البحرية، حيث حشدت فرنسا وانكلترا وروسيا معاً أساطيلها ضد الأسطول العثماني - المصري (في ٢٨ محرم ١٢٤٣ هـ = ٢٠ =

اليونان، وكانت من أملاك البنادقة في هذه البحار. وخافت جمهورية البندقية من ضياع استقلالها، فاستغاثت بدول الغرب الصليبية، فأنجدها البابا وملك فرنسا ببعض السفن الحربية، وساعدوها على محاصرة جزيرة (ميدللي)[1] بهدف اشغال الدولة العثمانية وصرفها عن متابعة الحرب ضد البندقية. ولكن هذه المحاولة فشلت، ولم تصرف العثمانيين عن هدفهم، ففتحوا مدينة (رودستو) الواقعة على بحر الادرياتيكي. وكان السلطان بايزيد يعتزم فتح كل بلاد البندقية، إلا أن بعض المتاعب الداخلية أرغمته على ايقاف أعمال الفتوح الخارجية، وتم ابرام الصلح مع جمهورية البندقية في سنة ٩٠٨ هـ = ١٥٠٢ م، وعقد صلح مماثل مع المجر في السنة التالية.

كان للسلطان بايزيد ثلاثة أبناء هم كركود وأحمد وسليم، وكان أولهم محباً للعلوم والآداب ومنشغلاً بمجالسة العلماء، فكان الجيش يمقته لعدم ميله للحرب والقتال. بينما كان الثاني ـ أحمد ـ محبوباً من الأمراء والأعيان وكبار رجال الدولة ـ وكان أكبر الوزراء علي باشا مخلصاً له. أما الثالث ـ سليم ـ فكان رجل الحرب، ولهذا كان محبوباً من الجند عامة والإنكشارية خصوصاً. وخشي السلطان بايزيد من وقوع الخلاف وتمزق الدولة بسبب اختلاف ميول أبنائه، فقرر توزيع السلطة، وعمل على تعيين ابنه كركود على إحدى الولايات البعيدة. وعين أحمد والياً على أماسيا، بينما عين سليم على طرابزون، كما عين سليمان بن ابنه سليم والياً على كافا من بلاد القرم. لكن سليم لم يقبل بهذا التعيين، وترك مقر عمله وسافر إلى كافا من بلاد القرم، وأرسل إلى أبيه وطلب منه تعيينه في إحدى ولايات أوروبا. فلم يقبل السلطان بايزيد، بل أصرّ على بقائه والياً على طرابزون. فأعلن سليم تمرده، وسار بجيش جمعه من قبائل التتار، الى الروملي، فأرسل والده جيشاً لإرهابه، ولما وجد من ابنه التصميم على الحرب، قبل تعيينه بأوروبا حقناً للدماء. وعينه والياً على مدينتي سمندريه و(ودين)[2] سنة ٩١٧ هـ =

= تشرين الأول ـ اكتوبر ـ ١٨٢٧ م) وذلك لإخراج ابراهيم باشا وجيشه من اليونان، ومساعدة اليونان على الاستقلال عن العثمانيين.

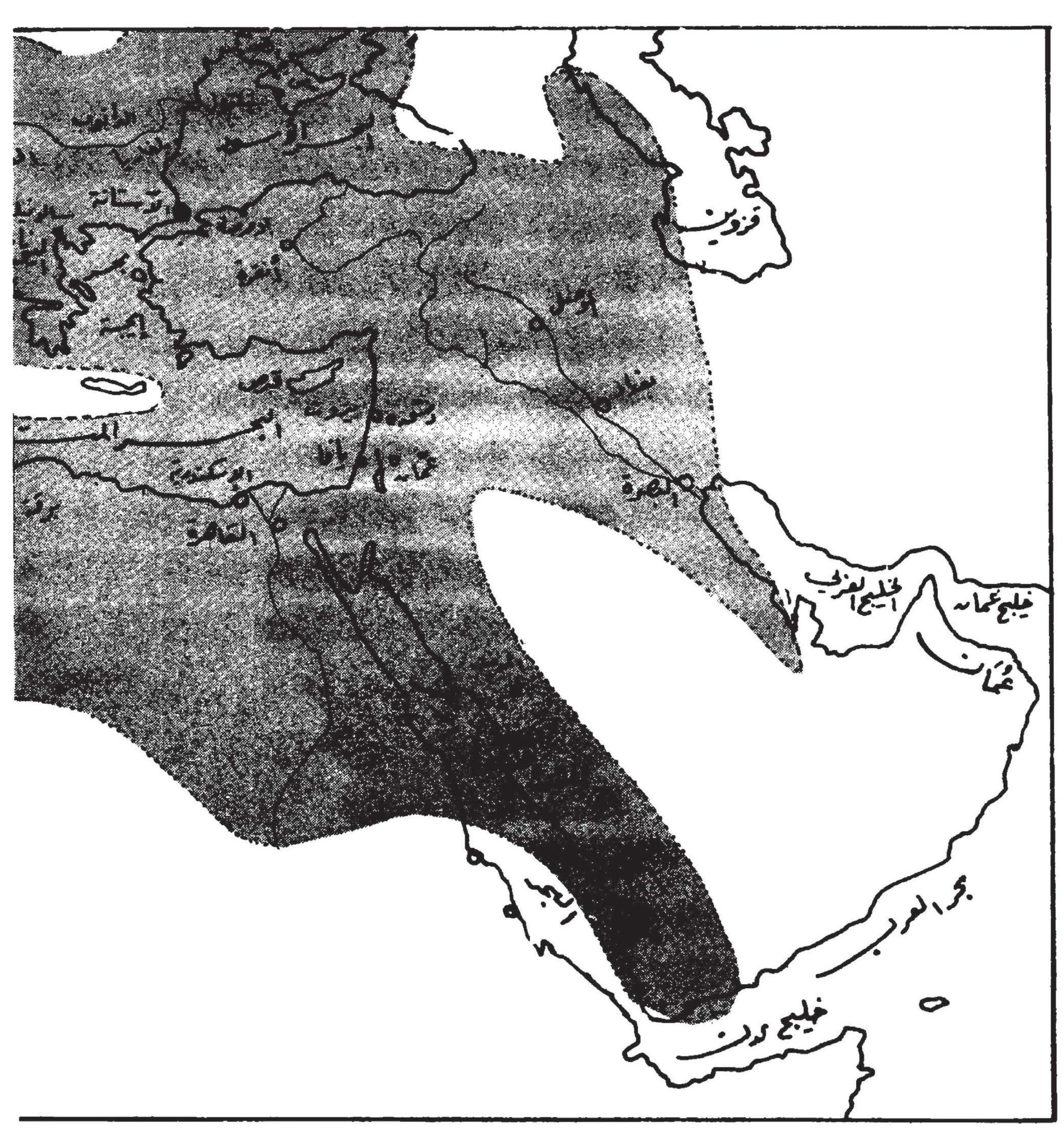
(١) ميدللي: (MITILINI) جزيرة كبيرة في بحر إيجه، مقابل برّ الأناضول.

(٢) ودين (VIDIN) مدينة حصينة في الشمال الغربي من بلغاريا ـ قرب الحدود اليوغوسلافية تقع على نهر =

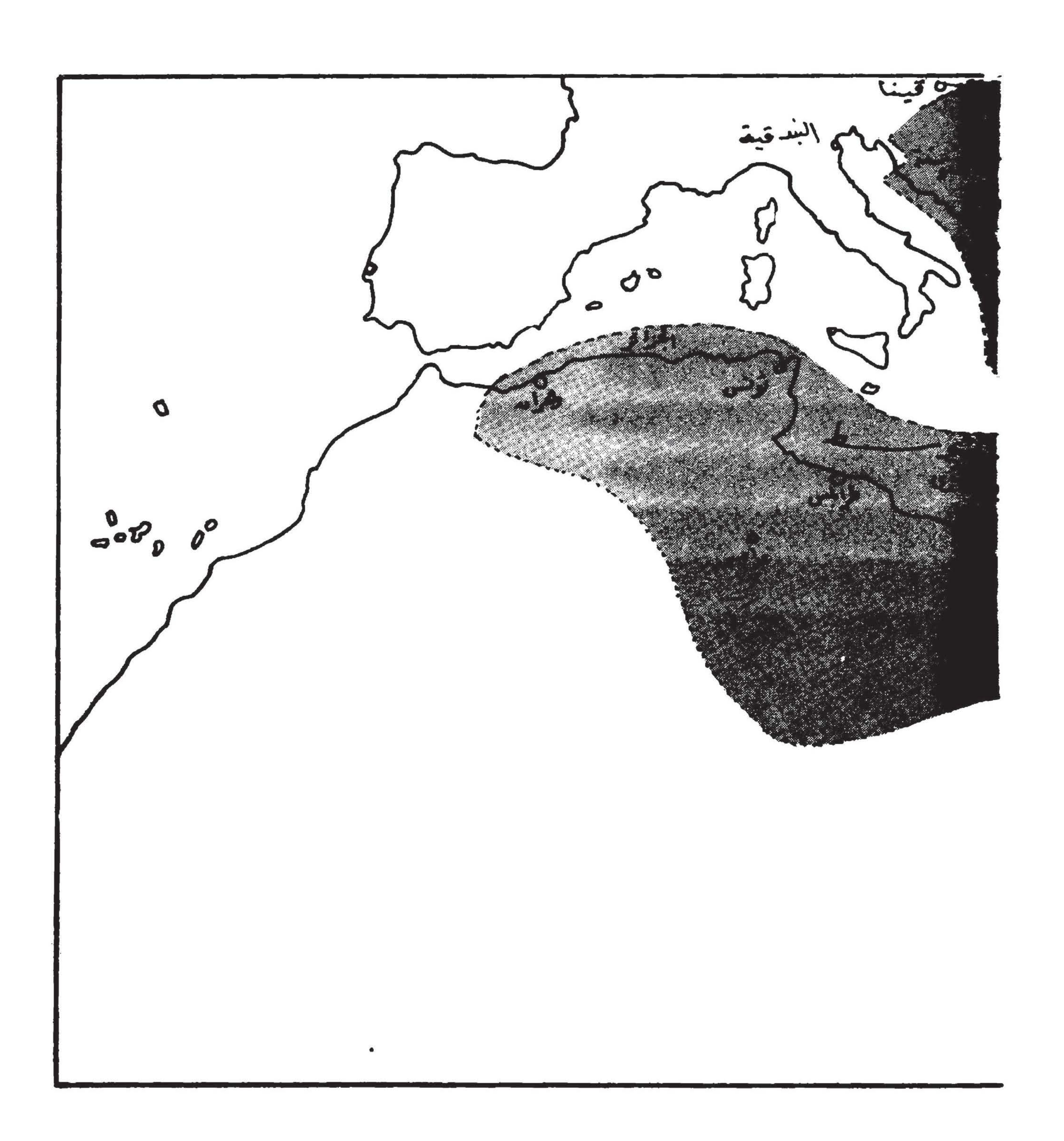
١٥١١ م. ولما علم كركود بنجاح حركة تمرد أخيه سليم، انتقل إلى ولاية صاروخان، واستلم إدارتها بدون أمر أبيه، وذلك حتى يكون قريباً من العاصمة (إسلام بول) إذا ما استدعت الحاجة. ثم سار سليم إلى أدرنه، وأعلن نفسه سلطاناً عليها. فأرسل إليه والده من هزمه، وأرغمه على الفرار إلى بلاد القرم. وأرسل جيشاً آخر لمحاربة كركود بآسيا فهزمه أيضاً. واضطر السلطان بايزيد للخضوع للإنكشارية الذين طلبوا إصدار عفو عن سليم، وإعادته إلى سمندرية. وفي أثناء توجه سليم إليها، سار الإنكشارية وحملوه الى العاصمة باحتفال كبير، وطلبوا الى السلطان بايزيد التنازل عن السلطنة لابنه سليم. فقبل واستقال يوم ٨ صفر سنة ٩١٨ هـ (٢٥ نيسان - ابريل - سنة ١٥١٢ م) وسافر بعد ذلك بعشرين يوماً للإقامة في بلدة (ديموتيقا) [١] فتوفي في الطريق، وقيل يومها أن ولده دس إليه السم خوفاً من رجوعه الى منصة الملك، ولو أن هذا القول يحمل من الشك أكثر مما يحمله من اليقين. غير أن ذلك يظهر مرة أخرى دور الإنكشارية في تسيير أمور الدولة.

= الدانوب وتبعد ٢٢٥ كيلومتراً عن بلغراد.

(١) ديموتيقا: (DIMOTIKHOM) مدينة تقع الى الجنوب من أدرنة في اليونان، على الحدود التركية.



توسع الدولة العثمانية ومناطق سيطرتها


البندقية
وهران
تونس

٦ ـ الدولة في ذرى المجد.

جاء الانكشارية بالسلطان (سليم الأول)[١] بحركة انقلاب حقيقية، فكان لزاماً على السلطان سليم أن يزيد من قدر المكافآت التي جرت العادة على توزيعها مع قدوم كل سلطان جديد إلى (السرايا) فصرف لكل منهم خمسين دوكا. وكان أول عمل له بعد ذلك هو تعيين ابنه سليمان حاكماً على (إسلام بول) ليقود هو بنفسه جيوشه إلى بلاد آسيا لمحاربة إخوته، وأولاد إخوته، حتى لا يبقى هناك من ينازعه أو ينافسه في السلطة، فاقتفى أثر أخيه أحمد إلى أنقره، ولم يتمكن من القبض عليه لوجود علاقات حميمة بينه وبين الوزير مصطفى باشا الذي كان يخبر الأمير محمد بتحركات السلطان سليم وأهدافه، وعندما عرف السلطان بهذه الاتصالات، اعتبر ذلك خيانة وقتل الوزير مصطفى شرّ قتلة ـ جزاء له وعبرة لغيره ـ. ثم توجه إلى بورصة حيث قبض على خمسة من أبناء إخوته وأمر بقتلهم. وبعدها توجه بأقصى سرعة إلى صاروخان، قاعدة أخيه كركود ـ ففرَ منه إلى الجبال. وبعد البحث عليه عدة أسابيع، قبض عليه وقتل. أما أحمد، فإنه جمع جيشاً من محاربيه، وقاتل جند أخيه، ودارت الدائرة على الأمير أحمد فقتل بالقرب من مدينة (يكي شهر) في مطلع سنة ٩١٩ هـ = ١٥١٣ م. وبذلك انفرد السلطان سليم بالسلطة دون منازع. فعاد إلى مدينة أدرنة، حيث استقبل سفراء البندقية والمجر والموسكو وسلطنة مصر، فأبرم مع جميعهم هدنة لمدد طويلة ليتفرغ لحرب الشيعة الصفويين في بلاد فارس، فلما فرغ من هذه الحرب بعد سنتين من الصراع

---

(١) السلطان الغازي سليم الأول ـ تاسع خلفاء بني عثمان (٨٧٥ ـ ٩٢٦ هـ = ١٤٧٠ ـ ١٥٢٠ م) اشتهر بالكفاءة القيادية والقدرة التنظيمية الإدارية، غير أن شهرته بسفك الدماء كانت أكبر، حتى أنه قتل سبعة من وزرائه ـ على التتابع ـ لأسباب واهية، فصار الناس يتمنون لأعدائهم وخصومهم أن يصبحوا وزراء للسلطان سليم. وأطلق عليه لقب (ياوز ـ أي القاطع).

المرير، أصبح باستطاعته التوجه بثقل هجومه ضد المماليك حكام مصر وبلاد الشام، بسبب تحالفهم مع الصفويين ضد العثمانيين. وحاول (قانصوه الغوري) سلطان مصر تجنب الحرب مع السلطان سليم، فأرسل إليه رسولاً لعرض وساطته بينه وبين الصفويين، لابرام الصلح، غير أن السلطان سليم رفض هذه الوساطة، وأهان رسول (قانصوه الغوري) [1] وطرده بصورة مزرية. وعرف السلطان قانصوه أنه لم يعد هناك سبيل لتجنب الحرب، فقاد جيشه من مصر، وسار به حتى وصل الى شمال بلاد الشام، حيث تقابل الجيشان المملوكي والعثماني في واد يعرف باسم (مرج دابق) [2] وهزم الغوري بسبب وقوع الخلاف بين فرق جيشه، وتفوق المدفعية العثمانية تفوقاً واضحاً، وقتل الغوري وتمزق جيشه، ودخل السلطان سليم مدن حلب وحماه وحمص ودمشق فاستقبله أهلها - عامتهم وخاصتهم، بحفاوة بالغة، وقابل العلماء فأحسن وفادتهم، ووزع الإعانات والمساعدات على المساجد، وأمر بإصلاح الجامع الأموي بدمشق وترميمه، وعندما صلى السلطان سليم صلاة الجمعة، أضاف الخطيب عندما دعا له عبارة (**خادم الحرمين الشريفين**) وهي التي بقيت ملازمة لخطبة الجمعة حتى زوال الخلافة العثمانية.

---

(١) قانصوه الغوري - هو الملك الأشرف أبو النصر سيف الدين قانصوه الغوري الظاهري الأشرفي، وأصله من مماليك الأشرف الظاهر خشقدم، ثم انتقل الى الأشرف قايد باي (قايتباي) بويع له بالملك سنة ٩٠٦ هـ = ١٥٠٠ م (وهو من مواليد سنة ٨٤٢ هـ = ١٤٣٨ م) وقتل في مرج دابق سنة ٩٢٢ هـ = ١٥١٦ م وعمره ثمانون عاماً. اشتهر بالبر والإحسان، والاهتمام بالحركة العمرانية - ومن آثاره - بناء سور مدينة جدة، ودائر الحجر الأسود وبعض أروقة المسجد الحرام، وباب ابراهيم، وعدة خانات وآبار في طريق الحج المصري. وعمّر بعض أبراج الاسكندرية.

(٢) مرج دابق، هو مرج معشب، تقع فيه قرية دابق، ما بين بلدة عزاز، ومدينة حلب الشهباء، الى الشمال الغربي من حلب. وكان بنوا مروان - الأمويين - ينزلون مرج دابق استعداداً لغزو بلاد الروم في الصوائف والشواتي، وفيه قبر سليمان بن عبد الملك بن مروان، الذي كان قد أظهر العزم على ألا يرجع حتى يفتح القسطنطينية أو تؤدي الجزية، فشتى بدابق شتاء بعد شتاء، ومر ذات يوم بقبر، فسأل: لمن هذا القبر؟ فقالوا له: «قبر فلان» وسموه له، فقال سليمان: «يا ويحه، لقد أمسى قبره بدار غربة» ومات بعدها سليمان، ودفن بجانبه فوق تل يعرف باسم: «تل سليمان».

انتخب المماليك في مصر (طومان باي) ليكون سلطاناً، بعد أن بلغهم موت السلطان الغوري، وأرسل إليه السلطان سليم وفداً عرض عليه الصلح مقابل اعترافه بسيادة الدولة العثمانية على مصر. ولكن طومان باي رفض العرض، واستعد لقتال الجيوش العثمانية. واصطدمت مقدمتا الجيشين عند حدود بلاد الشام، فانتصرت مقدمة العثمانيين، وفتح السلطان سليم مدينة غزه، ثم سار منها بجيوشه الى مصر، ونشب القتال بين الطرفين بجهة الوايلي (العادلي) في ٢٩ ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ (٢٢ كانون الثاني - يناير - سنة ١٥١٧ م). وتولى أثناء المعركة قيادة قوة من أفضل فرسانه وأغار بها على مركز السلطان سليم، وقتلوا من كان حوله، وأسروا وزيره سنان بك فقتله طومان باي بيده اعتقاداً منه أنه هو السلطان ذاته، ولكن المعركة في نهايتها لم تكن لصالح المماليك الذين لم تنفعهم شجاعتهم في هذه المرة، في مواجهة المدفعية العثمانية المتفوقة ومدفعية المماليك التي استولى عليها السلطان سليم أثناء تقدمه، واستخدمها ضدهم. ودخل العثمانيون بعد ذلك بثمانية أيام مدينة القاهرة، رغم عدم توقف مقاومة المماليك الذين قاتلوا العثمانيين من شارع إلى شارع، ومن منزل إلى منزل، حتى قتل منهم ومن أهالي البلد خمسين ألف نسمة تقريباً. والتجأ طومان باي ومن بقي معه إلى برّ الجيزة، واستمر في الاشتباك مع العثمانيين، وصار يقتل كل من يأسره منهم، لكنه لم يلبث أن وقع في أيدي العثمانيين بخيانة بعض من معه، فأمر السلطان سليم بشنقه يوم ٢١ ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ = ١٣ نيسان - ابريل - سنة ١٥١٧ م. ودفن بالقبر الذي كان أعده السلطان الغوري لنفسه، وبعد أن مكث السلطان سليم بالقاهرة نحو شهر، أقام في منيل الروضة، وأخذ في زيارة جوامع المدينة وكل ما بها من الآثار، ووزع المنح والهدايا والخلع السنية على أعيان المدينة وكبار رجالها، وحضر الاحتفال السنوي بفتح الخليج الناصري عند بلوغ النيل الدرجة الكافية لري الأراضي المصرية. ثم حضر احتفال سفر المحمل الشريف وقافلة الحجاج التي ترسل معها الكسوة الشريفة إلى الأراضي الحجازية. وأرسل (الصرة) المعتاد إرسالها إلى الحرمين الشريفين بقصد توزيعها على الفقراء، من عهد السلطان محمد جلبي العثماني، وأبلغها إلى ثمانية وعشرين ألف دوكا.

اكتسبت عملية فتح السلطان مصر أهمية كبرى ومميزة في تاريخ الدولة العثمانية، فقد كان في مصر يوم فتحها السلطان سليم، الخليفة العباسي محمد المتوكل على الله، والذي استقر أجداده في القاهرة منذ أن دمر هولاكو بغداد (سنة ٦٥٦ هـ = ١٠٩١ م). وبقيت له الخلافة بمصر اسمياً، باعتباره رمز وحدة المسلمين، فلما دخل السلطان سليم مدينة القاهرة فاتحاً، تنازل له المتوكل عن حقه في الخلافة الإسلامية، وسلمه الآثار النبوية الشريفة وهي البيرق أو الراية، والسيف والبردة، وسلمه أيضاً مفاتيح الحرمين الشريفين. وصار كل سلطان عثماني منذ هذا التاريخ أميراً للمؤمنين، اسماً وفعلاً.

أعاد السلطان سليم تنظيم الإدارة في مصر وقد وضع في اعتباره عاملين: أولهما قوة المماليك الذين ورثوا الحكم والسلطة جيلاً بعد جيل، وثانيهما بعد مصر عن مركز الدولة العثمانية، الأمر الذي قد يغري حاكمها على التمرد والاستقلال. ولهذا فقد عمل على تقسيم مصر على ثلاثة أقسام وجعل لكل قسم حاكماً يتبع لوزير الديوان الكبير. وشكل هذا الديوان من الوالي الذي تعينه الدولة العثمانية (الباشا) ومعه حكام المراكز السبعة (بكوات). وحددت مهمة الباشا بتنفيذ أوامر السلطان إلى المجلس وحماية البلاد والدفاع عنها، وإرسال الخراج إلى العاصمة (إسلام بول) وحفظ التوازن بين جميع أعضاء المجلس بحيث لا يتحكم أحد بالآخرين. ومنح أعضاء المجلس حق نقض أوامر (الباشا - الوالي) فيما إذا ظهرت ضرورة لذلك، وحتى عزله إذا ما رأى أعضاء المجلس ضرورة لهذا العزل. وعليهم التصديق على جميع الأوامر الصادرة عنه في أمور الإدارة الداخلية. وجعل حكام المديريات الأربع والعشرين من المماليك. وحدد مهمتهم بجمع الخراج من مديرياتهم، والمحافظة على النظام والأمن، وتنفيذ ذلك بموجب أوامر يصدرها المجلس، إذ ليس لهم الحق التصرف في مثل هذه الأمور وبصورة تلقائية، ولقب أولهم المقيم في القاهرة بلقب شيخ البلد.

وأعاد تنظيم الخراج وقسمه أقساماً ثلاثة، وخصص القسم الأول منه لدفع رواتب الجند الذين حدد عددهم بعشرين ألفاً من المشاة واثني عشر ألفاً من الفرسان + الخيالة -. أما القسم الثاني من الخراج فيرسل الى المدينة المنورة

ومكة المكرمة. فيما يتم ارسال القسم الثالث الى بيت مال المسلمين - الخزانة - في عاصمة الدولة.

وعهد السلطان سليم في بادىء الأمر بتنظيم أمور مصر المالية الى العالم الشهير شمس الدين بن كمال باشا. وأمكن بفضل هذا التنظيم إحكام قبضة الحكم على مصر طوال مائتي سنة، ثم أخذ هذا التنظيم في الضعف والتفكك، إذ أخذ البكوات في الاستكثار من المماليك، حتى زادت قوتهم على قوة الدولة العثمانية، وزاد الحكام من الظلم والجور للحصول على الرسوم، مما دفع المصريين للهجرة بأعداد كبيرة الى الحجاز وبلاد الشام. وأهملت الزراعة وتطهير الجداول والخلجان، فلحق بالأهالي ضرر كبير.

ارتحل السلطان سليم عن القاهرة، عائداً إلى عاصمته (إسلام بول) في سنة ٩٢٤ هـ (أيلول - سبتمبر - سنة ١٥١٨ م) واستصحب معه آخر خلفاء بني العباس. وعين على مصر والياً، أحد أمراء المماليك الذين خانوا طومان باي، وانضموا إليه (واسمه خير بك). وترك بالقاهرة حامية كافية لحفظ الأمن بقيادة (خير الدين آغا الانكشاري). وفي أثناء مروره بصحراء العريش، التفت لوزيره الأكبر (يونس باشا) الذي كان قد عارضه في فتح مصر، وقال له: «ها قد تم الفتح». فأجابه يونس باشا بأن فتحها لم يعد عليه بشيء إلا قتل نحو نصف الجيش، بما أنه سلمها لخائن كان غرضه التملك عليها لنفسه، فلا يؤمن ولاؤه للدولة. فغضب السلطان من هذه الإجابة، وأمر بقتل وزيره في الحال، فقتل. وعين مكانه (بير محمد باشا) الذي كا يشغل قائم مقام السلطان في العاصمة أثناء غيابه في فتح مصر، لثقته به ولما عرفه فيه من سداد الرأي. وصل السلطان سليم إلى دمشق، وأقام فيها خمسة أشهر تقريباً، وحضر الاحتفال بإقامة الصلاة لأول مرة في الجامع الذي أقامه على قبر محي الدين بن العربي، ثم سافر إلى حلب وأقام فيها لمدة شهرين، وعاد إلى عاصمته، وكان ولده سليمان معيناً حاكماً لها مدة غيابه، فتقدم إليه سليمان بعد فترة قصيرة من وصوله، واستأذنه في العودة الى صاروخان التي كان والياً عليها، فأذن له. ولم يلبث السلطان سليم أن انتقل إلى أدرنه لأخذ قسط من الراحة بعد مشاق سنوات متتالية من المسيرات الشاقة، والأعمال القتالية العنيفة.

استقبل السلطان سليم وهو في أدرنه سفير المملكة الاسبانية الذي طلب منح الحرية للمسيحيين بزيارة القدس الشريف، والذي كان تابعاً من قبل لسلطنة مصر، وتبعها في دخوله تحت حكم العثمانيين، وذلك مقابل دفع المبلغ الذي كان يدفع سنوياً للمماليك. ووافق السلطان سليم على الطلب، وتم التوقيع على معاهدة بذلك. كما استقبل السلطان سليم أيضاً سفير جمهورية البندقية الذي حمل الجزية لمدة سنتين - مقابل احتفاظها بقبرص - وذلك بموجب الاتفاق السابق.

انصرف السلطان سليم في هذه الفترة لإعادة تنظيم قوة بحرية كافية لمعاودة الهجوم على جزيرة رودس وفتحها، كما اتخذ التدابير للهجوم من جديد على الصفويين في بلاد فارس. فحشد في مدينة قيصرية جيشاً من خمسة عشر ألف فارس وثلاثين ألفاً من المشاة، بالإضافة الى قوة كبيرة من المدفعية وكميات ضخمة من الذخائر، وأسند قيادتهم الى أمير الأناضول فرحات باشا. ولكن المنية عاجلته ولما يكمل بعد استعداداته.

لقد اهتزت أوروبا لما حققه السلطان سليم من فتوح وحدت شمل العالم الإسلامي، ووضعته تحت قيادة واحدة، حتى لقد خشي البابا ليو العاشر أن تتعرض سلامة العالم المسيحي للخطر والزوال، فشرع يعد العدة لاستنهاض الهمم وتجريد حملة صليبية جديدة. وجاء (السلطان سليمان) للحكم [1] وموجة

---

(١) السلطان الغازي سليمان خان الأول، عاشر خلفاء بني عثمان، ولد في غرة شعبان سنة ٩٠٠ هـ (٢٧ نيسان - أبريل - سنة ١٤٩٥ م) وتولى الحكم يوم ١٧ شوال سنة ٩٢٦ هـ (٢٩ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٢٠ م) وتوفي في ٢٠ صفر سنة ٩٧٤ هـ (٥ أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٦٦ م) وكانت مدة حكمه ٤٦ سنة. وصلت الدولة في عهده أوج عظمتها وذروة قدرتها، ولقبه الغرب بلقب (العظيم) بينما لقبه العثمانيون (القانوني - أو المتشرع) واهتم بالحركة العمرانية قدر اهتمامه بإدارة الحرب وتنظيم البلاد، ومن آثاره العمرانية أنه كلف رئيس المهندسين (سرمعمار) بتنفيذ مشاريع كثيرة، فكان مما أنجزه هذا المهندس سنان باشا - بأمر السلطان سليمان - واحداً وثمانين جامعاً كبيراً، واثنين وخمسين مسجداً صغيراً. وسبعة معاهد لدراسة القرآن الكريم، وسبعة كتاتيب لحفظ القرآن، وسبعة جسور، وسبعة عشر مطعماً عمومياً، وثلاثة مستشفيات، وثلاثة وثلاثين قصراً. وثمانية عشر خاناً، وخمسة متاحف، وثلاثة وثلاثين حماماً، وتسعة عشر ضريحاً.

من الذعر الصارخ تجتاح الغرب الصليبي، والنفوس هناك مشحونة بالحقد والكراهية، والجميع مستعد للحرب.

كان السلطان سليمان في عهد أبيه يبتعد بنفسه عن كل ما يثير شبهات أبيه عن طموحه أو قدرته، ولهذا لم يكن غريباً أن يظن الناس الظنون بشأن افتقاره للكفاءة. ولكن سرعان ما تفجرت قدراته الكافية، فبددت كل الظنون.

كان أول ما عمله السلطان سليمان وقد وافاه نبأ موت أبيه، أن سار الى العاصمة (إسلام بول) فاستقبله عند وصوله إلى إفريز السرايا جند الانكشارية، بالتهليل وطلب الهدايا المعتاد توزيعها عليهم عند تولية كل سلطان. وفي اليوم التالي، جرت مراسم استقبال الأمراء والوزراء والأعيان، للتعزية بوفاة السلطان الراحل والتهنئة بالخلافة في آن واحد - فيما كان السلطان سليمان يرتدي ثياب الحداد، وعندما وصل جثمان السلطان سليم من أدرنه الى العاصمة، انتقل السلطان سليمان إلى ظاهر المدينة، وسار في الجنازة حتى واروها التراب على أحد مرتفعات المدينة، وأمر ببناء جامع شاهق (وهو جامع سليمية) ومدرسة في المحل الذي دفن فيه. ثم وزع المنح على الانكشارية، وأصدر مرسوماً بتعيين مربيه (قاسم باشا) مستشاراً خاصاً. وأمر بتوزيع إعلام بتوليته على (عرش الخلافة العظمى) إلى كافة الولاة وأشراف مكة والمدينة، **مرفقة بخطابات مفعمة بالنصائح والآيات القرآنية الآمرة بإقامة العدل في الأحكام، والمبينة لعاقبة الظلم، واستهل خطابه بالآية الشريفة:**

﴿إنه من سليمان - وإنه بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾★

كان والي الشام (الغزالي) من أصحاب قانصوه الغوري ومن الذين خانوه في معركة مرج دابق، فلما وصله خبر تولية السلطان سليمان، أعلن تمرده وأشهر عصيانه واستولى على قلعة دمشق، وأرسل أحد أتباعه لاحتلال مدينة بيروت، وحاول جهده لاستمالة حاكم مصر (خيربك) وأرسل إليه رسالة حثّه فيها على العصيان، وأظهر له سهولة النجاح؛ بالنظر إلى بعدهم عن مركز الخلافة، وبالنظر أيضاً إلى حداثة سن

(★) الجزء التاسع عشر- سورة النمل - الآية: ٣٠.

السلطان. فأجابه خيربك بأنه لا يشترك معه إلا إذا استولى على مدينة حلب. ولم يكن جوابه هذا إلا للمماطلة والخداع وكسب الوقت، إذ أنه عمل على إرسال خطابات الغزالي ورسائله إلى السلطان سليمان، والذي وجه على الفور جيشاً كبيراً لقمع حركة التمرد في مهدها، بقيادة أحد وزرائه (فرحات باشا). وسار الجيش العثماني بسرعة فوصل إلى حلب التي كان يحاصرها الغزالي وجيشه، مما أرغم الغزالي على رفع الحصار، والعودة إلى دمشق بدون قتال، فطارده (فرحات باشا) وحاصر دمشق، وضيق عليها الخناق، مما حمل الغزالي على الخروج بجيشه للقتال، ودارت معركة حاسمة يوم ١٧ صفر سنة ٩٢٧ هـ (٢٧ كانون الثاني - يناير - سنة ١٥٢١ م) انتهت بانتصار الجيش العثماني، وهرب الغزالي متنكراً، فخانه بعض أتباعه وسلمه إلى فرحات باشا، فقتله وأرسل رأسه الى السلطان سليمان.

كان السلطان سليمان قد أرسل سفيراً إلى ملك المجر - لويس الثاني - وطلب منه دفع الجزية أو الحرب، فما كان من الشاب لويس الثاني والذي كان دون سن الرشد - إلا أن أمر بقتل السفير العثماني، واستشاط السلطان سليمان غضباً عندما علم بقتل سفيره، وأمر بتجهيز الجيوش، وجمع كل ما يلزمها من المؤونة والذخائر لحرب المجر، وسار هو في مقدمة الجيش، وأرسل جيشاً بقيادة أحد مشاهير قادته لحصار (شابتس) الواقعة على مقربة من بلغراد، وإلى الشمال منها، فتمكن هذا الجيش من فتحها، ودخلها السلطان سليمان يوم ٢ شعبان سنة ٩٢٧ هـ (٨ تموز - يوليو - سنة ١٥٢١ م). وتوجه في اليوم التالي بمجموع جيوشه لدعم وزيره (بير محمد باشا) الذي كان يحاصر بلغراد ذاتها، حيث نشبت معارك ضارية، ولكن الحامية المدافعة عنها اضطرت للإستسلام في النهاية، **فدخل المسلمون (مدينة بلغراد) يوم ٢٥ رمضان سنة ٩٢٧ هـ (٢٩ - آب - أغسطس - سنة ١٥٢١ م) وقام الجنود المجريون في اليوم التالي بالجلاء عن قلعتها. ودخلها السلطان سليمان، وصلى الجمعة في إحدى كنائسها التي حولت مسجداً على الفور.**

وصارت هذه المدينة التي كانت أمنع حصن للمجريين ضد تقدم قوات العثمانيين، هي أكبر مساعد لها على فتح ما وراء نهر الدانوب من الأقاليم والبلدان. وعمل السلطان

سليمان على إعلام جميع الولاة وملوك أوروبا ورئيس جمهورية البندقية بهذا النصر ، ثم عاد الى عاصمته مكللاً بالنصر والظفر على الأعداء . وأرسل إليه قيصر الروسيا يهنئه بالفوز والنصر وكذلك رؤساء جمهوريتي البندقية وراغوزه .

عملت البندقية على دعم علاقاتها التجارية بالدولة العثمانية في أعقاب هذا النصر ، فأوفدت سفراءها لاجراء مفاوضات انتهت بتوقيع معاهدة في أول محرم سنة ٩٢٨ هـ (١ ـ كانون الأول ـ ديسمبر ـ سنة ١٥٢١ م) ودعمت هذه المعاهدة ما تضمنته المعاهدات السابقة ، وزادت عليها بنداً نص على تغيير وكيل الجمهورية في الآستانة (قنصلها) كل ثلاث سنوات ، مع منحه حق النظر في قضايا التركات ، وأن يكون له الحق في إرسال ترجمان لحضور المرافعة في القضايا التي تقام ضد رعايا حكومته أمام المحاكم العثمانية ، وأن يكون الخراج الذي يدفع منها إلى الدولة مقابل احتلالها جزيرتي قبرص و(زنطه)★ هو عشرة آلاف دوكا عن الأولى وخمسمائة عن الثانية . وقد كان لهذه المعاهدة أهمية عظمى لأنها اعتبرت أساساً للامتيازات القنصلية التي تمتعت بها الدول الأجنبية في البلاد العثمانية .

بقيت (رودس) قاعدة للعدوان ضد المسلمين ، ومركزاً استخدمه فرسان الاسبتارية (فرسان القديس حنا الاورشليمي) لممارسة أعمال القرصنة ضد أساطيل المسلمين وقوافلهم البحرية التجارية ، فكان من غير الطبيعي بقاء هذا المركز الحصين في وسط بلاد المسلمين . ـ وخاصة بين (إسلام بول) ومصر من جهة البحر ـ نظراً للجوء السفن المعادية للمسلمين إليها في وقت الحرب . فأخذ السلطان سليمان في اكمال الاستعدادات البرية والبحرية لفتح جزيرة رودس ، وحاول الإسراع في إنجاز هذا العمل الذي عجز أسلافه عن تحقيقه ، لاسيما وأن الظروف الدولية كانت مناسبة ، فملك فرنسا (فرانسوا منصرف لمحاربة ملك إسبانيا شارل الخامس (شارلكان) . والبابا ليون العاشر منصرف بدوره لخوض الصراع ضد الراهب

(★) زنطه ، وتكتب باليونانية : (ZAKINTHOS) وهي جزيرة صغيرة تقع إلى الغرب من الجزء السفلي الجنوبي ـ من اليونان ، بالقرب من مدخل خليج كورنثوس .

البروتستانتي لوثر، وبلاد المجر مضطربة على جبهتها الداخلية بسبب عدم اتفاق أمرائها، وعجز ملكها لويس الثاني عن فرض هيمنته على الامراء المتصارعين. مما كان يمنعهم جميعاً عن تقديم الدعم لجزيرة رودس. وحاول السلطان سليمان تجنب الحرب، فأرسل إلى مقدم الطائفة كتاباً عرض عليه الجلاء عن الجزيرة هو وكل من معه من المسيحيين الذين يفضلون الهجرة على البقاء تحت حكم المسلمين، وتعهد له بعدم التعرض لحياتهم وممتلكاتهم وأموالهم، ولكن مقدم الطائفة رفض هذا العرض. فأصدر السلطان سليمان أمره إلى الاسطول بالتوجه الى رودس، وسافر هو عن طريق البر إلى خليج (مارماريس) المقابل للجزيرة من جهة آسيا. فوصلت قوات الاسطول في نهاية شهر حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٥٢٢ م. وأنزلت مدفعية الحصار على البر، كما أنزلت الذخائر والمواد التموينية. ومن ثم بدأ حصار الجزيرة بصورة محكمة، ودافع الفرسان الرهبان دفاعاً بطولياً، واشتركت نساء الجزيرة في الحرب فكن يقذفن بالحجارة على الجند المسلمين، ويعملن على صب الزيوت الحارة على رؤوسهم. لكن هذه الوسائل الدفاعية لم تصمد طويلاً في مواجهة المدفعية العثمانية الضخمة، فقرر مقدم الطائفة (فيليه دوليسل آدم) [1] التوقف عن المقاومة، وأرسل اثنين من رهبانه لمقابلة السلطان، والسماح له ولطائفته بالجلاء عن الجزيرة في مدة اثني عشر يوماً، بشرط أن تبتعد الجيوش العثمانية عن المدينة مسافة ميل من كل جهاتها حتى لا يتعرض أحد لهم بأذى. ووافق السلطان على الطلب ـ ولكن حدث بعد ثلاثة أيام أن دخل فريق من جند الإنكشارية الى المدينة، وارتكبوا على جري عادتهم كل أنواع القبائح، مما أغضب السلطان، فأمر بمراعاة شروط التسليم وعاقب المفسدين فأعيد الأمن وساد الهدوء. وارتحلت هذه الطائفة التي نذرت نفسها للحرب الصليبية ومحاربة المسلمين يوم ١٣ صفر سنة ٩٢٩ هـ (الأول من كانون الثاني ـ يناير ـ سنة ١٥٢٣ م) وانتقلت إلى جزيرة مالطة التي تنازل لها عنها امبراطور الغرب (شارل الخامس) [2] وبقيت هذه

---

(١) فيليه دوليسل آدم: (VILLIERS DE-LISLE-ADAM) واسمه فيليب، وهو من أصل فرنسي ولد سنة ١٤٦٤ م ومات سنة ١٥٣٤ م.

(٢) شارل الخامس (شارلكان): (CHARLES QUINT) وهو ابن فيليب الجميل وحنا المجنونة: (JEANNE LA FOLLE) ولد في غاند GAND (١٥٠٠ ـ ١٥٥٨ م) أصبح ملكاً لاسبانيا سنة =

الطائفة نازلة بجزيرة مالطة حتى احتلها نابليون بونابرت عند قدومه الى مصر سنة ١٢١٣هـ = ١٧٩٨م. وعاد السلطان سليمان بعد الفتح الى عاصمته، ووفد إليها سفراء من قبل الروسيا والبندقية لتهنئته بالنصر. وأرسل إليه أيضاً ملك الصفويين سفيراً للتهنئة ومعه خمسمائة فارس. ولما وصل إلى الآستانة، أمر السلطان أن لا يدخلها معه إلا عشرون فارساً فقط.

كان على السلطان سليمان لدى عودته إلى عاصمته أن يعالج مجموعة من المتاعب والمشكلات الداخلية، إذ كان **والي مصر (خيربك)** قد توفي فيما كان السلطان يحاصر رودس، فأصدر السلطان أمره بتعيين أحد وزرائه (واسمه أحمد باشا) والياً على مصر. فلما وصل هذا إلى مصر استمال أمراء المماليك إليه باقطاعهم الأراضي، وإغضائه الطرف عمّا كانوا يرتكبونه من الآثام والمظالم بحق جماهير مسلمي مصر. ولما تحقق من إخلاصهم، أعلن العصيان مرة واحدة، واستولى على القلعة بعد قتل حاميتها. فأرسل إليه السلطان أمراً بعزله عن ولاية مصر والعودة إلى الآستانة، وتسليم الولاية لخلفه (قره موسى). فقام الوالي أحمد باشا بقتل الرسول، وقتل (قره موسى). ولكن أحد وزرائه خانه وأراد القبض عليه. فهرب واختفى عند عرب البادية. فاقتفى أثره حتى قبض عليه وقتله وأرسل رأسه إلى الآستانة. فكوفىء هذا الوزير بتعيينه في وظيفة الأمين على الممتلكات (دفتر دار). كما تم تعيين الوالي الأسبق (قاسم باشا). وتبع ذلك إرسال الصدر الأعظم ابراهيم باشا - الذي كان قد تزوج بإحدى اخوات السلطان - على رأس جيش ضخم من الإنكشارية والفرسان (السواري أو الصبايحية). لإعادة الأمن وتنظيم أمور مصر، وماليتها. ووصل هذا الجيش إلى مصر، وأقام فيها ثلاثة

= ١٥١٦م وامبراطوراً لألمانيا سنة ١٥١٩م. ووالدته حنا هي ابنة فرديناند وإيزابيلا اللذين أخرجا المسلمين من غرناطة وسائر بلاد الأندلس. وقد ورث عن أمه عرش إسبانيا كما ورث الحقد ضد المسلمين، حارب ملك فرنسا (فرانسوا الأول) وحارب خير الدين باشا أمير البحر العثماني (بارب روس). حاول فتح الجزائر ففشل، واضطهد البروتستانت، إلا أنه اضطر أخيراً أن يمنحهم الحرية الدينية بعد أن انتصروا عليه في الحرب (سنة ١٥٤٧م). وكان فشله المتلاحق في الحروب - وخاصة ضد المسلمين - سبباً في تنازله عن الملك، فتنازل لابنه فيليب الثاني عن حكم إسبانيا، وتنازل لأخيه فرديناند عن ألمانيا، واعتزل في أحد الأديرة سنة ١٥٥٦م. وبقي في عزلته حتى مات.

أشهر، ثم انسحب منها يوم ٢٢ شعبان سنة ٩٣١ هـ (١٤ حزيران - يونيو - سنة ١٥٢٥ م) قاصداً الآستانة، وقد حقق المهمة بنجاح. وأعاد لمصر الأمن والنظام.

عاشت **بلاد القرم** في هذه الفترة ذاتها أحداثاً مثيرة، فقد أقدم غازي وبابا ولدي خان القرم محمد كراي على إعلان الثورة وقتل والدهما وعمهما (سنة ٩٢٩ هـ = ١٥٢٢ م) وتقلد غازي كراي أكبرهما الإمارة وجعل أخاه وزيراً له. لكن السلطان سليمان رفض الاعتراف بالوضع الجديد، وعين عمهما (سعادت كراي) خاناً بدلاً من أخيه المقتول (محمد كراي). ودعمه بجيش من الانكشارية، فقبل غازي تعيين عمه، وصار هو وزيراً له. ولكن لم تمض أكثر من ستة أشهر حتى أمر (سعادت كراي) بقتل ولدي أخيه غازي وبابا انتقاماً لغدرهما بأبيهما، غير أن أخاهما (إسلام كراي) استطاع تنظيم قوات كافية واستولى على الإمارة (سنة ٩٣٨ هـ = ١٥٣١ م) وهرب سعادت الى العاصمة إسلام بول، ومكث بها حتى توفي سنة ٩٤٤ هـ = ١٥٣٧ م فدفن بالآستانة - بجامع أبي أيوب الأنصاري - وأدت هذه الفتن إلى زيادة تدخل الدولة العثمانية في الشؤون الداخلية لبلاد التتار (القرم) حتى تعيين امرائها، وصارت بذلك شبه ولاية عثمانية.

أراد السلطان سليمان أن يجعل **إقليم الفلاخ** ولاية عثمانية (في سنة ٩٣٠ هـ = ١٥٢٤ م) ولم يكن للدولة عليه إذ ذاك إلاّ السيادة الإسمية والجزية، فسير إليه جيشاً استولى على عاصمته، وأسر أميره وحمله إلى الآستانة، فثار الفلاخ وعينوا خلناً له، وساعدهم على ذلك أمير إقليم ترانسلفانيا المجاور له، فقبل السلطان من عينوه مقابل زيادة الجزية عما كانت عليه.

لم تكن هذه المشكلات على ضخامتها، كافية على ما يظهر لاشغال الدولة بنفسها، فجاء الإنكشارية ليضيفوا إليها مشكلتهم، فقد أعلنوا تذمرهم يوم ٢٥ - آذار - مارس - ١٥٢٥ م، بعد عودة السلطان سليمان من مدينة أدرنة التي كان قد توجه إليها للإقامة بها في فصل الشتاء، وعبروا عن تذمرهم بالإقدام على نهب سراي الصدر الأعظم إبراهيم باشا - الذي كان إذ ذاك بمصر - كما نهبوا محل الجمرك وعدة أماكن أخرى من منازل الأعيان وحارة اليهود، وأسرع السلطان سليمان لمعالجة الموقف

بنفسه خشية امتداد العصيان، وأمكن له ايقاف عملية السلب والنهب بتوزيع ألف دوكا عليهم، وعمل بعد تهدئة الفتنة على عزل بعض قادتهم الذين حرضوا على هذا العصيان واشتركوا فيه، وقتل بعضهم الآخر.

بدأت الاتصالات في تلك الفترة بين ملك فرنسا (فرانسوا الأول) [1] وبين السلطان سليمان القانوني للعمل المشترك ضد شارل الخامس (شارلكان) الذي أصبح ملكاً للنمسا وملكاً لاسبانيا والبلاد المنخفضة (هولاندا) في آن واحد، وامبراطوراً لألمانيا، وحاكماً لقسم كبير من جنوب ايطاليا. وكانت جمهوريتا جنوا وفلورنسا تابعتين إليه، بالاضافة لجمهورية البندقية، وكانت مدينة وهران بالجزائر وكذلك جزيرة مينورقة (في مجموعة جزر الباليئار) وجزيرة صقلية في جملة أملاكه التي طوقت فرنسا من جميع الجهات - إلا من جهة البحر، **ولذلك عمد (فرانسوا الأول) ملك فرنسا على التحالف مع العثمانيين لشن الحرب ضد شارلكان، بحيث تحاربه الدولة العثمانية على جبهة المجر والنمسا، فتشغله من جهة الغرب، مما يساعد ملك فرنسا على محاربة شارلكان، ولأخذ ثأره للهزيمة التي لحقت به في (بافيا - بايطاليا) حيث وقع فرانسوا الأول أسيراً في قبضة خصمه (شارلكان).**

بقيت فرنسا في تقدير البابا وفي نظر المسيحية - الصليبية - هي الدولة الكاثوليكية

---

(١) فرانسوا الأول: (FRANÇOIS-I) ولد في كونياك COGNAC (١٤٩٤ - ١٥٤٧ م) وهو ابن شارل دوفالوا - كونت انغوليم: (CHARLES DE VALOIS) ولـويس دوسافوا خلف عمه لويس الثاني عشر سنة ١٥١٥ م، فاجتاز الألب وانتصر على السويسريين في معركة مارينيان (MARIGNAN) وفتح ميلانو، حيث تنازع مع شارل الخامس على التاج الامبراطوري الألماني - الجرماني - الذي كان يتهدد فرنسا بالمطامع التوسعية للعائلة النمساوية. فتحالف فرانسوا الأول مع ملك انكلترا هنري الثامن. وخرج فرانسوا من هذا التحالف سنة ١٥٢٠ م ليتابع حربه ضد شارل الخامس. الذي هزمه في معركة بافي (PAVIE) في الشمال الغربي من إيطاليا، وحمل ملك فرنسا أسيراً إلى مدريد حيث أكره على التوقيع على معاهدة مدريد سنة ١٥٢٦ م. ولكن ما إن استعاد فرانسوا حريته حتى عاد فتحالف مع ملك انكلترا ومع الإمارات الإيطالية ومع الدولة العثمانية للعمل ضد شارل الخامس (شارلكان) وانتقم فرانسوا الأول لهزيمته في بافيا باجتياح البروفانس ولم تتوقف الحرب حتى تم التوقيع على معاهدة كريسبي (CRESPY) مع شارلكان سنة ١٥٤٤ م.

الأولى ضد الإسلام. وهي السد في وجه تقدم الإسلام في أوروبا وظهر من سعي فرنسا للتحالف مع الدولة العثمانية الإسلامية بأن الدولة العثمانية قد وصلت يومها إلى درجة بالغة من القوة والتأثير، بحيث لا بد من وضع حساب لها في التوازنات الاوروبية ـ السياسية والعسكرية ـ. وهكذا عملت الملكة لويز زوجة فرانسوا الأول على ارسال أول سفير فرنسي الى الباب العالي، عندما كان زوجها أسيراً في اسبانيا، لكن هذا السفير لم يصل إلى العاصمة العثمانية (إسلام بول). إذ أن أمير البشناق (البوسنة) قبض عليه أثناء مروره في بلاده، وقتله هو ومرافقيه. فلما كانت سنة ١٥٢٥ م. تم ارسال سفير آخر (جان فرنجباني) استطاع ابرام معاهدة تحالف مع الدولة العثمانية★.

ولم يكن السلطان سليمان ـ على كل حال ـ ينتظر قيام مثل هذا التحالف لشن الحرب على المجر، إذ أن الحرب بينه وبين المجر، على التخوم، لم تهدأ ولم تتوقف، إلا لتعود وهي أشد عنفاً وأكثر ضراوة من سابقتها، ويظهر أن السلطان سليمان قد أدرك بأن الظروف ـ الداخلية والخارجية ـ قد باتت مناسبة لاقتلاع الشرّ من جذوره، فقرر اجتياح المجر.

وحشد جيشاً من مائة ألف محارب وثلثمائة مدفع وثمانمائة سفينة في نهر الدانوب (الصوانة) لنقل الجيش من الضفة الجنوبية الى الشمالية. وسار الجيش بقيادة السلطان سليمان ذاته (في ٢٥ نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٥٢٦ م) ومعه وزرائه الثلاثة ـ فاجتاز بلاد الصرب ـ مروراً بمدينة بلغراد التي أصبحت هي قاعدة الأعمال القتالية العثمانية ـ ووصل الى حدود بلاد المجر ـ حيث عمل الجيش على فتح عدد من القلاع ذات الأهمية العسكرية على نهر الدانوب.

ووصل الجيش بأجمعه إلى وادي موهاج (موهاكس) (١) **يوم ٢٠ ذي**

(★) انظر قراءات في نهاية الكتاب (العلاقات مع فرنسا في عهد السلطان سليمان القانوني).

(١) موهاج ـ أو موهاكس: (MOHACS) مدينة هنغارية تقع على نهر الدانوب، وهي جنوب بلاد المجر قرب الحدود اليوغوسلافية. انتصر فيها السلطان سليمان على ملك هنغاريا فرانسوا الأول سنة ١٥٢٦ م وفيها انتصر أمير اللورين شارل على العثمانيين سنة ١٦٨٧ م.

القعدة سنة ٩٣٢ هـ (٢٨ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٥٢٦ م) حيث وقع الصدام مع الجيش المجري بقيادة الملك (لويس الثاني) [١] .

ونظم السلطان سليمان قواته في اليوم التالي على ثلاثة صفوف ووقف هو ومعه المدفعية بكاملها وفرقة الإنكشارية في الصف الثالث، فهجم فرسان المجر ـ الهنغاريين ـ المشهورون بالشجاعة والإقدام على صفوف الجند العثمانيين فتقهقر الصف الأول والصف الثاني إلى ما وراء صف المدفعية. ولما وصلت فرسان المجر بالقرب من المدافع، أصدر السلطان أمره باطلاقها عليهم، فأطلقت تباعاً، وتوالى إطلاقها بسرعة مذهلة أوقعت الرعب في قلوب المقاتلين المجريين، فأخذوا في التقهقر، وانطلق الجند العثمانيون لمطاردتهم حتى قتل معظم فرسان المجر وعلى رأسهم ملكهم، ولم يعثر على جثته.

لقد أمكن حسم الصراع المسلح ضد المجر حسماً نهائياً، إذ أن تدمير الجيش المجري ـ الهنغاري ـ على أرض موهاج قد أزال كل مقاومة ممكنة، كما أن قتل الملك قد أزال السلطة الحاكمة، ووقعت بلاد المجر في حالة من الفوضى والاضطراب، فأسرع أهالي العاصمة (بودا) لإرسال مفاتيح مدينتهم إلى السلطان سليمان، الذي سار بجيشه الظافر، فدخل المدينة يوم ٣ ذي الحجة سنة ٩٣٢ هـ (١٠ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٥٢٦ م). وعمل السلطان سليمان على جمع أمراء القوم وكبارهم ووجهائهم. وقرر تعيين أمير ترانسلفانيا (جان زابولي) [٢] ملكاً عليهم. ثم غادر (بودا) عائداً إلى عاصمته، مستصحباً معه كثيراً من نفائس البلاد، وأهمها الكتب التي كانت موجودة في خزائن (متياس كورفن) [٣] . وأقام في مدينة أدرنة أسبوعاً، ووصل إلى

---

(١) لويس الثاني: (LOUIS II) ولد في بودا (١٥٠٦ ـ ١٥٢٦ م) تولى عرش المجر وبوهيميا سنة ١٥١٦ م وهو صبي صغير. وقتل في موهاج، فزالت بموته مملكة المجر، وأصبحت تابعة للدولة العثمانية.

(٢) جان زابولي: (ZAPOLYA-ZAPOLY) من عائلة من نبلاء المجر ـ هنغاريا ـ أشهر رجالها جان الأول (JEAN-I) (١٥٢٦ ـ ١٥٤٠ م) وجان الثاني (١٥٤٠ ـ ١٥٧١ م).

(٣) متياس كورفن (MATYAS) وتسمى كنيسة التتويج، لأن ملوك المجر كانوا يتوجون فيها. وقد =

(إسلام بول) في ١٧ صفر سنة ٩٣٣ هـ (٢٣ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٥٢٦ م).

زعم ملك النمسا (فرديناند الأول) [١] أن من حقه أن يتولى عرش المجر - بسبب قرابته من الملك لويس الذي قتل في معركة (موهاج) فسار بجيشه في نهاية سنة ١٥٢٧ م لقتال أمير ترانسلفانيا وملك المجر (جان زابولي). وأسفر القتال عن هزيمة زابولي، الذي أرسل الى السلطان سليمان يستنجده ويستنصر به على منازعه في الملك، ووصل سفير زابولي الى العاصمة الإسلامية، وقابل السلطان، وتم التوقيع على معاهدة صداقة وتعاون (في ٢٩ شباط - فبراير - ١٥٢٨ م) وأصدر السلطان سليمان على أثرها أوامر إلى جميع الجهات بالإعداد للحرب والاستعداد لها، وجمع الجيوش والذخائر، وعين الصدر الأعظم ابراهيم باشا قائداً عاماً له (سرعسكر) بعد أن استحوذ على ثقة السلطان بما حققه من نجاح في حملته على مصر، وما أبداه من الكفاءة في معركة موهاج الأخيرة.

وعندما انتهت الاستعدادات التي استغرقت أياماً ستة تقريباً، غادر السلطان سليمان الآستانة لمحاربة المجر، على رأس جيش ضخم شمل مائتي وخمسين ألفاً من الجنود، ونحواً من ثلثمائة مدفع، ووصل إلى مدينة فيليبه يوم ١٢ شوال سنة ٩٣٦ هـ (٩ حزيران - يونيو - سنة ١٥٢٩ م) وانتقل منها الى موهاج، حيث جاء زابولي لمقابلة السلطان سليمان. وأحسن السلطان استقباله، وأكرمه غاية الإكرام.

سار السلطان سليمان على رأس جيشه الكبير ومعه وزراءه الثلاثة: ابراهيم باشا، وإياس باشا، وقاسم باشا، بالإضافة الى كبار قادة جيشه، ووصل الى عاصمة المجر (بودا) التي كان ملك النمسا فرديناند قد احتلها، فألقى عليها الحصار فوراً وهرب

= حولها السلطان سليمان إلى مسجد - جامع - وزينها المسلمون بالنقوش العربية ولازالت هذه الكنيسة تحتفظ بالكثير من آثار العرب المسلمين.

(١) فرديناند الأول: (FERDINAND I) شقيق شارلكان (١٥٠٣ - ١٥٦٤ م) أصبح امبراطوراً لجرمانيا سنة ١٥٥٦ م. وخاض حروباً ضارية ضد المسلمين. وقد اعتبر بأنه هو مؤسس العرش النمساوي.

(فرديناند) الى عاصمة النمسا (ڤيينا) ووجد قائد الحامية النمساوية المدافعة عن بودا أنه لا يستطيع الصمود طويلاً للحصار ، فطلب الإستسلام. وانسحبت إلى العاصمة النمساوية. فأرسل السلطان سليمان أحد قادة الإنكشارية في يوم ١٥ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٢٩ م ليرافق الملك زابولي الى القصر الملكي، وليقلده التاج الملكي. غير أن زابولي لم يتوقف طويلاً في عاصمته (بودا) حيث غادرها لمرافقة جيش السلطان سليمان المتجه لحصار (ڤيينا) بعد أن ترك في بودا حامية عثمانية قوية بقيادة أحد قادة الإنكشارية الذي كلف بالمحافظة على الأمن وتوطيد النظام في جميع الانحاء الى أن يعود الملك (زابولي).

وصل السلطان سليمان بجيوشه الى أمام أسوار عاصمة النمسا (ڤيينا) يوم ٢٧ أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٢٩ م. وضرب الحصار عليها، وسلط مدافعه على أسوارها ، فهدم جزءاً منها ، وفتح بها ثلماً صار توسيعه بألغام البارود ، حتى صار باستطاعة الجيوش الهجوم منه بكل سهولة. ثم أمر الجنود بالانقضاض. ودارت معارك طاحنة أيام ١٠ و ١١ و ١٢ تشرين الأول - اكتوبر - وأخيراً ، وفي يوم ٢٠ صفر سنة ٩٣٧ هـ (١٣ - تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٥٢٩ م) وبعد أن استمر القتال طوال اليوم، عاد الجنود العثمانيون الى معسكرهم ولما يتمكنوا من دخول المدينة.

ولما رأى السلطان سليمان أن ذخائر المدفعية التي يعتمد عليها في الحصار قد نفذت ، وأن الشتاء قد أقبل بشدته وثلوجه المعهودة في هذه الجهات الشديدة البرودة ، أصدر أوامره برفع الحصار عن ڤيينا ، وأعلن أنه سيعود لفتحها بعد إعادة تنظيم الجيوش وتجهيزها. وكانت هذه هي المرة الأولى التي لم ينتصر فيها السلطان سليمان. ومرّ أثناء عودته بمدينة (بودا) حيث ودّع ملكها زابولي، وعاد عن طريق بلغراد الى عاصمة الدولة (إسلام بول).

أرسل ملك النمسا (فرديناند) جيشاً لمحاصرة مدينة (بودا) واستخلاصها من قبضة زابولي في ربيع سنة ١٥٣١ م. غير أن الحامية العثمانية - الإسلامية المدافعة عن المدينة تمكنت من إحباط الهجوم. وأسرع السلطان سليمان قاصداً مدينة ڤيينا ثانية

لفتحها، ومحو ما لحقه من عار الفشل أمامها في المرة الأولى. وذلك في ١٩ رمضان سنة ٩٣٨ هـ (٢٥ نيسان - ابريل - سنة ١٥٣٢م) بعد أن رفض ما عرضه عليه أرشيدوق النمسا فرديناند من الصلح. ولما وصل إلى مدينة نيش ببلاد الصرب، وجد في انتظاره سفراء من قبل أرشيدوق النمسا. ووجد بمدينة بلغراد سفيراً جديداً من قبل ملك فرنسا (فرانسوا الأول) وهو المسيو (رنسون) فقابله السلطان باحتفال كبير لم يسبق مثله لأي سفير غيره، وذلك أنه صفّ لاستقباله عدد عظيم من الجنود، وأطلقت المدافع تحية لقدومه. وقابله السلطان مقابلة خاصة محاطاً بوزرائه وقادة جيشه، وذلك على عكس ما وقع لسفراء فرديناند الذين قوبلوا بكل تحقير ومهانة. وبعد المقابلة وتبادل عبارات السلام بين السفير الفرنسي وجلالة السلطان، عاد السفير حاملاً خطاباً للملك الفرنسي أكد فيه السلطان سليمان اتحادهما على محاربة شارلكان، ووعده بامداده بالاسطول العثماني إذا ما تطلبت الحاجة.

ثم سار السلطان بجيوشه التي بلغ عدد مقاتليها مائتي ألف رجل، وانضم إليهم بعد مغادرتهم مدينة بلغراد خمسة عشر ألف فارس من تتار القرم تحت قيادة أخي خان القرم (صاحب كراي).

وفتح الجيش مجموعة من القلاع والحصون بدون مقاومة تذكر. إلا أن الحامية المدافعة عن بلدة (جانز - أوكوسك) أبـدت من المقاومة أكثر مما كان متوقعاً منها نظراً لقلة عدد أفرادها، واضطر قائد القلعة للاستسلام بعد أن حصل على وعد من السلطان بعدم دخول الجند الى المدينة. وقد وافق السلطان سليمان على هذا الشرط مكافأة منها لأهلها الذين أظهروا بطولة في الدفاع عن بلدهم، وتابع الجيش العثماني تقدمه نحو ڤيينا، بتمهل، ولما اقترب منها انحرف في سيره واتجه نحو (استيريا). وعاد منها إلى بلغراد ثانية بدون أن يحاصر مدينة (ڤيينا). وذلك بسبب توافر المعلومات عنده عن قيام (شارلكان) بحشد جيوش ضخمة من الألمان والنمساويين والاسبانيين وسواهم من شعوب الغرب للدفاع عن ڤيينا. كما أنه لم يرغب في إعادة التجربة السابقة في ظروف مماثلة، فقد كان فصل الشتاء قريباً، بحيث يصعب فرض حصار طويل الأمد لضمان فتحها.

وصل السلطان سليمان في طريق إيابه إلى مدينة (فيليبه). وهنا أصدر أمره بتعيين (صاحب كراي) التتاري خاناً على بلاد القرم، مكافأة له على خدماته أثناء مرور الجيش بأراضي النمسا. وعاد إلى (إسلام بول) فوصلها يوم ١٩ ربيع آخر سنة ٩٣٩ هـ (١٨ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٥٣٢ م) وزينت العاصمة وضواحيها عدة ليال متواليات احتفالاً بعودة جلالته.

كان شارلكان قد أرسل خلال هذه الفترة اسطوله البحري بقيادة الأميرال (أندري دوريا) [1] ودعمه البابا بعدد من السفن الحربية. بهدف شنّ الحرب ضد العثمانيين على جبهة البحر، فاحتل (أندري دوريا) مينائي كورون وباتراس - في شبه جزيرة مورا - وقتل كل من كان بها من جند الإنكشارية، ودمر القلعتين اللتين كان السلطان بايزيد قد أقامها على ضفتي خليج ليبانت - ببلاد اليونان - وهدد جزائر الروم التي كانت قد خضعت للعثمانيين.

أرسل أرشيدوق النمسا (فرديناند) في مطلع سنة ١٥٣٣ م، سفيراً من قبله يدعى (جيروم دي زار) الى الآستانة بمهمة عرض طلب الصلح على السلطان سليمان، فقابله الصدر الأعظم ابراهيم باشا، وتباحثاً في شروط الصلح. ثم قابل السلطان سفير النمسا ووافق على إقامة هدنة محددة بين الدولتين، إلا إذا سلمت إليه النمسا مفاتيح مدينة (غران - الواقعة على نهر الدانوب الى الشرق من ڤيينا) وعندها يمكن تحويل الهدنة الى صلح. ولما لم يكن السفير مخولاً باجراء مثل هذا التنازل، فقد أرسل ابنه (فسبازيان دي زارا) برفقة سفير عثماني الى ڤيينا لعرض هذا الشرط على فرديناند، فعقد هذا

---

(١) أندري دوريا: (ANDRES DORIA) من مواليد اونيغليا: (ONEGLIA) (١٤٦٦ - ١٥٦٠ م) وهو من عائلة من النبلاء الجنويين كانت قد أنجبت عدداً من أمراء البحر. عمل في خدمة شارلكان ضد ملك فرنسا أثناء حرب شارلكان في إيطاليا، ثم انضم إلى ملك فرنسا (فرانسوا الأول) وحارب سفن شارلكان وانتصر عليها. غير أن جهده الرئيسي في الحالات كلها كان ضد المسلمين الذين حاربهم ونظم أعمال القرصنة ضد سفنهم. ثم عاد فترك فرنسا وانحاز الى شارلكان مقابل إرجاع مدينة جنوا الى أهلها ومنحها الاستقلال (سنة ١٥٢٨ م) وحارب مراكب فرنسا والعثمانيين معاً. وانصرف بعد ذلك لتنظيم جمهورية جنوا - فلقبه الجنويون (أبو الوطن) وأقاموا له نصباً ضخماً- تمثالاً - كتب تحته (إلى أبي الوطن).

اجتماعاً لكبار رجال دولته وقادتها، فتم قبول الشرط، وأرسل فرديناند خطاباً بالموافقة مع السفير العثماني.

وتم التوقيع على معاهدة الصلح في ٢٨ ذي القعدة سنة ٩٣٩هـ = ٢٢ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٥٣٣م. وكان أهم ما جاء فيها أن تعيد النمسا مدينة كورون للدولة العثمانية، وألا ترد الدولة العثمانية شيئاً مما فتحته من بلاد المجر ـ وأن ما تتفق عليه النمسا مع زابولي ملك المجر، لا ينفذ ما لم يوافق عليه السلطان العثماني. وكانت هذه هي أول معاهدة صلح بين النمسا والدولة العثمانية.

لم يكن من المتوقع، في تلك الظروف، أن تؤدي هذه المعاهدة الى تحقيق سلم ثابت ومستقر. لاسيما وأن العامل المحرض استمر في ممارسة دوره عبر الصراع بين ملك فرنسا وامبراطور الغرب (شارلكان). وكان اتفاق فرنسا مع الدولة العثمانية قد نصّ على أن تقوم القوات العثمانية بالهجوم من جهة نابولي وصقلية وإسبانيا عوضاً عن مهاجمة النمسا التي تتحد جميع إمارات وممالك ألمانيا للمدافعة عنها، إذ هي مع استقلالها جزء من التحالف الألماني. وأن تدخل جيوش فرنسا بلاد إيطاليا من جهة (إقليم بيمونتي) بشمال غرب إيطاليا، حينما تدخلها الجيوش العثمانية من جهة مملكة نابولي.

لكن عدم دخول جمهورية البندقية في هذا التحالف وإشهارها العداء ضده، قد أحبط كل هذه المشاريع، وعمل على استثارة جماهير المسيحيين ـ الصليبيين ـ ضد التحالف الفرنسي العثماني، مما أرغم بالتالي ملك فرنسا ـ فرانسوا الأول ـ على التراجع خشية أن يتهم بالخروج عن دينه المسيحي باتحاده مع دولة إسلامية لمحاربة دولة تدين بدينه.

فأراد السلطان سليمان الانتقام من جمهورية البندقية بسبب عدم انضمامها لتحالفه، رغم أنه تجنب غزو بلادها المجاورة لبلاده. فأرسل خير الدين باشا ـ باربروس ـ الذي كان قد رفع إلى رتبة أميرال (قبودان) لجميع الأساطيل العثمانية التي ضمت ألف سفينة تقريباً. وأمره بمحاصرة (جزيرة كورفو) فحاصرها في شهر أيلول ـ

سبتمبر - سنة ١٥٣٧ م. وجاء السلطان سليمان ذاته، للإشراف على الحصار، وعندها أمر برفعه إذ تبين له شدة دفاع أهلها وتصميمهم على التمسك بموطنهم، وعاد السلطان سليمان الى عاصمته، فيما توجه الاسطول - بناء على أمره - لفتح ما بقي من جزائر الروم، فقام خيّر الدين باشا بفتح أغلبها، وغزا جزيرة (كريت). ثم قابل في طريق عودته الاسطول الاسباني بقيادة (أندري دوريا) والذي ضم مائة وسبعين سفينة تقريباً، فحاربه، وانتصر عليه (في ٢٥ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٣٨ م).

كان السلطان سليمان قد جمع في بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) جيشاً ضخماً من مائة ألف مقاتل للإغارة على بلاد إيطاليا، وكان معه ولداه محمد وسليم وسفير فرنسا (المسيو دولافوري) وقاد خير الدين باشا في الوقت ذاته قواته بميناء اوترانته بجنوب إيطاليا، استعداداً لمهاجمتها من جهة الجنوب، بينما يهاجمها السلطان سليمان بقواته البرية - من جهة الشرق. أما ملك فرنسا فيهاجمها من جهة الغرب. لكن إحجام ملك فرنسا عن الهجوم خوفاً من الرأي العام، حرم السلطان سليمان من فرصة اجتياح ايطاليا بكاملها، وضمها الى أقاليم الدولة العثمانية. وانتهى الأمر بالاتفاق على هدنة بين ملك فرنسا والامبراطور شارلكان، في نيس سنة ١٥٣٨ م. بينما استمرت الحرب بين البندقية والدولة العثمانية، دون أن يتمكن أي من الطرفين من إحراز نصر حاسم، إلى أن تم الاتفاق على الصلح في نهاية سنة ١٥٣٨ م أيضاً، حيث تنازلت البندقية للدولة العثمانية عن (ملفوازي ونابولي دي رومانيا - من بلاد موره).

كذلك تجددت الحرب ثانية بين الدولة العثمانية والمجر سنة ٩٤٤ هـ = ١٥٣٧ م، حيث أرسل شارلكان جيشاً ألمانياً بقيادة أشهر قادته، غير أن القوات العثمانية تمكنت من تدمير هذا الجيش.

وعمل أرشيدوق النمسا - فرديناند - في السنة التالية على تحريض أمير البغدان على التمرد. وتمكنت القوات العثمانية من قمع التمرد، وتم عزل أمير البغدان، وولي مكانه أخوه أسطفان، وعززت الحامية العثمانية منعاً لتكرر العصيان.

واتفق أرشيدوق النمسا (فرديناند) وملك المجر (زابولي) في هذه الفترة

على اقتسام البلاد بينها، ومنع العثمانيين من التدخل في شؤونهم، وإخراج المجر من حماية الدولة العثمانية ـ الإسلامية ـ باعتبار أن ذلك عاراً على المسيحية.

ولم يكن هذا الاتفاق أكثر من مؤامرة حاكها فرديناند بعناية للايقاع بزابولي الذي قبل الحماية العثمانية، إذ عمل بمجرد صياغة الاتفاق على إرسال صورة عنه إلى الباب العالي ـ السلطان سليمان ـ ليعلمه بعدم ولاء زابولي له، وخيانته لتعهداته. ومات زابولي (سنة ٩٤٧ هـ = ١٥٤٠ م) فأنقذه الموت من انتقام السلطان سليمان جزاء غدره، وترك طفلاً لم يتجاوز عمره الخمسة عشر يوماً.

فأغارت على الفور جيوش النمسا على المجر، محاولة الإفادة من غياب السلطة الشرعية لضم بلاد المجر الى النمسا، ووصلت جيوش المجر الى (بودا) وحاصرتها وفيها زوجة زابولي وابنه الرضيع. واحتلت مدينة (بست) المقابلة لها على نهر الدانوب، بالإضافة الى فرض الحصار على عدد من القلاع والحصون.

علم السلطان سليمان بما فرضه جيش النمسا من التحديات على أرض المجر، فقاد جيشه وأسرع نحو (بودا) في صيف سنة ٩٤٨ هـ (١٥٤١ م) فرفع الجيش النمساوي الحصار بمجرد علمه باقتراب الجيش العثماني. وحمل ابن زابولي الى السلطان الذي دخل المدينة باحتفال كبير، وأمر بجعل المجر ولاية عثمانية، وكتب تعهداً إلى أرملة زابولي بإعادة البلاد الى حكم ابنها عندما يبلغ سن الرشد. ولم تمض أكثر من أيام قليلة حتى وصلت إلى (بودا) سفارة نمساوية أرسلها فرديناند، حاملة معها كثير من الهدايا النفيسة، في جملتها ساعة تدل على الأيام والشهور وسير الكواكب. وعرضت السفارة على السلطان سليمان دفع مبلغ مائة ألف فلورين سنوياً جزية عن جميع بلاد المجر إذا ما تركها السلطان للنمسا، أو دفع أربعين ألف فلورين مقابل احتفاظ النمسا بالبلاد التي احتلتها جيوشها. فأجاب السلطان سليمان بأنه على غير استعداد للبحث في أي شرط من شروط الصلح ما لم تنسحب جيوش النمسا من القلاع المجرية التي احتلتها. ورفض فرديناند الجلاء فكان لا بد من استمرار الحرب.

ودارت رحى معارك متتالية، كان النصر في معظمها الى جانب المسلمين. إلا أنه لم يتمكن أحد من الجانبين من الوصول الى الحسم. فبدأت الاتصالات والمفاوضات التي

استمرت طويلاً، حاول سفير فرنسا خلالها (المسيو جبريل درامون) إعاقة الوصول الى الاتفاق، حتى تحتفظ فرنسا بمكانتها المميزة في علاقتها مع الدولة العثمانية. غير أن موت ملك فرنسا - فرانسوا الأول - ساعد على عقد معاهدة للصلح (في أول جمادى الأولى سنة ٩٥٤ هـ = ١٩ حزيران - يونيو - سنة ١٥٤٧ م) حيث نصت المعاهدة على إقامة هدنة بين الدولة العثمانية والنمسا مدتها خمس سنوات، بشرط أن يدفع أرشيدوق النمسا - فرديناند جزية سنوية قدرها ثلاثين ألف دوكا مقابل احتفاظه بما احتلته جيوشه من بلاد المجر. وأن تبقى بلاد المجر تحت حكم أميرها ابن زابولي تحت وصاية أمه (إيزابيلا) ورعاية الدولة العثمانية وحمايتها.

كان من المفروض أن تؤدي هذه المعاهدة لنوع من الهدوء والاستقرار والأمن على الجبهة المجرية - النمساوية، ولكن ذلك لم يتحقق بسبب الجهود التخريبية والمؤامرات التي شرع في ممارستها راهب اسمه (مارتنوزي) استطاع التأثير على الملكة (ايزابيلا) وحملها على مهادنة أرشيدوق النمسا - فرديناند - والتنازل له عن إقليم ترانسلفانيا وطمشوار (تمسفار). وكان ذلك يتناقض مع شروط الهدنة المعقودة مع السلطان سليمان. وكان إرسال فرديناند لجيوشه لاحتلال ما تنازلت عنه ملكة المجر للنمسا بمثابة تحد واستفزاز للسلطان سليمان الذي بادر لإرسال جيوشه للمحافظة على تنفيذ شروط الهدنة، وإعادة قوات النمسا فوراً الى مواقعها. ووصل هذا الجيش الذي ضمّ ثمانين ألف مقاتل الى بلاد المجر في أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٥١ م. وعمل على فتح كافة القلاع والحصون التي كانت تحتلها القوات النمساوية بدون مقاومة تذكر. ذلك أن هذه القوات كانت تنسحب من مواقعها بمجرد اقتراب الجيوش الإسلامية الظافرة، متجنبة كل صدام معها.

أدرك الراهب (مارتنوزي) فشل جهوده ومحاولاته، وكان يطمع في حكم إقليم ترانسلفانيا، ولهذا عمل على الاتصال بالسلطان سليمان، وأرسل له رسائل متتالية أظهر فيها ولاءه للسلطان وإخلاصه له، مع إعلامه بمخططات فرديناند وأهدافه، وكشف السلطان سليمان كذب هذا الراهب ومطامعه، كما عرفها الارشيدوق فرديناند الذي بادر إلى تكليف من قام بقتل هذا الراهب الخائن (سنة ٩٥٩ هـ = ١٥٥١ م). ونجح

الجيش العثماني في السنة التالية بفتح مدينة طمشوار (بقيادة الوزير الثاني أحمد باشا) كما ألقت الحصار على مدينة (آرلو) الواقعة ببلاد النمسا. غير أنها اضطرت لرفع الحصار بعدئذ بسبب قوة تحصينات المدينة ومنعتها، وبسبب اقتراب فصل الشتاء.

استمرت الحرب بين الدولة العثمانية والمجر، فيما كانت الاتصالات الدبلوماسية بدورها مستمرة، وأمكن في سنة ٩٦٣ هـ = ١٥٥٥ م التوقيع على هدنة بين الطرفين لمدة ستة أشهر. وحدثت مثل هذه الهدنة بعد سنتين (٩٦٥ هـ = ١٥٥٧ م). وأمكن الوصول الى صلح لمدة ثماني سنوات (سنة ٩٧٠ هـ = ١٥٦٢ م) وتضمنت معاهدة الصلح هذه، إقراراً من النمسا باستمرار دفع الجزية التي تم الاتفاق عليها في المعاهدات السابقة. غير أن هذه الاتفاقات والمعاهدة لم تمنع حدوث اشتباكات كثيرة على حدود النمسا والمجر. حتى إذا ما كانت سنة ٩٧١ هـ = ١٥٦٤ م ومات أرشيدوق النمسا فرديناند، تجددت الحرب ببلاد المجر. فقد قام (مكسمليان) [١] الملك الجديد للنمسا بقيادة جيشه واحتلال مدينة (تـوكـاي) [٢] رداً على قيام ابن ملك المجر (اسطفان بن زابولي) باحتلال إحدى المدن النمساوية. ورغم أن السلطان سليمان كان يعاني من آلام مرض النقرس فقد قاد جيشه بنفسه، وسار به لصد هجمات الجيش النمساوي (في ٩ شوال سنة ٩٧٣ هـ = ٢٩ نيسان - ابريل - سنة ١٥٦٦ م) وعندما وصل الى بلاد المجر، استقبله اسطفان بن زابولي، فأكرمه السلطان وأحسن إليه وسار الى قلعة (آرلو) لفتحها، ولكن علم وهو في الطريق أن أمير (سكدوار) قد جابه إحدى الفرق العثمانية وانتصر عليها. فسار إلى سكدوار. وحاصرها لمدة اسبوعين - واشتد مرض السلطان سليمان فترك جيشه، وعاد الى عاصمته - حيث وافته المنية، بينما تابع الجيش العثماني حصار (سكدوار) [٣] إلى أن تمكن من اقتحامها (يوم ٢٣ صفر سنة ٩٧٤ هـ = ٨ - أيلول - سبتمبر - ١٥٦٦ م).

---

(١) مكسيميليان الثاني: (MAXIMILIEN-II) من مواليد ڤيينا وهو ابن فرديناند الأول (١٥٢٧ - ١٥٧٦ م خلف والده على حكم النمسا سنة ١٥٦٤ م. وقضى حياته في محاربة المسلمين.

(٢) توكاي: (TOKAJ) مدينة صغيرة تقع على نهر تيتسا: (TIZSA) الى الشمال الشرقي في بلاد المجر.

(٣) سكدوار: (SZEGED) مدينة ببلاد المجر - تقع في الجنوب على الحدود اليوغوسلافية.

لا ـ الحروب البحرية العثمانية.

ما كان للعثمانيين أن يهملوا الجبهة البحرية، وقد عزفوا ما حملته هذه الجبهة من موجات الحملات الصليبية المتتالية، وما كان لهم أن ينتقصوا من قيمة هذه الجبهة وقد باتت دولتهم على خط الاتصال المباشر مع الدول الصليبية في الغرب. وبالاضافة الى ذلك فقد ضمت جبهتهم البحرية مجموعة المضائق الفاصلة بين القارتين الأوروبية والآسيوية، كما أن انتشار الدول الإسلامية المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، لاسيما بعد فتح الشام ومصر وأقطار المغرب العربي الإسلامي، حيث برزت أهمية البحرية لتأمين الاتصال بين هذه الأقطار جميعاً بعضها مع بعض، وبينها وبين قاعدة الدولة في (إسلام بول). ومن هنا لم يكن غريباً أن تظهر الدولة العثمانية منذ البدايات الأولى لتشكلها إرادة صلبة لركوب البحر والجهاد فيه.

لقد انطلق العثمانيون لبناء قدرتهم البحرية من خلال التحدي الذي فرضه عليهم البنادقة سنة ٨١٩ هـ = ١٤١٦ م، عندما دمروا القوات العثمانية في (غاليبولي). ولكن النهضة الكبرى التي اكسبت الاسطول العثماني شهرته الواسعة قد حدثت في عهد السلطان محمد الفاتح، الذي أطلق في سنة ٨٦١ هـ = ١٤٥٦ م قوة بحرية ضمت مائة وثمانون سفينة شراعية، غادرت غاليبولي للعمل في سواحل بحر إيجه. وتابع السلطان سليم بعدئذ دعمه للقدرة البحرية، حتى إذا ما كان عهد الفتوحات ـ عهد السلطان سليمان القانوني ـ ارتفع عدد هذه السفن الى ثلثمائة سفينة. وكان انضمام اسطول الجزائر بقيادة (خير الدين بربروس) [1] الى الاسطول العثماني، كافياً لإلقاء الرعب

---

(١) خير الدين بربروس: (١٤٧٠ ـ ١٥٤٧م = ٨٧٧ ـ ٩٥٢هـ) ولد في جزيرة (مدلي) في أرخبيل بحر إيجه، وعاش وإخوته حياة القلق والذعر من أعمال القرصنة التي كان يمارسها الصليبيون، فبدأ حياته بالقرصنة ضد قرصنة الفرنج الصليبيين، واكتسب شهرة واسعة وقام =

الذي بسط جناحه حتى سواحل الأندلس. وقد خصص العثمانيون موارد ضخمة لبناء الاسطول ودعمه، وأمدتهم الغابات القائمة على شواطىء البحر الأسود بما كانوا يحتاجونه من الأخشاب، كما قدمت لهم مناجم البغدان والأفلاق (بولونيا) ما هم بحاجة إليه من المعادن لصناعة السفن. وكان باستطاعتهم استيراد قماش الأشرعة من فرنسا. ولم تكن هناك مشكلة في الحصول على الأيدي العاملة في صناعة السفن، بعد أن سيطر العثمانيون على اليونان وقسماً من إيطاليا بالإضافة الى جزر بحر إيجه. بحيث وقفت أوروبا مرات كثيرة وهي في حالة من الذهول لما تميزت به دور الصناعة العثمانية من المرونة في العمل والسرعة في الانتاج والتطوير. إذ بقي إنشاء السفن الحربية الصغيرة وتسليحها متروكاً لقادة السفن - حتى في عهد السلطان سليم الأول - وكان بينهم في سنة ١٠٠١ هـ = ١٥٩٢ م ما يقارب ٤٦٠ رباناً - مما أفسح المجال للابداع في تطوير النماذج المتنوعة للسفن. ويظهر أن عدد السفن، وعدد البحارة، لم يكن ثابتاً أو مستقراً، وإنما يتبع الحاجة في كل مرحلة، بحيث يتم حشد القوى والوسائط عندما تنشب الحرب، ثم يتم صرف القوى عندما تعود الأمور الى الهدوء. وكان البحارة يتسارعون من كل الأقاليم عندما تعلن التعبئة، سواء من أوروبا أو آسيا. وقد عمل - الانكشارية - في البحرية، وقد أظهروا هنا أيضاً تفوقهم، فكانت شجاعتهم، وخاصة في اقتحام السفن والانقضاض على المدن الساحلية، تلقي الرعب في قلوب أعدائهم الصليبيين. وكان الأسطول العثماني يتكون من سفن ثقيلة (ماعون - أو ماونه) تعمل كبراها بقوة ٥٧٦ مجذافاً يعمل على استخدامها العبيد (وقد بنيت سنة ١٥٧٥ م) ومن

= وأخوه (عروج) في مهاجمة الإسبانيين الذين كانوا يحتلون بجاية - الجزائر - سنة ٩١٨ هـ = ١٥١٢ م. وخصص جهده بعدئذ لمحاربة الاسبانيين في الجزائر والبحر. وكان استشهاد أخيه عروج سنة ٩٢٤ هـ = ١٥١٨ م نقطة تحول حاسمة في حياة خير الدين الذي انتقم لأخيه في السنة التالية بتدمير الاسطول الاسباني أمام الجزائر. وتوالت انتصارات خير الدين، وحصل على دعم السلطان سليمان القانوني الذي عمل على تعيينه سنة ٩٣٩ هـ = ١٥٣٣ م قائداً عاماً للأساطيل العثمانية (قبودان باشا) مما دفعه للعمل بحماسة أكبر ضد أكبر عدو للإسلام (شارلكان) وشغل في نهاية حياته منصب وزير البحرية العثمانية. وتوفي في العاصمة حيث أقيم له ضريح يليق بمؤسس البحرية العثمانية.

طرادات خفيفة (جكتري أو جكدري) متوسط تعمل بقوة مائة وخمسين مجذافاً - وكان بحارتها من العبيد الذين عادة ما كان يشد وثاقهم الى مراكزهم -. وكانت مدفعية الاسطول قوية، وقد طورت باستمرار ودعمت حتى باتت تمتلك قدرة كبيرة. وكانت سفن القراصنة العاملة في شواطىء إفريقيا الشمالية - وخاصة الجزائر - تشكل منذ أيام خير الدين بربروس - جزءاً هاماً جداً من الأسطول العثماني، فقد كانت هذه السفن تنضم إلى الاسطول العثماني بمجموعات كبيرة، كلما قرر السلطان شن حرب بحرية، لينزلوا بسفن العدو - التجارية والحربية - أفدح الخسائر. وكانت سفنهم مجهزة تجهيزاً جيداً بالرجال والأسلحة. وهكذا وبفضل تعاون الاسطول العثماني واسطول الجزائر، أمكن وضع حدّ لقرصنة سفن الفرنج وأساطيلهم الحربية في مياه البحر الأبيض المتوسط. وبذلك تزايدت واجبات قائد الاسطول مع تعاظم قدرته القتالية، وكان والي محافظة (سنجق) غاليبولي، هو الذي يقود القوات البحرية في بداية الأمر، ولكن عندما تعين خير الدين قائداً عاماً للأساطيل العثمانية، شملت سلطته بحر إيجه، وامتد مجال عمله الى أربعة عشر سنجقاً (محافظة). وصار وزير البحرية - أو أمير البحر - أحد أركان اتخاذ القرار السياسي في الدولة، وعلى سبيل المثال فقد كان لخير الدين بربروس دوره في حمل السلطان سليمان على التحالف مع ملك فرنسا - فرانسوا الأول - ضد ملك اسبانيا وامبراطور الغرب - شارلكان -.

لقد تضمن العرض - في الفقرات السابقة - إيجازاً لدور البحرية العثمانية في فتح القسطنطينية وفي فتح رودس وبعض الأعمال القتالية البحرية الأخرى. وقد يكون من المناسب إجراء وقفة قصيرة عند ما تم إنجازه من أعمال تحت قيادة مؤسس البحرية العثمانية (قبودان باشا خير الدين بربروس) والذي ركّز جهده في بداية أمره على محاربة قرصنة الصليبيين، والاستيلاء على سفنهم التجارية، وأخذ كافة ما بها من البضائع. وبيع ركابها وملاحيها بصفة رقيق - تماماً على نحو ما كانت تفعله سفن الصليبيين بالمسلمين -. وفي إحدى المرات أرسل إلى السلطان سليم الأول إحدى المراكب المأسورة إظهاراً لخضوعهم لسلطانه، فقبلها، وأرسل خلعاً سنية وعشر سفن للاستعانة بها على غزو مراكب الفرنج، فقويت شوكة خير الدين وأخوه عروج، وقررا

العمل على احتلال بعض سواحل الغرب ـ باسم السلطان العثماني ـ فاستولى خير الدين على ثغر (شرشال) الواقعة على بعد مائة كيلومتر من الجزائر والى الغرب منها ـ. ثم عاد إلى تونس ومنها أرسل إلى السلطان سليم الذي كان إذ ذاك بمصر رسولاً يدعى (كرد أوغلي) يؤكد لديه إخلاصه وولاءه للدولة العثمانية. أما (عروج) فبعد أن استولى على مدينة الجزائر نفسها، وهزم الجيوش الإسبانية التي أرسلها شارلكان لمساعدة الجزائريين على محاربة عروج. وفتح أيضاً مدينة تلمسان، وقتل بعدها بقليل في معركة ضد الإسبانيين الذين فشلوا في إعادة احتلال تلمسان والجزائر. وأرسل خير الدين الى السلطان سليم ـ وكان قد أتم فتح مصر ـ رسولاً من قبله (اسمه الحاج حسين) ليعلمه بفتح الجزائـر. وبذا صار هذا الإقليم ولاية عثمانية يدعى فيه في خطبة الجمعة باسم السلطان سليم، وتضرب النقود باسمه. واستمر خير الدين بعد ذلك في مطاردة سفن الفرنج، وإنزال قواته على سواحل إيطاليا وفرنسا واسبانيا، لتدمير ما يمكن تدميره والاستيلاء على ما يقع في أيدي قواته من الأموال وأسر من يمكن أسره. كما فتح الحصن الذي أقامه الإسبانيون على أرض الجزيرة الصغيرة المقابلة لمدينة الجزائر.

أرسل السلطان سليمان بعدئذ إلى خير الدين طلباً بالكف عن التعرض للسفن الفرنسية وعدم مهاجمة السواحل الفرنسية، تنفيذاً لشروط التحالف الذي تم ابرام معاهدته بين الدولة العثمانية وفرنسا. فعمل خير الدين عندها على تركيز كل جهده ووسائطه ضد إسبانيا، انتقاماً من أهلها الذين ارتكبوا بحق المسلمين جميع أنواع الفضائع والمنكرات. وساعد كثيراً من المسلمين على الانتقال من الأندلس الى بلاد المغرب العربي ـ الإسلامي، وخاصة إلى الجزائر، حيث استقروا فيها، وتخلصوا من اضطهاد المسيحيين الذين كانوا يحملونهم قسراً وقهراً على الارتداد عن دينهم واعتناق المسيحية.

عمل السلطان سليمان في سنة ٩٣٩ هـ = ١٥٣٣ م على استدعاء خير الدين للحضور الى الآستانة فعينه أميراً للبحر (قبودان باشا) واتفق معه على التدابير الواجب اتخاذها لايقاف الأعمال العدوانية التي كان يمارسها قائد اسطول شارلكان (أندريا دوريا) ضد المدن والسفن الإسلامية، وتم دعم الاسطول بالقدرة الكافية، وانصرف خير الدين طوال فصل الشتاء لبناء المزيد من السفن. فلما أقبل صيف سنة ١٥٣٤ م، خرج خير

الدين باسطوله من مضيق الدردنيل، وهدفه الوصول الى تونس، ولكنه لم يتوجه إليها مباشرة، بل سار إلى مالطة، وهاجم بعض موانىء جنوب إيطاليا حيث عمل على تدمير ما عثر عليه من السفن ثم اتجه بصورة مباغتة إلى تونس (في أوائل سنة ١٥٣٥ م) وأعلن أنه إنما جاء لعزل السلطان مولاي حسن - آخر سلالة بني حفص التي حكمت تونس من سنة ٦٠٣ هـ = ١٢٠٦ م - وكان الأهالي ناقمين عليه لتعاونه مع عدو الدين شارلكان - وقام خير الدين بعزل حسن ونصب أخيه الرشيد مكانه، وبذلك احتل مدينة تونس وثغرها المسمى (حلق الوادي) بدون عناء كبير. وعندما علم شارلكان بذلك أسرع بتحركه، وتعاون مع طائفة فرسان الاسبتارية (رهبنة القديس حنّا الأورشليمي) والتي كانت قد نزلت بجزيرة مالطة بعد أن أخرجهم السلطان سليمان من جزيرة رودس، وقاد شارلكان بنفسه حملة قوية شاركه فيها أشراف اسبانيا، وانطلق باسطوله من ثغر برشلونه، فوصل الى حلق الوادي في صيف سنة ١٥٣٥ م. وحاصرها هي ومدينة تونس لمدة شهر تقريباً. ولما تم له فتحها، استولى على ما بقلعتها وثغرها من المدافع والمراكب، وسمح لجنده باستباحة تونس انتقاماً من أهلها الذين ساعدوا خير الدين، فقام جند شارلكان بقتل ونهب المدينة، وارتكبوا فيها أشد أنواع الفجور والفسق والمحرمات، وهدموا المساجد، وحرقوا ومزقوا ما ضمته المكتبات من أنواع الكتب الثمينة والنادرة. وقام شارلكان بعدئذ بتنصيب حليفه - مولاي حسن - وفرض عليه معاهدة تضمنت شروطاً قاسية، منها إخلاء سبيل الارقاء المسيحيين، والسماح لجميع المسيحيين بالاستيطان في إقليم تونس، وإقامة شعائر دينهم بدون معارضة، وأن يتنازل لشارلكان عن مدائن بونه (عنابة) وبنزرت وحلق الوادي، وأن يدفع له مبلغ اثني عشر ألف دوكا مصاريف الحرب، وأن يقدم له سنوياً اثني عشر حصاناً واثني عشر فرساً من الخيول العربية الأصيلة، تعبيراً عن ولائه وشكره. وأنه لو خالف أحد هذه الشروط، فيتوجب عليه دفع خمسين ألف دوكا في المرة الأولى، وإذا تكررت المخالفة فإنه يغرم بمائة ألف دوكا، ويسقط حقه في الملك إذا ما ارتكب المخالفة للمرة الثالثة. وعندما غادر شارلكان تونس، ترك فيها عشرة مراكب حربية وألف جندي إسباني. ووصل خير الدين متأخراً، لإنقاذ تونس، ووجد أنه لا يستطيع

معاودة الهجوم عليها بالقوة القليلة التي كانت معه، فأجل عملية إعادة فتحها إلى وقت آخر تتوافر فيه له ظروف مناسبة.

كان الصراع على الجبهة البرية - الأوروبية - خلال تلك الفترة مستمراً. كما كان الصراع بين ملك فرنسا وملك اسبانيا - شارلكان - مستمراً. وأرسل ملك فرنسا سفيراً الى السلطان سليمان أعلمه بتجدد الصراع بينه وبين شارلكان، وأبدى رغبته في تجديد التحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا لمحاربة شارلكان، وكان الملك فرانسوا - ملك فرنسا قد وقع في سنة ١٥٣٩ م معاهدة مع شارلكان (معاهدة نيس) وتوسط لدى الباب العالي للتوقيع على هدنة بين الباب العالي وشارلكان، إلا أن السلطان سليمان أجاب بأنه غير مستعد لمهادنة شارلكان إلا إذا ردّ لملك فرنسا جميع القلاع والحصون التي انتزعها من ملك فرنسا. ورفض شارلكان هذا الشرط، فتردت العلاقات بينهما بالإضافة إلى ما كانت عليه من التدهور، وظهر أن الحرب هي المخرج الوحيد من هذا المأزق (سنة ١٥٤١ م) وفي هذه الفترة أرسل ملك فرنسا سفيره (المسيورنسـون) للتفاوض مع السلطان سليمان والاتفاق معه على الترتيبات اللازمة لتنظيم التعاون.

لم يصل السفير الفرنسي (المسيورنسون) على كل حال الى العاصمة (إسلام بول) فقد عمل حاكم ميلانو الذي كان تابعاً لشارلكان، على قتل السفير عند مروره ببلاده، وذلك على أمل العثور على رسائل أو وثائق يمكن لشارلكان استخدامها ضد عدوه فرانسوا الأول، بتهمة عدائه للمسيحية ومروقه عن الدين، فينشرها على ملوك أوروبا وأمرائها، ويستثيرهم بها ضده. ولكن السفير لم يكن يحمل معه ما يفيد شارلكان، وذهب دم السفير هدراً. وعندما علم فرانسوا الأول بقتل سفيره، أوفد أحد ضباطه (المسيوبولان) الى السلطان سليمان لطلب المساعدة على محاربة شارلكان بسفنه وقائدها (خير الدين). فتردد السلطان سليمان بسبب عدم استقرار فرانسوا على سياسة ثابتة، ولما عرفه فيه من التردد. ولكن السفير، وخير الدين تمكنا من إقناعه، لاسيما بعد أن وصل خبر مهاجمة شارلكان بجيوشه لمدينة الجزائر وارتداده عنها خائباً (في ٣١ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٥٤١ م) واستغرقت الاستعدادات وقتاً غير قصير، حتى إذا ما أقبل فصل الربيع من سنة ١٥٤٣ م، وبينما كان السلطان سليمان ينطلق بجيوشه براً

لحرب المجر، كان الاسطول العثماني بقيادة خير الدين يغادر مياه الآستانة - ومعه السفير الفرنسي بولان - قاصداً إحدى موانىء فرنسا الجنوبية - مارسيليا - حيث وصلها بعد أن أغار في طريقه على سواحل جزيرة صقلية، **واستقبل الفرنسيون الاسطول العثماني بالحفاوة والترحاب، وانضمت السفن الفرنسية الى الاسطول العثماني، الذي لم يلبث أن أقلع إلى (نيس) التي تمت محاصرتها براً وبحراً حتى تم فتحها (في ٢١ جمادى الأولى سنة ٩٥٠ هـ = ٢٢ - آب - أغسطس - سنة ١٥٤٣ م) . وأعقب ذلك حدوث خلاف بين خير الدين والقوة البحرية الفرنسية، مما حمل ملك فرنسا على منح ميناء طولون للاسطول العثماني - لقضاء فصل الشتاء فيه . كما منح مبلغ ثمانمائة ألف فرنك فرنسي لتغطية نفقات الاسطول ورواتب جنده .**

استطاع شارلكان، وبالتعاون مع الكنيسة، استثارة الرأي العام الأوروبي - والفرنسي خاصة - ضد الملك فرنسوا الأول الذي تحالف مع أعداء دينه - المسلمين -. مما حمل الملك فرنسوا على رفض مساعدته للاسطول العثماني في السنة التالية (سنة ١٥٤٤ م). واضطر أيضاً للتوقيع على معاهدة صلح مع شارلكان (معاهدة كريسي). فعاد خير الدين باسطوله الى العاصمة (إسلام بول). ولم يلبث أن توفي فدفن بحي بشكطاش على شاطىء البوسفور، في الموقع المجهز لرسو سفن الاسطول العثماني.

كان السلطان سليمان قد استقبل (في سنة ٩٤٤ هـ = ١٥٣٧ م) سفيراً من قبل صاحب دهلي بالهند يستنجده ضد همايون بن ظاهر الدين محمد الشهير ببابر، والذي كان قد استولى على دهلي. كما وصل سفير آخر من قبل صاحب الجوزرات (أو الكجرات) بالهند أيضاً، وطلب المساعدة ضد البرتغاليين الذين أغاروا على بلاده واحتلوا أهم ثغورها. فما كان من السلطان سليمان إلا أن أرسل إلى والي مصر (سليمان باشا) وأمره بتجهيز أسطول ضخم بثغر السويس - على البحر الأحمر، لمحاربة البرتغاليين وفتح عدن وبلاد اليمن حتى لا تستولي عليها البرتغال، أو أي دولة أوروبية أخرى، فتعيق قوات الدولة العثمانية عن العمل في جهات الشرق، وتشكل في الوقت

ذاته قاعدة للعدوان على مصر وسواها من بلاد المسلمين. فعمل (سليمان باشا) على بناء اسطول كبير شمل سبعين سفينة جرى تسليحها بالمدافع الضخمة، وأمكن انجاز العمل بسرعة مذهلة، **وسار والي مصر باسطوله في سنة ٩٤٥ هـ = ١٥٣٨ م ومعه عشرون ألف مقاتل، وفتح مدائن: عدن ومسقط، وحاصر جزيرة هرمز عند مدخل بلاد فارس، ثم توجه الى سواحل الجوزرات (أو الكجرات التي عاصمتها أحمد آباد) وفتح أغلب الحصون التي احتلها البرتغاليون هناك، لكنه لم يتمكن من فتح (ديو) فانصرف عنه بعد أن حاصره لمدة محدودة. وعاد الى اليمن حيث أكمل فتحها وجعل منها ولاية عثمانية.**

تجددت الحرب بين فرنسا - هنري الثاني ابن فرانسو الأول - وبين (شارلكان). سنة ٩٦٠ هـ - فأوفد ملك فرنسا الجديد سفيراً الى (إسلام بول) بمهمة تنسيق التعاون بين الاسطول العثماني والقوات البحرية الفرنسية للعمل المشترك ضد **(جزيرة كورسيكا)** عقاباً للجنويين المحتلين لهذه الجزيرة، والذين ساعدوا شارلكان ضد فرنسا. واستخدم هذه الجزيرة قاعدة لأعمال الاسطولين العثماني والفرنسي من أجل غزو سواحل إسبانيا وإيطاليا. وتم التوقيع على معاهدة لتحقيق هذا الهدف★ وسارت سفن العثمانيين والفرنسيين ففتحت جزيرة كورسيكا، بعد الإغارة على كلابريا وجزيرة صقلية. وتكرر وقوع ما حدث في المرة السابقة، فسرعان ما افتعل الفرنسيون الخلاف، وعاد الاسطول العثماني إلى الأستانة. وكانت هذه هي آخر مناسبة قاتل فيها الاسطول العثماني الى جانب الاسطول الفرنسي.

وجه السلطان سليمان بعدئذ جهده لدعم اسطوله الحربي وتعزيزه، لحماية الجزائر وطرابلس الغرب التي افتتحها (طرغود باشا) سنة ٩٧٣ هـ = ١٥٦٥ م. والتي بقيت عرضة لتهديد الاساطيل الاسبانية والجنوية. حتى إذا ما كانت سنة ٩٧٣ هـ = ١٥٦٥ م. توجه اسطول عثماني من مائتي سفينة لفتح **(جزيرة مالطة)** التي أصبحت قاعدة للفرسان الاسبتارية (رهبنة القديس حنا الأورشليمي) والتي بقيت مركز تهديد

(★) انظر قراءات ٢ في نهاية الكتاب (العلاقات الفرنسية العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني).

خطير لقطع الاتصالات البحرية بين تونس وجنوب إيطاليا (صقلية). واستمر الحصار لمدة أربعة أشهر دون توقف، رغم وفاة قائد الاسطول الجديد الذي خلف خير الدين في منصبه (قبودان باشا طرغول المشهور عند الفرنج باسم دراجوت). إلا أن قدوم فصل الشتاء، وكثرة الأعاصير البحرية، أرغمت الاسطول العثماني على رفع الحصار والعودة الى قاعدته - في الآستانة -.

كورسيكا
سردينيا
البليار
صقلية
وهران
الجزائر
تونس
مالطة
طرابلس
غاليبولي
القاهرة
المدينة المنورة
مكة

النشاط البحري العثماني

٨ ـ الحرب في بلاد فارس.

ليس أمراً غريباً أن يرتبط ظهور أمة من الأمم بظهور أمة أخرى، فتاريخ الأمم والشعوب قد ضم أمثولات لا نهاية لها عن هذه الظاهرة التي ترتبط بدورة الحياة الإنسانية على أرض الله. وهكذا وبينما كانت الدولة العثمانية تشق طريقها نحو الظهور، كانت هناك سلالة أخرى قد أخذت في الظهور على أرض بلاد فارس. فقد جاءت مع رياح المغول التتار قبائل شتى من الترك وسواهم. وقد سبقت الإشارة إلى ذلك الصراع الذي نشب بين قبائل القره قيونلي (الخروف الأسود) بقيادة جهان شاه، ومن بعده شروان شاه ـ تحت راية الشيعة والتشيع ـ. وبين قبائل آق قيونلي (الخروف الأبيض) بقيادة اوزون حسن ـ تحت راية السنة والجماعة ـ. وقد قدر لهذا الصراع أن يستمر طويلاً، وأن يسير في متاهات معقدة، إلى أن أسفر عن وصول (إسماعيل ابن الشيخ حيدر) [١] الى موقع قيادة الشيعة وتأسيس السلالة الصفوية التي كانت قد استقلت في أمورها بعد وفاة حيدر، واستحدثت لباساً جديداً للرأس هو (تاج حيدر) الأحمر ذو الاثنتي عشرة ذؤابة، رمزاً للاثني عشر إماماً ـ ومن هنا دعا العثمانيون مصطنعي لباس الرأس الجديد هذا ـ اسم (قزل باش ـ أي الرؤوس الحمراء). وجدت بعد وفاة حيدر أن تمزق شمل الأسرة، ودخلت في صراعات دموية، فخرج اسماعيل مطالباً بإرث أبيه وليس له من العمر إلا ثلاثة عشر عاماً؛ وليس معه من الأنصار والأتباع إلا سبعة رجال، فانطلق الى بلاد الأناضول وبلاد

---

(١) اسماعيل ابن الشيخ حيدر، وأمه هي دسبينة خاتون أميرة طرابزون (٨٩٣ ـ ٩٣٠ هـ = ١٤٨٧ ـ ١٥٢٤ م) وينتهي نسبه الى الشيخ صفي الدين ابن جبرائيل العلوي الحسني. وقد خلفه ابنه طهماسب (٩٢٠ ـ ٩٨٤ هـ = ١٥١٤ ـ ١٥٧٦ م). ثم خلفه ابنه اسماعيل الثاني الذي لم يحكم أكثر من سنة ومات سنة ٩٨٥ هـ = ١٥٧٧ م. ثم خلفه ابنه عباس الكبير (٩٩٧ ـ ١٠٣٩ هـ = ١٥٨٨ ـ ١٦٢٩ م) والذي بلغت الدولة الصفوية في عهده ذروة مجدها وقوتها.

الشام لجمع الأنصار وتنظيم القوات، حتى إذا ما كانت سنة ٩٠٦ هـ = ١٥٠٠ م. أصبح لدى اسماعيل من القوة ما يسمح له بخوض الصراع المسلح، فقاد جيشه لقتال خصمه - وخصم أبيه من قبل. (شروان شاه) حيث دارت معركة حاسمة عند كلستان، قتل فيها (فرخشاه) فانتهت بموته سلالته التي كانت تعتبر نفسها منحدرة من (كسرى أنوشروان الساساني) ثم إن اسماعيل احتل دربند (باب الأبواب - أوباكو)، لينقلب بعدها لقتال خان السنة ألوند (زعيم قبائل الآق قيونلي) في أذربيجان، والواقع أن انتصاره على (ألوند) قد مهد أمامه السبيل إلى تبريز حيث توج ملكاً (شاه) على بلاد فارس. ومع أن علماء الشيعة في تبريز. قد أعلموه بأن ثلثي سكان المدينة على الأقل - وكانت تضم ثلثمائة ألف - من أهل السنة، فقد سارع الى جعل التشيع مذهب الدولة الرسمي، ثم أردف ذلك بإكراه رعاياه جميعاً على سبّ وشتيمة الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان - رضوان الله عليهم -. وتابع اسماعيل توسيع حدود دولته بالاستيلاء على شيراز واستراباد - يزد - ثم إنه فتح الجزيرة الفراتية والعراق في سهولة ويسر، وهكذا انتهت إليه السيادة على المدينتين اللتين يقدسهما المتشيعون وهما النجف وكربلاء. ولما تم لاسماعيل إخضاع بلاد فارس، لم يبق أمامه من عدو غير العثمانيين في الغرب، والاوزبك الأتراك في تركستان بزعامة الخان محمد شيباني - وهم من السنة أيضاً. ولقد استثارت أعمال اسماعيل واجراءاته المضادة للسنة - وللدين الإسلامي - حمية الخان محمد شيباني الذي كتب الى اسماعيل ونصحه بالعودة الى النهج القويم - نهج السنة، غير أن اسماعيل ردّ بعنف، وتزايدت لهجة الخطابات المتبادلة مع الأيام شدة وضراوة. مما أدى في النهاية الى نشوب الحرب (سنة ٩١٦ هـ = ١٥١٠ م) فقاد اسماعيل جيشاً ضخماً، أتاح له زيارة ثاني الأماكن المقدسة الكبرى عند الشيعة (ضريح الإمام علي الرضا في مدينة مشهد). والتقى الجمعان عند طاهر آباد قرب مرو، فدارت الدائرة على (الخان محمد شيباني) وسقط شهيداً. فما كان من اسماعيل إلا أن بعث بجثته محنطة إلى السلطان بايزيد، في حين وضع جمجمته في غشاوة من الذهب ليتخذ منها كأساً للشراب. ولكن هذه الهزيمة لم تقض على قوة (الأوزبك السنة) وبقيت هذه القوة مصدر تهديد للدولة الصفوية من جهة الشرق.

لم يقف (الشاه اسماعيل) عند حدود ما وصل إليه، بل أخذ في التآمر ضد الدولة العثمانية التي كان لها ما يشغلها على جبهة الغرب ضد الفرنج الصليبيين. ولكن حجم التآمر بلغ درجة لم يعد بالمستطاع إغفالها أو تجاوزها. فقد عمل الشاه اسماعيل على تحريض الناقمين على السلطان العثماني من أبنائه وإخواته الطامعين في السلطة على نحو ما فعله عندما استضاف الأمير أحمد وحرضه ضد والده بايزيد الثاني ثم ضد أخيه سليم الأول، محاولاً بذلك تفجير الدولة العثمانية وتمزيقها من الداخل. كما أنه أرسل وفداً إلى سلطان مصر - قانصوه الغوري - وطلب التحالف معه لايقاف تعاظم قدرة الدولة العثمانية، وبين له بأنهما إذا لم يتحالفا، تمكنت الدولة العثمانية من محاربة كل منهما على التتابع وقهره وسلبه الملك.

ولم يكن السلطان سليم الأول غافلاً عما يحدث حول حدود بلاده، فبدأ بإحصاء عدد الشيعة المنتشرين في الولايات المتاخمة لبلاد الفرس (العجم) بطريقة سرية، ثم أمر بقتلهم جميعاً، وكان عددهم - على ما قيل - أربعين ألفاً تقريباً. ثم أعلن الحرب على الشاه اسماعيل، وارتحل بجيوشه من مدينة أدرنه. (في ٢٢ محرم سنة ٩٢٠هـ = ١٩ آذار - مارس - سنة ١٥١٤م).

وتبادل في أثناء مسيره مع الشاه اسماعيل رسائل مفعمة بالإهانات والشتائم. وسار الجيش العثماني تحت قيادة السلطان سليم ذاته، على نحو ما جرت به العادة - قاصداً عاصمة بلاد عدوه (تبريز). ولم يحاول جيش الشاه اسماعيل مجابهة تقدم الجيش العثماني على الحدود، بل عمل على التراجع أمامه لاستدراجه الى عمق بلاد فارس واستنزافه، ثم الانقضاض عليه في المكان والزمان المناسبين. وأخيراً، وقعت المعركة في وادي (جالدران أوغالدران) في أرباض تبريز يوم ٢ رجب سنة ٩٢٠هـ (٢٤ - آب - أغسطس - سنة ١٥١٤م). وأسفرت المعركة الحاسمة عن انتصار العثمانيين انتصاراً رائعاً - بفضل تفوقهم بالمدفعية بالدرجة الأولى -. وهرب الشاه اسماعيل، بما بقي من جيشه، ووقع كثير من قادته في الأسر، كما وقعت إحدى زوجاته في الأسر أيضاً، ولم يقبل السلطان سليم ردها بل زوجها من أحد موظفيه - كتابه - انتقاماً من الشاه وتحقيراً له، وفتحت مدينة (تبريز) أبوابها للسلطان الظافر سليم الذي دخلها بعد

انقضاء اسبوعين تقريباً على المعركة، واستولى على خزائن الشاه، وأرسلها الى عاصمته (إسلام بول). وكذلك أرسل إليها أربعين شخصاً من أمهر صناع هذه المدينة. غير أن تبريز كانت تفتقر للطعام والمواد التموينية اللازمة لامداد الجيش العثماني الكبير، مما حمل السلطان سليم على الانسحاب منها بجيشه بعد ثمانية أيام من إقامته فيها. وانطلق لمطاردة الشاه اسماعيل حتى وصل الى شاطىء نهر آراس - في شمال بلاد فارس (العجم). وعندها امتنع الانكشارية عن التقدم لاشتداد البرد وعدم توافر الألبسة الشتوية، والافتقار للمواد التموينية، فرجع بجيشه إلى مدينة (أماسية) بآسيا الصغرى للاستراحة وقضاء فصل الشتاء وإعادة التنظيم لاستئناف الحرب. حتى إذا ما أقبل فصل الربيع، رجع السلطان سليم إلى بلاد الفرس (العجم) ففتح قلعة كوماش الشهيرة، وإمارة (ذي القدر) في شرق الأناضول. ثم رجع الى (إسلام بول) تاركاً لقادته مهمة فتح الولايات الفارسية الشرقية. ولما وصل إليها أمر بقتل عدد كبير من ضباط الانكشارية الذين كانوا سبب الامتناع عن التقدم في بلاد فارس وذلك خشية من انتشار روح التمرد وضعف الانضباط في الجيوش العثمانية كما أمر بقتل قاضي عسكر هذه الفئة (واسمه جعفر جلبي) لأنه كان من كبار المحرضين على رفض الأوامر. وبالإضافة إلى ذلك، فقد جعل لنفسه حق تعيين قائدهم العام، بدون أن يكون هذا القائد من بين قادة الإنكشارية ليضمن بذلك السيطرة عليهم، وكان التقليد المتبع من قبل هو تعيين أكثر ضباط الإنكشارية قدماً في منصب القائد العام.

نجحت الجيوش العثمانية - بعد عودة السلطان سليم الى العاصمة - في فتح مدن إقليم ديار بكر مثل ماردين وأورفة والرقة والموصل. ولم تحاول قبائل الأكراد مقاومة الجيوش العثمانية غير أنها اشترطت البقاء تحت حكم رؤساء قبائلها وشيوخها.

توفي الشاه اسماعيل سنة ٩٣١ هـ = ١٥٢٤ م وخلفه ابنه (طهماسب) فسار على نهج أبيه في التصدي للأوزبك في الشرق والعثمانيين في الغرب. مما حمل الأوزبك - بقيادة عبيد خان بن شيباني خان - على توجيه سبع حملات ضد بلاد فارس (ما بين سنة ٩٣٢ - ٩٤٧ هـ = ١٥٢٥ - ١٥٤٠ م) وكان من نصيب هراة أن تعاني أكثر من أي مدينة أخرى شرّ هذه الحروب. وتعرض الشيعة للاضطهاد والتنكيل بهم، بمثل ما

كانوا يفعلونه مع أهل السنة. أما على جبهة العثمانيين، فقد تكرر تقريباً ما سبق حدوثه، إذ قام خان مدينة بدليس ـ أو بتليس (شريف بك) بالانحياز الى طهماسب، مستفيداً من موقع مدينته على الحدود بين الدولتين الفارسية والعثمانية.

ولما كان السلطان سليمان القانوني منصرفاً للقتال على جبهة أوروبا، فقد وجّه جيشاً كبيراً لقتال الشيعة الصفويين بقيادة وزيره الأول ـ الصدر الأعظم ابراهيم باشا ـ.

وسار الجيش العثماني عبر الأناضول، ولكن قبل وصوله الى (قونية) وصل إليه (في ٢ ربيع الآخر سنة ٩٤٠ هـ = ٢١ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٥٣٣ م) شمس الدين ابن حاكم أذربيجان الذي كان تابعاً لطهماسب، وانضم إلى الجيوش العثمانية، ومعه رأس شريف بك، الذي حاربه والده وقتله. ولذلك ارتحل ابراهيم باشا بجيشه الى حلب لقضاء فصل الشتاء فيها، فلما أقبل ربيع السنة التالية (١٥٣٤ م). عاد فقاد جيشه وسار به عبر بلاد فارس، وفتح في طريقه جميع الحصون والقلاع المجاورة لبحيرة (وان) حتى وصل الى تبريز، فدخلها بدون أن يصطدم بأي مقاومة. (في غرة شهر محرم الحرام سنة ٩٤١ هـ = ١٣ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٥٣٤ م) وبنى بها قلعة وخصص حامية عثمانية قوية للإقامة فيها، وذلك لمنع محاولات التمرد أو الاضطراب.

وجاء السلطان سليمان إلى تبريز (في ١٦ صفر سنة ٩٤١ هـ = ٢٧ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٥٣٤ م) فاستقبله أهلها بجفاوة بالغة. فعين ابن الأمير شيروان قائداً لحامية مدينة تبريز ـ. كما استقبل الملك فطفر خان ملك غيلان ـ أو كيلان ـ. وغيره من أمراء الفرس الذين تخلوا عن ولائهم للشاه طهماسب وانحازوا للسلطان سليمان، وأعلنوا ولاءهم له. وسار السلطان سليمان بجيوشه الى مدينة سلطانية التي تقهقر إليها الشاه بجيوشه، غير أن صعوبة الطرق ووعورتها مما جعل من المحال تقديم المدافع الضخمة والعربات التي زادت الأمطار والوحل من صعوبة تحركها، مما حمل السلطان سليمان على العودة والتوجه إلى مدينة بغداد. وتقدم ابراهيم باشا ـ الصدر الأعظم وسرعسكر الجيوش العثمانية ـ لاحتلالها قبل وصول السلطان، فدخلها ووجدها خاوية

من الجنود، إذ تركها حاكمها بكل جنوده هرباً من الوقوع في قبضة العثمانيين. وأقام السلطان سليمان في مدينة بغداد لمدة أربعة أشهر عمل خلالها على إعادة تنظيم الأمور الداخلية للبلاد، وزار قبور الأئمة العظام، وقبر الإمام علي كرّم الله وجهه في مدينة النجف وقبر ابنه الحسين في كربلاء. وأرسل رسله الى البندقية وفيينا للإعلان عن انتصاره على الشاه طهماسب وإعادة فتح تبريز وبغداد.

عاد السلطان سليمان بجيوشه إلى مدينة (تبريز) في ٢٨ رمضان سنة ٩٤١ هـ (٢ نيسان - ابريل - سنة ١٥٣٥ م) ومرّ ببلاد الأكراد وإقليم المراغة في الشمال الغربي من ايران ومن قزوين، وذلك بعد أن ترك في بغداد حامية من ألفي جندي بقيادة أحد قادته. وعندما وصل الى تبريز أقام فيها لمدة اسبوعين تقريباً عمل خلالها على إعادة تنظيم أمور البلاد وتعيين الولاة والقادة، ثم رجع الى الآستانة.

وصل إلى (إسلام بول) في سنة ٩٥٤ هـ = ١٥٤٧ م أخ للشاه طهماسب (اسمه القاصب مرزا) وقابل السلطان سليمان دعمه ضد أخيه الذين اهتضم له حقوقاً، فانتهز السلطان هذه الفرصة للهجوم من جديد على بلاد فارس، ولم يلبث أن سار بجيوشه قاصداً مدينة تبريز في بداية سنة ١٥٤٨ م، وفتح في طريقه الجزء التابع لحكم طهماسب من بلاد الأكراد، كما فتح قلعة وان الشهيرة. وعاد الى عاصمته. أما القاصب مرزا فأخذ أسيراً في إحدى المعارك بعد أن سار مع جيش من الأكراد إلى قرب مدينة أصفهان.

يظهر أن الشاه طهماسب قد أفاد من تجاربه السابقة في علاقاته مع السلطان سليم ثم مع ابنه سليمان القانوني، ولهذا فعندما تمرد الأمير بايزيد ضد أبيه سليمان القانوني، ثم لجأ هو وأولاده - بعد هزيمته في القتال - إلى طهماسب، اتصل طهماسب سراً بالسلطان سليمان، وعمل على تسليمه بايزيد وأبنائه فتم إعدامهم (سنة ٩٦٩ هـ = ١٥٦١ م).

لم تتحسن العلاقات العثمانية الصفوية بموت السلطان سليمان القانوني وطهماسب. فقد انتقلت الى خلفاء الطرفين مشاعر الثأر، وروح المنافسة، فعندما توفي طهماسب (سنة

٩٨٤ هـ = ١٥٧٦ م) وقتل معه ابنه حيدر بعد ساعات قليلة، **تولى الحكم اسماعيل الثاني الذي حاول تغيير سياسة دولته، وأظهر كراهيته علناً للمذهب الشيعي، وأغفل شعار الشيعة على ما ضرب من نقود، وحظر التعرض بالسب أو الشتيمة للخلفاء الراشدين الثلاثة الأول، الأمر الذي أغضب الشيعة المتعصبين (القزل باش) فدسوا له من قتله بالسم - على الأغلب - ولما تمض سنة على تسلمه الحكم (سنة ٩٨٥ هـ = ١٥٧٧ م). وعمل الشيعة (القزل باش) على تنصيب أخيه (محمد خدابنده - أي محمد عبد الله) في منصب الشاه.**

أفادت الدولة العثمانية من انقسام الصفويين وانصرافهم لصراعاتهم الداخلية، فوجهت جيوشها بقيادة (لاله مصطفى باشا). الذي سار بجيوشه قاصداً إقليم الكرج - في جنوب بلاد القفقاس - أو القوقاز - من بلاد الجركس، وذلك سنة ٩٨٥ هـ = ١٥٧٧ م. باعتبار أن هذا الإقليم كان خاضعاً لحكم شاه الصفويين، واستطاع (لاله مصطفى باشا) فتح الإقليم والاستيلاء على عاصمة الكرج (تفليس) بعد أن انتصر على جيش الشاه والتغلب على قائده (دقماق) بالقرب من حصن جلدر (غلدر). وحاول جيش الشاه تنظيم قواته والقيام بهجوم جديد، ولكنه مني بهزيمة ثانية بعد ثلاثة أشهر من هزيمته السابقة (وكان ذلك في ٨ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٥٧٨ م). وعاد (لاله مصطفى باشا) بجيشه الى (طرابزون) لقضاء فصل الشتاء وإعادة تنظيم قواته. وعمل قبل عودته الى تقسيم بلاد الكرج الى أربعة ألوية (سناجق): شيروان وتفليس والقسمين الأصليين. وعين ولاة من الكرج أنفسهم لإدارة هذه الألوية (المحافظات). وحصن مدينة (قارص) فجعلها من أمنع معاقل الدولة على الحدود (وبقيت كذلك الى أن احتلتها القوات الروسية سنة ١٨٧٧ م).

عمل الأمير حمزة ميرزا على قيادة أربعة جيوش ضخمة وسار بها لمحاربة العثمانيين، وهاجم بلاد شيروان من جميع جهاتها، مما حمل القائد العثماني على الإنسحاب من مدينة شيروان إلى مدينة (دربند - باكو أو باب الأبواب). ثم تابع (حمزة ميرزا) تقدمه وحاصر مدينة (تفليس) غير أن حامية المدينة صمدت للحصار، ثم جاءتها قوات الدعم العثمانية، مما أرغم قوات الصفويين على رفع الحصار (سنة ٩٨٧ هـ =

١٥٧٩ م). وانطلق حاكم اقليم شيروان العثماني (عثمان باشا) فسار بجيشه لفتح بلاد (طاغستان) [١] حيث دارت معركة طاحنة انتهت بانتصار العثمانيين انتصاراً حاسماً (في ٩ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١٥٨٣ م) وفتح اقليم طاغستان. ثم سار الى بلاد القرم واخترق جبال القوقاز (قاف) وسهول روسيا الجنوبية، لعزل خانها عقاباً له على امتناعه عن إرسال القوات والدعم للدولة العثمانية في حرب قواتها للصفويين.

وعانى الجيش العثماني أقصى المشاق وأشد الصعوبات بسبب وعورة الطريق وهجمات عصابات الروس، حتى وصل إلى عاصمة الخان محمد كراي (كافا). فجمع الخان جيشاً ضخماً من فرسان القوقاز المشهورين بالإقدام والشجاعة، وحاصر عثمان باشا وجيوشه المستنزفة والمتعبة. وجابه الجيش العثماني مأزقاً صعباً تهدده بالدمار والفناء لولا أن تدخل شقيق الخان (إسلام كراي) الذي وعده العثمانيون بالإمارة، فقاد جيشه، ودس من قتل أخيه (محمد كراي) غيلة وغدراً، فتفرقت قواته وتمزقت (سنة ١٥٨٤ م). وخرج الجيش العثماني بقيادة قائده (عثمان باشا) وعاد إلى الآستانة. حيث استقبل استقبال المنتصرين الكبار، **وعين في منصب رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) والقائد الأعلى للجيش (سرعسكر). فقاد جيشاً ضخماً من مائتي وستين ألف مقاتل، قاصداً بلاد فارس، فاخترقها بدون مقاومة كبيرة، ثم اتجه الى مدينة (تبريز) فدخلها بعد أن انتصر على (الأمير حمزة ميرزا) وترك فيها حامية قوية.**

وهكذا، وبعد حروب استمرت ست سنوات متواليات، استنزفت فيها قوات الطرفين، جرت اتصالات للوصول الى الصلح. وتم التوقيع على معاهدة الصلح في ٢١ ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٥٨٥ م، وتضمنت هذه المعاهدة شروطاً منها تنازل الصفويين للدولة العثمانية عن إقليم الكرج وشيروان ولورستان (بين خوزستان وأصفهان في الجنوب الغربي من بلاد فارس) وجزء من أذربيجان ومدينة تبريز. وعرفت الحدود نوعاً من الهدوء والاستقرار.

---

(١) طاغستان: ومعناها البلاد الجبلية، إقليم بآسيا يقع شرقي بلاد كرجستان. ومحصور بين بحر الخزر وجبال القوقاز، كان تابعاً للفرس. ثم تنازلوا عنه لحكومة الروسيا القيصرية سنة ١٨١٦ م. أهم مدنه مدينة (باكو) الواقعة على بحر الخزر (قزوين) والتي تشتهر بحقول البترول.

٩ ـ ليبانتي والطريق للهزائم.

وصلت الدولة العثمانية إلى أوج قوتها واقتدارها، ولكن هذه القوة لم تتمكن من إخفاء بذور الضعف ونوبات المرض الدفين الكامنة في تفجر الصراعات على كافة تخوم الدولة المترامية الأطراف. وبلغت الدولة العثمانية ذروة تماسكها واتحادها، غير أن ذلك لم يتمكن من اخفاء عوامل التفتت والتمزق الكامنة وراء الصراعات الداخلية، وتعاظم دور (العسكرتاريا) إذا ما جاز التعبير، من خلال انحرافات الانكشارية، ومن خلال الحروب المذهبية. ولقد كان باستطاعة الخلفاء العثمانيين الأقـوياء معالجة نقاط الضعف وعوامل التفتت بتدخلهم الشخصي، وبما لهم من السلطة المادية والمعنوية. غير أن الخلف لم يتملكوا فضائل السلف، ووجدوا في الدعة ومتاع الدنيا ما يصرفهم عن اداء واجبهم وتحمل مسؤولياتهم. فتخلوا في معظم الحالات عن قيادة الحرب وإدارة الدولة، فكان لا بد للتصدع من الظهور، وكان لا بد للإنحراف من أن يتزايد، وكان لا بد للمرض من أن يتفاقم ويستشري. غير أن الدولة كانت قادرة على الاحتفاظ بمكانتها الرفيعة بفضل قوة الاستمرار أحياناً، وبحكم انصراف الأعداء الخارجيين والداخليين لما يشغلهم عن أمورهم في أحيان أخرى، وبحكم ظهور خلفاء أقوياء في بعض الأحيان أيضاً.

وهكذا، وبعد انقضاء أجل الجيل المؤسس للدولة (العشرة الأوائل) بدأ ألق الدولة الذي بهر الأبصار في الكسوف التدريجي. وقد بدأ ذلك في أيام (السلطان سليم الثانـي)[1]. الذي بدأ خلافته بعقد معاهدة مع النمسا (في ١٧ شباط ـ فبراير ـ

---

(١) السلطان الغازي سليم خان الثاني، ابن السلطان سليمان القانوني، وهو الحادي عشر بين الخلفاء العثمانيين (٩٣٠ ـ ٩٨٢ هـ = ١٥٣٣ ـ ١٥٧٤ م) أمه روسية واسمها روكسلان. كان لها تأثير كبير على السلطان سليمان، وعرفت بالتاريخ العثماني باسم (خرم أو خورم). ومارست دوراً في =

سنة ١٥٦٨ م. احتفظت بموجبها النمسا بما احتلته من بلاد المجر مقابل الجزية السنوية التي سبق الاتفاق على قيمتها أيام السلطان سليمان، مع اعترافها بتبعية أمراء ترانسلفانيا والفلاخ والبغدان إلى الدولة العثمانية. وتجددت أيضاً الهدنة مع ملك بولونيا باعتراف السلطان سليم الثاني بالتحالف الذي تم عقده بين ملك بولونيا وأمير البغدان. كما تجددت المعاهدات التي عقدت بين فرنسا والدولة العثمانية. وزاد عليها السلطان سليم الثاني امتيازات قنصلية أخرى ومنها إعفاء كل فرنسي من دفع الخراج الشخصي، وأن يكون للقناصل الفرنسيين حق البحث عمن يكون عند العثمانيين من أسرى الفرنسيين وإطلاق سراحهم، والبحث عمن أسرهم ومعاقبته. وأن يرد السلطان كافة الأشياء والمتاع مما يستولي عليه قراصنة البحر من المراكب الفرنسية ومعاقبة الذي استولى عليها. وأن تكون المراكب العثمانية ملزمة بمساعدة السفن الفرنسية على شواطىء الدولة العثمانية وحماية من بها من الرجال والمتاع، وأن يكون لفرنسا كل الامتيازات الممنوحة لجمهورية البندقية (فينيسيا) وقد عمل ملك فرنسا (شارل التاسع)[1] على دعم التحالف مع السلطان سليم الثاني فاتفق معه على ترشيح أخي ملك فرنسا (هنري دي فالوا) لعرش بولونيا، ليكون لهما عوناً ضد النمسا من جهة والروسيا من

= إدارة الدولة وتعيين رؤساء الوزراء والقادة. وأوغرت صدر زوجها (سليمان القانوني) لقتل ابنه مصطفى وابنه الرضيع، ثم قتل ابنه الثاني (بايزيد) وأولاده الخمسة، حتى لا يكون هناك من ينافس ابنها سليم في الإرث والسلطان. فكان سلوك السلطان سليمان تجاه أهله ـ أولاده ـ بتحريض روكسلانه، هو الصفحة السوداء في حياة هذا الفاتح العظيم.

(١) شارل التاسع: (CHARLES IX) ملك فرنسا (١٥٥٠ ـ ١٥٧٤ م) وهو ابن هنري الثاني وكاثرين دي مديتشي: (CATHERINE DE MEDICIS). تم تنصيبه ملكاً على فرنسا بعد موت أخيه فرانسوا الثاني سنة ١٥٦٠ م. ونظراً لصغر سنه فقد أصبحت أمه كاثرين دي مديتشي وصية على العرش. وكان عهده عهد حرب طاحنة بين الكاثوليك والبروتستانت، إلى أن تم الصلح بينهما سنة ١٥٧٣ م. واتفق الفريقان على أن يزوج الملك أخته لملك نافار البروتستانتي الذي حكم فرنسا بعدئذ باسم هنري الرابع. لكن كاثرين لم ترض عن هذا الزواج، فدبرت حملة من المذابح كان من أشهرها مذبحة سان بارثيلمي: (SAINT BARTHELEMY) والتي تم فيها على ما قيل ذبح ستين ألف بروتستانتي، كان من بينهم عدد كبير من النبلاء والأمراء لعل من أشهرهم الأميرال كوليني. وقد نفذت هذه المذبحة في ١٣ ربيع الثاني سنة ٩٨٠ هـ = ٢٣ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٥٧٢ م.

جهة أخرى، وقد تم ذلك فعلاً، وصارت بولونيا تحت حماية الدولة العثمانية حماية فعلية.

وصارت فرنسا هي المسيطرة على التجارة في البحر الأبيض المتوسط وجميع البلاد التابعة للدولة العثمانية، وأرسلت فرنسا تحت ظل هذه المعاهدات عدة إرساليات دينية كاثوليكية إلى كافة بلاد الدولة التي يوجد بها مسيحيون، لاسيما في بلاد الشام لتعليم أولادهم وتربيتهم على محبة فرنسا والولاء لها والارتباط بها.

حدثت خلال هذه الفترة ثورة في اليمن (سنة ٩٧٦ هـ = ١٥٦٩ م) فوجهت الدولة جيشاً ضخماً لقمع هذه الثورة التي تولى قيادتها الشريف مطهر بن شرف الدين يحي، وقد دعم الجيش العثماني بجيش آخر من مصر، فتم القضاء على الثورة، وتم فتح جميع القلاع، ودخل الجيش العثماني الى عاصمة الإقليم (صنعاء). مما أرغم الشريف مطهر على الاعتراف بسلطة الدولة العثمانية في السنة التالية (٩٧٧ هـ = ١٥٧٠ م).

كانت قبرص تابعة لدولة البندقية، وبقيت تمارس العدوان على الدولة العثمانية، فكان لزاماً اقتلاعها من قبضة الفرنج الصليبيين. فأرسلت إليها قوة من مائة ألف مقاتل بقيادة (لاله مصطفى باشا) وكانت السفن الحربية والسفن الناقلة للجند بقيادة (بيالى باشا). وقد تحركت هذه القوة الى قبرص في سنة ٩٧٨ هـ = ١٥٧٠ م.

وألقى الاسطول العثماني مراسيه أمام مدينة (ليماسول) وأمكن فتحها بعد حصار استمر شهر ونيف. وانتقلت القوات العثمانية لحصار (فاماغوستا) التي تأخر فتحها بسبب فصل الشتاء، فأعيد احكام الحصار مع قدوم فصل الربيع التالي، إلى أن تم فتحها في ٢ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٥٧١ م (١٠ ربيع الأول سنة ٩٧٩ هـ) وبذلك دانت الجزيرة لحكم المسلمين، العثمانيين. وتبع ذلك إغارة الاسطول العثماني على جزيرة (كريت) وجزيرة زنطه (زاكينثوس). كما تم فتح مدن دلسنيو وأنتيباري على البحر الأدرياتيكي ـ قرب الحدود الالبانية ـ.

لم تقف جمهورية البندقية مكتوفة الأيدي من فتح العثمانيين لجزيرة قبرص،

وخروجها من أيدي البنادقة، فوجهت اسطولها الى سواحل كريت لحمايتها والدفاع عنها. وفي الوقت ذاته بعثت بطلب النجدات من البابا بولس الخامس، ومن ملك اسبانيا فيليب الثاني، وتمت الاستجابة لطلب البندقية فتم حشد سبعين سفينة اسبانية و١٢ سفينة للبابا و٩ سفن قدمتها طائفة الاسبتارية (رهبنة القديس حنا الأورشليمي) بالإضافة ١٤٠ سفينة قدمتها البندقية. وأسندت قيادة هذه القوة الى ابن ملك النمسا شارلكان (واسمه دون جوان ـ وهو ابن غير شرعي لفيليب الثاني ١٥٤٥ ـ ١٥٧٨ م). فكان عدد سفن أسطول هذه الحملة الصليبية هو ٢٣١ سفينة. وأثناء ذلك كان الاسطول العثماني قد ضم ثلاثمئة سفينة حربية، وقد عاد من قبرص الى خليج ليبانتي ـ ناوباقتوس قديماً ـ عند فم خليج كورنثوس. فتحرك اسطول الصليبيين من قاعدة تجمعه في (مسينا) وانطلق لقتال الاسطول العثماني، الذي تحرك بقيادة قائده (قبودان باشا والي الجزائر). فدارت معركة طاحنة في المياه الإقليمية لقاعدة ليبانتي. استمرت ثلاث ساعات متوالية، وأسفرت عن انتصار الاسطول الصليبي، حيث دمرت وأغرقت ٩٤ سفينة عثمانية وأخذت ١٣٠ سفينة عثمانية، وغنمت قوات الحملة الصليبية ٣٠٠ مدفعاً، و٣٠ ألف أسير. (سنة ٩٧٩ هـ = ١٥٧١ م).

استقبل العالم المسيحي هذا النصر بكل مظاهر البهجة والفرح. واستقبل البابا قائد الحملة ـ دون جوان ـ في كنيسة القديس بطرس، وهنأه على ما حققه في خدمة الصليبية. ومقابل ذلك اهتاج العالم الإسلامي، واجتاحته حمى الغضب، لاسيما في الآستانة، حيث كاد المسلمون يفتكون برجال الإرسالية الكاثوليكية لولا تدخل الوزير محمد باشا صقللي، وعمله على احتجاز المرسلين ووضعهم تحت الحماية إلى أن تدخل سفير فرنسا، فأطلق سراحهم.

انصرف الوزير محمد باشا صقللي لإعادة بناء الاسطول العثماني بسرعة. وأفاد من فصل الشتاء لانجاز العمل الذي خصص له كل جهده وكل ما يحتاجه من الأموال والرجال والمواد، وبوغت العالم الصليبي، عندما ظهر الاسطول العثماني الجديد في صيف سنة ١٥٧٢ م، وقد ضم مائتي وخمسين سفينة.

حدث خلال ذلك اختلاف بين أمير البحر الإسباني وأمير البحر البندقي، وعرفت جمهورية البندقية أنها ليست في ظروف مناسبة لمجابهة احتمال الحرب ضد الاسطول العثماني، فسعت لابرام عقد صلح منفرد مع الدولة العثمانية، وجرت اتصالات متتالية، أمكن في نهايتها عقد صلح (في ٣ ذي القعدة سنة ٩٨٠ هـ = ٧ - آذار - مارس - سنة ١٥٧٣ م). تنازلت بموجبه البندقية عن حقها في جزيرة قبرص، بالإضافة إلى دفع غرامة حربية للدولة العثمانية قدرها ثلثمائة ألف دوكا.

اتجه الاسطول الاسباني بقيادة - دون جوان - بعد معركة ليبانتي، إلى تونس، ووصلها مع نهاية سنة ١٥٧٢ م، واحتلها بدون مقاومة بسبب جلاء الحامية العثمانية عنها، عند قدوم سفن الاسطول الصليبي، وإدراكها أنها لا تستطيع مواجهة قوات الحملة. ورجع سلطان تونس مولاي حسن الذي كان قد لجأ الى الاسبانيين عندما فتح العثمانيون بلاده. غير أنه لم يستقر أكثر من ثمانية أشهر، فقد استطاع العثمانيون إعادة فتح تونس (سنة ١٥٧٥ م). وحقق العثمانيون انتصاراً مماثلاً على جبهة البغدان بعد معركة كبيرة أهرقت فيها دماء غزيرة (في ٩ حزيران - يونيو - ١٥٧٤ م) وذلك بسبب تمرد الأمير (ايوونيا) على الدولة العثمانية، حيث تم صلبه بعد انتصار العثمانيين ليكون عبرة لغيره.

ترك ملك بولونيا (هنري دي فالوا) مقر حكومته، ورجع إلى فرنسا في بداية سنة ١٥٧٥ م (٩٨٢ هـ). وكان السلطان سليم الثاني قد توفي وخلفه (مراد لثالث)[1] الذي ما إن علم بإجراء هنري دي فالوا حتى أوصى نبلاء بولونيا وأمراءها بانتخاب أمير ترانسلفانيا (باتوري) ليصبح ملكاً عليهم، فانتخبوه. وبذلك صارت بولونيا ذاتها تحت حماية الدولة العثمانية.

---

(١) السلطان الغازي مراد خان الثالث: (٩٥٣ -١٠٠٣ هـ = ١٥٤٦ - ١٥٩٥ م) تولى الحكم بعد وفاة أبيه سليم الثاني سنة ٩٨٢ هـ = ١٥٧٤ م. واعتبر الثاني عشر في تسلسل الخلافة العثمانية. بدأ حكمه باصدار أمر يمنع الإنكشارية من شرب الخمر، بعد أن شاع شربه في عهد أبيه، فثار الإنكشارية لذلك، واضطروه لإباحته لهم بمقدار لا يترتب منه ذهول العقل، أو إثارة الفوضى واقلاق الراحة العامة. كان شاعراً مجيداً فطناً، إلا أنه كان كثير الميل لاقتناء الجواري الحسان.

بقي الموقف على حدود العثمانية - النمساوية لاهباً - رغم البرودة الشديدة المهيمنة عادة على هذه الحدود. وسالت الدماء بغزارة على التخوم، رغم عدم إعلان الحرب. وتم في النهاية التوقيع على معاهدة سلام بين السلطان مراد الثالث والامبراطور (رودولف)[1] لمدة ثماني سنوات، بدأ تنفيذها اعتباراً من مطلع سنة ١٥٧٧ م (٩٨٥ هـ). واحتفظت الدولة العثمانية - في بنود هذه المعاهدة - بحق الحماية لبولونيا والسيادة عليها. وأعقب ذلك قيام التتار بالإغارات على الحدود الشرقية لبولونيا، فاستنجد (باتوري) بالسلطان مراد الثالث الذي تعهد بتأمين الحماية، وتم التوقيع على شروط هذه الحماية بمعاهدة رسمية (في ٣٠ تموز - يوليو - سنة ١٥٧٧ م).

تطورت علاقات الدولة العثمانية مع دولة فرنسا وجمهورية البندقية، إذ عمل السلطان مراد الثالث على تجديد الامتيازات القنصلية والتجارية لهما، مع زيادة البنود لصالحها، والتي كان من أهمها أن يكون سفير فرنسا مقدماً على كافة سفراء الدول الأخرى في المقابلات والاحتفالات الرسمية، حيث كثر عدد السفراء الواردين من مختلف الدول للعمل لدى الدولة العثمانية من أجل عقد معاهدات تجارية تسمح لهذه الدول بحرية العمل في داخل الدولة العثمانية. وقد حصلت ملكة انكلترا - ايزابيلا - على امتياز خاص لتجار بلادها، وهو أن تحمل مراكبها وسفنها العلم الانكليزي، وكان ذلك محظوراً من قبل، حيث كانت سفن الدول جميعها - باستثناء سفن البندقية، تدخل موانىء الدول العثمانية تحت ظل العلم الفرنسي.

وقعت فتنة داخلية في مملكة مراكش - بالمغرب الأقصى - سنة ٩٨٦ هـ = ١٥٧٨ م. حيث ظهر زعيم أراد منافسة سلطان مراكش على ملكه، والاستعانة بملك البرتغال لعزل منافسه واحتلال مكانته، ووقعت بين قوات السلطان ومنافسه معارك

---

(١) رودولف: (RODOLPHE II DE HABSBOURG) ابن ماكسيميليان الثاني (MAXIMILIEN II) ولد في ڤيينا (١٥٥٢ - ١٦١٢ م) أصبح ملكاً للمجر سنة ١٥٧٦ م. ثم ملكاً للنمسا، ثم انتخب امبراطوراً لألمانيا (جرمانيا) حارب الأتراك العثمانيين الذين انتصروا عليه في أكثر من معركة. عرف بالضعف والانصراف عن السياسة وأمور الدولة لدراسة الفلك والكيمياء. عزله أخوه ماتياس سنة ١٦١١ م، والذي انتخب امبراطوراً بعده.

متتالية، مما حمل السلطان على طلب الدعم من الدولة العثمانية، فأصدر الوزير محمد باشا صقللي أمره إلى والي طرابلس لإرسال قوات للوقوف إلى جانب السلطان الشرعي، فأسرع والي طرابلس للنجدة. والتقت القوات التركية والبرتغالية بالقرب من القصر الكبير - جنوب مدينة طنجة - ودارت معركة قاسية وحاسمة انتصر فيها الأتراك على البرتغاليين وقتل زعيم الفتنة. وانسحبت القوات التركية بعد إعادة الأمن والاستقرار الى ربوع مراكش التي دخلت يومها تحت الحماية العثمانية، وصارت أقاليم المغرب العربي الإسلامي جميعها تابعة للعثمانيين. **وكانت الاتصالات المستمرة بين الدولة العثمانية وإسبانيا قد وصلت الى نهايتها** بعد خمس سنوات من المفاوضات، فتم في هذه السنة أيضاً (٩٨٦ هـ = ١٥٧٨ م) عقد معاهدة للصلح بين الدولتين. غير أن هذه المعاهدة لم تحد من نشاط القراصنة لدى الطرفين، حيث استمرت عمليات السطو على السفن التجارية والسبي والاسترقاق لمن بها من النساء والرجال. فكان من يريد الركوب في البحر للسفر، يستعد لذلك كما لو كان يستعد للاشتراك في حملة حربية، بسبب فقد الأمن، وكثرة أعمال القرصنة، مما لم يسبق له مثيل، إذ كان كل من الطرفين يعتبر أن غزو سفن الطرف الآخر هو من الواجبات الدينية، ومن فروض الجهاد.

عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع الصفويين - الفرس - سنة ٩٩٣ هـ = ١٥٨٥ م. غير أن الانكشارية لم يعجبهم هذا الصلح. فقد كانوا يفضلون استمرار الحروب، فأعلنوا تمردهم على جري عادتهم، وامتد عصيانهم لعدد من البلاد المقيمين فيها، وامتد الى الآستانة ذاتها. وطالبوا في - إسلام بول - تسليمهم وزير المالية (الدفتردار) ووالي الرومللي (محمد باشا) لقتلهما بحجة أنهما أرادا صرف نقود ناقصة العيار، وحاصروهما في منزلهما إلى أن قتلوهما شرّ قتلة.

ولم يتمكن السلطان من حماية وزيريه. كما عاد الإنكشارية فتمردوا سنة ١٠٠٢ هـ = ١٥٩٣ م في الأستانة وفي بودا - حيث قتلوا واليها - وفي القاهرة وفي تبريز. فرأى الصدر الأعظم - سنان باشا - أن يصرف الإنكشارية للحرب والاستجابة لرغباتهم،

وأوعز إلى والي بلاد البشناق (البوسنة) حسن باشا، بأن يعلن الحرب على بلاد المجر، وأن يشرع في ممارسة الأعمال القتالية.

فشلت القوات العثمانية في انتزاع النصر، وكان لغياب السلطان مراد الثالث عن قيادة قواته دور كبير في هذا الفشل، فقتل والي الهرسك (حسن باشا) وانهزم والي (بودا). وفتحت جيوش النمسا التي انحازت إلى المجر عدة قلاع عثمانية، مما حمل رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) سنان باشا على قيادة القوات العثمانية بنفسه (سنة ١٠٠٤ هـ = ١٥٩٥ م) لاسترداد ما أضاعته القوات العثمانية في بلاد المجر. وتحركت النمسا على الاتجاه المضاد، فعمل امبراطورها - رودولف الثاني - على التحالف مع امبراطور ألمانيا، ومع امراء الفلاخ والبغدان وترانسلفانيا الذين أعلنوا تمردهم على سيادة الدولة العثمانية، **فما كان من الصدر الأعظم (سنان باشا) إلا أن قاد جيوشه في السنة ذاتها (١٠٠٤ هـ = ١٥٩٥ م) ودخل عاصمة الفلاخ (بوخارست) عنوة.** ولكن أمير الفلاخ (ميخائيل) استطاع تحقيق نصر على سنان باشا، ثم دخل (ميخائيل) بقواته الظافرة مدينة (ترجوفتس)[1] وأباد حاميتها وقائد هذه الحامية. فأخذ العثمانيون في التقهقر إلى ما وراء نهر الدانوب، وتبعهم (ميخائيل) وانتصر عليهم مرة ثانية بالقرب من مدينة (جورجيوا)[2] وفتح المدينة وعدة مدائن أخرى أهمها مدينة (نيقوبوليس). وأفاد (ميخائيل) من موت السلطان مراد، وانتقال الملك إلى (محمد الثالث)[3] فضم إلى بلاده إقليم البغدان وقسماً كبيراً من ترانسلفانيا.

---

(١) ترجوفتس: (TIRGOVISTE) مدينة تقع شمال بوخارست وإلى الغرب قليلاً.

(٢) جورجيوا: (GIURGIU) مدينة تقع في الجنوب الشرقي من المجر، على حدود بلغاريا، وإلى الجنوب من بوخارست.

(٣) السلطان الغازي محمد خان الثالث (٩٧٤ - ١٠١٢ هـ = ١٥٦٦ - ١٦٠٣ م) تولى الحكم بعد موت أبيه مراد الثالث سنة ١٠٠٣ هـ = ١٥٩٥ م. واعتبر الثالث عشر بين الخلفاء العثمانيين. وأمه اسمها (بافو) سباها القراصنة، وبيعت في سرايا السلطان مراد الذي تزوجها وسماها (صفية) وأصلها ايطالي، وتدخلت كثيراً في السياسة الخارجية للدولة. وساعدت بلادها الأصلية، شأنها في ذلك شأن معظم الأجنبيات اللواتي تزوجن من السلاطين العثمانيين.

أدرك السلطان محمد أن غياب السلطان عن ممارسة إدارة الحرب وعدم قيادتها بنفسه هو العامل الأساسي في ضعف الروح القتالية للجيوش العثمانية. فسار إلى بلغراد، وفتح قلعة (أرلو) الحصينة والتي عجز السلطان سليمان فتحها (سنة ٩٦٤ هـ = ١٥٥٦ م).

ودمر تدميراً تاماً جيوش المجر والنمسا في معركة كبيرة حاسمة جرت في سنة ١٠٠٥ هـ (٢٦ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٥٩٦ م) في سهل (كرزت). غير أن هذه المعركة لم تقض نهائياً على مقاومة المجريين، فاستمرت الاشتباكات سجالاً بين القوتين المتصارعتين.

كانت إحد الفرق التي اشتركت في معركة (كرزت) الظافرة، من المرتزقة (التي كان يسميها الأتراك الباشبوزق). وهي فرقة غير نظامية، فلما احتدم القتال في المعركة، لم تصمد لصدمة المعركة، وهرب أفرادها، فتم نفيها وإبعادها إلى ولايات آسيا، وأطلق عليها اسم (فراري) تحقيراً لأفرادها وعبرة لسواهم. وهناك زعم أحد قادة هذه الفرقة واسمه (قره يازيجي) أن النبي ﷺ قد جاءه في المنام ووعده بالنصر على العثمانيين، وفتح ولايات آسيا، فتبعه معظم أفراد فرقة (الفراري) وأعلن التمرد والعصيان، وتغلب على والي القرمان، ودخل مدينة (عين تاب) عنوة. فأرسلت الدولة الجيوش لمحاصرته، فلما رأى بأنه مشرف على الهلاك لا محالة، عرض على قائد الجيوش - الوزير الذي يحاصره، الطاعة للسلطان بشرط تعيينه والياً على أماسيا، فقبل الوزير شرطه، ورفع عنه الحصار، **ولكن ما إن ابتعدت الجيوش العثمانية، حتى عاد ورفع راية التمرد والعصيان، وانضم إليه أخيه والي بغداد (دلي حسن). فوجه السلطان محمد جيشاً كبيراً بقيادة (صقللي حسن باشا) الذي انتصر على (قره يازيجي) وألجأه إلى الاحتماء بجبال جانق - أو جانك - على البحر الأسود، ولم يلبث أن مات متأثراً بجراحه.**

ولكن (دلي حسن) انتقم لمصرع أخيه وانتصر على (صقللي حسن باشا) وقتله على

أسوار مدينة (توقات)[1] ثـم هزم ولاة ديار بكر وحلب ودمشق، وحاصر مدينة (كوتـاهيه)[2] سنـة ١٠١٠ هـ = ١٦٠١ م. واستفحل أمره. وهنا لجأت الدولة للأساليب الديبلوماسية في محاولة لتطويق الفتنة، فأجزلت إليه العطايا، وأغدقت عليه الهبات، وعرضت عليه ولاية البوسنة (البشناق) ليكون شوكة في جنب الأعداء. فقبل بعد ممانعـة، ووضـع السلاح، وأعلـن ولاءه وإخلاصـه للـدولـة سنـة ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ م. وارتحل بجيشه ومن انضم إليه من الأكراد وتركمان القرمان، وشرع في محاربة الفرنج على جبهة أوروبا، ولكن جيوش النمسا والمجر تمكنت من استنزاف قوته بسرعة، ودمرت جيشه بعد مجموعة من الاشتباكات على الحدود.

اشتقت عن حركة التمرد سابقة الذكر حركة تمرد أخرى غير أنها كانت حركة أشد خطراً على الدولة من سابقتها لـوقـوعهـا في عـاصمـة الدولـة ـ الآستانة ـ. ذلك أن جند الفرسان الخفيفة ـ الصبايحية أو السباهية ـ طالبوا الدولة بالتعويض عليهم مقابل ما فقدوه من ريع العقارات والممتلكات الممنوحة لهم في آسيا الصغرى ـ والتي كانوا يسمونها تمارا ـ بسبب فتنة (قره يازيجي) و(دلي حسن). ولما لم يكن في وسع الدولة الاستجابة لطلبهم، أعلنوا تمردهم وعصيانهم، وطلبوا نهب ما في المساجد من التحف الذهبية والفضية، فاستعانت الدولـة عليهـم بجنـود الإنكشـاريـة وأخضعتهم بعد اشتباكات سفكت فيها الدماء.

مات السلطان محمد والدولة تعاني من الحروب على جبهاتها الخارجية، ومن الفتن على الجبهة الداخلية، وجاء (السلطان أحمد)[3] فـورث عن أبيه هذا الارث الثقيل الذي لم يكن باستطاعته حمل أعبائه، لو لم يقيض له وزير مخلص (هو الصدر الأعظم قويوجي) وبالرغم من أن الصدر الأعظم مراد باشا الملقب بقويوجي كان قد تجاوز

---

(١) توقات: (TOKAT) في شرق الأناضول، الى الشمال والى الجنوب الشرقي من أماسيا.

(٢) كوتاهية: (KUTAHYA) مدينة تقع في غرب الأناضول ـ إلى الجنوب من باليقيصر واسكي شهر.

(٣) السلطان الغازي أحمد خان الأول (٩٩٨ ـ ١٠٢٦ هـ = ١٥٩٠ ـ ١٦١٧ م) تولى الحكم سنة ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ م وعمره أربعة عشر عاماً، وكان ترتيبه الرابع عشر في تسلسل خلفاء العثمانيين.

الثمانين من عمره، إلا أنه قاد بنفسه الجيش للقضاء على أخطر الثورات، وهي تلك التي أعلنها الكردي **(جان بولاد)، والدرزي فخر الدين المعني ـ في لبنان ـ**. وتمكن من إلحاق الهزيمة بقوات فخر الدين وجان بولاد (جنبلاط) وطارد الزعيمين حتى اختفيا في بادية الشام. واستمال أحد زعماء الثورة في بلاد الأناضول (وهو قلندر أوغلي) وعينه والياً على أنقره، وقبض على آخر (يدعى أحمد بك) وقتله بعد أن مزق جيشه بالقرب من قونية. ولما رأى جان بولاد الكردي عدم نجاح حركة تمرده، توجه إلى الآستانة، وأظهر الطاعة للسلطان أحمد الذي عفا عنه وعينه والياً على (طمشوار). ثم انتصر على من بقي من العصاة المتمردين بقرب مدينة (وان ـ أو فان في الجنوب الشرقي من الأناضول) سنة ١٠١٧ هـ = ١٦٠٨ م. وتمكن في السنة التالية من قتل آخر زعمائهم (يوسف باشا) الذي كان قد استقل بأقاليم صاروخان ومنتشا وآيدين. وبذلك عاد الهدوء والاستقرار في أقاليم البلاد.

أفاد ملك الصفويين (الشاه عباس) [1] **مـن انشغال الدولة العثمانية بالقضاء على أعمال التمرد والعصيان، فقاد جيوشه وضم بلاد العراق لملكه، واحتلال مدن تبريز ووان وغيرها**. واضطرت الدولة العثمانية، وقد استنزفت الحروب قدرتها، للدخول في مفاوضات مع الشاه عباس، اعترفت فيها للشاه عباس بالسيادة على بلاد الفرس وأن تتخلى الدولة العثمانية للشاه عن جميع الأقاليم والبلاد والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون منذ أيام السلطان سليم الأول. وقد تم عقد هذا الصلح سنة ١٠٢١ هـ = ١٦١٢ م. والذي كان أول صلح تنازلت فيه الدولة عن سيادتها لبعض الأقاليم التي فتحتها.

حدثت خلال هذه الفترة تطورات مثيرة على جبهة أوروبا، فقد عملت

---

(١) الشاه عباس ـ ولقب بالشاه الكبير، خلف محمد ميرزا في الحكم سنة ٩٩٣ هـ = ١٥٨٥ م ونودي به ملكاً في خراسان، ثم سار إلى مدينة مشهد التي كانت قوات الأوزبك قد احتلتها، فاستخلصها منهم، وانتصر عليهم قرب مدينة هراة سنة ١٠٠٦ هـ = ١٥٩٧ م. ثم حارب الأتراك، وانتزع منهم ما كانوا قد احتلوه، واحتل مدن بغداد والموصل وديار بكر، ثم اتحد مع شركة الهند الشرقية (الإنكليزية) وطرد البرتغاليين من ثغر هرمز، وتوفي سنة ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٨ م.

النمسا على التحكم ببلاد المجر مستفيدة من انصراف القوات العثمانية للحرب على جبهتها الداخلية. وأساءت معاملة أشراف المجر وأمرائها بسبب ولائهم للدولة العثمانية التي لم تتدخل في شؤونهم الداخلية أو أمورهم الدينية.

فما كان من هؤلاء المجريين إلا أن انتخبوا الأمير (بوسكاي) عليهم سنة ١٠١٤ هـ = ١٦٠٥ م. ونصبوه ملكاً للمجر. وطلبوا من الدولة العثمانية مساعدتهم لخلع نير الاستبداد النمساوي. وبالرغم من وفرة المتاعب التي كانت تجابهها الدولة العثمانية، فقد استجابت لطلب المجريين. واعترفت بانتخاب (بوسكاي) ملكاً على المجر، ودعمته بجيش ضخم، تمكن خلال فترة قصيرة من فتح حصون (جران) و(يسجراد) [١] و(سيريم) [٢].

خشيت النمسا من امتداد الفتوح العثمانية، فعملت على فصل (بوسكاي) عن دولة النمسا في سنة ١٠١٥ هـ = ١٦٠٦ م. واعترفت بانتخابه ملكاً على المجر وأميراً على ترانسلفانيا، وتنازلت له عن كافة الأقاليم المجرية التي كانت تحت حكم الملك (باتوري) بشرط إعادة ما يكون منها الى ألمانيا - وخاصة إقليم ترانسلفانيا - إلى أمير ألمانيا بعد موت (بوسكاي).

وشرعت النمسا في الوقت ذاته لاجراء مفاوضات مع الدولة العثمانية، للإفادة من ضعف الدولة الداخلي، وعجزها عن خوض حرب في أوروبا ما لم تنضم إليها قوات المجر، **ففرضت في السنة ذاتها (١٠١٥ هـ = ١٦٠٦ م) معاهدة صلح على الدولة العثمانية عرفت باسم (معاهدة ستواتوروك أو سيتفاتورك)** تضمنت إعفاء النمسا من دفع الجزية السنوية التي كانت محددة بمبلغ ثلاثين ألف دوكا مقابل ضمها لحصون (جران) و(ارلو) و(كانيشا). **واجتمع نواب النمسا والمجر في**

---

(١) يسجراد أو فيسغراد: (VISEGRAD) مدينة في وسط بلاد المجر، تقع على نهر الدانوب.

(٢) سيريم أو فيسبريم: (VISZPREM) مدينة تقع في الجنوب الغربي من بلاد المجر. الى الشمال من بحيرة بالاتون: (BALATON).

مدينة (برسبورغ) [1] وصـــادقوا على هذه المعاهدة . وكذلك صادق عليها ولمدة عشرين سنة اعتباراً من تاريخ توقيعها ، مندوبين عن الامبراطورية الالمانية بعد اجتماعهم على هيئة مؤتمر في مدينة ڤيينا (سنة ١٠٢٤ هـ = ١٦١٥ م). أما بلاد المجر، فبقيت تابعة للدولة العثمانية، بعضها بصورة مباشرة وبعضها تبعية حماية.

توفي ملك المجر (بوسكاي) بعد التصديق النهائي على المعاهدة السابقة، وكان من المفروض وفقاً لنصوص هذه المعاهدة أن تستعيد ألمانيا (جرمانيا) إقليم ترانسلفانيا، غير أن أهالي هذا الاقليم أعلنوا أنهم يفضلون الحماية العثمانية - الإسلامية على حكم الجرمان. واستجابت الدولة العثمانية لرغبتهم، فعينت لهم (سيجسموندراغوتسكي) ثم (جبرييل باتوري) ثم (بتلن جابور) وهو من ألد أعداء الدولة النمساوية. وقد تعهد هذا الأمير بمنع أمـراء الفلاخ والبغـدان مـن اقتنـاء الأراضي والقصـور في إمـارتـه (ترانسلفانيا) حتى لا يلجؤوا إليها إذا ما تمردوا على الدولة العثمانية، كما تعهد بتسليمهم للدولة العثمانية لو فروا إليها . وبذلك صارت ترانسلفانيا حاجزاً بين إمارتي الفلاخ والبغدان (بولونيا) وبين بلاد المجر.

هكذا تحقق الهدوء والاستقرار على معظم جبهات الدولة الداخلية منها والخارجية، بجهود كبيرة وتضحيات ضخمة، ولكن جبهة البحر لم تعرف الهدوء ولا الاستقرار وخاصة في الفترة ما بين سنة ١٠٢٠ و ١٠٢٣ هـ (١٦١١ - ١٦١٤ م) حيث وقعت اشتباكات كثيرة ما بين السفن العثمانية وسفن اسبانيا وايطاليا علاوة على سفن طائفة الاسبتارية (طائفة فرسان حنا الأورشليمي). ولذلك أمر الصدر الأعظم - نصوح باشا - أمره بحشد سفن الدولة جميعها للعمل في مياه البحر الأبيض المتوسط لاحباط الأعمال العدوانية التي تقوم بها سفن الصليبيين، وحماية طريق الاتصال البحري ما بين الآستانة ودول المغرب العربي الإسلامي (مـراكش والجزائـر وتـونس وطـرابلس). وانتهزت بعض فئات القوقاز (القفقاس) فرصة غياب الاسطول العثماني عن البحر

---

(١) برسبورغ: (PRESBURG) بلدة مجرية تقع على نهر الدانوب الى الشرق من ڤيينا - على الحدود المجرية - النمساوية.

الأسود فأغارت على ثغر ـ ميناء ـ سينوب. ونهبت ما به. ولما علم السلطان بذلك غضب على الصدر الأعظم. وسعى به بمبغضيه والطامعين في الحصول على منصبه، فأوغروا صدر السلطان ضده حتى أصدر أمراً بقتله ـ فخنق في قصره (في ١٤ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٦١٤ م).

تزايدت علاقات الدولة العثمانية وثوقاً مع الدول الغربية (فرنسا وبولونيا) غير أن أهم تطور هو ذاك الذي حدث سنة ١٠٢١ هـ = ١٦١٢ م. حيث عملت ولايات (الفلمنك) [١] على الحصول على امتيازات تجارية تضارع ما منحته لكل من فرنسا وانكلترا، وهم (أي الفلمنك) الذين أدخلوا في البلاد الإسلامية استعمال التبغ، أي تدخين الدخان، فعارض المفتي في استعماله، وأصدر فتوى بمنعه، فهاج الجند، واشترك معهم بعض موظفي السرايا، حتى اضطروه إلى إباحته.

تعاقب على سدة السلطنة بعدئذ، وبشكل متشابك ومتسارع (مصطفى الأول) [٢] ثم (عثمان الثاني) [٢] فقد تولى مصطفى الأول منصب الخلافة بموجب وصية أخيه

---

(١) الفلمنك: (FLAMANDS) هم سكان الفلاندر (FLANDRE) أو البلاد المنخفضة والمعروفة الآن باسم هولاندا، وهي مكونة من عدة ولايات كانت في الأصل تابعة لمملكة النمسا، ثم استقلت سبعة من الولايات الشمالية في أواخر القرن السادس عشر، وشكلت بهيئة جمهورية سميت بالولايات المتحدة، واستمرت الباقية تابعة لملك اسبانيا، لانتقالها إليه بالإرث، وأعطيت إلى النمسا في سنة ١٧١٤ م وبقيت تحت حكمها حتى سنة ١٧٩٠ م تقريباً، حيث فتحتها فرنسا، وشكلت جميع البلاد المنخفضة بما فيها الولايات التي كانت متحدة والأراضي المكونة لمملكة بلجيكا الآن بهيئة حكومة ملكية مستقلة في سنة ١٨١٤ م. وانقسمت هذه المملكة في سنة ١٨٣٠ م الى قسمين: شمالي حمل اسم هولندا، وجنوبي حمل اسم بلجيكا.

(٢) مصطفى الأول: (١٠٠١ ـ ١٠٤٩ هـ = ١٥٩٢ ـ ١٦٣٩ م) تسلم الحكم بعد أخيه سنة ١٠٢٦ هـ = ١٦١٧ م. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتسلم فيها أخ بعد أخيه منصب السلطنة. ولكنه لم يستمر في الحكم أكثر من ثلاثة أشهر حيث عزل، ونصب مكانه عثمان بن السلطان أحمد. ثم أعيد الى السلطنة سنة ١٠٣١ هـ = ١٦٢٢ م، ولكنه لم يمارس عملياً الحكم.

(٣) السلطان عثمان خان الثاني: (١٠١٣ ـ ١٠٣١ هـ = ١٦٠٤ ـ ١٦٢٢ م) واعتبر السادس عشر بين خلفاء العثمانيين. وكان عهده عهد اضطراب وفوضى. وقتل ولما يتجاوز الثامنة عشرة من عمره. وكانت مدة حكمه أربعة سنين وأربعة أشهر.

السلطان أحمد، وذلك بسبب صغر عمر (عثمان ـ ابن السلطان أحمد) الذي لم يكن يتجاوز الثالثة عشرة سنة. وكان كل ما فعله هو أنه خلق أزمة مع فرنسا كادت تؤدي لاندلاع الحرب بين الدولة العثمانية وفرنسا، وذلك لأن كاتم أسرار السفارة الفرنسية ساعد أحد أشراف بولونيا ـ وكان مسجوناً بالآستانة ـ على الهرب منها، فأمر مصطفى بسجن كاتم السر والمترجم والسفير. وبعدئذ تدخل المفتي (وقيز لرأغاسي ـ أو آغا المحضيات) وساعده الإنكشارية وأرباب الغايات، فتم عزل مصطفى بعد ثلاثة أشهر فقط من بداية خلافته. وبويع (عثمان الثاني) بالخلافة، فأمر باطلاق سراح سفير فرنسا وكاتبه ومترجمه، وأرسل مندوباً لملك فرنسا لويس الثالث عشر (يسمى حسين جاووش) ومعه رسالة اعتذار عمّا لحق بسفيره من الإهانة، وطويت المشكلة.

تدخلت بولونيا خلال هذه الفترة في شؤون إمارة البغدان، لمساعدة (غراسياني) الذي عزل بناء على مساعي (بتلن جابور) أمير ترانسلفانيا وأضيفت إمارته إلى أمير الفلاخ (إسكندر شربان) وصارت الإمارتان تابعتين له.

فاتخذ السلطان عثمان هذا التدخل سبباً في إشهار الحرب على مملكة بولونيا، وتحقيق أمنيته وهي فتح هذه المملكة وجعلها فاصلاً بين أملاك الدولة ومملكة الروسيا التي ابتدأت في الظهور. وكان عليه قبل كل شيء اتخاذ بعض الاجراءات والتدابير. فأصدر مرسوماً بالحد من اختصاصات المفتي، وحرمه مما كان يتمتع به من السلطة في تعيين الموظفين وعزلهم، وجعل واجبه هو في حدود الافتاء، حتى يأمن شرّ دسائسه التي ربما تكون سبباً في عزله، كما كانت سبب عزل سلفه. وعمل السلطان عثمان بعدئذ على توجيه الجيوش والكتائب لشن الحرب على مملكة بولونيا، فالتقت بالجيش البولوني الذي كان يقوده أمير (ولنا ـ الى الشرق من أستونيا) والذي كان قد احتل موقعاً حصيناً بالقرب من بلدة يقال لها (شوك زم). فهاجمت القوات العثمانية الحصون البولونية مرات متتالية، ولكنها لم تتمكن من إخراج البولونيين من معاقلهم. وتعبت الإنكشارية فطالبت بإيقاف الحرب. وتعب البولونيون وضعفت إرادتهم لفقد قائدهم، فطلبوا الصلح، وجرت مفاوضات انتهت بإبرام معاهدة الصلح سنة ١٠٣٠ هـ =

١٦٢٠ م. وغضب السلطان عثمان لما أظهره الإنكشارية من التخاذل، وطلبهم للراحة، وارغام الدولة على الصلح مع بولونيا، وإحباط مخططه لضم بولونيا إلى الدولة، وصمم على اتخاذ التدابير لابطال هذه المعاهدة. وشرع في تنظيم وحشد جيوش جديدة في آسيا حتى يستغني بها عن الانكشارية، وعرف الانكشارية ما ينتظرهم لو أكمل السلطان عثمان استعداداته، فأعلنوا تمردهم **وقاموا بعزل السلطان (في ٩ رجب سنة ١٠٣١ هـ = ٢٠ أيار - مايو - سنة ١٦٢٢ م). ونصبوا مكانه السلطان مصطفى، وهاجموا السرايا، وانتزعوا السلطان عثمان من بين أهله، بصورة بشعة، واقتادوه الى قلعة السبع قلل (يدي قلة).**

حيث كان في انتظاره داود باشا وعمر باشا الكيخيا وقلندر أوغلي، والذين عملوا على قتل السلطان المعزول.

صارت الحكومة بعد ذلك ألعوبة في قبضة الانكشارية، ينصبون الوزراء ويعزلونهم، ويمنحون المناصب لمن يجزل إليهم العطايا والمنح. وصارت الوظائف تباع جهراً. وانحلت الدولة، وسارت عدوى الانحلال الى الأقاليم، فأعلن والي طرابلس الشام استقلاله، وطرد الإنكشارية من ولايته، واقتفى أثره والي أرضروم - بحجة الانتقام لشهيد الإنكشارية السلطان عثمان - وسار بقواته الى سيواس وأنقره ففتحها. وصادر إقطاعات الإنكشارية وممتلكاتهم، وقتل كل من وقع في قبضته من الإنكشارية، وتبعه والي سيواس وأمير (قره شهر). ثم سار إلى مدينة بورصة، فحاصرها ودخلها بعد ثلاثة أشهر - غير أن قلعتها بقيت صامدة ولم تستسلم.

استمرت الاضطرابات الداخلية في العاصمة (إسلام بول) مدة ثمانية عشر شهراً. وشعر الجميع بما تضمنته موجة ضياع الأمن والحرمان من الاستقرار، من خطر مدمر للدولة. وشبع الإنكشارية نهباً وسلباً وقتلاً في نفوس الناس وأموالهم. فعينوا (كما نكش علي باشا) لمنصب الصدر الأعظم، فأشار عليهم بعزل السلطان مصطفى ثانية، لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية، فعزلوه في (١٥ ذي القعدة سنة ١٠٣٢ هـ =

١١ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٦٢٣ م) وبقي معزولاً إلى أنه توفي. وتم تنصيب (مراد الـرابع)[1] سلطاناً جديداً للدولة.

استمر الإنكشارية في عبثهم غير المسؤول، فبدأ الطامعون في استثمار مناخ الضعف والفوضى للقفز إلى مراكز السلطة، وكان في جملتهم قائد شرطة بغداد (بكير آغا) الذي تمرد على والي بغداد واستبد في الحكم، فأرسلت إليه الدولة العثمانية جيشاً بقيادة الوزير (حافظ باشا) الذي حارب (بكير آغا) وحاصره في بغداد. فاتصل هذا بالشاه عباس واستنجد به، ووجد الشاه عباس أن الفرصة مناسبة له لتوسيع ممتلكاته، فسار بجيشه. وأثناء ذلك، دخل بكير آغا في مفاوضات مع حافظ باشا، لمنحه الولاية على بغداد مقابل اعترافه بسلطة الدولة العثمانية وسيادتها، وتم الصلح على هذا الأساس. وجاء جيش الصفويين - الشاه عباس - فحاصر بغداد ثلاثة أشهر الى أن فتحها. وأصبحت بغداد من جديد تحت حكم الدولة الصفوية.

أفاد خصوم الصدر الأعظم من سقوط بغداد في قبضة الصفويين، فأوغروا صدر السلطان مراد ضده، فأمر بقتله (سنة ١٠٣٣ هـ = ١٦٢٤ م) وعين (جركس محمد باشا) في منصب الصدر الأعظم المكان السابق (كمانكش علي باشا). ولكن جركس توفي بعد فترة قصيرة، وحلّ محله (حافظ أحمد باشا) الذي كان قد نجح في اخضاع حركات التمرد في أرضروم. فقاد حافظ باشا الجيش الى بغداد، وحاصرها، وضيق عليها، ولما طال الحصار أظهر الإنكشارية تمردهم. مما أرغم حافظ باشا على رفع الحصار والعودة بجيشه إلى الموصل، وسار منها إلى (ديار بكر). ولكن الإنكشارية عادوا إلى تمردهم وعصيانهم. فأصدر السلطان أمره بتعيين (خليل باشا) مكانه. وخاف (حافظ باشا) من أن يفتك به (خليل باشا) فرفع راية العصيان، وقتل من كان بحامية أرضروم من الإنكشارية، فسار إليه (خليل باشا) وحاصره، ثم رفع عنه الحصار بعد شهرين. فعمل السلطان على عزل خليل باشا، وعين مكانه (خسرو باشا)

---

(١) السلطان الغازي مراد خان الرابع (١٠١٨ - ١٠٤٩ هـ = ١٦٠٩ - ١٦٤٠) م تولى الحكم سنة (١٠٣٢ هـ = ١٦٢٣ م). واعتبر السابع عشر بين الخلفاء العثمانيين. تميز حكمه بالضعف خلال السنوات العشر الأولى، غير أنه لم يلبث أن سيطر على الدولة بقوة، وقمع حركات التمرد جميعها.

الذي تمكن من إخضاع (أباظة باشا) لطاعة الدولة، وعينه والياً على البوسنة (البشناق) سنة ١٠٣٧ هـ = ١٦٢٨ م. وكانت ثورات الإنكشارية أثناء ذلك متتالية في الآستانة، حتى إذا ما توفي الشاه عباس، وتولى مكانه شاه ميرزا سار خسرو باشا بجيشه ودخل همذان بصورة مباغتة (سنة ١٠٣٩ هـ = ١٦٣٠ م).

وانتصر على جيوش الصفويين في ثلاث معارك متتالية، لكنه عجز عن فتح بغداد (في سنة ١٠٤٠ هـ = ١٦٣٠ م). وأثناء ذلك عزل السلطان (خسرو باشا) وعين مكانه في منصب الصدر الأعظم (حافظ باشا). فعمل خسرو باشا على تحريض الإنكشارية الذين دخلوا سرايا السلطان وقتلوا حافظ باشا. فأصدر السلطان أمره بقتل رستم باشا. وعين (بيرم محمد باشا) صدراً أعظماً، وأنزل العقاب بقادة الإنكشارية، وأمر بقتل كل من اشترك في حركات التمرد، وبذلك هيمن الرعب على قادة الإنكشارية، فانصرفوا لأعمالهم، وعاد الأمن والاستقرار. ووقعت آخر ثورة للإنكشارية سنة ١٠٤١ هـ = ١٦٣٢ م. فأمر السلطان بقتل قائد الثورة (رجب باشا) وإلقاء جثته من نافذة السرايا. وساد الهدوء وأمن الناس.

أراد السلطان مراد الرابع، بعد أن أخضع حركات التمرد، وقضى على نفوذ الإنكشارية، استعادة السيطرة على بلاد الشام. ولقد سبقت الإشارة الى تمرد الكردي (جان بولاد) في الشام والدرزي فخر الدين المعني في جبل لبنان، واخضاعها (سنة ١٠١٢ هـ = ١٦٠٣ م) ولكن الأمير فخر الدين المعني عاد للتمرد.

وكان دوق توسكانيا - فرديناند الأول - قد وجد في فخر الدين رجلاً يستطيع الاعتماد عليه لفتح أسواق جديدة لتجارة فلورنسا في بلاد الشام، ولم يكن هذا هو ما يريده فخر الدين، بل إنه كان يريد الاستعانة بفرديناند هذا وبالبابا وباسبانيا أيضاً من أجل فتح فلسطين واخضاعها لحكمه. ثم إن فخر الدين استولى على بعلبك سنة ١٠١٩ هـ = ١٦١٠ م. وهدد دمشق نفسها بالاحتلال. ولكن اسطولاً عثمانياً ما عتم أن ظهر على الشاطىء (سنة ١٠٢٢ هـ = ١٦١٣ م). فاضطر الأمير فخر الدين الى

الفرار إلى (ليغورنو). وكان كوسموس الأول ابن فرديناند قد تولى مقاليد الحكم في توسكانيا، **فقام فخر الدين بتقديم عرض على كوسموس لتجريد حملة صليبية جديدة لاحتلال بلاد الشام. ولكن كوسموس كان أعقل من أن ينساق وراء مثل هذه المغامرة الحمقاء.**

وقضى فخر الدين خمس سنوات في فلورنسا، استطاعت خلالها أمه (نسب) أن تحتفظ بالحكم والسيطرة على بلاده باسم حفيده (أحمد علي) ضد باشا دمشق. حتى إذا رجع فخر الدين من إيطاليا، اضطر للاعتراف بابنه أميراً على البلاد، ولكنه قاد بالنيابة عنه الحرب ضد العثمانيين. وأفاد من انصراف الدولة العثمانية لحرب الصفويين، فبسط نفوذه حتى أنطاكية. حتى إذا ما كانت سنة ١٠٤٢ هـ = ١٦٣٣ م. وجه السلطان مراد الرابع أسطوله الذي احتل جميع مدن ساحل بلاد الشام. كما أصدر أمره إلى والي دمشق لمحاربة فخر الدين، وإخضاعه لطاعة الدولة، فقام والي دمشق بتنفيذ المهمة على أفضل وجه، وهزم فخر الدين وولديه وأرسلهم إلى (إسلام بول) حيث عاملهم السلطان بحفاوة وإكرام. ولكن ابن أخيه ملحم قام بمحاولة فاشلة من أجل الثأر لشرف أسرته، في سنة ١٠٤٤ هـ = ١٦٣٥ م. فهزم هزيمة شنيعة، وعندها أمر السلطان بقتل فخر الدين وابنه الأكبر، فتم قتلهما في ذي القعدة سنة ١٠٤٤ هـ (ابريل - نيسان - سنة ١٦٣٥ م).

صار باستطاعة السلطان مراد الرابع توجيه جهد الدولة ضد الصفويين في بلاد فارس، وتمكن من فتح مدينة (يبريفان - أو اريوان)[1] في ٢٥ صفر سنة ١٠٤٥ هـ = ١٠ آب - أغسطس - سنة ١٦٣٥ م. وأرسل رسولين إلى الآستانة لتزيين المدينة مدة سبعة أيام احتفالاً بهذا النصر. وسار في الوقت ذاته بجيشه إلى مدينة (تبريز) ففتحها عنوة بعد شهر تقريباً من فتح يبريفان، ثم عاد إلى الآستانة، وترك لجيوشه مهمة متابعة الفتح. ولكن هذه الجيوش أظهرت التخاذل بسبب غياب السلطان. فاستطاعت جيوش الفرس أن تعيد تنظيم قواتها، وتصدت بحزم للجيوش العثمانية التي

---

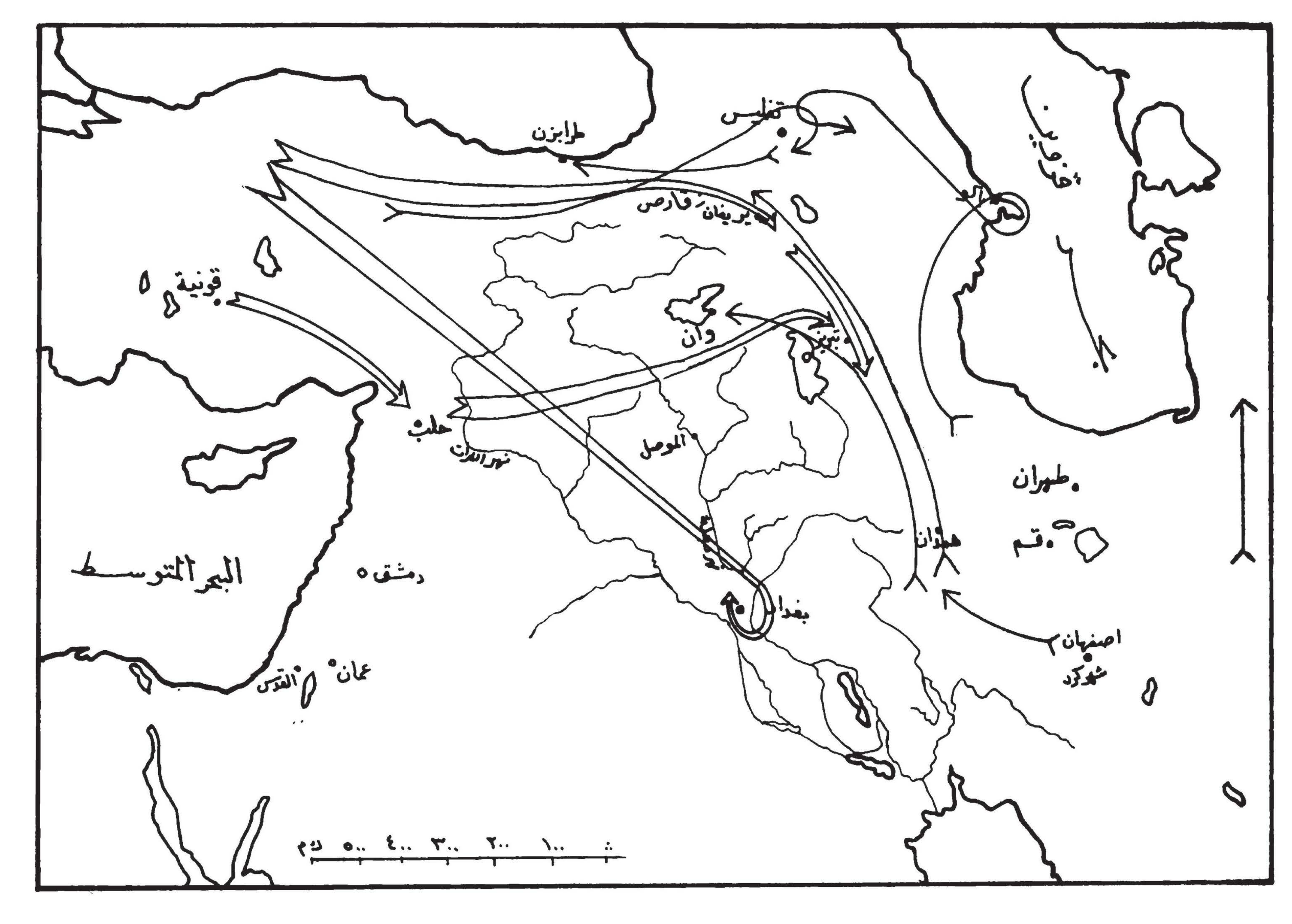
(١) يبريفان: (YEREVAN) مدينة تقع إلى الشمال الغربي من ايران - في الاتحاد السوفييتي حالياً.

أخذت في الفرار عند كل صدام، وتمكنت جيوش الفرس من استرداد مدينة يبريفان، ثم انتصرت انتصاراً حاسماً على الجيوش العثمانية في وادي مهربان (سنة ١٠٤٦ هـ = ١٦٣٦ م). وما إن علم السلطان مراد بما حلّ بساحة جيوشه من الهزائم، حتى تولى قيادة جيش ضخم، وسار به إلى بغداد، وفرض عليها الحصار، وأشرف بنفسه على تنظيم الاشتباكات، وسلط على أسوارها المدافع الضخمة التي نقلها إليها، فتم إحداث ثغرات كافية، وبعد أربعين يوماً من الحصار المحكم والقصف المستمر، أصدر السلطان أمره للهجوم العام (يوم ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨ هـ = ٢٥ كانون الأول ـ ديسمبر ـ سنة ١٦٣٨ م). واستمر القتال العنيف على الأسوار يومين بلياليها، وقتل أثناء ذلك الصدر الأعظم، وأمكن في النهاية دخول بغداد وإعادتها للحكم العثماني. وسارع الشاه لطلب الصلح، ودارت مفاوضات استمرت نحواً من عشرة أشهر أمكن في نهايتها عقد صلح احتفظت بموجبه الدولة العثمانية (بمدينة بغداد) بينما احتفظ الشاه بسيطرته على مدينة يبريفان. وبذلك استطاع السلطان مراد ايقاف عجلة التدهور، وإعادة توحيد الجبهة الداخلية. ولم يبق عليه إلا إخضاع القوزاق ـ القفقاس ـ الذين هاجموا مدينة (آزاق ـ أو آزوف)[1] فترك هذه المهمة لخلفه (ابراهيم الأول)[2] الذي أرسل جيشاً ضخماً لمحاربة القوزاق، فحاربهم وانتصر عليهم واستعاد مدينة آزاق، بعد أن تم إحراقها (سنة ١٠٥١ هـ = ١٦٤٢ م). وعاد الهدوء إلى القرم.

---

(١) آزاق ـ أو آزوف: (AZOV) مدينة تقع في الشمال الشرق من بحر آزوف ـ ويطلق اسم (بحر آزوف) على الخليج الكبير الواقع الى الشمال من البحر الأسود.

(٢) السلطان الغازي ابراهيم خان الأول (١٠٢٤ ـ ١٠٥٨ هـ = ١٦١٥ ـ ١٦٤٨ م) تولى الحكم بعد وفاة السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ هـ = ١٦٤٠ م. واعتبر الثامن عشر في تسلسل الخلفاء العثمانيين. لم يكن ميالاً للحرب، ولهذا بدأ قيادته (حكمه) بارسال رسالة إلى أمير ترانسلفانيا بالامتناع عن كل استفزاز ضد النمسا. غير أنه كان في الوقت ذاته حريصاً على كرامة الدولة وهيبتها، مما دفعه لقيادة بعض الحروب على جبهة الغرب.



الحرب في بلاد فارس

١٠ ـ الحروب المتجددة على جبهة الغرب.

بقي للبندقية سيطرتها القوية على بحر إيجه، بفضل امتلاكها لجزيرة أقريطش (كريت). وقد عرف الخلفاء العثمانيون من خلال تجاربهم المتتالية ضعف البنادقة، وتجنبهم لكل صدام يقع على حدود دالماسيا، أو على جبهة المغرب العربي ـ الإسلامي، وسعيهم باستمرار شراء الصلح بالأموال ـ ثم نقضهم لهذا الصلح في كل فرصة. وزاد الأمر سوءاً باستخدامهم لجزيرة كريت من أجل ممارسة أعمال القرصنة ضد الثغور الإسلامية، وضد القوافل التجارية الإسلامية، فكان لزاماً اقتلاع هذه القاعدة الصليبية من وسط قواعد المسلمين.

أصدر السلطان ابراهيم أمره بإعداد أسطول ضخم عهد بقيادته الى (يوسف باشا). وعندما انتهت الاستعدادات للحملة غادر الاسطول مياه الآستانة في احتفال مهيب، وتوجه الى كريت، ثم ما لبث أن توقف في مياه (كانيه)[1] أهم ثغور الجزيرة في ٢٩ ربيع الآخر سنة ١٠٥٥ هـ (٢٤ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٦٤٥ م) وافتتحها بدون حرب تقريباً بسبب ابتعاد اسطول البندقية، وعدم وصوله إليها في الوقت المناسب. فانتقم البنادقة بحرق ثغور بتراس وكورون ومودون من بلاد موره. وتابعت القوات العثمانية أعمالها القتالية وتقدمها حتى تم لها فتح معظم أرجاء الجزيرة. ولم يبق إلا عاصمة الجزيرة (كانديا)[2] التي تم إلقاء الحصار عليها في السنة التالية.

استطاع السلطان ابراهيم كبح جماح الانكشارية، غير أنه لم يتمكن من اجتثاث الفساد من رؤوسهم، فقرر الفتك بقادتهم، وحدد لذلك موعداً هو ليل زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم. وشعر قادة الإنكشارية بما يعتزم السلطان تنفيذه،

(١) كانيه أو خانيه: (CANEA) مدينة تقع في الشمال الغربي من جزيرة كريت.

(٢) كانديا ـ أو كنديا: (CANDIA) مدينة تقع في منتصف جزيرة كريت من الجهة الشمالية.

فنظموا مؤامرة لعزله، واجتمعوا بمسجد (الجامع الوسط - أورطه جامع) وانضم إليهم بعض العلماء والمفتي عبد الرحيم أفندي، وحرّضوا جند الإنكشارية والفرسان (الصبايحية) ونادى الجميع بعزله، وتولية ابنه (محمد الرابع) [١] رغم أنه لم يكن قد أكمل السابعة من عمره. وتم تنفيذ العزل يوم (١٨ رجب سنة ١٠٥٨ هـ = ٨ - آب - أغسطس - سنة ١٦٤٨ م). لكن فرسان الصبايحية عادوا بعد عشرة أيام فأظهروا عدم ارتياحهم من اسناد منصب السلطنة لصبي لم يبلغ الحلم. وطالبوا بإعادة السلطان ابراهيم. وخشي قادة المؤامرة من إعادة السلطان رغم أنوفهم، نظراً لما قد يقوم به السلطان من انتقام، فساروا الى السرايا ومعهم الجلاد (قره علي) وقتلوه خنقاً.

أصبح باستطاعة الإنكشارية العودة لممارسة نشاطاتهم بحرية تامة، فانطلقوا لعبثهم بدون رحمة ولا شفقة، وسعوا في الأرض فساداً. وانتقلت عدوى - التمرد وعدم الانضباط - الى البحرية، مما أدى إلى ضعف الروح القتالية، ومن ثم إلى هزيمة الأسطول العثماني أمام اسطول البنادقة، بالقرب من مدينة (فوقيه) [٢] سنة ١٠٥٩ هـ = ١٦٤٩ م. وزاد الأمر خطورة بتفجر ثورة بآسيا الصغرى في هذه السنة أيضاً بقيادة رجل يدعى (قاطرجي أوغلي) وانضم إليه آخر يدعى (كورجي يني) وهزما أحمد باشا والي الأناضول، وسارا إلى (إسلام بول). غير أن الخلاف قد نشب بينهما قبل الوصول الى العاصمة، فافترقا، وحاربهما الجند، وهزم كورجي يني وقتل وأرسل رأسه إلى السلطان. وتمكن (قاطرجي أوغلي) من الحصول على العفو عنه وتعيينه والياً للقرمان، وبذلك انتهت هذه الثورة. ولكن نار الثورة لم تخمد، فكان الإنكشارية هم الذين يضرمون لهيبها أحياناً، وكان الفرسان الصبايحية - السباهية - هم الذين يعملون

---

(١) السلطان الغازي محمد خان الرابع (١٠٥١ - ١١٠٤ هـ = ١٦٤٢ - ١٦٩٢ م) تولى السلطنة سنة ١٠٥٨ هـ = ١٦٤٨ م. وتم عزله سنة ١٠٩٩ هـ = ١٦٨٧ م. واعتبر التاسع عشر بين الخلفاء العثمانيين. وكانت مدة حكمه أربعين سنة وخمسة أشهر.

(٢) فوقيه - أو فوسيه: (FUÇA) مدينة قديمة على ساحل البحر المتوسط، تبعد عن مدينة أزمير - وإلى الشمال منها - مسافة ٤٢ كيلومتراً. وهناك مدينة فوقيه الجديدة: (YENI FUÇA) وتقع إلى الشمال من فوقيه الأولى.

على ايقادها. وكان الأهالي هم الذين يشعلونها في أحيان أخرى رداً على ما كان يصيبهم من الظلم والجور، **فيا توالى عزل رؤساء الوزراء وتنصيبهم بسرعة مثيرة، تبعاً لتباين الأهداف واختلاف الغايات، واضطرب النظام فصار عدم النظام هو نظام الدولة.**

وأفاد أسطول جمهورية البندقية من غياب المسؤولية، فهاجم الاسطول العثماني عند مدخل الدردنيل وانتصر عليه، واحتل مدن (تينيـــدوس)[1] و(جزيرة لمنـوس)[2] وغيرهما. ومنع بذلك المراكب الحاملة للقمح والمواد التموينية من الوصول الى العاصمة (إسلام بول) فارتفعت أسعار جميع الأصناف وخاصة الأطعمة.

واستمر الموقف على هذا التدهور الذي لم تعرفه الدولة من قبل، إلى أن تولى منصب الصدر الأعظم (محمد باشا الشهير بكوبريلي) سنة ١٠٦٧هـ = ١٦٥٦م.

وبدأ عمله بفرض النظام والانضباط على الإنكشارية، وإخضاعهم، فقتل منهم أعداداً كبيرة عندما ثاروا كعادتهم. وأمر بعد تعيينه بقليل بشنق بطريرك الروم، بسبب التأكد من تدخله في إثارة الفتن الداخلية. كما استصدر من السلطان أمراً بمنع قتل سلفه، وكان قد أمر بقتله، وعينه والياً على (كـانيشـا)[3]. ثم وجه سفن الاسطول في السنة التالية لمحاربة سفن البنادقـة التي كـانـت تحاصر مـدخـل مضيـق الدردنيل، وأمكن بعد صراع مرير الانتصار على البنادقة واسترداد ما كانوا قد احتلوه من المدن والجزائر.

كان ملك السويد (شارل غوستـــاف)[4] يخوض في هذه الفترة حرباً ضارية ضد

---

(١) تينيدوس: (TENEDOS) جزيرة صغيرة تقع عند مدخل الدردنيل.

(٢) لمنوس: (LEMNOS) جزيرة صغيرة تقع الى الغرب من تينيدوس.

(٣) كانيشا: (KANIZA) مدينة في شمال يوغوسلافيا.

(٤) شارل غوستاف: (CHARLESX = CHARLES-GUSTAVE) ملك السويد (١٦٢٢ - ١٦٦٠م) تولى ملك السويد سنة ١٦٥٤م، فانصرف لتوسيع حدود مملكته، وخاض من أجل ذلك حروباً متتالية، فحارب بولونيا وانتصر على جيوشها بالقرب من وارسو سنة ١٦٥٥م. وهاجم الدانمرك، =

مملكة بولونيا، وقد حاول الاستعانة بالدولة العثمانية، فأرسل سفراءه الى (إسلام بول) لعقد معاهدة هجومية ـ دفاعية ضد بولونيا. ولكن الدولة العثمانية رفضت هذا التحالف. فعمل ملك السويد (شارل) على الالتفاف من حول الدولة العثمانية وتجاوزها بأن تحالف مع أمير ترانسلفانيا (راكوكسي) ومع أمير الفلاخ والبغدان (قسطنطين الأول). وأقام اتحاداً لشن الحرب ضد بولونيا. وعندما علم الصدر الأعظم (محمد باشا كوبريلي) بذلك أصدر أمره بعزل أميري ترانسلفانيا والفلاخ، وعين (ميهن) مكان أمير الفلاخ. وتحرك (راكوكسي) بسرعة، فأعلن تمرده، وقاد قواته، وانتصر على القوات العثمانية قرب (ليبـا)[1] سنة ١٠٦٩ هـ = ١٦٥٨ م. فما كان من الصدر الأعظم (كوبريلي) إلا أن قاد الجيش العثماني، وانضم إليه أمير الفلاخ (ميهن) بجنده ـ والذي كان يرغب ضمناً بمساعدة (راكوكسي) ـ غير أنه لم يكن قادراً على الامتناع عن مرافقة كوبريلي، خوفاً من ظهور خيانته، في وقت غير مناسب. ونجح كوبريلي من قهر (راكوكسي) وتمزيق قواته، وطرده من البلاد. وعين (أشاتيوس بركسي) أميراً على ترانسلفانيا مقابل دفع خراج سنوي مقداره أربعون ألف دوكا. وعاد الصدر الأعظم إلى الآستانة، بعد تحقيق الأمن والاستقرار. ولكن ما إن وصل (كوبريلي) الى عاصمة بلاده حتى علم بإعلان أمير الفلاخ (ميهن) عن تمرده وعصيانه، وقيامه باضطهاد المسلمين، وقتل منهم أعداداً كبيرة، وصادر أموالهم وممتلكاتهم، واستدعى ـ راكوكسي ـ المعزول ووعده بإرجاعه إلى ولايته بعد النصر على العثمانيين. وأرسل إلى والي البغدان (غيكا) واقترح عليه الانضمام له ودعمه، فرفض اقتراحه. ورد (ميهن) على ذلك فسار بجيشه لقتال (غيكا) وانتصر عليه بالقرب من عاصمة إمارته (ياسـي)[2]. وأسرع الصدر الأعظم (كوبريلي) لمعالجة الموقف من قبل

= ودخل عاصمتها بانقضاض مباغت سنة ١٦٥٧ م. ثم عاد فهاجم (كوبنهاغن) من جديد، ومات أثناء حصاره لها.

(١) ليبا: (LEBA) مدينة في بلاد المجر ـ هنغاريا ـ الى الشمال الشرقي من العاصمة بودابست.

(٢) ياسي: (JASI) ويسميها الأتراك أيضاً مدينة (باش) وهي مدينة رومانية قديمة، وعاصمة اقليم البغدان. تقع في الشمال الشرقي من رومانيا، قرب الحدود الرومانية ـ السوفييتية.

أن يتزايد تدهوراً، فقاد جيشه، وانتصر على (ميهن) وحليفه (راكوكسي) انتصاراً حاسماً. وعزل (ميهن) عقاباً له على خيانته، وعين أمير البغدان (غيكا) على الفلاخ أيضاً سنة ١٠٧٠ هـ = ١٦٥٩ م. وقام والي (بودا) في السنة التالية باحتلال (غروس واردين) [١] التي كانت تابعة للنمسا. فاعتبرت النمسا أن هذا العمل هو بمثابة إعلان للحرب، وبدأت الأعمال القتالية والاشتباكات في السير على خط بياني متصاعد.

كانت العلاقات مع فرنسا ثابتة ووطيدة، إلا أن هذه العلاقات بدأت بالتدهور تدريجياً، وأخذ نفوذ فرنسا لدى الدولة العثمانية بالضعف شيئاً فشيئاً، وصرفت فرنسا جهدها خلال فترة رئيس وزرائها (الكاردينال ريشيليو) [١٤٤] لبناء (عظمة فرنسا) و (إضعاف النمسا) حتى لا تقوى على مناهضة نفوذ فرنسا في الغرب. وافادت جمهورية البندقية من ذلك، فحصلت من الدولة العثمانية على حق مشاركة فرنسا في حماية الكنائس المسيحية في غلطة - أيام السلطان مراد الرابع الذي طرد طغمة الآباء اليسوعيين من الآستانة سنة ١٠٣٨ هـ - ١٦٢٨ م. وذلك بالاستناد إلى إلحاح سفراء انكلترا وهولاندا سعياً وراء إضعاف نفوذ الكاثوليك ودعم نفوذ البروتستانت، حيث كانت هولاندا وانكلترا هما الدولتين البروتستانتيتين في أوروبا. وكذلك اختص اليونانيون بخدمة بيت المقدس، بينما كان ذلك منوطاً بالرهبان الكاثوليك وفقاً للمعاهدات التي أبرمها السلطان سليمان القانوني، والتي أقرها خلفاؤه من بعده. **وزاد الموقف تدهوراً بنتيجة تدخل فرنسا سراً ودعمها للبنادقة خلال فتح كريت، وإمدادها لهم بالسلاح.**

(١) غروس واردين - وتسمى باللغة الإلمانية PETERWARDEIN - وتقع الى الشمال الغربي من يوغوسلافيا - وهي على خط مستقيم مع بلغراد.

(٢) الكاردينال ريشيليو: (CARDINAL ARMAND JEAN DU PLESSIS RICHELIEU) عمل وزيراً للملك الفرنسي لويس الثالث عشر. وقد اعتبر من أعظم رجالات الدولة الذين عرفتهم فرنسا. وهو من مواليد باريس (١٥٨٥ - ١٦٤٢ م). أصبح كاردينالاً سنة ١٦٢٢ م، ورئيساً للوزراء سنة ١٦٢٤ م. فانصرف لقمع البروتستانت، وحاصرهم في لاروشيلي LA ROCHELLE ومونتوبان (MONTAUBAN) سنة ١٦٢٩. وحد من سلطة النبلاء. وقام بإصلاحات مالية وتشريعية.

وحصلت الدولة في تلك الفترة على مجموعة من الرسائل المكتوبة بالرموز - الشيفرة - كانت الحكومة الفرنسية قد أرسلتها إلى سفيرها (المسيو دي لاهي) مع موظف فرنسي يعمل في بحرية البندقية فقام هذا الموظف بتسليمها لرئيس الوزراء العثماني (كوبريلي) سنة ١٠٧٠ هـ = ١٦٥٩ م طمعاً في الحصول على المال. ولما لم يتمكن - كوبريلي - من فك رموز الرسالة، أرسل من مقره في أدرنه باستدعاء السفير الفرنسي من الآستانة. غير أن السفير الفرنسي تظاهر بالمرض، وأرسل إلى أدرنه ابنه مكانه. فلما مثل هذا بين يدي الصدر الأعظم وسأله عن معنى هذه الرموز، أظهر قدراً من القحة والسوء مما لم يحتمله (كوبريلي) فأمر بسجنه على الفور. ولما علم السفير الفرنسي بسجن ابنه، زال عنه المرض الدبلوماسي، وسارع الى أدرنه خوفاً على حياة ولده، وقابل (كوبريلي). إلا أن السفير امتنع عن شرح ما تتضمنه الرسائل المرموزه، وامتنع الصدر الأعظم بالمقابل عن إطلاق سراح ابن السفير، وتوجه إلى (ترانسلفانيا)، ولم يطلق سراحه إلا بعد عودته في سنة ١٠٧١ هـ = ١٦٦٠ م. ولما علم رئيس وزراء فرنسا (الكاردينال مازاران)[1] بالحادث، أرسل إلى الآستانة سفيراً فوق العادة (المسيودي بلوندل) ومعه رسالة من ملك فرنسا، طلب فيها تقديم اعتذار عن الحادث، وعزل الصدر الأعظم (محمد باشا كوبريلي). ولكنه لم يسمح لهذا السفير بمقابلة السلطان محمد الرابع، بل قابله الصدر الأعظم بكل ترفع وكبرياء، وردت فرنسا على ذلك بأن انتقلت لمساعدة (كريت) بصورة علنية، وأرسلت إليها أربعة آلاف جندي، وسمحت للبندقية بجمع المقاتلين المتطوعين - المرتزقة - من فرنسا، كما أمدت النمسا بالمال، على أمل الانتقام من الدولة العثمانية، ولاستنزاف جهدها على كافة الجبهات، مما يتيح لفرنسا فرصة فرض إرادتها على السلطان العثماني. لكن هذه

---

(١) الكاردينال مازاران: (CARDINAL, JULES MAZARINI, DITMAZARIN) كاردينال من أصل ايطالي، (١٦٠٢ - ١٦٦١ م) عينه ريشيليو خلفاً له، لما عرفه فيه من الكفاءة فأصبح رئيساً لوزراء الملك لويس الثالث عشر، حتى سنة ١٦٣٩، ثم في عهد الملك لويس الرابع عشر. وقد نجح بإنهاء حرب الثلاثين عاماً - بصلح ويستفاليا: (WESTPHALIE) سنة ١٦٤٨ م. وقد اعتبر بدوره من أكبر الرجال السياسيين والديبلوماسيين الذين عرفتهم فرنسا.

الجهود كافة اصطدمت بعناد الصدر الأعظم (كوبريلي) وتصميمه على محاربة أعداء الدولة في الخارج والداخل، وعندما شعر هذا الوزير أنه يقترب من منيته، واشتدت وطأة المرض عليه، وطلب إليه السلطان تعيين من يخلفه، اقترح عليه تعيين ابنه **(كوبريلي زاده أحمد باشا)**. وأغمض كوبريلي عينيه عن الدنيا (سنة ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ م) وهو مطمئن إلى أنه أسلم الحكم ليد أمينة وقوية وقادرة على متابعة الجهد الذي أفنى فيه عمره، لإعزاز الإسلام والمسلمين. وسار (كوبريلي زاده أحمد باشا) على نهج أبيه، ورفض العرض الذي تقدمت به النمسا وجمهورية البندقية لإجراء صلح لا يناسب مصالح الدولة. وقاد الجيش بنفسه لمحاربة النمسا، وعبر نهر الدانوب (الطونه) وفرض الحصار على **(قلعة نوهزل)** [1] التي كان يعتبرها الغرب بأنها أمنع الحصون في أوروبا، وأنه من المحال على أية قوة احتلالها أو الوصول إليها. وقد بدأ هذا الحصار في يوم ١٣ محرم سنة ١٠٧٤ هـ = ١٧ - آب - أغسطس - سنة ١٦٦٣ م. واستمر الحصار المحكم لمدة ستة أسابيع مما أرغم قائد الحامية المدافعة عنها لطلب الاستسلام، ووافق الصدر الأعظم (كوبريلي زاده أحمد باشا) للحامية بالجلاء بشرط أن يتركوا فيها كل الأسلحة والذخائر مقابل التعهد بعدم التعرض لأفراد الحامية بأي ضرر أو أذى، وانسحب قائد حامية (نوهزل) بجنده يوم ٢٥ صفر (٢٨ أيلول - سبتمبر) من السنة ذاتها.

اهتزت أوروبا بعنف لنبأ فتح المسلمين لقلعة نوهزل، ونزل الهلع بقلوب ملوك الغرب عامة. وكان أكثرهم تأثراً امبراطور النمسا (ليوبولد الأول) [1] الذي شعر

---

(١) قلعة نوهزل: (NEVHAUSEL) قلعة ومدينة تقع الى الشرق من ڤيينا - في تشيكوسلوفاكيا.

(٢) ليوبولد الأول: (LEOPOLD-I) ولد في ڤيينا (١٦٤٠ - ١٧٠٥ م) أصبح امبراطوراً للامبراطورية الجرمانية سنة ١٦٥٨ م. خلفاً لأبيه فرديناند الثالث (FERDINAND-III). وقد قبل ليوبولد الأول شروط صلح نيميج (NIMEGUE) سنة ١٦٧٩ م. ثم انضم الى حلف اوغسبرغ (AUGSBOURG) سنة ١٦٨٦ م. ووقع على معاهدة ريزويغ: (RYSWICK) سنة ١٦٩٧ م وزج بألمانيا في حرب الوراثة الاسبانية التي استمرت من سنة ١٧٠٠ إلى سنة ١٧١٣ م. ومات الملك ليوبولد قبل أن تصل هذه الحرب إلى نهايتها. وعلى الرغم من وفرة الحروب التي جرت في عهد هذا الملك، إلا أن حروبه ضد العثمانيين المسلمين هي التي أكسبته شهرته - لاسيا مقاومته الضارية في موقعة (سانت جوتار).

بقرب ضياع مملكته، سيما وأن جنود المسلمين العثمانيين قد انطلقوا بجحافلهم الظافرة لاجتياح اقليمي (مـورافيـا)[1] و(سيليزيـا)[2]. وباتت عاصمة النمسا ذاتها (ڤيينا) وهي معرضة للتهديد المباشر، مما حمل الملك ليوبولد على طلب وساطة البابا (اسكندر السابع) من أجل الحصول على دعم ملك فرنسا (لويس الرابع عشـر)[3]. وكان ملك فرنسا قد عرض عليه من قبل دعمه ومساعدته بأربعين ألف مقاتل من الألمان المتحالفين معه، فرفض ذلك حتى لا يظهر الضعف، وحتى لا يقع تحت سيطرة الملك الفرنسي، غير أن التطورات اللاحقة أرغمته على التماس الدعم بوساطة البابا الذي نجح في حمل لويس الرابع عشر على إرسال ستة آلاف جندي فرنسي وأربعة وعشرين ألفاً من محالفيه الألمان بقيادة (الكونت دي كوليني). وانضم هذا الجيش إلى الجيش النمساوي الذي كان يعمل بقيادة (الكونت دي ستروتزي). وبدأت الاشتباكات بين الجيشين المتحاربين، فقتل القائد النمسـاوي، فتسلم القيـادة خلفـه القـائـد (مـونـت كوكوللي). وتلقى الجيش الفرنسي خلال ذلك دعماً إضافياً ضم عدداً كبيراً من

---

(١) مورافيا: (MORAVIE) اقليم من أقاليم تشيكوسلوفاكيا إلى الشرق من بوهيميا. وقد سمي بهذا الاسم نسبة لمجموعة الأنهار المعروفة باسم موراڤا، وعاصمته برنو: (BRNO). وكانت مورافيا قاعدة امبراطورية عظيمة قضي عليها سنة ٩٠٨ م، وانضمت نهائياً الى مملكة بوهيميا سنة ١٢٠٩ م.

(٢) سيليزيا: (SILESIE) إقليم في أوروبا الوسطى يخترقه نهر الأودر ODER. وقد استولت بولونيا على الجزء الجنوبي من الاقليم سنة ١٩٢١ م، للإفادة من مناجم الفحم. ثم استولى الألمان عليه في سنة ١٩٤٥ م. وأعيدت إلى بولونيا ما عدا الجزء التشيكي، فطردت بولونيا الألمان الذين استوطنوها.

(٣) لويس الرابع عشر: (LOUIS XIV LE GRAND) ابن لويس الثالث عشر وآن ديتريش (ANNE D'AUTRICHE) ولد سنة ١٦٣٨ م وأصبح ملكاً سنة ١٦٤٣ وتوفي سنة ١٧١٥ م. وحكم في البداية تحت وصاية أمه ورئيس وزرائه مازاران. حتى سنة ١٦٦١ م حيث شرع في ممارسة الحكم بنفسه وعبر عن ذلك بقوله: (الدولة هي أنا: L'ETAT C,EST MOI). وكانت أيامه أيام حروب مع اسبانيا والنمسا وغيرهما، وتألبت عليه أغلب الدول أكثر من مرة، وقد ضم تاريخه مجموعة من الوقائع الشهيرة التي برزت من خلالها عدد كبير من مشاهير قادة القرن. وتقدمت في عصره جميع العلوم، وتطورت التجارة والزراعة. غير أن الحروب المتتالية استنزفت قدرة الدولة. وتم في عهده أيضاً اضطهاد البروتستانت، مما أرغم عدداً كبيراً من البروتستانت على الهجرة والنزوح.

الشبان أبناء النبلاء بقيادة (الدوق دي لافوياد). واحتفظ العثمانيون برايات النصر في معاركهم الأولى، واستأثروا بالظفر، ونجح الصدر الأعظم (كوبريلي أحمد باشا) باحتلال مدينة (سارفار)[1]. وأقام معسكره على شاطىء نهر (راب) في مواجهة معسكر أعدائه. وقد حاول جند العثمانيين عبور النهر، ومهاجمة المعسكر الصليبي، لكن الجند النمساوي ـ الفرنسي نجح في إحباط هذه المحاولة. ثم إن الصدر الأعظم (أحمد باشا) جمع كل قواته وتمكن من عبوره عنوة (يوم ٨ محرم سنة ١٠٧٥ هـ = أول آب ـ أغسطس ـ سنة ١٦٦٤ م).

وأمكن له الانتصار على قلب جيش العدو، ولولا تدخل الفرنسيين ـ وخاصة الشباب النبلاء ـ لتم للعثمانيين النصر. غير أن جند الإنكشارية لم يتمكنوا من الصمود في وجه قوات العدو المتفوقة عددياً، بحيث كانوا كلما أبيد منهم صف ـ نسق ـ تقدم النسق التالي، وبذلك انتهى القتال ولما يتمكن أحد الطرفين من إحراز نصر حاسم. وحافظ العثمانيون على مواقعهم ـ وسميت هذه المعركة الشهيرة باسم معركة (سان جوتار)[2] ـ نسبة لكنيسة قديمة حصلت الحرب بالقرب منها. وتبع ذلك اجراء اتصالات ومفاوضات، انتهت باتفاق للصلح، وأبرمت بين الطرفين معاهدة بعد عشرة أيام، كان من أهم بنودها إخلاء الجيش لإقليم ترانسلفانيا وتعيين (أبافي) حاكماً عليها تحت سيادة الدولة العثمانية وتقسيم بلاد المجر بين الدولتين بأن يكون للنمسا ثلاث ولايات، وللدولة العثمانية أربعة، مع بقاء حصني (نوفيغراد)[3] ونوهزل تابعين للدولة العثمانية.

استمرت فرنسا خلال ذلك بإرسال سفنها الحربية لمهاجمة سفن المسلمين في المغرب العربي ـ الإسلامي بحجة تعرض سفن المغرب لسفنها، واستمرت هذه الحرب غير المعلنة حتى سنة ١٠٧٧ هـ = ١٦٦٦ م. حيث أرسل الوزير الفرنسي

---

(١) سارفار: (SARVAR) أو سرنوار، وتقع إلى الشرق من نهر راب، والى الجنوب الشرقي من ڤيينا.

(٢) سان جوتار: (ST.GOTAR) مدينة في النمسا تقع على الجانب الغربي من نهر الراب.

(٣) نوفيغراد: (NOVEGRAD) مدينة تقع في المجر، الى الشمال من بودابسب ومن نهر الدانوب.

(كولبير)[1] الـذي خلف مازاران، سفيراً لتحسين العلاقات بين بلاده وبين الدولة العثمانية، غير أنه لم يوفق باختيار السفير، إذ أنه أرسل ابن (المسيوديلاهي) الذي كان الوزير كوبريلي أحمد باشا قد سجنه - على نحو ما سبق ذكره - فكان من نتيجة ذلك فشل مهمة السفير، وعدم تجديد الامتيازات التجارية الفرنسية، وحرمان فرنسا من حق إرسال بضائعها عن طريق مصر والسويس الى الهند، وليس ذلك فحسب، بل إن الدولة العثمانية منحت (جمهورية جنوا) امتيازات خاصة مماثلة لامتيازات انكلترا. فعادت فرنسا وجهرت بالعداء، وأرسلت دعماً الى (كانديا - في كريت) لمقاومة العثمانيين، ومحاربتهم. فقاد الصدر الأعظم الجيش العثماني، ومضى بنفسه لفتح مدينة كانديا التي بقيت قاعدة صلبة ضد المسلمين في الجزيرة والتي أتعبت الدولة العثمانية، واستمر الحصار والقتال لمدة زادت على السنتين، بسبب إمداد فرنسا لها بالمال والرجال والسفن الحربية، ولكن بالرغم من كل هذا الدعم الذي كانت آخر دفعة فيه ارسال الاسطول الفرنسي ومعه سبعة آلاف رجل، في صيف سنة ١٦٦٩ م، وبالرغم أيضاً من الدعم الذي أرسله امبراطور النمسا. فقد استطاع العثمانيون انتزاع النصر النهائي، **واضطرت الحامية بقيادة قائدها (موروزيني) للاستسلام في يوم ٢٩ ربيع الثاني سنة ١٠٨٠ هـ = ٢٦ أيلول - سبتمبر - سنة ١٦٦٩ م**. ووقع قائد هذه الحامية بالنيابة عن جمهورية البندقية مع الصدر الأعظم معاهدة تنازلت البندقية بموجبها للدولة العثمانية عن جزيرة كريت. وصدقت البندقية على هذه المعاهدة في شباط - فبراير - سنة ١٦٧٠ م. وبذلك انتقلت جزيرة كريت نهائياً لحكم المسلمين.

كان سفير فرنسا (المسيو دي لاهي) مقيماً طوال هذه الفترة في الآستانة، وبذل كل جهده لتجديد الامتيازات لبلاده، فلم يفلح. فلما كانت سنة ١٠٨١ هـ = ١٦٧٠ م، أرسل ملك فرنسا (لويس الرابع عشر) سفيراً جديداً اسمه (الماركيز دي نوانتل)

---

(١) كولبير: (COLBERT, JEAN BAPTISTE) رجل دولة فرنسي من مواليد ريمس: (REIMS) (١٦١٩ - ١٦٨٣ م) خلف مازاران في الحكم وكان تلميذاً له، وسمي المراقب العالم للمالية، بعد سقوط فوكيه: (FOQUET) سنة ١٦٦٤ م وشرع في بسط نفوذه تدريجياً حتى شمل كل مجالات الدولة وإداراتها، وازدهرت بتوجيهاته الصناعة والتجارة والأمور المالية، وشجع الآداب والفنون.

ومعه اسطول فرنسي، في محاولة لإرهاب الصدر الأعظم، وتهديده بالحرب إذا لم يذعن لطلبات فرنسا .لكن تظاهرة القوة لم ترهب الصدر الأعظم الذي استقبل السفير الفرنسي، وقال له: **« إن تلك المعاهدات لم تكن إلا منحاً وهبات من السلطان، لا حقوقاً إلزامية يجب تنفيذها. وإنه إن لم يقتنع بهذه الإجابة فما عليه إلا الرحيل».**

وغضب ملك فرنسا عندما بلغه رد الصدر الأعظم، وأراد إعلان الحرب، غير أن وزيره (كولبير) أقنعه بأنه ليس من مصلحة فرنسا خوض غمار حرب لا يمكن معرفة أو ضمان نتائجها ضد الدولة العثمانية. ومضى - كولبير - لمعالجة الموقف بمرونة وحكمة، وأظهر الخضوع للدولة، فتمكن بذلك من تجديد المعاهدات القديمة، وأعيد إلى فرنسا حق حماية المراكز الدينية الكاثوليكية في القدس. وعادت العلاقات بين الدولتين إلى سابق عهدها.

كان القوقاز - القفقاس - المستوطنين في جنوب بلاد الروسيا، قد دخلوا جميعاً في حمى حامي الإسلام (السلطان محمد الرابع) من غير حرب، بل التزاماً منهم بمبدأ الطاعة والجماعة. فكان لزاماً بالتالي على الدولة العثمانية دعم الأخوة تتار القفقاس إذا ما تعرضوا للتهديد أو جابهوا الخطر.

وكانت فكرة الواجب المشترك الذي يفرض على العالم الصليبي جميعه العمل ضد الأتراك المسلمين، قد بعثت من جديد أيضاً في ڤيينا وفرنسا وبولونيا وعصبه أمراء هبسبورغ (اتحاد الراين). وتولت بولونيا قيادة الهجوم فعملت على اجتياح (أوكرانيا)[1] مما دفع أمير أوكرانيا لطلب الدعم. فأسرع السلطان محمد وقاد بنفسه جيشاً ضخماً، ووصل خلال فترة زمنية قصيرة الى (حصن رامنيك) يوم ٢٣ ربيع آخر سنة ١٠٨٣ هـ = ١٨ - آب - أغسطس - سنة ١٦٧٢ م - واحتل هذا الحصن عنوة

---

(١) اوكرانيا: (UKRAINE) إحدى جمهوريات الاتحاد السوڤييتي، وعاصمتها كييف: (KIEV) وتقع الى الشمال من البحر الأسود وبحر آزوف: (AZOV). سكانها من التتار المسلمين. استولى عليها الألمان سنة ١٩٤١ م. فلما عاد إليها الروس سنة ١٩٤٣ م عملوا على تهجير أهلها المسلمين بالملايين، الى سيبيريا، ومات أكثر من مليون منهم في الطريق.

بعد حصار لم يستمر أكثر من عشرة أيام، ثم تابع تقدمه فاحتل مدينة (لمبرغ)[1] الشهيرة، فطلب (ميخائيل أبافي) ملك بولونيا عقد صلح مع السلطان، وتعهد بترك اقليم اوكرانيا للقوزاق، وولاية (بودوليا)[2] للدولة العثمانية، ودفع جزية سنوية قدرها مائتان وعشرون ألف بندقي ذهباً. فقبل السلطان محمد هذه الشروط، وتم التوقيع على معاهدة الصلح يوم ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٠٨٣ هـ = ١٨ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٦٧٢ م. وسميت هذه المعاهدة باسم معاهدة بوزاكس.

رفض أمراء بولونيا وقادتها الاعتراف بهذه المعاهدة، وأظهروا تصميمهم على متابعة الحرب، وحملوا ملكهم (ميخائيل) على إرسال الجيش بقيادة القائد الشهير (سوبيسكي)[3] الذي استطاع استعادة (لمبرغ). واستمرت الحرب بين الدولتين سجالاً حتى سنة ١٠٨٧ هـ = ١٦٧٦ م. حيث اضطر سوبيسكي - وقد فقد معظم جيوشه، إلى التنازل عن كل ما كان قد تنازل به سلفه - ميخائيل - للدولة العثمانية.

توفي الصدر الأعظم (كوبريلي أحمد باشا) سنة ١٠٨٧ هـ = ١٦٧٦ م. وقد استطاع هو ووالده من قبله أن يعيدا للدولة العثمانية قدرتها وهيبتها، فأصبحت على نحو ما كانت عليه أيام مجدها وقوتها في عهد السلطان سليم والسلطان سليمان القانوني.

ولكن هذا الجهد الضخم لم يلبث أن تداعى بسرعة، على يد الصدر الأعظم الجديد (قره مصطفى) زوج أخت كوبريلي أحمد باشا، والذي كان يفتقر الى الكفاءة التي تميز

---

(١) لمبرغ: (LEMBERG) عاصمة إقليم غاليسيا التي كانت تابعة للنمسا، وتبعد عن مدينة ڤيينا، والى الشمال الشرقي منها، مسافة ٥٨٠ كيلومتراً. واشتهرت في التاريخ بدخول ملك السويد شارل الثاني إليها عنوة سنة ١٠٧٤ هـ. وكذلك تنصيب ستانسلاس فيها، ملكاً على بولونيا، ضد رغبة الدول. وأصبحت تابعة للاتحاد السوڤييتي.

(٢) بودوليا: (PODOLIE) إقليم يقع في غرب اوكرانيا، ويحده من الجنوب نهر الدنيستر.

(٣) سوبيسكي: (SOBIESKI-JEAN III) من مواليد اوليسكو: (OLESKO) (١٦٢٩ - ١٦٩٦ م) تولى قيادة الجيش البولوني، وعندما توفي ملك بولونيا ميخائيل أبافي - سنة ١٦٧٣ م. جرى انتخابه ملكاً على بولونيا، حارب العثمانيين، واشتهر بارغام العثمانيين على رفع الحصار عن ڤيينا سنة ١٦٨٣ م.

بها أسلافه. وقد ظهرت سياسة قره مصطفى الفاشلة، أول ما ظهرت، في إساءة العلاقة مع القوزاق، وابعادهم عن الدولة، مما دفع بخان اقليم اوكرانيا لإعلان تمرده سنة ١٠٨٨ هـ = ١٦٧٧ م واستنجد بالروسيا التي كانت آخذة إذ ذاك في تنظيم دولتها داخلياً على اسس جديدة، تتناسب مع رغبتها في التكيف مع المجتمع الأوروبي. فأمدته روسيا بالرجال، وحاربت الجيوش العثمانية، واستمرت الحرب بين القوزاق وحلفائهم الروس من جهة وبين العثمانيين من جهة ثانية حتى سنة ١٠٩٢ هـ = ١٦٨١ م. حيث تم عقد معاهدة (رادزين)[1] والتي قضت بإعادة الأمور إلى مثل ما كانت عليه قبل اندلاع الحرب.

فيما كانت هذه الأحداث تأخذ مساراتها على أرض القوزاق، كانت هناك أحداث مضادة ترسم ملامحها على أرض المجر، فقد عمل امبراطور النمسا - الكاثوليكي - على اضطهاد البروتستانت المجريين، وتتبع كل من يشتبه بأمره بالقتل، مما أثار أحد نبلاء المجر وأمرائهم (تيليكي) والذي استطاع تنظيم المقاومة المجرية ضد النمسا وامبراطورها. وطلب الدعم والمساعدة من الدولة العثمانية التي ما فرغت من حربها مع الروس والقوقاز (سنة ١٠٩٢ هـ = ١٦٨١ م) حتى وجدت نفسها متورطة في حرب أخرى.

فقد تولى (قره مصطفى) بنفسه قيادة الجيش العثماني الى بلاد المجر، وانتصر على النمساويين في معارك متتالية قادته إلى (ڤيينا) حيث ألقى الحصار عليها لمدة شهرين متتاليين (سنة ١٠٩٤ هـ = ١٦٨٣ م). واستولى على كافة قلاعها الأمامية، وهدم أسوارها - بالمدافع وألغام البارود، ولما لم يبق إلا الانقضاض الأخير لفتح عاصمة النمسا، جاء ملك بولونيا (سوبيسكي) على رأس جيش ضخم ومعه منتخبي (الكتر) اقليمي (ساكس)[2]

---

(١) رادزين: (RADZYN) بلدة بولونية تقع الى الجنوب الغربي من العاصمة وارسو.

(٢) ساكس: (SAXE) إقليم يقع الآن في الجزء الشرقي - الجنوبي من المانيا الديموقراطية.

و(بـافاريـا) [1] بجيشيها، وذلك بنـاء على الحاح البـابـا عليهـم، واستنهـاضـه حماستهم لمحاربة المسلمين العثمانيين.

وقام (سوبيسكي) بالهجوم بالقوات جميعها، في يوم ٢٠ رمضان سنة ١٠٩٤ هـ = ١٢ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٦٨٣ م. على القوات العثمانية في المرتفعات المتحصنين بها، واستمر القتال العنيـف طـوال النهـار، وكـان قتـالاً كما يقـال - شـاب لهولـه الولدان -. وانتهت المعركة الحاسمة في نهاية اليوم بهزيمة القوات العثمانية التي تمزقت وهربت وتركت على أرض المعركة مدافعها وذخائرها وموادها التموينية. وحاول (قره مصطفى باشا) انقاذ الموقف، فجمع شتات قواته الممزقة على شاطىء نهر راب، وتراجع بها إلى (بودا). غير أن (سوبيسكي) لم يسمح للقوات العثمانية بالراحة أو إعادة التنظيم، فانطلق بجيشه لمطاردتها، وعمل على إبادة كل من أمكن العثور عليه من بقايا القوات العثمانية المتخلفة، وفتح مدينة (غران) بكل سهولة. ولما وصل خبر هذه الهزيمة التي لم تتعرض لمثلها الجيوش العثمانية، أصدر السلطان محمد الرابع أمره بقتل الصدر الأعظم (قره مصطفى باشا). وأرسل أحد رجال حاشيته فقتله، وأرسل برأسه الى العاصمة (إسلام بول) وعين مكانه ابراهيم باشا (سنة ١٠٩٥ هـ = ١٦٨٤ م).

انقلبت الدنيا على الدولة العثمانية، فقد كان رفع الحصار عن ڤيينا هو الحدث الذي هزّ أوروبا الصليبية بعنف وقوة، فتم تشكيل (التحالف المقدس) الذي ضم النمسا وبولونيا والروسيا مضافاً إليها قوات البابا وقوات فرسان الاسبتارية - الذين أصبحوا يحملون يومها اسم رهينة مالطا - وكان هدف هذا التحالف هو شن حرب شاملة ضد الدولة الإسلامية العثمانية، وإزالتها من خارطة العالم السياسي.

لم تتخلف فرنسا عن هذا الذي أطلق عليه اسم (التحالف المقدس). بل إنها كانت قد تحركت على اتجاهه من قبل، فقطعت علاقاتها مع الدولة العثمانية

---

(١) بافاريا: (BAVIERE) إقليم يقع إلى الجنوب من ألمانيا الاتحادية، وعاصمته ميونيخ.

بحجة الاشتباكات البحرية المستمرة بين سفنها وسفن دول المغرب العربي - الإسلامي (الجزائر خاصة).

وقام الأميرال (دوكين)[1] بمطاردة ثماني مراكب من ميناء طرابلس الغرب إلى (جزيرة ساقز)[2]. ولما التجأت إلى خليجها، وأراد الأميرال دوكين الدخول إلى الميناء خلفها، ومنعه حاكم الجزيرة، أطلق مدافعه على المدينة بدون إعلان حرب، وردت عليه قلاعها، ولم يمتنع عن إلقاء القنابل على بيوت السكان حتى دمّر المدينة. وعمل دوكين أيضاً على إطلاق مقذوفات مدافعه على مدينة الجزائر بالغرب سنة ١٠٩٥ هـ = ١٦٨٤ م. ولم يتوقف عن إلقاء المقذوفات النارية عليها حتى دفع إليها أهلها مليوني ومائتي ألف قرش غرامة حربية، وأطلقوا سراح من كان في قبضتهم من الأسرى الفرنسيين. وكرر (دوكين) مثل هذه العملية في السنة التالية، حيث قصف طرابلس الغرب بوحشية بالغة. ولم تتمكن الدولة العثمانية من الرد على هذه الأعمال العدوانية - الاستفزازية - والمخالفة لقوانين الحرب بحسب ما كان سائداً ومعترف به. وتجاوزت ذلك لتركز اهتمامها وجهدها ضد قوات (الحلف المقدس) التي شرعت في الانقضاض على تخوم الدولة العثمانية من كافة الاتجاهات. فقد انطلق (سوبيسكي) بجيوشه للعمل ضد إقليم (البغدان). فيما كانت سفن البنادقة تهدد سواحل اليونان وبلاد موره، وأفادت هذه السفن من عدم وجود سفن عثمانية كافية لصد هجمات سفن البنادقة التي دعمتها سفن البابا وسفن رهبنة مالطا، فقامت جيوش البندقية واحتلت معظم مدن اليونان، حتى كورينث وأثينا (سنة ١٠٩٧ هـ = ١٦٨٦ م). وانطلقت جيوش النمسا خلال ذلك، فأغارت على بلاد المجر، واحتلت مدينة (بست) الواقعة أمام (بودا). وحاصرت هذه المدينة أيضاً، ولولا صمود حاميتها

---

(١) دوكين: (DUQUESNE-ABRAHAM) بحار فرنسي شهير من مواليد بلدة دييب: (DIEPPE) (١٦١٠ - ١٦٨٨ م) نشأ على حب ركوب البحر، وصار قبطاناً وعمره سبعة عشر عاماً، عمل في خدمة السويد، ثم في خدمة ملك فرنسا، وقام بقصف طرابلس سنة ١٦٨١ م والجزائر سنة ١٦٨٢ م. وجنوه سنة ١٦٨٤ م. قلده ملك فرنسا عصا الماريشالية بشرط التخلي عن مذهبه البروتستانتي، ولكنه أصر على التمسك بمذهبه ورفض عصا الماريشالية.

(٢) ساقز: (CHAOIS) جزيرة تقع في بحر إيجه. أمام برّ الأناضول.

وحاكمها صموداً رائعاً لسقطت في أيديهم. واحتل النمساويون مجموعة من الحصون والقلاع الشهيرة (أهمها قلعة نوهزل). وقد أثارت هذه الهزائم غضب السلطان محمد، فأصدر أمره بعزل الصدر الأعظم ابراهيم باشا وأبعاده - نفيه - الى جزيرة رودس. وعين مكانه القائد العام - السرعسكر - سليمان باشا، الذي كان شهيراً بحسن التدبير والشجاعة والإقدام. ولكن الدولة كانت قد وصلت إلى درجة متدنية من الضعف، أمام مجموعة هذه القوى المتحالفة ضدها، بحيث بات إنقاذ الموقف أمراً صعباً للغاية. وكان أول عمل قام به سليمان باشا هو الإسراع لنجدة مدينة (بودا) التي كانت تحاصرها قوة من تسعين ألف جندي، لكن سليمان باشا لم يتمكن من إنقاذ الموقف، واقتحمت القوات النمساوية دخلت (بودا) عنوة يوم ١٣ شوال سنة ١٠٩٧ هـ = ٢ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٦٨٦ م. بعد أن قتل حاكمها عبدي باشا وأربعة آلاف من جنوده في الدفاع عن المدينة.

أراد الصدر الأعظم (سليمان باشا) الانتقام لهذه الهزيمة، فانصرف لإعادة تنظيم القوى والوسائط، مستفيداً من فصل الشتاء، فنظم جيشاً من ستين ألف مقاتل، ودعمه بسبعين مدفعاً، وحشد له ما يحتاجه من الذخائر، والمواد التموينية، وأشرف على تدريبه القتالي، حتى إذا ما انقضى فصل الشتاء وفصل الربيع في تلك الربوع المعروفة بقسوة مناخها، ووفرة ثلوجها، عمل على قيادة جيشه، وهاجم جيوش التحالف المقدس في سهل موهاج (موهاكس) والذي كان قد شهد انتصار العثمانيين على المجريين انتصاراً حاسماً قبل هذا التاريخ بمائة وستين سنة. والتحم الجيشان في معركة ضارية يوم ٣ شوال سنة ١٠٩٨ م (١٢ - آب - أغسطس - سنة ١٦٨٧ م). وبعد قتال عنيف وصراع مرير، انتصر الصليبيون على العثمانيين، وتمزق الجيش العثماني تمزقاً تاماً، وغنم الصليبيون مدافع الجيش العثماني وأسلحته وذخائره ومواده التموينية. واستثمر الصليبيون انتصارهم أفضل استثمار، فانطلقت جيوشهم واجتاحت إقليم ترانسلفانيا، ومجموعة من قلاع اقليم (كرواتيا)[1]. ولما ذاع خبر هزيمة الجيوش

---

(١) كرواتيا: (CROITIE) إحدى جمهوريات يوغوسلافيا، وعاصمتها (زغرب) وأكثر أهلها من المسلمين. وأهلها الكروات يلفظون اسم بلادهم فيقولون (خروات).

العثمانية الموجودة في الآستانة، اجتاحتها روح التمرد والعصيان؛ وانتقلت عدوى التمرد لبقية القوات التي بقيت وهي تعمل تحت قيادة الصدر الأعظم سليمان باشا، فأشهروا عليه العصيان، مما حمله على الفرار إلى (بلغراد). ثم أرسل الإنكشارية والسباه وفداً للأستانة يطلب الى السلطان إصدار أمر بقتل الصدر الأعظم، فلم يرَ بداً من ذلك، وأمر بقتله تسكيناً لثورة الجند وتهدئة لغضبهم. ولما لم يفد شيئاً ولم تعد السكينة بين الجيوش، وجابهت الدولة العثمانية خطر الدمار والانهيار. فقرر الوزير الثاني (القائمقام قره مصطفى) بالتعاون مع العلماء والفقهاء، عزل السلطان (محمد الرابع) فعزلوه يوم ٢ محرم سنة ١٠٩٩ هـ = ٨ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٦٨٧ م. وبقي في عزلته إلى أن وافته المنية. وتم تعيين أخيه (سليمان - الثاني) [١] سلطاناً، فبدأ عهده باغداق المنح والعطايا على الجنود، ولم يعاقبهم على عصيانهم وتمردهم. فكان من نتيجة ذلك أن عاد التمرد للظهور من جديد، وقام الجند بقتل قادتهم، وحاصروا الصدر الأعظم الجديد (سياوس باشا) وقتلوه وسبوا أزواجه، فعاشت الآستانة من جديد حالة الاضطراب والفوضى وضياع الأمن. وأفاد أعداء الدولة من انصراف جهدها لمعالجة مشكلاتها الداخلية، فقام النمساويون باحتلال قلاع (أرلو) و(ليبا) وسواها، واحتل البنادقة بقيادة (موروزيني) مدينة (ليبة) من بلاد اليونان، وكافة سواحل (دلماسيا - دالماتيا) سنة (١٠٩٨ هـ = ١٦٨٧ م). وسقطت في يد النمساويين في السنة التالية مدن (سمندرية وكولمباز أو قلومباز - وبلغراد). ثم فقدت الدولة العثمانية في سنة (١١٠٠ هـ = ١٦٨٩ م) (مدن نيش وودين) من بلاد الصرب. فما كان من السلطان سليمان الثاني إلا أن عزل الصدر الأعظم (مصطفى باشا) لما أظهره من الضعف والتخاذل، وعين مكانه (كوبريلي مصطفى باشا ابن كوبريلي محمد باشا الكبير) الذي حمل من الكفاءة والقدرة والشجاعة قدراً يعادل ما ميّز والده من قبل، فبذل جهده لفرض الانضباط على الجند، تارة باللين وأخرى بالشدة، وصرف لهم ما هو متأخر من رواتبهم حتى لا يلجؤوا للعدوان على المواطنين، فانتظمت الأمور في الجيش، وبات

---

(١) السلطان الغازي سليمان خان الثاني (١٠٥٢ - ١١٠٢ هـ = ١٦٤٢ - ١٦٩١ م) تولى السلطنة بعد خلع أخيه (محمد الرابع سنة ١٠٩٩ هـ = ١٦٨٧ م). وهو العشرين في تسلسل الخلفاء العثمانيين.

بالمستطاع الاعتماد عليه في الحرب. كما أباح للمسيحيين بناء ما كان قد تهدم من كنائسهم في الأستانة، وعاقب بأشد العقاب كل من تعرض لهم في إقامة شعائر دينهم، فاستمال بذلك جميع مسيحيي الدولة. وكانت نتيجة معاملته المسيحيين بالعدل والقسط أن ثار الروم من أهالي موره على حكامهم البنادقة، وطردوهم من بلادهم، لتعرضهم لهم في إقامة شعائر مذهبهم الأرثوذكسي، وإرغامهم على اعتناق المذهب الكاثوليكي، ودخلوا في حماية الدولة العثمانية طائعين مختارين.

ما إن شعر الصدر الأعظم (كوبريلي مصطفى باشا) باستقرار الجبهة الداخلية، والسيطرة على الجيش، حتى تولى بنفسه قيادة الجيش ومضى به للحرب، فاستعاد بسرعة مدن نيش ووديـن وسمندرية وبلغراد في سنة (١١٠١ هـ = ١٦٩٠ هـ). بينما كان خان القرم (سليم كراي) يخضع ثائري الصرب. وبينما كان أمير المجر (تيكلي) يستعيد أيضاً السيطرة على إقليم ترانسلفانيا. وبذلك أعاد (كوبريلي مصطفى باشا) بعض ما فقدته الدولة من المجد والسؤدد.

ولكنه ما عتم أن استشهد في معركة ضد النمساويين (سنة ١١٠٢ هـ = ١٦٩١ م) وكان السلطان سليمان الثاني قد سبقه إلى دار الخلود، وخلفه (أحمد الثاني)[1]. فبدأت الأطراف المتصارعة في الخلود الى السكينة، وعرفت تخوم الدولة العثمانية نوعاً من الهدوء والاستقرار - إلا من بعض الاشتباكات الثانوية -. وكان قيام البنادقة باحتلال جزيرة ساقز، سنة ١١٠٥ هـ = ١٦٩٤ م هو من أبرز أحداث هذه الفترة. وعندما توفي السلطان أحمد الثاني وخلفه (مصطفى الثاني)[2]. أعلن بعد ثلاثة أيام فقط من بدء ولايته أنه سيقود الجيوش بنفسه، وسار باتجاه بولونيا، ومعه فرسان القوزاق، وانتصر على البولونيين في معارك متتالية، غير أنه كان لزاماً عليه الانصراف من هذه الجبهة لمجابهة خطر أكبر.

---

(١) السلطان الغازي أحمد خان الثاني: (١٠٥٢ - ١١٠٦ هـ = ١٦٤٣ - ١٦٩٥ م) تولى السلطنة سنة ١١٠٢ هـ = ١٦٩١ م) وكان السلطان الحادي والعشرين بين الخلفاء العثمانيين.

(٢) السلطان الغازي مصطفى خان الثاني: (١٠٧٤ - ١١١٥ هـ = ١٦٦٤ - ١٧٠٣ م) تولى السلطنة =

١١ ـ روسيا تفتح جبهة جديدة.

يظهر أن هذه الجبهات التي انفتحت على الدولة العثمانية، في أوروبا وآسيا، في الشرق والغرب، في الداخل والخارج، في البر والبحر، لم تكن جميعها كافية لمعادلة ثقل الدولة العثمانية، فانفتحت عليها جبهة جديدة لم تكن في الحسبان. فقد كانت (الروسيا) غير موجودة على الخارطة السياسية للعالم، وإنما كانت هناك إمارات في المدن الكبرى مثل إمارة (سوزدال) و(سمولنسك) و(نوفغورود) و(كييف) و(فلاديمير). غير أن هذه الإمارات التي سميت شعوبها باسم (القبجاق ـ أو الروس) كانت ـ في القرنين الثالث عشر والرابع عشر وحتى الخامس عشر، أضعف من أن تقاوم الغزوات الخارجية، فاجتاحها المغول التتار أكثر من مرة، ومزقوها. ولم تلبث قبائل المغول (القبجاق) من المسلمين أن استقرت هناك وهي التي عرفت باسم (القبائل الذهبية). ولكن إمارة موسكو شرعت منذ القرن الخامس عشر بممارسة دور قيادي على إمارات الإخوة السلاف فأخذت دولة روسيا في الظهور إلى الوجود، وعندما أصبح (ميخائيل رومانوف) قيصراً على روسيا سنة ١٦١٣م. كان ذلك ايذاناً بانطلاقة جديدة لم تلبث أن أخذت أبعادها في عهد **(بطرس الأكبر)** [١] الذي

= سنة (١١٠٦هـ=١٦٩٥م). وكان السلطان الثاني والعشرين بين الخلفاء العثمانيين.

(١) بطرس الأكبر: (PIERRE-I LE GRAND) قيصر روسيا، من مواليد موسكو (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥م) تولى الملك سنة ١٦٨٢م. فنازعه أخوه الأكبر (ايفان) وأخته (صوفيا) الحكم. لكنه انتصر عليهما، وحجز أخته صوفيا في أحد الأديره. وأعاد تنظيم الجيش والبحرية تنظيماً حديثاً، واستعان بالخبراء من هولاندا وانكلترا والنمسا، ووضع هدفه محاربة المسلمين، وأبطل الجيش القديم (استرلتش) وأسس مدينة (بيتر سبورغ) ونقل إليها عاصمته. انتصر على ملك السويد شارل الثاني عشر في معركة بولتافا الشهيرة (POLTAVA) سنة ١٧٠٩م. وفتح آزوف، وضم أقاليم ليفونيا واستونيا وفنلندا لبلاده سنة ١٧٢١ فأصبحت مملكته تمتد من البلطيق الى الفولغا. ووضع وصية لخلفائه بقيت هي أساس السياسة العسكرية لروسيا.

شرع في توسيع حدود بلاده شمالاً وغرباً وجنوباً وشرقاً. وإذا كانت مقاومة هذا التوسع ضعيفة على معظم الجبهات، إلا أنه كان لا بد من أن تتعثر على جبهة الجنوب، عند الاصطدام بالدولة العثمانية.

كان السلطان (مصطفى الثاني) يقود جيوشه في بولونيا عندما علم بقيام بطرس الأكبر بإلقاء الحصار على مدينة (آزاق - أو آزوف) ليجعل منها ثغراً لبلاده على البحر الأسود. وكانت قبائل القوقاز تحول بين هذا البحر وبين بلاده، كما كان البحر الأسود يخضع بكامله للاسطول العثماني، لا ينازعه فيه منازع. فعاد الجيش العثماني بسرعة، وأرغم بطرس الأكبر على رفع الحصار عن (آزاق) في سنة ١١٠٧ هـ = ١٦٩٥ م. وعاد السلطان مصطفى بعد ذلك بجيشه لمحاربة المجر. وفتح (حصن ليبا). وانتصر على القائد المجري الشهير (الجنرال فتراني) في موقعه (لوجوس) وأخذه أسيراً وقتله، كما قتل ستة آلاف جندي من جيشه الذي تمزق شرّ ممزق (في ١٢ - صفر سنة ١١٠٧ هـ = ٢٢ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٦٩٥ م. وتبع ذلك تحقيق نصر حاسم على جيش (ساكس) في موقعة أولاش (سنة ١٦٩٦ م). فتولى الدوق **(أوجين دوسافوا)** [1] قيادة جيش ساكس، فعمل على تجنب الصراع مع الجيش العثماني في الأراضي السهلية، وانسحب بجيشه، حتى إذا ما شرع الجيش العثماني بعبور نهر (تيس) [2] بالقرب من قرية اسمها (زينتا) [3] انقض الأمير أوجين بجيشه بصورة مباغتة على الجيش العثماني الذي لم تتح له فرصة دخول المعركة بصورة منتظمة، فقتل الصدر الأعظم (الماس محمد باشا) وقتل من الجيش العثماني عدد كبير، وغرق منه عدد أكبر، وتمزق شرّ ممزق، ولولا وجود السلطان مصطفى الثاني على الضفة المقابلة من النهر، لسقط أسيراً في أيدي الأمير اوجين (يوم ٢٥ صفر سنة ١١٠٩ هـ = ١٢ -

---

(١) أوجين دوسافوا: (EUGENE DE SAVOIE-CARIGNAN) قائد نمساوي، ولد في باريس (١٦٦٣ - ١٧٣٦ م) اعتبر من أكبر قادة الحرب في عصره. حارب الأتراك المسلمين، واشترك في حرب الوراثة الإسبانية.

(٢) تيس: (THIESS) نهر ينبع من اوكرانيا ويمر في المجر ويتحد مع الدانوب في يوغوسلافيا.

(٣) زينتا: (SENTA) بلدة في الشمال الشرقي من يوغوسلافيا، بالقرب من الحدود الرومانية.

أيلول - سبتمبر - سنة ١٦٩٧ م) واستثمر الأمير اوجين هذا الانتصار فانطلق لمطاردة الجيش العثماني، واجتاح بلاد البوسنة (البشناق). فعمل السلطان مصطفى على تعيين (عموجه زاده حسين باشا كوبريلي) في منصب الصدر الأعظم. فقام عموجه بإعادة تنظيم القوات، وتصدى للأمير أوجين وأرغمه على الإنسحاب من بلاد البوسنة، وطارده إلى ما وراء نهر (ســاف)[١] وكان الأميرال البحري العثماني (مزومورتو) قد تمكن خلال ذلك من الانتصار على اسطول البندقية مرتين واستعاد جزيرة ساقز. وأفاد بطرس الأكبر من انصراف القوات العثمانية للحرب على جبهة الغرب، فقاد قواته من جديد، **وهاجم آزاق (آزوف)** [٢]وتمكـــن من فتحها سنة ١١٠٨ هـ = ١٦٩٦ م. وبذلك أصبح لروسيا منفذاً إلى المياه الدافئة.

وأدت هذه الانتصارات إلى إجراء مفاوضات للصلح. وتدخل ملك فرنسا لويس الرابع عشر في هذه المفاوضات. وأراد أن يدخل الدولة العثمانية في معاهدة (ريسويك)[٣] لكـــن السلطان مصطفى رفض هذه الوساطة لقناعته - عن خبرة وتجربة - بأن الصليبيين بعضهم أولياء بعض، وأنهم جميعاً في جبهة واحدة ضد الإسلام وأهله، وأنه إذا ما أظهرت إحداها اللين، فعن ضعف وإلى حين.

وهكذا استمرت المفاوضات لفترة طويلة أمكن في نهايتها التوقيع على معاهدة في ٢٤ رجب سنة ١١١٠ هـ = ٢٦ كانون الثاني - يناير - سنة ١٦٩٩ م. بين الدولة العثمانية من جهة والروسيا والنمسا والبندقية وبولونيا من جهة ثانية، وعرفت بإسم

---

(١) ساف: (SAVE) نهر ينبع من جبال الألب الشرقية ويمر من يوغوسلافيا، ويرفد نهر الدانوب.

(٢) آزاق - أو آزوف: (AZOV-OU-AZOF) خليج على البحر الأسود، ويطلق عليه أيضاً اسم بحر زاباش: (MER DE ZABACHE) يصب فيه نهر الدون. وهو على الحدود الجنوبية لروسيا.

(٣) ريسويك: (RYSWICK) بلدة في هولاندا، وقعت فيها في ٢٠ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٦٩٧ م المعاهدة التي أنهت تحالف اوغسبرغ: (AUGSBOURG) وتم توقيعها بين فرنسا من جهة وألمانيا واسبانيا وانكلترا وهولاندا من جهة ثانية، وأقرت هذه المعاهدة لفرنسا امتلاك بلاد الألزاس واستراسبورغ. وتكتب ريسويك بالهولاندية: (RIJSWYK).

(**معاهدة كارلوفتس**) [1] وقـد فرضت هذه المعاهدة على الدولة العثمانية التخلي عن بلاد المجر بكاملها وعن إقليم ترانسلفانيا لامبراطورية النمسا. كما تنازلت عن مدينة آزاق (آزوف) وخليجها لدولة الروسيا. وأرجعت لبولونيا مدينة (كـامينـك) [2] وإقليمي بودوليا وأوكرانيا. وتنازلت للبندقية عن قسم من جزيرة مورا وإقليم دالماتيا على البحر الأدرياتيكي. واتفقت مع النمسا على هدنة لمدة خمس وعشرين سنة، وأن لا تدفع النمسا أو سواها شيئاً من الجزية للدولة العثمانية - خلافاً لما كان عليه الأمر من قبل -. وفقدت الدولة العثمانية بذلك قسماً كبيراً من الأقاليم الأوروبية التي خضعت لسيادتها. والأهم من ذلك أيضاً أنها أصبحت على خط الصدام المباشر مع دولة الروسيا.

أدرك الصدر الأعظم (كوبـريلي حسين بـاشـا) أن مجابهة التحـديـات الخارجيـة المتعاظمة، بات يتطلب إعادة تنظيم الجبهة الداخلية، لتصبح أكثر تماسكاً وأشد قوة، فصرف جهده لإعادة تنظيم الأمور المالية، واجراء الإصلاحات العسكرية، وتوسيع شبكات الطرق، وأصدر أمراً بالعفو عن الضرائب المتأخرة على الأهالي - وخاصة المسيحيين - حتى لا يفسح المجال أمام المؤامرات الخارجية. حتى إذا ما عرف أنه حقق أهدافه الإصلاحية، استقال من منصبه (سنة ١١١٤ هـ = ١٧٠٢ م) فعين السلطان مصطفى الثاني مكانه (دال طبان مصطفى باشا) الذي كان جندياً، يميل للحرب، ولهذا لم يأخذ بنهج سلفه، وأخذ في الإعداد للحرب، ووضع هدفه نقض معاهدة كارلوفتس، والهجوم على النمسا. وأدرك المواطنون والجند خطر هذه السياسة في وقت لم تلتقط الدولة بعد أنفاسها، ولم تستعد قواها. وظهر التذمر بسرعة، وطلب المواطنون والجند عزل الصدر الأعظم، واستجاب السلطان لهذا الطلب (ولما يمض أكثر من خمسة أشهر على تعيين (دال طبان مصطفى باشا) في منصب الصدر الأعظم. وعين مكانه (رامي محمد باشا) الذي عاد للأخذ بنهج الصدر الأعظم السابق (كوبريلي حسين

---

(١) كارلوفتس: (CARLOVITZ) بلدة يوغوسلافية، تقع على نهر الدانوب، الى الجنوب الغربي من زغرب.

(٢) كامنك: (KAMENETS) بلدة تقع الى الجنوب من أوكرانيا - على حدود رومانيا.

باشا) وشرع في ابطال المفاسد، ومنع المظالم، ومعاقبة المرتشين. غير أن الإنكشارية الذين كانوا يميلون للعيش في مناخ الضعف والفوضى لما يوفره لهم من الفرص للسلب والنهب وهتك الأعراض، لم تعجبهم الشدة، فاهتاجوا واستثاروا معهم من هو مثلهم من المواطنين، فأرسل اليهم السلطان فرقة لتأديبهم وقمعهم، ولكن هذه الفرقة انضمت الى الثائرين الذين نجحوا في عزل السلطان مصطفى الثاني (يوم ٢ ربيع الآخر سنة ١١١٥ هـ = ١٥ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٧٠٣ م). ونصبوا مكانه أخيه (أحمد ابن محمد الرابع)[١] الذي بدأ عهده بتوزيع الأموال ـ بوفرة ـ على الإنكشارية، ووافق على طلبهم بقتل المفتي (فيض الله أفندي) لمقاومته لهم في أعمالهم. وعندما هدأت الأمور واستقرت، عمل السلطان أحمد الثالث على انزال العقاب العادل بقادة الإنكشارية، فقتل منهم عدداً كبيراً، وعزل الصدر الأعظم (نشانجي أحمد باشا) الذي كان قد انتخبه الإنكشارية إبان ثورتهم (في ٦ رجب سنة ١١١٥ هـ = ١٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٧٠٣ م) وعين مكانه زوج أخته داماد★ (حسن باشا) فانصرف للإصلاح، وعمل على بناء تجديد الترسانة، وأنشأ كثيراً من المدارس، ولكن لا هذه الإصلاحات وسواها، ولا قرابة الصدر الأعظم من السلطان، ضمنت حماية الصدر الأعظم من المؤامرات التي أدت إلى عزل (حسن باشا) في ٢٨ جمادى الأولى سنة (١١١٦ هـ = ٢٨ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٧٠٤ م). وتبع ذلك استبدال عدد من الرجال في منصب الصدر الأعظم. وكان من نتيجة ذلك انصراف الدولة العثمانية عن متابعة ما كان يجري حولها من تطورات، حيث كان (بطرس الأكبر) يعمل على إضعاف الأقوياء من مجاوريه: أي السويد وبولونيا والدولة العثمانية، وبدأ بتنفيذ مشروعه بأن حارب ملك السويد (شارل الثاني عشر)[٢] وانتصر عليه في

---

(١) السلطان الغازي أحمد خان الثالث: (١٠٨٣ ـ ١١٤٩ هـ = ١٦٧٣ ـ ١٧٣٦ م) تولى الحكم بعد عزل أخيه مصطفى الثاني (سنة ١١١٥ هـ = ١٧٠٣ م) واعتبر الثالث والعشرين في تسلسل الخلفاء العثمانيين. وقد تم عزله سنة ١١٤٣ هـ = ١٧٣٠ م وبقي في عزلته إلى أن وافته المنية.

(★) داماد: لفظ فارسي استعمل في التركية، ومعناه الصهر، وكان هذا اللفظ يستعمل مضافاً إلى الاسم بمعنى التشريف لمن كان متزوجاً من بنت السلطان أو من أخته.

(٢) شارل الثاني عشر: (CHARLES XII) ابن شارل الحادي عشر ملك السويد. ولد في استوكهولم =

(بولتافــا)[1] بعد مجموعة من المعارك المتتالية. وكان شارل الثاني عشر يأمل في الحصول على دعم الدولة العثمانية لمجابهة الخطر الروسي المشترك، فلجأ إلى مدينة (بنــدر)[2] وحاول استثارة الدولة العثمانية لشن الحرب على الروسيا. غير أن محاولاته المتتالية باءت بالفشل بسبب معارضة الوزير (كوبريلي نعمان باشا) للحرب. ولكن عندما عزل السلطان أحمد الثالث هذا الوزير - الصدر الأعظم - وعين مكانه (بلطه جي محمد باشا). اتجهت الدولة العثمانية إلى طريق الحرب مع الروسيا. وتولى الصدر الأعظم (بلطه جي) قيادة الجيش بنفسه، وتوجه به نحو الشمال.

توافرت المعلومات عند (بطرس الأكبر) عن تدهور الموقف في الشرق. كما علم أن سفيره في الآستانة قد حبس في (السبعة أبراج). وأن الباب العالي يحشد قوات ضخمة في سهول (أدريانوبل) فقرر عدم إتاحة الفرصة أمام العثمانيين للإمساك بالمبادأة. وأعلن الحرب على الدولة العثمانية وشرع بنقل ثقل قواته من مسرح عمليات البلطيق، إلى حدود دار الخلافة الإسلامية.

استطاع بطرس الأكبر استثارة مشاعر الروس كلهم ضد تركيا، فاستقبلوا إعلان الحرب بالبهجة، وباتوا وهم يعتقدون أنهم زاحفون لتحرير إخوانهم مسيحي المشرق من عبودية الأتراك المسلمين، وأنهم سيدمـرون أعداء السلاف القدماء. وكان بطـرس الأكبر قـد نجح أيضـاً في استثـارة عـواطـف سكـان

= (١٦٨٢ - ١٧١٨ م) تولى الملك سنة ١٦٩٧ م. ولصغر سنه طمع في ملكه ملك الدانمرك وملك بولونيا وقيصر روسيا. فحارب ملك الدانمرك وانتصر عليه في كوبنهاغن سنة ١٧٠٠ م. ثم انتصر على روسيا (في نارفا) وعلى ملك بولونيا - اوغستا - في كيسوم: (KISSWO) سنة ١٧٠٣م. ثم اتجه لحرب روسيا. فانتصر عليه بطرس الأكبر في بولتافا سنة ١٧٠٩ م. فلجأ إلى مدينة بندر. وعاد الى بلاده سنة ١٧١٥ م. ولم يلبث أن قتل برصاصة أثناء حصار: (FREDRIKSHALD). أو (HALDEN) في النروج. واعتبر شارل الثاني عشر من كبار قادة الحرب في عصره.

(١) بولتافا: (POLTAVA) مدينة تقع الى الجنوب الغربي من مدينة خاركوف (KHARKOV) من اقليم اوكوانيا - في الاتحاد السوڤييتي حالياً -. أو الى الجنوب الشرقي من كييف (KIEV).

(٢) بندر: (BENDERY) مدينة تقع على نهر دينيستر في الاتحاد السوڤييتي - شرق رومانيا - الى الشمال الغربي من أوديسا. وتعرف اليوم باسم: (BENDERIS).

(مولدافيا)[١] والصـــرب والجبل الأسود واليونان ضد العثمانيين المسلمين. وبات هؤلاء ينتظرون قيام بطرس الأكبر بتنفيذ وعوده لتحريرهم.

وقع بطرس الأكبر عند توجهه لحرب العثمانيين (سنة ١١٢٣ هـ = ١٧١١ م) بالخطأ الذي وقع فيه خصمه شارل الثاني عشر عندما شن الحرب ضد الروسيا قبل سنتين من ذلك، إذ أنه اعتمد في حربه على دعم غير مؤكد وغير مضمون من تلك الأقاليم والبلاد، كما أنه لم ينتظر وصول القوات التي كان قد وعده بإرسالها حليفه أمير ساكسونيا - اوغست - والتي كانت تضم ثلاثين ألف مقاتل. وهكذا تحرك بقواته من البلطيق شمالاً، وانحدر بها نحو الجنوب، وتجاوز نهر الدنيبر، واجتاح (مولدافيا) فوجدها شبه صحراء مقفرة تكاد تكون خالية من السكان. وقد أتى الجراد على ما تبقى فيها من المواد التموينية. وأعلن حاكم (مولدافيا) في الوقت ذاته انحيازه الى السلطان. وعندما وصل بطرس بجيشه الى ضفاف نهر (بروث)[٢] لـم يكن معه أكثر من ثلاثين ألف مقاتل، وقد استنزف المسير الشاق والجهد المستمر قدرتهم، فيما كان هنـاك ٢٠٠ ألف جندي مسلم قد أحاطوا بنهر بروث، وطوقوا قوات الغزو الروسية. وتقرر مصير المعركة من قبل أن تبدأ. غير أن القوات الروسية حاولت مقاومة المسلمين العثمانيين والتتار، ولكن هذه المقاومة كانت ضرباً من العبث. إذ لم تلبث مضارب الجيش الروسي (خيامه) أن غصت بالجرحى من الرجال والنساء. وانتشرت روح الذعر والهلع فسيطرت على كافة المقاتلين الروس. وهنا تدخلت الامبراطورة (كـاتريـنـا)[٣]

---

(١) مولدافيا: (MOLDAVIE-OU-MOLDOVA) مقـاطعـة على الدانـوب، اتحدت سنـة ١٨٥٩ م مع فالاشي (VALACHIE) وشكلت الدولة الرومانية التي استمرت حتى سنة ١٩١٨ م. وتتاخم سهولها في الشرق جبال الكربات، ويمر منها نهر سرت: (SIRET) وعاصمتها ياشي: (IASHI) ويقع قسم من مولدافيا على الضفة اليسرى لنهر دنيستر (وقد شكل هذا القسم جمهورية سوفييتية مرتبطة باوكرانيا سنة ١٩٢٤.

(٢) بروث: (BRUT) نهر ينبع من جبال الكربات ويصب في نهر الدانوب. ويفصل مولدافيا عن رومانيا، وطوله ٨١١ كيلومتراً.

(٣) كاترينا الأولى: (CATHERINE I) زوجة بطرس الأكبر. أصلها من عائلة فقيرة من إحدى ولايات ليفونيا، تزوجت أولاً بجندي سويدي، ثم أخذت أسيره سنة ١٧٠٢ م عند فتح روسيا

فأضرمت نار الحماسة في نفوس الجند بما أظهرته من الحزم والشجاعة. وجمعت كل ما كان في معسكر الروس من حلي ومجوهرات، وأرسلتها إلى الصدر الأعظم (بلطه جي محمد باشا) الذي كان يتولى قيادة الجيش بنفسه. كما ألحت على القيصر بطرس بأن يرسل مفاوضين من قبله إلى معسكر الأتراك للتفاوض معهم على شروط مناسبة يمكن لها إنقاذ الجيش الروسي من المأزق الذي بات يتهدده بالفناء. وأظهر القيصر بطرس استعداده للتضحية بكل ما يطلبه الصدر الأعظم، على أن يضمن له المحافظة على ملكية آزوف وليفونيا وأستونيا وكارليا. وأظهر بطرس تمسكه خاصة (بانغريا) ورغبته في المحافظة عليها، واعتبر أن ضياعها منه معادل لضياع عاصمته الجديدة (بيتر سبورغ). وأكد أنه مستعد لخسارة بسكوف وعدم خسارة (أنغريا). ومقابل ذلك، أعلن بطرس عن استعداده للتسليم بمسألة بولونيا، وأعلن أيضاً رفضه للاستسلام حتى لو أدى الأمر لمتابعة الحرب حتى فناء القوة الروسية عن آخرها. وفي النهاية، تم التوقيع على معاهدة (**فلكزن ـ أوبروث) في يوم ٩ جمادى الآخرة سنة ١١٢٣ هـ = ٢٥ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٧١١ م.**

وسمح للقوات الروسية بالانسحاب، مع إخلاء مدينة (آزاق ـ آزوف) والتعهد بعدم التدخل في شؤون القفقاس (القوقاز) مطلقاً. وقد أظهر الصدر الأعظم من التساهل ما لم يكن يتوقعه القيصر بطرس، والذي كان مقتنعاً أنه من المحال بأن يطلق العثمانيون سراحه، أو السماح له ولقواته بالانسحاب، غير أن الصدر الأعظم كان يرغب في إقامة علاقات حسنة مع بطرس الأكبر، وعدم إذلاله بشروط شائنة، فاكتفى باسترجاع آزوف، وهدم قلاع وحصون (طيغان ـ أو تاغانروغ كما باتت معروفة). وكان ملك السويد (شارل الثاني عشر) يحتدم غيظاً وهو يتابع المفاوضات، إذ كان يرغب أن تدمر له القوات العثمانية عدوه بطرس الأكبر وقواته، ولهذا فعندما

= مدينة مريم بورغ. فاتخذها الأمير منشكوف خليلة له، وعرفها بطرس الأكبر فأعجبته واتخذها لنفسه سنة ١٧١١ م ورافقته في معظم حروبه. وتزوجها بطرس الأكبر بعد أن رزق منها بعدة أولاد، وجعل منها امبراطورة سنة ١٧٢٤. وتولت الحكم بعده حتى ماتت سنة ١٧٢٧ م.

فشلت جهوده، عمل بمساعدة خان القرم (دولت كراي) على استصدار مرسوم من السلطان أحمد الثالث بعزل الصدر الأعظم (بلطه جي محمد باشا) ونفيه - ابعاده - الى جزيرة لمنوس. وتولى بعده (يوسف باشا) منصب الصدر الأعظم، فوقع مع الروسيا معاهدة جديدة تقضي بايقاف الأعمال العدوانية لمدة خمس وعشرين عاماً. ولكن لم تمض على هذه المعاهدة أكثر من بضعة أشهر حتى اندلعت نار الحرب من جديد، بسبب امتناع بطرس الأكبر عن تنفيذ شروط معاهدة (فلكزن أو بروث) وأهمها تخريب قلاع (تجانزك - أو تاغانروغ) [1] وتدمير السفن الروسية في البحر الأسود. فتدخلت انكلترا وهولاندا في منع الحرب لما تلحقه من الضرر بتجارتها. ونفذ بطرس الأكبر كل الشروط التي فرضتها الدولة العثمانية والتي سبق ذكرها، بالإضافة الى الالتزام بعدم التعرض لملك السويد، والسماح له بالعودة إلى مملكته، والانسحاب من جميع الأراضي الواقعة على ابحر الأسود، حتى لم يبق للروسيا موانيء أو ثغور. ومقابل ذلك نصت هذه المعاهدة الجديدة التي عرفت باسم **(معاهدة أدرنه) والتي وقعت في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١١٢٥ هـ (١٨ حزيران - يونيو - سنة ١٧١٣ م)** على ابطال ما كانت روسيا تدفعه سنوياً لأمراء القرم بصفة جزية حتى لا يتعرضوا لقوافلها التجارية. وعندئذ يئس ملك السويد من الحصول على دعم الدولة العثمانية لسحق دولة الروسيا. فغادر (بندر) بعد أن أقام فيها لمدة سنتين تقريباً في حماية (خان القرم دولت كراي) وضيافته، ورجع الى بلاده في أول تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٧١٣ م.

وعمل (بطرس الأكبر) على تغطية هزيمته بإقامة الاحتفالات والمهرجانات - لعودته سالماً إلى عاصمته -. غير أن ذلك لم يحجب ما هيمن عليه من الحزن وما داخله من الكآبة، فقد زحف لتخليص المسيحيين وتحريرهم من حكم المسلمين، ولكنه عاد بعفو من السلطان العثماني أحمد الثالث، فكان في

---

(١) تاغانروغ - تجانزك: (TAGANROG) مدينة في الاتحاد السوفييتي، تقع على بحر آزوف. وكانت منذ القديم تحت حكم الأتراك المسلمين، الذين عرفوها باسم (طيغان).

ذلك من الإذلال ومن الاحباط قدراً يزيد على ما يستطيع بطرس احتماله، فمضى للبحث عن النصر في أمكنة أخرى.

أفاد الصدر الأعظم (داماد علي باشا) الذي جاء بعد (علي باشا) من توقف القتال على الجبهة الروسية، فوجه جهد الدولة نحو جبهة الغرب، وأعلن الحرب على البندقية، واستطاع الجيش العثماني بالتعاون مع الاسطول أن يستعيد السيطرة على شبه جزيرة المورة بكاملها، وتم طرد بقايا البنادقة من جزيرة (كريت) ولم يبق للبنادقة في بلاد اليونان إلا جزيرة كورفو. فاستعانت البندقية بامبراطور النمسا شارل الثالث باعتباره أحد الموقعين على معاهدة (كارلوفتس). ونظراً لانتهاء الحرب بين النمسا وفرنسا بالتوقيع على معاهدة (اوتريخت) [١] فقد بات باستطاعته تقديم الدعم للبندقية، غير أنه عمل قبل ذلك على ارسال مذكرة الى السلطان أحمد الثالث طلب إليه فيها إعادة كل ما فتحته القوات العثمانية من بلاد البنادقة مما كان قد أقرّ لهم بملكيته في معاهدة (كارلوفتس). وتضمنت المذكرة بأن امتناع الدولة العثمانية عن تنفيذ هذا الشرط هو بمثابة إعلان للحرب. ورفضت الدولة العثمانية قبول هذه المذكرة. فوجهت النمسا جيوشها بقيادة (الأمير أوجين دوسافوا) - والذي سبقت الإشارة إليه -. ووقعت معركة (بتروادين) بين الجيشين العثماني والنمساوي يوم ٥ - آب - أغسطس - سنة ١٧١٦ م. وبعد قتال ضار، انتصر الجيش النمساوي، وقتل الصدر الأعظم (داماد علي باشا) الذي زجّ بنفسه في مواقع الخطر حتى لا يعيش بعد الهزيمة. واستثمر الأمير (أوجين) انتصاره في (بتروادين) [٢] فانطلق بجيشه الى مدينة (طمشوار) وألقى الحصار عليها لمدة أربعة وأربعين يوماً إلى أن تمكن من فتحها. ثم انتقل الى (بلغراد) فحاصرها إلى أن تمكن من فتحها بعد أن انتصر على الصدر الأعظم الجديد (خليل

---

(١) اوتريخت: (UTRECHT) مدينة في الجنوب الغربي من هولاندا، عند نهاية خليج يقع على المحيط الأطلسي، اشتهرت بالمعاهدة التي وقعت فيها فرنسا واسبانيا وانكلترا وهولاندا سنة ١٧١٣ م، والتي وضعت حداً لحرب الوراثة الإسبانية.

(٢) بتروادين: (PETERWARDEIN-PETROVARDIN) مدينة في غوسلافيا، تقع على نهر الدانوب. اشتهرت بانتصار الأمير أوجين على العثمانيين سنة ١٧١٦ م.

باشا) الذي قاد قوات الدعم لمساعدة المدينة. ثم بدأت الاتصالات والمفاوضات للصلح، وتم الوصول إلى ذلك بمعاهدة (بيساروفتش)[1] في ٢٢ شعبان سنة ١١٣٠ هـ (٢١ تموز - يوليو - سنة ١٧١٨ م) ونصت هذه المعاهدة على أن تحتفظ النمسا بولاية (طمشوار) ومدينة (بلغراد) مع قسم كبير من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ. وأن تبقى جمهورية البندقية محتلة لثغور شاطىء (دالماتيا). وأن تعاد بلاد الموره الى الدولة العثمانية.

واستثمرت الروسيا هذا الموقف فعادت وطلبت إلى الدولة العثمانية إضافة بنود إلى المعاهدة السابقة، تسمح لتجارها بالمرور عبر الأراضي التابعة للدولة العثمانية، وبيع سلعهم فيها، والسماح لحجاجها بالتوجه للقدس وغيرها من الأماكن الدينية، بدون دفع خراج مدة إقامتهم، أو رسوم على جوازات المرور.

فوافقت الدولة العثمانية. وأضافت إلى هذه المعاهدة الجديدة المؤرخة في ٩ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٧٢٠ م، شرطاً وهو تعهد كل من الروسيا والباب العالي بمنع زيادة نفوذ الملك المنتخب ببولونيا على نفوذ الأمراء. وعدم تمكينه من جعل منصبه وراثياً في عائلته، ومنع حدوث هذين الأمرين بكل الوسائل المتاحة - بما فيها الحرب -. ونجحت روسيا بذلك من حد حرية العمل السياسي للدولة العثمانية، وتمكنت من عزل الدولة العثمانية عن بولونيا، كما نجحت من قبل في عزلها عن السويد، وبذلك صار بوسع الروسيا إضعاف جوارها على التتابع.

حدث خلال هذه الفترة اضطراب على جبهة الفرس (العجم) فقد أقدم أمير أفغانستان (مير محمد) بمهاجمة بلاد فارس، وأرغم الشاه حسين على التنازل عن ملكه، فأسرع الصدر الأعظم (داماد ابراهيم باشا) والذي تم تعيينه سنة ١١٣٠ هـ = ١٧١٨ م. فقاد الجيش العثماني، واحتل بلاد الكرج وأرمينيا.

إلا أن بطرس الأكبر تحرك بسرعة أكبر، واجتاز جبال القوقاز (القفقاس) التي كانت تحد بلاده من جهة الجنوب، واحتل اقليم

---

(١) بساروفتش: بلدة تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة بلغراد.

(طاغستان)[1] مـع كافة سواحل بحر الخزر الغربية، ووقعت احتكاكات كادت تؤدي الى حرب بين الجيوش العثمانية والجيوش الروسية. وأدرك بطرس الأكبر أن جيوشه لا تستطيع الصمود في مواجهة الجيوش العثمانية المتفوقة، فأسرع بطلب وساطة فرنسا التي كلفت سفيرها بالآستانة (المسيو دوبو) بإجراء الوساطة، والتوفيق بين الطرفين. ونجح السفير الفرنسي في تنفيذ مهمته، وتم الاتفاق على أن يحتفظ كل طرف بما احتله من البلاد، وتم التوقيع على معاهدة بهذه الشروط (في ٢ شوال ـ سنة ١١٣٦ هـ = ٢٤ حزيران ـ يونيو سنة ١٧٢٤ م).

لم يقبل الفرس بهذا التقسيم المهين لشرفهم وعزّتهم، والقاضي بضياع جزء كبير من بلادهم. واتحدوا لمحاربة الأجانب وإخراجهم من ديارهم، لكنهم لم يتمكنوا من الصمود في وجه هجوم القوات العثمانية التي فتحت في سنة ١١٣٧ هـ = ١٧٢٥ م عدة مدن وقلاع من أهمها: همذان واريوان وتبريز، وساعد على ذلك استمرار الصراع على جبهة شرقي فارس بين ملك أفغانستان (الشاه أشرف الذي قتل مير محمد وحلّ محله) وبين ملك الصفويين ـ الساسانيين ـ الشاه طهماسب. وانتهت هـذه الحرب بالصلح مع الشاه أشرف في ٢٥ صفر سنة ١١٤٠ هـ (١٢ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٧٢٧ م). ولكن الشاه أشرف لم يعمر طويلاً، وعاد طهماسب للملك، فطلب الى الدولة العثمانية أن ترد إليه كل ما أخذته من بلاد أجداده. فلم تجبه الدولة العثمانية لما طلب، وعندها قاد قواته وأغار على بلاد الدولة العثمانية. ووجد السلطان أحمد أن من مصلحة الدولة عقد صلح مـع طهماسـب، إلا أن الإنكشـاريـة أظهـروا تمردهـم ـ كالعادة ـ واستثاروا حماسة المواطنين، وطلـب زعيم التمـرد (بطـرونـا خليـل) مـن السلطان قتل الصدر الأعظم والمفتي وأمير البحر (قبودان باشا) بحجة رغبتهم في عقد

---

(١) طاغستان: ومعناها البلاد الجبلية، إقليم بآسيا يقع شرقي بلاد كرجستان، ومحصور بين بحر الخزر وجبال القوقاز، كان تابعاً لحكم الفرس، ثم تنازلوا عنه لحكومة الروسيا سنة ١٨١٦ م. أهم مدنه (مدينة باكو ـ باب الأبواب) الواقعة على بحر الخزر والشهيرة بآبار البترول، وقد أنشئت منها حديثاً خط حديدي يصل إلى ثغر باطوم على البحر الأسود، مروراً بمدينة (تفليس) لتسهيل نقل البترول وتصديره إلى الخارج.

صلح مع العجم (الفرس) وذلك يوم ١٥ ربيع الأول سنة ١١٤٣ هـ (٢٨ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٧٣٠ م). فامتنع السلطان أحمد عن الاستجابة لطلب المتمردين في بداية الأمر، لكنه عندما عرف قوة المتمردين وتصميمهم على تنفيذ مطالبهم بالقوة، سلم لهم بقتل الوزير والأميرال ـ دون المفتي ـ فقبلوا وألقوا جثثهم إلى البحر. ثم ما لبثوا وقد طمعوا فيما أظهره السلطان أحمد الثالث من التراجع والتساهل، أن أعلنوا خلع السلطان في مساء اليوم ذاته، ونادوا بأخيه السلطان (محمود الأول)[1] خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين. فتنازل السلطان عن الملك بدون معارضة، ولم تشفع له انجازاته عند الإنكشارية، والتي كان في جملتها أنه أول من أدخل المطبعة إلى بلاده، وأسس داراً للطباعة في الآستانة، بعد الحصول على موافقة المفتي، واصدار فتوى بذلك نصت على عدم طبع القرآن الكريم خوفاً من التحريف.

تولى السلطان محمود الأول الخلافة وليس له من الأمر شيء، فقد مضى (بطرونا خليل) في عتوه وطغيانه وقد أثمله النصر، حتى عيل صدر السلطان من استبداده وجبروته، واتفق زعماء الإنكشارية على الفتك به تخلصاً من شرّه، ولاعتدائه على حقوقهم؛ ولم يتمكن أنصاره من إنقاذه. فتم قتله، وخمدت نار الفتنة، واستتب الأمن، وصار باستطاعة الدولة العثمانية توجيه جهدها لمتابعة الحرب ضد الفرس (العجم). فانطلقت جيوش العثمانيين، وانتصرت على جند طهماسب في مجموعة من المعارك المتتالية، أهرقت خلالها سيول من الدماء، وأزهقت فيها أرواح كثيرة. فطلب الشاه طهماسب الصلح. وعقدت اتفاقية الصلح في ١٢ رجب سنة ١١٤٤ هـ = ١٠ كانون ثاني ـ يناير ـ سنة ١٧٣٢ م. وتضمنت تخلي دولة الفرس (العجم) للدولة العثمانية عن كل ما فتحته، ما عدا مدن تبريز وأردهان وهمذان وباقي أقاليم لورستان. ولكن

---

(١) السلطان الغازي محمود خان الأول (١١٠٨ ـ ١١٦٨ هـ = ١٦٩٦ ـ ١٧٥٤ م) تولى الخلافة سنة ١١٤٣ هـ = ١٧٣٠ م. وهو ابن السلطان مصطفى الثاني، واعتبر السلطان الرابع والعشرين في تسلسل الخلفاء العثمانيين. اشتهرت فترة خلافته بالعدل. وأمر ببناء أربع دور ضخمة للكتب ألحقها بجوامع آيا صوفيا ومحمد الفاتح وسرايا غلطة. وتمكن في فترة خلافته من إعادة هيبة الدولة. ولهذا فقد ترك موته حزناً عميقاً في نفوس المسلمين جميعاً.

أكبر ولاة الدولة (نادر خان) [1] عـارض هـذه الاتفـاقيـة، وتصـدى لمقـاومتهـا وإحباطها، وسار بجيوشه إلى مدينة أصفهان، وعزل الشاه طهماسب، وولى مكانه ابنه القاصر (عباس الثالث) وأقام نفسه وصياً عليه. ثم قصد البلاد العثمانية، وانتصر على العثمانيين، وحاصر مدينة (بغداد) فأسرع الصدر الأعظم طوبال (أي الأعرج) عثمان باشا، وقاد الجيش العثماني، وجرت بينهما اشتباكات ومعارك قتل فيها الصدر الأعظم عثمان باشا. فطلبت الدولة العثمانية الصلح، وجرت مفاوضات طويلة انتهت باتفاق الدولة مع نادرخان في ١٨ جمادى الأولى سنة ١١٤٩ هـ = ٢٤ أيلول - سبتمبر - سنة ١٧٣٦ م. في مدينة تفليس، حيث نودي بنادرخان ملكاً علي الفرس (العجم) على أن تعيد الدولة العثمانية لبلاد الفرس كل ما أخذته منها، وأن تكون حدود الدولتين كما سبق الاتفاق عليه في معاهدة سنة ١٦٣٩ م. والذي تم ابرامه في زمن السلطان الغازي مراد الرابع.

تجددت الحرب خلال ذلك بين الدولة العثمانية ودولة الروسيا بسبب المسألة البولونية، ذلك أن دول الروسيا وبروسيا والنمسا كانت قد عقدت اتفاقاً سرياً فيما بينها سنة ١١٣٥ هـ = ١٧٢٢ م. بعدم السماح لبولونيا بتعيين ملك من أهلها. وفرض ملك ترضى عنه الدول الثلاث.

---

(١) الشاه نادر خان - زعيم قبائل الافشار التركمانية، ولد في خراسان (١١٠٠ - ١١٦٠ هـ = ١٦٨٨ - ١٧٤٧ م) انضم الى الشاه طهماسب عندما حارب الأفغان سنة ١٧١٦ م. وعندما تنازل طهماسب عن دعواه بأنه سلطان وإمام للمسلمين - بمرتبة الخليفة العثماني. انبرى نادرخان - قولي - لحرب الأفغانيين، فهزمهم وهزم طهماسب عند (مهمان دوست) سنة ١٧٣٠ م. وتسمى باسم (نادر طهماسب قولي خان) تيمناً باسم متبوعه شاه فارس، وما لبث أن خرج على مولاه، وتوج ابن الشاه - عباس - وكان طفلاً في المهد. ونصب نفسه وصياً. وعقد معاهدة مع الروسيا، ووجه جهده لمحاربة العثمانيين. وعمل (الشاه نادرخان) على فرض مذهب جديد (باسم المذهب الخامس) اتخذ اسمه من الإمام جعفر الصادق. وقام بالحج الى مدن العراق المقدسة، وحصل على الاعتراف بهذا المذهب من مؤتمر للعلماء الشيعة - عقد في النجف -. ولكن الدولة العثمانية رفضت الاعتراف بهذا المذهب، غير أن نادرخان وجد نفسه في النهاية مرغماً على الاعتراف بإمامة السلطان العثماني، والتخلي عن مزاعمه. وتميز حكم نادر خان بالقسوة المفرطة، وبتلال الجماجم التي كانت تخلفها جيوشه حيثما سارت، مما أدى في النهاية الى حل رجاله على قتله.

وكان هدف الروسيا من ذلك هو إضعاف الحكم ببولونيا، من خلال تعيين حكام (ملوك) عملاء لا ينتسبون للشعب البولوني أو يستجيبون لرغباته، مما يتيح الفرصة أمام الروسيا لابتلاع بولونيا، أو على الأقل تقسيمها بينها وبين المجاورين لبولونيا بحيث تحتفظ هي بالقسم الأكبر من بولونيا. فلما توفي ملك بولونيا (اوغست الثاني)[1] في سنة ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ م. انتخب المواطنون (ستانسلاس لكزنيسكى)[2] ملكاً عليهم بدعم من ملك فرنسا الذي كانت سياسته تعتمد على الإبقاء على بولونيا قوية، يحكمها ملك من أهلها. وردت الروسيا والنمسا على ذلك بإعلان الحرب على بولونيا، وعملتا على تنصيب أوغست الثالث - ابن أوغست الثاني - ملكاً على بولونيا. ولم تعترفا بانتخاب البولونيين لملكهم. فما كان من فرنسا إلا أن أعلنت بدورها الحرب على النمسا، دفاعاً عن حق البولونيين في اختيار ملكهم. وأرسلت الى الخليفة العثماني وسيطاً لإقناعه بضرورة وقوف الدولة العثمانية الى جانب فرنسا. وكان هذا الوسيط هو - المسيو دونفال الذي أشهر إسلامه ووضع نفسه في خدمة الدولة العثمانية واشتهر باسم قائد المدفعية أحمد باشا -. فعمل على شرح سياسة بلاده الهادفة للمحافظة على استقلال بولونيا حتى تبقى حاجزاً منيعاً في وجه مطامع الروسيا، والتي لا تقف عند حدود، بل إنها تمتد لإزالة الدولة العثمانية ذاتها وفقاً لما تضمنته وصية (بطرس الأكبر) لخلفائه. ولكن الدولة العثمانية تجنبت الاستجابة

---

(١) أوغست الثاني: (AUGUSTE II) منتخب الساكس - الكتر - (١٦٧٠ - ١٧٣٣م) ولد في دريسد DRESDE - وانتخب ملكاً على بولونيا بعد وفاة سوبيسكي: (J.SOBIESKI) سنة ١٦٩٧ م. وقد عزله ملك السويد شارل الثاني عشر، وحلّ محله ابنه الشرعي موريس دوساكس (MAURICE DE SAXE). ثم جاء ابن أوغست الثاني باسم (أوغست الثالث) والذي كان من مواليد دريسد أيضاً، سنة ١٦٩٦ م. فدخل في منافسة مع ستانسلاس لكزنيسكي على حكم بولونيا، وأصبح ملكاً على بولونيا (١٧٣٣ - ١٧٦٣ م) وكانت ابنته ماري جوزيف هي أم ملك فرنسا لويس السادس عشر.

(٢) ستانسلاس لكزنيسكي: (STANISLAS LECZINSKI) من مواليد لفوف (LWOW) (١٦٧٧ - ١٧٦٦ م) أصبح ملكاً على بولونيا سنة ١٧٠٤ م ثم ملكاً لدوقيات بار: (BAR) واللورين، وأصبح عماً - والد زوجة الملك الفرنسي لويس الخامس عشر، إذ زوجه ابنته، ثم خلفه ستانسلاس الثاني، وهو آخر ملك بولوني (١٧٣٢ - ١٧٩٨ م) وقد تنازل عن العرش سنة ١٧٩٥ م.

لرغبات فرنسا، مما ساعد الروسيا على هزيمة (ستانسلاس) واجتاحت جيوشها مملكة بولونيا كلها. وخشيت النمسا من نجاح فرنسا في مسعاها للتحالف مع الدولة العثمانية، مما قد يحبط جهودها المشتركة مع الروسيا في بولونيا، فسارعت لإرضاء فرنسا. وأبرمت معها معاهدة ڤيينا في سنة ١١٤٨ هـ = ١٧٣٥ م.

وأخذت في الإعداد للاشتراك مع الروسيا في شن الحرب على الدولة العثمانية، وأوعزت النمسا الى الروسيا ببدء الحرب. فاتخذت روسيا من مرور بعض قوزاق القرم من أراضيها - في آذار - مارس - ١٧٣٦ - متجهين الى بلاد الكرج لمساعدة الجيش العثماني في حربه ضد بلاد فارس، حجة لإعلان الحرب، وأغارت بكل قواها على بلاد القرم، واحتلت ميناء آزاق (آزوف) وغيرها من الثغور البحرية.

جابهت الدولة العثمانية موقفاً صعباً، فقد انفتحت عليها جبهتان في وقت واحد. فانطلق الصدر الأعظم (الحاج محمد باشا) للعمل بكل شجاعة وحكمة، وأخذ في حشد القوى، وتجهيز الوسائط وأمكن له خلال فترة قصيرة ايقاف زحف الجيوش الروسية التي كانت قد اجتاحت إقليم البغدان، واحتلت عاصمته (ياسي). ونجحت الجيوش العثمانية الأخرى في تحقيق انتصارات حاسمة على جيوش النمسا التي كانت قد اجتاحت بلاد البوسنة والصرب والفلاخ، وانطلق المسلمون الظافرون لطرد النمساويين وإرغامهم على الانسحاب والجلاء عن الصرب، تاركين في كل موضع قدم جثث قتلاهم، حتى تقهقروا إلى ما وراء نهر الدانوب (سنة ١١٥٠ هـ = ١٧٣٧ م) وتابع المسلمون انتصاراتهم مما أعاد لأذهان الروس والنمساويين ذكريات انتصارات محمد الفاتح وسليمان القانوني. وأسرعت النمسا الى فرنسا تطلب وساطتها لإيقاف الحرب. فكلفت فرنسا سفيرها (فلنوف) الذي قبل الوساطة بكل ارتياح. وسار إلى معسكر الصدر الأعظم، وتقدم إليه بعرض الصلح - بالنيابة عن النمسا - فاشترط الصدر الأعظم شروطاً ما كانت النمسا لتقبلها لولا انتصار المسلمين ذاك الانتصار الحاسم على الجيش النمساوي يوم ٢٣ تموز - يوليو - سنة ١٧٣٩ م. وكان هذا الفوز الأخير هو العامل الأساسي في الصلح الذي تم بين الدولة العثمانية والنمسا والروسيا، والذي تضمنته

بنود (**معاهدة بلغراد - يوم ١٤ جمادى الآخره سنة ١١٥٢ هـ = ١٨ - أيلول - سبتمبر - ١٧٣٩ م**) حيث تنازلت النمسا للدولة العثمانية عن مدينة بلغراد، وما أعطي لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى معاهدة بساروفتش. كما تعهدت قيصرة روسيا (حنة ايفانوفنا) بهدم قلاع ميناء آزاق، وعدم تجديدها في المستقبل، وبعدم إدخال سفن حربية أو تجارية إلى البحر الأسود أو بحر آزاق، بحيث تقوم روسيا بنقل تجارتها على سفن أجنبية وبأن ترد للدولة كل ما فتحته من الأقاليم والبلاد.

استثمرت فرنسا - كعادتها - التحولات الجديدة لمصلحتها، فبذل سفيرها (المسيو فلنوف) جهده لإقناع السلطان محمود الأول من أجل التحالف مع السويد للوقوف في وجه مطامع لروسيا، ومحاربة روسيا إذا ما اعتدت على السويد حتى لا يلحق بها ما لحق ببولونيا. فاقتنع السلطان محمود، وأبرمت الدولة العثمانية مع السويد معاهدة هجومية - دفاعية ضد الروسيا (في سنة ١١٥٣ هـ = ١٧٤٠ م). كما عمل سفير فرنسا على تجديد الامتيازات القنصلية وكافة المزايا الممنوحة للتجار الفرنسيين. ووقع الطرفان على هذه المعاهدة الجديدة في ١٧ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٧٤٠ م. وأرسل السلطان محمود الأول سفيراً (اسمه سعيد) ليقدم صورة المعاهدة إلى ملك فرنسا لويس الخامس عشر، مع كثير من الهدايا الثمينة. فقابله ملك فرنسا بحفاوة بالغة، وأكرمه إكراماً يليق ومقام السلطان الذي أرسله. وشيعه عند عودته بالتبجيل والإجلال، وأرسل معه مركبين حربيين، وجملة من المدفعية الفرنسية هدية منه للخليفة، كما أرسل عدداً من الخبراء بالمدفعية، لتدريب الجنود العثمانيين على الأنظمة الجديدة التي تم تبنيها في الجيش الفرنسي.

توفي امبراطور النمسا (شارل السادس) في ٢٠ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٧٤٠ م، وخلفته بعدئذ في الحكم ابنته (ماريا تيريزا) [١] فتحالفت فرنسا مع بعض

---

(١) ماريا تيريزا: (MARIE THERESE D'AUTRICHE) امبراطورة جرمانيا وملكة هنغاريا وبوهيميا. ولدت في ڤيينا (١٧١٧ - ١٧٨٠ م) تزوجت من فرانسوا دوق اللورين (FRANCOIS I DE LORRAINE). وأصبحت أم جوزيف الثاني وماري انطوانيت، اشتهرت بالحزم والشجاعة خلال =

الدول لمحاربة النمسا واقتسام أملاكها نظراً لما كان بين (آل بـوربـون)[1] و(آل هبسبورغ)[2]مـن المنـافسـة التقليـديـة بين الأسرتين الحاكمتين واللتين تعـودان في جذورهما إلى القرن العاشر الميلادي. فكانت سياسة فرنسا التقليدية هي تدمير منافستها النمسا والقضاء على وجودها. وقد أفاد ملك فرنسا (لويس الخامس عشر) من مـوت شارل السادس ليبدأ ما عرف باسم (حرب الوراثة النمسـاويـة)[3]. وقد حاول ملك فرنسا عندما بدأ الحرب، أن يجتذب إليه من جديد الدولة العثمانية، فأرسـل إلى سفيره في الآستانة ليقنع السلطان محمود الأول بما تحصل عليه الدولة العثمانية من الفائدة لو أنها تحالفت مع فرنسا لشن الحرب ضد النمسا، وعرضت فرنسا على السلطان أن تحتل جيوشه بلاد المجر، وأن تعيدها لحكم العثمانيين. مما يساعدهم بالتالي على التصدي لدولة روسيا وإيقاف توسعها. وأكدت لها مرة أخرى بأنها إن لم تستثمر هذه الفرصة فإن الروسيا ستتابع سياستها التوسعية، وستتزايد قوتها، بحيث تصبح خطراً على الدولة

= حرب السبع سنوات، وشاركت في تقسيم بولونيا.

(١) آل بوربون: (MAISON DE LA BOURBON) أسرة حاكمة عرفتها أوروبا وتمتد جذورها إلى القرن العاشر الميلادي عبر أسرة دامبيير: (DAMPIERRE) والكابيسيين: (CAPETIENNE) والتي حكمت فرنسا واسبانيا، ومنها لويس الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، وقد دمرت الثورة الفرنسية هذه السلالة.

(٢) آل هبسبـورغ: (MAISON DE HABSBOURG) أسرة حـاكمـة تعـود في أصـولها الى الجرمـان وعاصرت آل بوربون في نشأتها الأولى وتوسعها فيما بعد، غير أنها بقيت مرتبطة بأصلها (السواب: SOUABE)) وحكمت بصورة رئيسة في ألمانيا وسويسرا والالزاس وبوهيميا وبالرغم من المصاهرة التي كانت تتم بين هذه الأسرة والبوربونيين، إلا أن المنافسة والحروب بقيت قائمة ومتجددة بين الأسرتين. وكانت هنغاريا وأسبانيا والبلاد المنخفضة وقسماً من ايطاليا هي مسرح الصراع الرئيسي بين الأسرتين (المعسكرين).

(٣) حـرب الوراثـة النمسـاويـة: (GUERRE DE LA SUCCESSION D'AUTRICHE) هـي حـرب تفجرت بسبب طموح فريدريك الكبير - ملك بروسيا، لتوحيد الجرمان تحت قيادته وضم سيليزيا لبلاده. وقد استمرت سبع سنوات (١٧٤٠ - ١٧٤٨ م) ووقفت فيها فرنسا وبروسيا ضد (ماريا تيريزا) وعملتا على تنصيب أمير بافاريا باسم شارل السابع، واجتاح فريدريك الكبير سيليزيا سنة ١٧٤٥ م. وتوفي أثناء ذلك شارل السابع، غير أن الحرب استمرت مع فرنسه في البلاد المنخفضة والمانيا وايطاليا. وانتهت هذه الحرب بمعاهدة (اكس لاشابيل).

العثمانية ذاتها. ولكن السلطان محمود امتنع عن قبول هذا الاغراء، وكتب إلى ملوك الدول المتحاربة دعاهم إلى الصلح فيما بينهم.

وقعت الدولة العثمانية خلال هذه الفترة في خطأ في إدارة اقليمي الفلاخ والبغدان، أفادت منه الروسيا واستثمرته إلى أبعد الحدود، فقد عملت الدولة على نزع السلطة من أشراف البلاد خوفاً من تمردهم وعصيانهم بتأثير تحريض الروسيا لهم على الاستقلال، وعملت على تعيين أغنياء تجار الروم المقيمين في الآستانة، أمراء ممتازين لحكم الفلاخ والبغدان مقابل خراج سنوي يتم دفعه لخزانة الدولة، وكانت تمنح هذه المناصب لمن يدفع خراجاً أكثر من غيره. فكان هؤلاء الحكام يمارسون الظلم الفادح للحصول على أضعاف ما يقدمونه لخزانة الدولة. مع ما يلازم هذا الظلم من الفتك بأمراء البلاد ونبلائها - الأصليين، وقتل من يخالف سياستهم الإدارية الجائرة. فهاجرت عائلات كثيرة، وانقرضت، وحلّت محلها عائلات جديدة أكثرها من تجار الروم. الأمر الذي أفسح المجال الرحب أمام التحريض الروسي، حيث بات المواطنون في الإقليمين المذكورين يتطلعون إلى الروسيا على أنها المنقذ لما هم فيه من الظلم والجور وسوء الإدارة.

جاء بعد ذلك السلطان (عثمان الثالث)[1] فلم يعمر طويلاً، ولم يتميز عهده بإحداث مثيرة على مستوى السياسة الخارجية، أو حتى على مستوى الإدارة الداخلية، باستثناء قتله للصدر الأعظم (نشانجي علي باشا) والذي اعتمد على الظلم في إدارته للبلاد، فلما علم السلطان بذلك، خلال جولاته التي كان يقوم بها متنكراً لتفقد أحوال الرعية والوقوف على حقيقة أحوالهم. ولما تأكد بنفسه بما يرتكبه وزيره من أنواع المظالم والمغارم، أمر بقتله ووضع رأسه في طبق أمام السرايا عبرة لغيره (في ١٦ محرم سنة ١١٦٩ هـ = ٢٢ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٧٥٥ م. وعين مكانه (محمد راغب باشا) الذي خدم الدولة طويلاً وعرف بالكفاءة والقدرة والعدل.

---

(١) السلطان الغازي عثمان خان الثالث (١١١٠ - ١١٧١ هـ = ١٦٩٦ - ١٧٥٧ م) تولى السلطنة سنة ١١٦٨ هـ = ١٧٥٤ م بالمراسم المعتادة، وهي تقلد السيف والراية في جامع أبي أيوب الأنصاري، لكنه لم يحكم أكثر من أربعة سنوات تقريباً، وهو الخامس والعشرين بين الخلفاء العثمانيين.

تولى منصب الخلافة العثمانية بعدئذ السلطان (مصطفى الثالث)[1] فصرف جهده في بداية الأمر إلى الإصلاحات الداخلية وتطوير البلاد، واعتمد على الصدر الأعظم (محمد راغب باشا) الذي كان قد عينه سلفه السلطان عثمان. واختار لمناصب الدولة الكبرى الأكفاء من الرجال، وأسس المحاجر الصحية على تخوم البلاد وثغورها لمنع انتشار الأوبئة، وحجز القادمين من بلاد تنتشر فيها الأمراض السارية، وأنشأ مكتبة عمومية. وفكر في مشروع شقّ قناة تربط بين دجلة وخليج الآستانة، لنقل المواد التموينية والتجارة غير أن الظروف لم تساعد على تنفيذ هذا المشروع الحيوي الكبير.

عادت الحرب فتفجّرت من جديد بين الدولة العثمانية ودولة الروسيا، فقد توفي ملك بولونيا (اوغست الثالث) سنة ١٧٦٣ م. فعملت امبراطورة الروسيا (كاترينا الثانية)[2] التي تولت الحكم بعد قتل بطرس الثالث، على تعيين عاشقها (ستانسلاس بونياتوسكي) ملكاً على بولونيا، واستخدمت نفوذها في مجلس الأمة البولوني عند الانتخاب، وذلك خلافاً لما كانت قد تعهدت به الروسيا للدولة العثمانية. ولم يكن ذلك إلا تنفيذاً، وإلا تطويراً، لسياسة بطرس الأكبر الهادفة لإزالة العوائق الثلاثة بينها وبين التوسع في أوروبا الغربية وهي: السويد وبولونيا والدولة العثمانية. وقد أزيل الحاجز الأول باستيلاء الروسيا على جميع الولايات السويدية الفاصلة بينها وبين ألمانيا

(١) السلطان الغازي مصطفى خان الثالث ابن السلطان أحمد الثالث (١١٢٩ - ١١٨٧ هـ = ١٧١٦ - ١٧٧٤ م) تولى السلطنة سنة ١١٧١ هـ = ١٧٥٧ م. وهو السادس والعشرين بين تسلسل الخلفاء العثمانيين، اشتهر بأنه كان عادلاً ومحباً للخير، أنشأ الكثير من المدارس والتكايا والمساجد.

(٢) كاترينا الثانية: (CATHERINE II - LA GRANDE) امبراطورة الروسيا (١٧٢٩ - ١٧٩٦ م) ابنة دوق انهالت زيربست الالماني: (ANHALT-ZERBST) تزوجت بالأمير الألماني الذي عينته الامبراطورة أليزابيت وارثاً لها في الملك، ثم لما تولى زوجها الملك باسم بطرس الثالث، استمالت كاترينا أهالي الروسيا إليها، وعزلته في سنة ١٧٦٢ م وبعد موته - ويقال قتله بايعاز من كاترينا - توجت نفسها امبراطورة على الروسيا. وسارت على نهج بطرس الأكبر فاستولت جيوشها على بلاد القرم وقلعة آزاق، واقتسمت مملكة بولونيا مع النمسا والروسيا. وعملت على احتضان الأدباء والفنانين والعلماء لكن ذلك كله لم يحجب صورة سلوكها الشائن، وقسوتها، وقتلها لعدد كبير من عشاقها بعد اشباع رغبتها منهم، وكان من بينهم بعض رجال دولتها، بل ربما من خدمها.

بحيث لم يبق للسويد أي من الأملاك الخارجة عن بلادها الأصلية والتي تم تحديدها والإعتراف بها بموجب معاهدة (ني ستاد) لسنة ١٦٧٢ م. وأزيل الثاني تقريباً بتعيين أحد أتباع الأمبراطورة كاترينا ملكاً على بولونيا. وأدركت الدولة العثمانية أن الخطر الروسي قد بات يتهددها بصورة مباشرة. فقررت العمل لوضع حدّ لتقدم نفوذ الروسيا في بولونيا، حتى لا تعمل الروسيا على إزالة بولونيا من الخارطة السياسية للعالم بالحاقها بالروسيا أو بتجزئتها بينها وبين مجاوريها. ولهذا أوعزت إلى خان القرم (كريم كراي) بأن يعمل على ايجاد الحجة لتفجير الحرب مع الروسيا، فوجه (كريم كراي) بعض القوزاق التابعين ـ أو الخاضعين ـ لحكم الروسيا للإغارة على إحدى المدن العثمانية وقتل بعض سكانها، فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على الروسيا، وافتتحها (كريم كراي) بأن اجتاح بقواته من المشاة والفرسان اقليم سربياً الجديدة، والذي كانت الروسيا قد عملت على بناء مدنه، وإقامة المنشآت الروسية فيه، رغم أن المعاهدات التي كانت قد أبرمت مع الدولة العثمانية نصّت بترك هذا الإقليم على وضعه الصحراوي حتى يكون حاجزاً واضحاً بين حدود الدولتين. وكان هدف روسيا من إعماره ووضع القوات فيه هو منع وصول المساعدة من خان القرم إلى بولونيا إذا ما تطلب الأمر. وكان من نتيجة إغارة (كريم كراي) على هذه الولاية تدمير كثير من المستعمرات الروسية، وعودته بكثير من الأسرى الروس.

كان القائد الروسي (غالتسين ـ أوجالستين) قد ألقى بجيوشه الحصار على مدينة (شوكزيم) فوجه السلطان (مصطفى الثالث) جيشاً بقيادة وزيره ـ محمد أمين باشا ـ وأعطاه تعليمات واضحة، غير أن هذا الوزير لم يلتزم بتوجيهات السلطان الذي كان يشرف على الأعمال القتالية بنفسه، مما أدى إلى فشل الجيش العثماني في رفع الحصار عن مدينة (شوكزيم). فما كان من السلطان مصطفى إلا أن أمر بقتل وزيره، وأرسل رأسه إلى الآستانة حتى يكون عبرة لغيره من القادة (في ٩ ربيع الآخر سنة ١١٨٣ هـ = ٢٢ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٧٦٨ م) وعين مكانه في الوزارة القائد (مولدواني علي باشا) الذي عرف بكفاءته القيادية وخبرته القتالية، غير أن الظروف لم تخدمه، إذ

بينما كان يعبر بجيشه (نهر دنيستر)[1] على جسر من المراكب لمهاجمة معسكر الجيش الروسي، زادت مياه النهر بصورة مباغتة، وفاضت على شواطئه، فجرفت المراكب وأغرقتها، وغرق معها ستة آلاف جندي تقريباً، ووقع الذين كانوا قد عبروا النهر تحت نار المدفعية الروسية، ونيران بنادق جندهم التي صوبت عليهم من كل فجّ، حتى أبيدوا عن آخرهم (يوم ١٧ جمادى الأولى سنة ١١٨٣هـ = ١٨ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٧٦٩ م). ووجد (مولود واني علي باشا) نفسه مضطراً للانسحاب ببقية جيشه الممزق، وإخلاء مدينة شوكزيم، واستثمر (غالستين) هذا النصر الذي لم يكن له فضل في احرازه، فانطلق بجيشه واجتاح ولايتي الفلاخ والبغدان. وكانت شبكة عملاء الروس تعمل خلال ذلك على تحريض أهل شبه جزيرة موره للقيام بالثورة، حتى إذا ما استعد الأهالي للثورة، خرجت بعض المراكب الروسية من بحر بلطيق، وطافت حول أوروبا، واتجهت إلى بلاد اليونان، واستولت على مدينة كورون لتشجيع الروم على العصيان، لكن جهود الروس منيت بالفشل. وأمكن القضاء على الفتنة في مهدها، فخرجت سفن الروس ومراكبهم من ميناء كورون، واتجهت إلى جزيرة ساقز، فالتقت بالمراكب العثمانية في المضيق المار بين الجزيرة وساحل آسيا. وبعد أن استمر القتال عدة ساعات، انتصر العثمانيون، وكان انتصارهم حاسماً، رجعوا بعده إلى ميناء (جشمة - أو غشمة) فتبعتهم حراقتان من مراكب الروس، وظن العثمانيون أنهما قد هربتا من الاسطول الروسي، وأنهما في سبيلهما للانضمام إلى الاسطول العثماني، فلم يتعرضوا لهما عند دخولهما ميناء (جشمة)[2] ولكن ما إن اقتربت الحراقتان من الاسطول العثماني حتى قذفتا بنيرانهما على السفن العثمانية، فاحترقت واشتعلت عن آخرها بسبب اشتعال ما كان عليها من البارود (في يوم ١١ ربيع الأول سنة ١١٨٤هـ = ٥ تموز - يوليو - سنة ١٧٧٠ م).

أراد الأميرال الروسي (ألفنستون) الهجوم على أسلام بول، لعدم وجود تحصينات

---

(١) دنيستر: (DNIESTR) نهر يفصل بين أوكرانيا ومولدافيا، ويصب في البحر الأسود.

(٢) جشمه - أو غشمه: معناها اللغوي عين الماء، وهي مدينة تقع عند الرأس الممتد من برّ الأناضول - إلى الغرب من أزمير.

تمنع المرور من مضيق الدردنيل. غير أن القائد الروسي (أرلوف) عارضه في هذا الهجوم، وفضل احتلال جزيرة لمنوس قبل ذلك لتكون قاعدة لأعمالهم القتالية، فحاصرها. وتمكن في أثناء ذلك (البارون دي تـوت)[1] المجري، والذي كان قد دخل في خدمة الدولة العثمانية، من تحصين مضيق الدردنيل وبناء القلاع فيه على ضفتيه وتسليحها بالمدافع الضخمة، حتى صار من المحال المرور عبر المضيق. ثم حول عدة مراكب تجارية إلى سفن حربية بوضع المدافع فيها. وزيادة على ذلك، كلفه السلطان مصطفى الثالث بانشاء مسبك لصب المدافع بالآستانة، وبتدريب المدفعية على الأنظمة الجديدة، فقام بتنفيذ الواجب على أفضل وجه، وأسس مـدرسـة لتخـريـج ضبـاط المدفعية، وأركان حرب يتم تدريبهم وتعليمهم على الفنون العسكرية الحديثة، وأخرى لتربية ضباط البحرية وإعدادهم - كان مركزها بالترسانة - وتخرج منها في فترة قصيرة عدد من قادة البحر، والملاحين القادرين على رسم بعض الشواطيء بالطرق الهندسية الدقيقة.

حملت هذه الإصلاحات ثمارها بسرعة مذهلة، فقد هاجم القبطان حسن بك مع بعض السفن الحربية سفن الروس المحاصرة لجزيرة لمنوس، وأرغمتها على رفع الحصار بعد اشتباكات خفيفة (في سنة ١١٨٥ هـ = ١٧٧١ م).

وعمل السلطان مصطفى الثالث على مكافأة القبطان حسن بك على ما حققه من نصر، فعينه أميرالاً عاماً للأساطيل العثمانية (قبودان باشا). وحاول الروس خلال ذلك الاستيلاء على طرابزون، ولكن الفشل كان من نصيبهم في الأعمال القتالية البرية بمثل ما كان حليفهم في الأعمال القتالية البحرية.

وكان النصر الوحيد الذي حققه الروس هو نجاحهم في فتح بلاد القرم،

---

(١) البارون دي توت: من مواليد فرنسا سنة ١٧٣٣ م. عمل في سفارة فرنسا بالآستانة، وعين قنصلاً لها في القرم سنة ١٧٦٧ م. ثم استخدمه السلطان مصطفى الثالث، فأخلص في خدمته، ونظم المدفعية وحصن الدردنيل حتى أصبح من أقوى الحصون البحرية، ثم عاد إلى فرنسا وعين مفتشاً عاماً لقنصليات فرنسا بالشرق والغرب. ولما تفجرت الثورة الفرنسية، هاجر سنة ١٧٩٠ م إلى بلاد المجر، وأقام بها إلى أن توفي سنة ١٧٩٣ م.

وفصلها عن الدولة العثمانية، ووضعها تحت حماية الامبراطورة كاترينا الثانية، وتعيين (جاهين كراي) خاناً عليها باسم امبراطورة روسيا.

توسطت النمسا وبروسيا لعقد هدنة بين الدولة العثمانية والروسيا، وتم التوقيع على هذه الهدنة في مدينة (جورجيو) من مدن البلغاريا (في يوم ٩ ربيع الأول سنة ١١٨٦ هـ = ١٠ حزيران - يونيو - سنة ١٧٧٢ م). وأرسل كل من الطرفين - العثماني والروسي - مندوبيه الى مدينة (فوكشان)[1] بولاية بغدان لاجراء المفاوضات بشأن الصلح، وتقدم الوفد الروسي بطلبات الامبراطورة كاترينا: وهي اعتراف الدولة العثمانية باستقلال تتار القرم وضمان الدولة العثمانية، لحرية الملاحة لسفن روسيا التجارية في البحر الأسود وجميع بحار الدولة العثمانية. ورفضت الدولة العثمانية هذه الطلبات، وانتهى المؤتمر بالفشل، فتم تمديد الهدنة المرة بعد المرة، واجتمع المؤتمر من جديد في مدينة بخارست (في ١٣ شعبان سنة ١١٨٦ م = ٩ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٧٧٢ م). وفيه تقدمت الامبراطورة كاترينا بطلبات أكثر جوراً وإجحافاً من سابقتها، وأرسلت بها بلاغاً نهائياً، وتضمنت:

أولاً: أن تتنازل الدولة العثمانية للروسيا عن حصن (كريش - في رومانيا) وقلعة (يكي - في القرم) حفظاً لاستقلال التتار.

ثانياً: تسليم ما بقي من حصون القرم مع الدولة العثمانية إلى التتار.

ثالثاً: أن تمنح السفن الروسية - تجارية كانت أو حربية - حرية الملاحة في البحر الأسود وبحر جزائر اليونان.

رابعاً: إعطاء والي الفلاخ (غريغوار - غيكا) وكان أسيراً في الروسيا - هذه الولاية، له ولورثته الشرعيين، على أن يدفع جزية معينة كل ثلاث سنوات مرة.

خامساً: التنازل عن مدينة (قلبورن - عند مضيق أوزي) للروسيا. وهدم حصون مدينة (أوكزاكوف - أو - أوزي) - الواقعة على البحر الأسود شمال أوديسا -.

سادساً: أن يعطى لقب باديشاه - ملك الملوك - إلى قيصر أو قيصرة الروسيا في المعاهدات والمراسلات الرسمية.

---

(١) فوكشان: تقع إلى الجنوب الغربي من ياسي في رومانيا.

سابعاً: أن يكون للروسيا حق حماية جميع المسيحيين الأرثوذكسيين في بلاد الدولة العثمانية.

كان من الواضح بأن الامبراطورة كاترينا قد تقدمت بهذه الطلبات - الاستفزازية - وهي تتوقع رفضها مسبقاً، من أجل متابعة الحرب. واستجابت الدولة العثمانية لنداء الحرب، ورفضت النظر في طلبات كاترينا (يوم ٢٨ ذي الحجة سنة ١١٨٦ هـ = ١٧٧٣ م) وأصدرت أوامرها باستئناف القتال وخاصة في بلاد الدانوب - الطونة -. فانهزم الروس أمام مدينة (روستجوق)[1] وكذلك أمام مدينة (سليتريا)[2] التي حاولوا الاستيلاء عليها. وقتل منهم ثمانية آلاف جندي. ومنح السلطان لقب (غازي) للقائد (عثمان باشا) الذي حمى مدينة سلستيريا، ودحر الروس الذين تراجعوا الى مدينة (بازارجق)[3] وعندما لم يجدوا بها حامية تدافع عنها، ذبحوا جميع سكانها من شيوخ ونساء وأطفال - على جري عادتهم - ثم ما لبثوا أن انسحبوا بسرعة، وتركوا متاعهم، عندما علموا باقتراب الجيش العثماني.

كان حاكم مصر (علي بيك الملقب بشيخ البلد) قد استقل في حكم مصر تقريباً، واتصل بقائد الاسطول الروسي في البحر الأبيض المتوسط، وقدم له الأسلحة والذخائر، حتى ينفرد بحكم مصر. فساعده القائد الروسي على تحقيق هدفه، فقاد علي بيك شيخ البلد قواته، وفتح مدن غزة ونابلس والقدس ويافا ودمشق. وأخذ في الاستعداد لمتابعة هجومه نحو الشمال للوصول إلى الأناضول، عندما علم بقيام ثورة ضده في مصر بقيادة (محمد بيك أبي الذهب). فعاد علي بيك الى مصر، ولكن أبي الذهب انتصر عليه، فرجع إلى عكا، ولجأ إلى واليها (الشيخ طاهر) واتفق معه على محاربة العثمانيين بالتعاون مع الروس. وفتح مدينة صيدا التي كانوا يحاصرونها.

---

(١) روستجوق: اسم تركي للمدينة التي تعرف اليوم باسم رازغارد: (RAZAGARD) وهي تقع الى الجنوب الغربي من سيلستريا - على نهر الدانوب.

(٢) سلسيتريا: (SILISTRA) مدينة تقع على نهر الدانوب - الى الجنوب الشرقي من مدينة بخارست.

(٣) بازارجق: اسم تركي لمدينة حلت أيضاً اسم (حاج أوغلي) وتعرف اليوم باسم مدينة توبولخين: (TOBULKHIN) وهي إلى الجنوب من سلسيتريا.

فسارا إلى هذه المدينة، والتقيا بالعثمانيين خارجها، وانتصرا عليهم بدعم السفن الروسية التي كانت تطلق مقذوفاتها على الجيش العثماني. ثم أطلقت السفن الروسية قنابلها على مدينة بيروت، فدمرت فيها ثلثمائة منزل تقريباً. وعاد (علي بيك) بعدها إلى مصر لمحاربة (محمد بيك أبي الذهب) في محرم سنة ١١٨٧ هـ = نيسان - ابريل - سنة ١٧٧٣ م، وانضم الى قواته أربعمائة جندي روسي. ودارت معركة عند الصالحية - بالشرقية في مصر - فانتصر (أبو الذهب) وأسر علي بك وأربعة من الضباط الروس بعد أن قتل كل من كان معهم من القوات. ورجع إلى القاهرة - ولم يلبث علي بيك أن مات متأثراً بجراحه، فقطع رأسه، وأرسل مع الضباط الروس الأربعة الى العاصمة. (إسلام بول). وتوفي السلطان مصطفى الثالث، وخلفه (السلطان عبد الحميد الأول)[١] والحرب مستمرة مع الروسيا، فأقر الصدر الأعظم (محسن زاده) في منصبه، كما أقر كبار الموظفين في مناصبهم، وكذلك فعل بالنسبة لقادة الجيوش البرية وأميرالات البحر، وذلك حتى لا يقع أي اضطراب أو تغيير في مرحلة كانت الروسيا خلالها قد أنهت استعداداتها الضخمة للحرب، وأسندت قيادة قواتها لأفضل قادتها، فكان الفيلد مارشال (رومانتسوف) هو القائد الأعلى وكان (سوفوروف)[٢] على رأس قيادة أحد الجيوش بينما كان (كرامنسكي) على رأس قيادة جيش آخر. وقد بدأت هذه الجيوش تحركها في حزيران - يونيو - سنة ١٧٧٤ م وبعد عدة اشتباكات

---

(١) السلطان الغازي عبد الحميد خان الأول - ابن السلطان أحمد الثالث - (١١٣٧ - ١٢٠٣ هـ = ١٧٢٤ - ١٧٨٩ م. تولى منصب الخلافة سنة ١١٨٧ هـ = ١٧٧٤ م. وتسلم سيف السلطان عثمان والراية النبوية - كالمعتاد - في مسجد أبو أيوب الأنصاري. وكانت خزانة الدولة فارغة بسبب استنزاف موارد الدولة في الحروب. فلم يتمكن من منح الجند الاعطيات المعهودة عند تولى كل سلطان سدة الخلافة. وقضى ١٥ سنة وثمانية شهور كانت كلها صراعاً وحروباً - وهو الخليفة العثماني السابع والعشرين.

(٢) سوفوروف: (SOUVOROV-ALEXANDRE) قائد روسي كبير من مواليد موسكو (١٧٢٩ - ١٨٠٠ م) برز اسمه خاصة في الحروب الروسية التركية ١٧٨٧ - ١٧٩١ م. كان مجدداً عسكرياً. وكتب كتاب (العلم ينتصر) اهتم بتدريب الجند على الحرب بصورة واقعية وعملية. واعترف السوفييت بفضله فأحدثوا وساماً في الحرب العالمية الثانية باسمه الذي أطلقوه أيضاً على عدد من المعاهد العسكرية.

ومناورات، اجتاز الفيلد مارشال رومانتسوف بجيوشه نهر الدانوب، وسار إلى مدينة (فارنا ـ على البحر الأسود). فالتقى مع الجيش العثماني الذي كان الصدر الأعظم قد أرسله من معسكره بمدينة (شوملا)[1] ودارت رحى معركة ضارية عرفت باسم (موقعة كاجول) إلى الشرق من مدينة فولكشاني. واستطاعت القوات الروسية خلال المعركة أن تقوم بحركة التفاف واسعة تمكنت بواسطتها من تدمير التنظيم القتالي للجيش العثماني، وتمزيقه. وأسرع رومانتسوف لاستثمار هذا الظفر، فقاد الجيوش الروسية نحو معسكر الصدر الأعظم في (شوملا). مما أرغم الصدر الأعظم (محسن زاده) على ارسال طلب للهدنة وايقاف القتال، وأرسل إلى (رومانتسوف) مندوبين للاتفاق على عقد الصلح، وقبول الشروط التي كانت الدولة العثمانية قد رفضتها عند اجتماع مؤتمر بخارست. فاجتمع المندوبان العثمانيان مع سفير الروسيا في مدينة (قينارجه)[2].

وجرت مفاوضات طويلة انتهت بقبول المعاهدة التي حملت اسم معاهدة قينارجه والتي تم الاتفاق عليها في يوم ٢١ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٧٧٤ م (١١٨٨ هـ). وقد تضمنت هذه المعاهدة ثمانية وعشرين بنداً: أهمها استقلال تتار القرم وإقليم (بسارابيا)[3] و(قوبان)[4] مع حفظ سيادة الدولة العثمانية فيما يتعلق بالأمور الدينية، وتسليم كافة البلاد والأقاليم التي احتلتها الروسيا إلى خان القرم ـ ما عدا قلعتي كريش و ـ ويكي قلعة. ورد ما أخذ من أملاك الدولة العثمانية باقليمي الفلاخ والبغدان وبلاد الكرج ومنكديل ـ في جزيرة القرم ـ. وجزائر الروم ـ ما عدا قبرطه الصغيرة ـ وقبرطه

---

(١) شوملا (SHUMEN) مدينة تقع إلى الغرب من مدينة فارنا ـ وتكتب شوملة أيضاً.

(٢) قينارجه: (KAJNARJA-KAINARJA) مدينة تقع الى الجنوب الشرقي من سيلسيتريا في بلغاريا. ولمطالعة بنود معاهدة قينارجه يمكن الرجوع إلى (تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ ص: ٣٤٢ ـ ٣٥٨. ولمطالعة تفاصيل الحرب من وجهة نظر روسيا (تاريخ فن الحرب ـ ستروكوف ـ ١٧٢/١ ـ ١٨٩).

(٣) بسارابيا: (BASARBI) مدينة تقع على البحر الأسود الى الغرب من مدينة كونستنزا.

(٤) قوبان: إقليم في القفقاس يحده من الغرب بحر آزوف ومن الجنوب البحر الأسود.

الكبيـرة[1] وآزاق ـ آزوف ـ وقلبورن. وأن يعطى الى امبراطور الروسيا لقب باديشاه ـ ملك الملوك ـ في المعاهدات والمراسلات الرسمية. وأن تكون للسفن الروسية حرية الملاحة في البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط. وأن تبني الروسيا كنيسة في حي ـ بيرا ـ بالأستانة، وأن يكون لها حق حماية جميع المسيحيين التابعين للمذهب الأرثوذكسي من رعايا الدولة. ومن الغريب أنه لم يذكر في المعاهدة أي شيء عن مملكة بولونيا (لهستان) التي كانت سبب هذه الحرب. وقد أضيف إلى المعاهدة بندان سريان جاء في أولهما أن تدفع الدولة إلى الروسيا مبلغ خمسة عشر ألف كيسة بصفة غرامة حربية على ثلاثة أقساط متساويـة، في أول كـانـون الثـاني ـ ينـايـر ـ مـن سنـوات ١٧٧٥ و ١٧٧٦ و ١٧٧٧ م. أما الثاني فتضمن تعهد الدولة العثمانية بتقديم المساعدات الضرورية لجلاء القوات الروسية عن الجزائر التي احتلتها، وسحب أساطيلها منها.

بذلك انتهت هذه الحرب، ونالت الروسيا كل ما تريده، فقد أزالت من الخارطة السياسية دولتي السويد وبولونيا، وبات باستطاعتها توجيه كل جهدها ضد الدولة العثمانية. وبالرغم من التأكيدات التي تضمنتها (معاهدة قينارجه) بأن هذه المعاهدة قد جاءت لضمان سلام دائم وثابت بين الدولتين. إلا أن الروسيا التي استشعرت قوتها ضد الدولة العثمانية ـ للمرة الأولى ـ انطلقت للعمل في ظل المعاهدة من أجل تحقيق أهدافها التوسعية على حساب الدولة العثمانية ـ وأقاليمها الإسلامية.

انصرفت الدولة العثمانية لإعادة تنظيم قواتها البرية، وإعادة بناء قدرتها البحرية التي دمرتها الحرب الروسية. واستطاع أمير البحر (حسن باشا) أن يعيد تشكيل اسطول قوي جرت تجربته في عكا، حيث أصدر السلطان أمره إلى والي مصر (محمد بيك أبي الذهب) للقضاء على تمرد والي عكا (طاهر عمر) فقاد أبو الذهب جيشه وحاصر عكا براً فيما كان الاسطول يحاصرها بحراً، مما أرغم (طاهر عمر) على محاولة النجاة بنفسه، فهرب نحو جبال صفد، ولكنه قتل أثناء فراره، وتمت إعادة فتح عكا. وانتهت عملية التمرد.

---

(١) قبرطه: إقليم يقع في شمال شرق البحر الأسود، من بلاد القفقاس.

عملت الروسيا خلال ذلك على ارسال عملائها الى بلاد القرم، لإثارة الفتن الداخلية، وذلك لايجاد سبب للتدخل وضم القرم الى بلادها. وتبين أن هدفها من دعم استقلال القرم هو مرحلي لقطع روابط مسلمي القرم بإخوانهم العثمانيين. ونجحت المؤامرة الروسية.

فثار أهل القرم، وخلعوا أميرهم (دولت كراي) الذي كان المواطنون قد انتخبوه على أساس نصوص معاهدة قينارجه. وأقاموا مكانه (جاهين كراي). فلم يقبل تعيينه عدد كبير من زعماء التتار وشيوخهم؛ وظهر خطر وقوع حرب أهلية. وهذا هو ما كانت تنتظره الروسيا التي زجّت سبعين ألف جندي بقيادة الجنرال (بوتمكين) على الحدود. وكلفته باحتلال كافة السواحل الشمالية للبحر الأسود (وذلك سنة ١١٨٧ هـ = ١٧٧٣ م).

واستثارت هذه الاستفزازات الدولة العثمانية التي هيمنت عليها جائحة هياج الحرب، وكادت تعلن الحرب على الروسيا لإلزامها باحترام بنود معاهدة قينارجه - رغم كل ما تضمنته هذه المعاهدة من إجحاف لحقوق الدولة العثمانية -.

ولكن فرنسا تدخلت، فأقنعت الدولة العثمانية بما أجرته امبراطورة روسيا - كاترينا - من استعدادات للحرب، كما اعلمتها بالاتفاق السري الذي عقدته كاترينا الثانية مع امبراطور النمسا (جوزيف الثاني) عندما اجتمعت به في مدينة (كارزون)[1]. وهو الاتفاق الذي تضمن شنّ الحرب على الدولة العثمانية، لتشكيل دولة مستقلة من الفلاخ والبغدان واقليم بسارابيا تكون حاجزاً بين الروسيا والدولة العثمانية ويطلق عليها اسم (دولة داسي)[2] ويعين لها ملك من المذهب الأرثوذكسي.

---

(١) كارزون: (KARSON) ميناء يقع غرب شبه جزيرة القرم على البحر الأسود.

(٢) داسي: (DACIE) اسم كان يطلق قديماً في أيام الرومانيين على الإقليم الواسع الذي يقع على الشاطيء الأيسر لنهر الدانوب، والذي يشمل البلاد المسماة الآن رومانيا وترانسلفانيا والجزء الشرقي من بلاد المجر. فتحه الامبراطور الروماني تراجان: (TRAJAN) سنة ١٠٠ م. ثم لما حكم الامبراطور اورليان، أطلق هذا الاسم على الإقليم الذي عرفه الاتراك باسم الروملي الشرقية وجزء من بلاد مقدونية.

وتأخذ الروسيا ميناء (أوزي ـ أو تشاكوف) وبعض الجزر. كما تأخذ النمسا بلاد الصرب وبوسنة وهرسك من بلاد الدولة العثمانية، بالاضافة الى دلماسيا من البندقية وتعطيها عوضاً عنها بلاد موره وجزيرتي كريت وقبرص ـ بعد انتزاعها من الدولة العثمانية. وكذلك تعطى باقي دول أوروبا أجزاء أخرى يتم الاتفاق عليها فيما بعد، وإذا ما أمكن فتح الاستانة (إسلام بول). فتعاد دولة الروم ـ البيزنطيين ـ كما كانت قبل الفتح العثماني ويعين الغراندوق الروسي قسطنطين بن بولس ملكاً عليها، بشرط أن يتنازل عن حقوقه في مملكة الروسيا، حتى لا تكون مملكة الروسيا والدولة البيزنطية الجديدة تحت حكم ملك واحد. هكذا، تم الاتفاق (المؤامرة) بين الروسيا والنمسا، ولم يبق إلا التنفيذ. فحاولت الدولة العثمانية الأخذ بنصيحة فرنسا، وكسب الوقت للاستعداد، وحرمان الروسيا من الحجة التي يمكن أن تتخذ منها ذريعة لتنفيذ أهدافها، فاعترفت لها بضم القرم.

غير أن هذا التنازل زاد من نهم الروسيا وشرهها. فأخذت في تصعيد التوتر، وزيادة حجم الاستفزاز، وشرعت في تحصين (سيفاستوبول) وأقامت ترسانة ضخمة في ميناء (كرزن). وشكلت قوة بحرية ـ اسطولاً ـ من الطراز الأول في البحر الأسود، وأرسلت عملاءها وجواسيسها إلى بلاد اليونان وولايتي الفلاخ والبغدان من أجل استثارة المسيحيين وتحريضهم ضد الدولة العثمانية ـ الإسلامية ـ. وتمكنت (كاترينا) من إخضاع ملك الكرج (هرقل) ووضعه تحت حمايتها، مقدمة لضم بلاده نهائياً للروسيا.

وأخيراً، قامت (كاترينا) بجولة استعراضية استفزازية في الأقاليم الجنوبية وبلاد القرم (سنة ١٢٠٢ هـ = ١٧٨٧ م). ورافق الجولة إقامة احتفالات ضخمة ومهرجانات مثيرة، ونصب القائد ـ الجنرال بوتمكين ـ أقواس النصر التي كتب عليها (طريق بيزنطة).

وأدركت الدولة العثمانية أن الهدف من هذه الجولة هو اشعال نار الحرب، وتأكد لها ذلك عندما اجتمعت (كاترينا) خلال جولتها بملك بولونيا وامبراطور النمسا.

فقررت إمساك المبادأة وإعلان الحرب قبل أن تكون الروسيا قد فرغت من استعداداتها. فأرسلت بلاغاً إلى سفير الروسيا بالأستانة (المسيو جولفاكوف) وطلبت منه تسليم حاكم الفلاخ (مورو كورداتو) الذي كان قد تمرد على الدولة العثمانية والتجأ إلى الروسيا، كما طلبت منه أن تقوم الروسيا بالتنازل عن حماية الكرج باعتبارها من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية، وكذلك عزل بعض قناصلها الذين ثبت اشتراكهم في تحريض المواطنين واستثارتهم للقيام بأعمال الشغب، وقبول قناصل للدولة العثمانية في موانىء البحر الأسود. وأن يكون للدولة العثمانية الحق في تفتيش المراكب التجارية الروسية عند مرورها من مضيق الأستانة، للتأكد من أنها لا تحمل أسلحة أو ذخائر حربية. ورفض السفير هذه الطلبات باسم حكومته، فأعلنت الدولة العثمانية الحرب على الروسيا فوراً، وتم سجن سفيرها (في آب - أغسطس - سنة ١٧٨٧ م).

لم يكن الجنرال بوتمكين قد أنهى استعداداته للحرب، فجابه مأزقاً صعباً، وكتب الى كاترينا يعلمها بصعوبة الموقف في القرم، وينصحها بالجلاء عن القرم بأسرع ما يمكن، لاسيما وأن ملك السويد (غوستاف الثالث) قد أراد الإفادة من هذه الفرصة التي توافرت له لاستعادة ما فقدته دولته من الأقاليم والمقاطعات والتي جرّدتها الروسيا منها. إلا أن كاترينا أظهرت تصميمها على دخول الحرب في القرم. وكتبت للجنرال بوتمكين بالإسراع للاستيلاء على مدينتي (بندر - وأوزي) وعدم انتظار بدء العثمانيين بالهجوم. وتحرك (بوتمكين) بالجيش الروسي نحو (أوزي) فحاصرها مدة، ثم دخلها عنوة في ٣٠ ربيع الآخر سنة ١٢٠٣ هـ = ١٩ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٧٨٨ م.

كانت النمسا قد أعلنت خلال ذلك الحرب على الدولة العثمانية تنفيذاً لاتفاقها مع الروسيا. وحاول امبراطورها (جوزيف الثاني)[1] الاستيلاء على مدينة بلغراد، فردته

(١) جوزيف الثاني: (JOSEPH-II) هو ابن الامبراطورة ماريا تيريزا من زوجها دوق دولورين - الذي عرف بعد أن أصبح ملكاً باسم فرانسوا الأول (FRANCOIS-I) ولد في ڤيينا (١٧٤١ - ١٧٩٠ م) أصبح امبراطوراً للامبراطورية الجرمانية المقدسة سنة ١٧٦٥ م. وهي الامبراطورية التي =

عنها القوات العثمانية، وأرغمته على التراجع واللجوء الى مدينة (طمشوار) بعد أن ترك القيادة لقائده (لودن). وتوفي أثناء ذلك السلطان عبد الحميد الأول، وخلفه (سليم الثالث)[1]. فانصرف لمجابهة مشكلات الحرب المتفجرة على كافة الجبهات، وبذل جهده في العمل بلا انقطاع لدعم الجيوش وتقويتها وإرسال الذخائر والمواد التموينية، وبالرغم من الجهود المبذولة فقد بدأ التعب من الحرب المستمرة على الجنود الذين أخذ كثير منهم في مغادرة ميادين القتال. وزاد الموقف سوءاً باتحاد الجيوش الروسية مع الجيوش النمساوية، وتنسيق التعاون بين قادة جيوش الدولتين مما ساعد على هزيمة الجيوش العثمانية (في ٣١ تموز - يوليو - وفي ٢٢ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٧٨٩ م). وكان من نتيجة ذلك نجاح القوات الروسية في الاستيلاء على مدينة بندر (باكو أو باب الأبواب) واحتلال معظم بلاد الفلاخ والبغدان وبسارابيا. ودخل النمساويون مدينة بلغراد وفتحوا بلاد الصرب. ووقفت الدولة العثمانية على حافة جرف مدمر وانهيار مريع.

ولكن يد القدر تدخلت في الوقت المناسب، فمات امبراطور النمسا (جوزيف الثاني) في ٢٠ شباط - فبراير - سنة ١٧٩٠ م، وخلفه (ليوبولد الثاني)[2] فشغلته أحداث الثورة الفرنسية التي اندلعت ضد لويس السادس عشر، خوفاً من امتداد لهيبها. وسعت في مصالحة الدولة العثمانية - بوساطة بعض الدول المعادية لفرنسا الثورة، ووقعت معها معاهدة أبرمت في مدينة (زشتوي - أو ستووا) الواقعة على نهر الدانوب - الى الشرق من

= ضمت النمسا وهنغاريا وسيليزيا وبعض الإمارات الألمانية، والتي وصفها (فريدريك الكبير) بأنها ليست امبراطورية ولا جرمانية ولا مقدسة.

(١) سليم الثالث ابن السلطان مصطفى الثالث (١١٧٥ - ١٢٢٣ هـ = ١٧٦٢ - ١٨٠٨ م) أصبح سلطاناً سنة ١٢٠٣ هـ = ١٧٨٩ م. وعزل سنة ١٢٢٢ هـ = ١٨٠٧ م وخلفه مصطفى الرابع - وهو الثامن والعشرين بين الخلفاء العثمانيين.

(٢) ليوبولد الثاني: (LEOPOLD II). امبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة. ولد في ڤيينا (١٧٤٧ - ١٧٩٢ م) أصبح امبراطوراً سنة ١٧٩٠ م. ولكنه لم يعش أكثر من سنتين وخلفه ابنه فرانسوا الثاني.

نيقوبوليس. وذلك في شهر أيلول سبتمبر - سنة ١٧٩٠ م، ثم أبرمت بصورة نهائية في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٢٠٥ هـ = ٢٢ - آب - أغسطس - سنة ١٧٩١ م. ونصت هذه المعاهدة على أن تعيد النمسا للدولة العثمانية كل بلاد الصرب ومدينة بلغراد. ولم تحتفظ النمسا إلا بعدد من القلاع الثانوية.

لم تتوقف روسيا عن الحرب، رغم انسحاب حليفتها النمسا، بل تابعت أعمالها القتالية التي كان من أبرزها الاستيلاء على (مدينة اسماعيل) [1] المحصنة والتي كانت قد بنيت منذ سنة ١٧٧٤ م، وجرى تحصينها باشراك المهندسين الألمان والفرنسيين، وبالإفادة من موقعها المنيع حيث أنها تتربع على هضبة منحدرة بميل حاد على نهر الدانوب. وكان الجدار الخارجي للمدينة يمتد على مسافة ٦ كم مع ٧ حصون حجرية وترابية و٤ بوابات تحيط بالمدينة من ثلاث جهات: من الشمال والغرب والشرق، وكان القسم الجنوبي من المدينة محمياً بنهر الدانوب الذي كان يبلغ عرضه هنا حوالي خمسمائة متر. وبلغ ارتفاع الجدار الخارجي من ٦ إلى ٨ أمتار. وكان الخندق المحيط بالمدينة بعرض ١٢ متراً، وعمقه ٦ - ١٠ متراً. وحصن داخل المدينة بعدد من الأبنية الحجرية.

نظم القائد الروسي (سوفوروف) قواته للهجوم، والتي كان عدد أفرادها ٣١ - ألف رجل. وشكل منها ٦ أرتال للهجوم على المدينة من جميع اتجاهاتها في وقت واحد. ودعمت قوات الهجوم بخطين من السفن ضم الخط الأول منها ١٤٥ زورقاً والثاني ٥٨ زورقاً كبيراً - لتغطية انزال القوات على شاطىء الدانوب بنيران كثيفة. كما حشد ستمائة مدفع ظلّت ترمي المدينة طوال يومين متتاليين.

كانت الحامية العثمانية المدافعة عن المدينة مكونة من ٣٥ ألف جندي ومعهم حوالي مائتي وخمسين مدفعاً. وبالرغم من المقاومة المنظمة والضارية التي أبدتها الحامية بقيادة (حسن باشا البحري).

فقد نجحت القوات الروسية باقتحام مدينة اسماعيل يوم ١٦ ربيع الآخر سنة

---

(١) إسماعيل: (IZMAIL) مدينة في رومانيا تقع الى الغرب من (كونستنتزا) ومن ابرائيل: (BRAILA).

١٢٠٥ هـ (٢٣ كانـون الأول ـ ديسمبر ـ سنـة ١٧٩٠ م). وأبيدت الحاميـة العثمانية عن آخرها (٢٦ ألف قتيل و ٩ آلاف جريح) وغنم الروس ٤٢ مركباً والمدفعية. وخسر الروس ٤ آلاف قتيل و٦ آلاف جريح. ويشير ذلك إلى ما قام به الروس من قتل الأسرى جميعاً حتى ارتفع عدد القتلى وشمل جميع أفراد الحامية. ليس ذلك فحسب، بل عمل الجند الروس الظافرون على ارتكاب الأعمال الوحشية ـ كعادتهم ـ بما يعجز عنه الوصف، وبما تقشعر له الأبدان، من قتل وفتك وسبي، شمل جميع الشيوخ والنساء والأطفال.

تدخلت بعدئذ انكلترا وبروسيا وهولاندا لعقد صلح بين الدولة العثمانية وروسيا وجرت مفاوضات طويلة انتهت بعقد الصلح في معاهدة (ياسي ـ أو ياش) في ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢٠٦ هـ = ١٠ كانون الثاني ـ يناير ـ سنة ١٧٩٢ م. وانضمت بلاد القرم بموجب هذه المعاهدة الى الروسيا بصورة نهائية مع جزء من بلاد القوبان وبسارابيا والأقـاليم الواقعـة بين نهري بـوغ ودنيستر، بحيـث أصبـح هـذا النهـر ـ دنيستر ـ هو الحد الفاصل بين العثمانيين والروس.

انصرفت الدولة العثمانية بعد الصلح مع النمسا والروسيا لتضميد جراحها، وإعادة تنظيم قواتها البرية والبحرية، وأصدر السلطان سليم الثالث مرسوماً ـ فرماناً ـ بتعيين (**كوشك حسين باشا**) أميرالاً للبحرية ـ قبودان باشا ـ وكان من الشبان الذين درسوا أحوال أوروبا، وعرفوا سياساتها واتجاهاتها. وأبدى كوشك هذا من الكفاءة ومن الإخلاص ما حمل السلطان على جعله من المقربين ـ حتى أنه زوجه بإحدى أخواته ـ وبذل (كوشك) جهده لمطاردة قراصنة الفرنج في البحر، لحماية التجارة، وعمل على إصلاح الثغور وبناء القلاع الحصينة لحمايتها، ثم عمل على بناء عدد من المراكب الحربية المنافسة لأحدث السفن الفرنسية والانكليزية، واستحضر عدداً كبيراً من المهندسين الخبراء من السويد وفرنسا، لصب المدافع في معامل السكب العثمانية. وأصلح مدرسة البحريـة ومـدرسـة المدفعيـة، وتـرجـم لطلابها مـؤلفـات الفـرنسي (فـوبـان)[١] في فن التحصين ـ الاستحكامات ـ. وألحق بمدرسة المدفعية مكتبة جمع

(١) فوبان: (PRINCE DE VAUBAN-SEBASTIEN LE-PRESTRE) جندي فرنسي، عاش في عهد

فيها أهم ما كتب في فن الحرب الحديث والرياضيات من أجل رفع كفاءة المدفعية وتطويرها. ثم شرع في تنظيم سلاح المشاة، وأنشأ فرقاً جديدة على النظام الأوروبي (سنة ١٢١٠ هـ = ١٧٩٦ م). وجعل عدد أفراد أول فرقة جرى تنظيمها ١٦٠٠ جندي، وأسند قيادتها إلى ضابط انكليزي اعتنق الإسلام ديناً، وحسن إسلامه (وسمي انكليز مصطفى). وكان الهدف من هذا التنظيم أن يحل محل (الإنكشارية) الذين تجاوزهم الزمن وتحولوا إلى عبء طالما أرهق كاهل الدولة -. ثم وجه جهده لدعم السلطة المركزية، ودعم روابط الولاء بين الولاة والعاصمة، بعد أن وصلت هذه الروابط إلى درجة متدنية من الضعف، بسبب انصراف الدولة للحرب على الجبهات الخارجية. على نحو ما حدث في مصر - حيث استبد المماليك في حكمها - وعلى نحو ما حدث أيضاً في الصرب، حيث عمل والي دين (عثمان باشا الملقب ببازوند أوغلي) الذي أعلن استقلاله، وضم إليه كثير من أهالي الصرب، فحارب الجيش الذي أرسلته الدولة العثمانية لقمع تمرده، وانتصر عليه، مما حمل (كوشك حسين باشا) على التوجه بنفسه، واستطاع بعد عدد من الاشتباكات أن يقنع (بازوند أوغلي) بالخضوع للدولة مقابل منحه ولاية ودين طوال حياته. وبذلك حسمت الفتنة سنة ١٢١٢ هـ = سنة ١٧٩٧ م. وعاد الهدوء والأمن والاستقرار لربوع الصرب.

= ملك فرنسا لويس الرابع عشر. ولد فقيراً (١٦٣٣ - ١٧٠٧ م) ووصل بجهده وذكائه وفضائله إلى أعلى مراتب الدولة. قاد ٥٣ عملية حصار وعمل على تحصين الحدود الفرنسية، فنظم ٣٣ موقعاً، وحصن أكثر من ٣٠٠ موقعاً آخر. وقد اعتبر من أوائل منظمي وحدات الهندسة العسكرية في الجيوش الحديثة.

١٢ ـ نابليون في مصر ورياح الثورة.

وقف الشاعر الألماني (غوته) على مرتفعات (فـالمـي)[١] وأطلق كلمته الشهيرة: «في هذا اليوم ومن هذا المكان، ينطلق فجر يوم جديد يضيء العالم. ويستطيع أن يفخر من شهد ميلاد فجر هذا اليوم الجديد». وقد تمخض هذا اليوم من أيام الثورة الفرنسية التي حفلت بأحداث كثيرة ومثيرة، عن ظهور قائد على المسرح السياسي والعسكري ـ اسمه (نابليون بـونابـرت)[٢] قاد أعمالاً قتالية ناجحة في إيطاليا، واكتسب ثقة حكومة الثورة، فكلفته بقيادة حملة إلى مصر (في سنة ١٢١٣هـ = ١٧٩٨م). وذلك بهدف تهديد طريق التجارة البريطانية مـع الهنـد، حيـث كـانـت بريطانيا في طليعة الدول التي قادت الصراع ضد الثورة الفرنسية. وكان الوصول إلى مصر يتطلب ركوب البحر، وكان ركوب البحر يعني احتمال مجابهة البحرية البريطانية التي كانت قد امتلكت منذ أكثر من قرن مفاتيح السيادة على البحار، ولهذا فقد حرص نابليون على إحاطة استعداداته بنطاق محكم من تدابير الأمن والمحافظة على السر، وأمكن له حشد ٣٦ ـ ألف مقاتل في مدينة (طولون) مع تجهيز اسطول من

---

(١) فالمي: (VALMY) بلدة في المارن قرب سانت مينيهولد، انتصر فيها القائدان الفرنسيان ديمورييه: (DUMOURIEZ) وكيلرمان: (KELLERMAN) على البروسيين سنة ١٧٩٢م.

(٢) نابليون بونابرت: (NAPOLEON-BONAPARTE) قائد فرنسي وامبراطور ـ من مواليد مدينة أجاكسيو في جزيرة كورسيكا (١٧٦٩ ـ ١٨٢١م) دخل الكلية العسكرية وتخرج برتبة ملازم في سلاح المدفعية سنة ١٧٨٥م. واشتهر في تحرير مدينة طولون التي كان يحتلها الانكليز وقاد حملة إلى إيطاليا سنة ١٧٩٦م. وانتصر فيها على النمساويين، ثم قاد حملة مصر سنة ١٧٩٨م. ورجع بعد فشله إلى فرنسا فقلب حكومة المديرين وأصبح قنصلاً (سنة ١٨٠٤م) ثم امبراطوراً. وانتصر على جيوش اوروبا المتحالفة ضده مرات متتالية، واجتاح روسيا، ثم هزم سنة ١٨١٤م ثم في واترلو سنة ١٨١٥م، وأبعد الى جزيرة سانت هيلانة في أفريقية وبقي فيها حتى مات.

٣٠ سفينة حربية و ٧٢ سفينة خدمة ـ كورفيت ـ و ٤٠٠ سفينة نقل. وضم إلى جيشه ١٢٢ عالماً من العلماء في مختلف العلوم والآداب والفنون لمساعدته في دراسة أحوال المشرق الإسلامي ـ في مصر بخاصة ـ.

وغادرت الحملة ميناء طولون يوم ١٩ ـ أيار ـ مايو ـ سنة ١٧٩٨ م. وتوقفت في مالطا ريثما تمكنت من إخضاع طائفة فرسان الاسبتارية (رهبان القديس حنّا الأورشليمي). ثم تابعت تحركها فوصلت إلى مياه الاسكندرية يوم ١٧ محرم سنة ١٢١٣ هـ = ١ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٧٩٨ م. فتم إنزال القوات، وأمكن القضاء على حامية المدينة التي بوغتت بالانزال، ودخل الفرنسيون الاسكندرية. وترك نابليون فيها قوة بقيادة (الجنرال كليبر)[1] ثم مضى بجيشه نحو القاهرة ـ عبر الطريق الصحراوي الممتد غرب فرع رشيد. حيث اصطدم بجيش للمماليك بقيادة (مرادبيك) عند مدينة شبرا بالبحيرة، وانتصر نابليون وتابع تقدمه حتى وصل إلى مدينة إنبابة مقابل القاهرة، وهناك وقعت معركة الأهرام الشهيرة، والتي أظهر فيها المماليك بقيادة الأميرين ابراهيم بيك ومراد بيك، من ضروب الشجاعة والكفاءة ما أدهش الفرنسيين وأذهلهم. وبعد أن بذل المماليك ما بوسعهم للدفاع عن مصر، وجدوا أنفسهم مرغمين على التراجع أمام تفوق المدفعية الفرنسية، ودخل نابليون وجيشه مدينة القاهرة، وأعلن أنه لم يأت من أجل الاستيلاء على مصر، وأنه حليف للسلطان العثماني ـ سليم الثالث ـ بدلالة عدم إعلان الحرب على الدولة العثمانية، وأن هدفه هو توطيد سلطة السلطان سليم ومحاربة المماليك المتمردين على أوامره. ولم يلبث أن وجه جيشه بقيادة (الجنرال دوسكس)[2] للاستيلاء على الصعيد، ومطاردة فلول المماليك. فسار

---

(١) كليبر: (KLEBER-JEAN BAPTIS'TE) قائد فرنسي من مواليد استراسبورغ. (١٧٥٣-١٨٠٠م) تطوع في الجيش سنة ١٧٩٢م. واشترك في مذابح الفاندية للقضاء على الثورة التي قادها الملكيون ورجال الكنيسة، وعين بعدها قائداً لجيش الراين، ثم رافق نابليون في حملة مصر ـ وأصبح قائداً للجيش الفرنسي بعد رجوع نابليون من مصر إلى فرنسا. وقتله أحد تلاميذ الأزهر ـ سليمان الحلبي ـ في بستان سرايا الأزبكية ـ في موضع فندق شبرد حالياً ـ.

(٢) الجنرال دوسكس: (DESAIX DE VEYGOUX LOUIS) جنرال فرنسي (١٧٦٨ ـ ١٨٠٠ م) برز اسمه في حملة جيش الراين سنة ١٧٩٦ م، ودافع عن كيهل (KEHL) لمدة شهرين، ورافق نابليون

دوسكس حتى وصل جزيرة فيله (قصر أنس الوجود) في ٢٥ رمضان سنة ١٢١٣ هـ (٢ آذار - مارس - سنة ١٧٩٩ م). كما أرسل قوة أخرى استولت على مدينة القصير - على البحر الأحمر - بعد ذلك بشهرين تقريباً - وبذلك صار القطر المصري بكامله تحت حكم نابليون بونابرت الذي شرع على الفور بتنظيم المجلس العلمي من أجل مساعدته على تحويل الاحتلال إلى حكم دائم. ولكنه لم يلبث طويلاً حتى وصله خبر انتصار الاسطول الانكليزي بقيادة الأميرال (نـلسـون)[1] ونجاحه في تدمير الاسطول الفرنسي في خليج أبي قير (يوم ١٧ صفر سنة ١٢١٣ هـ -أول آب - أغسطس سنة ١٧٩٨ م). وسيطرة الاسطول الانكليزي على البحر الأبيض المتوسط، وقطع خط المواصلات البحري بين مصر وفرنسا.

كانت الدولة العثمانية قد شرعت في الإعداد لمحاربة نابليون - منذ أن علمت بنزول قواته على أرض مصر. وتقدمت الحكومة الانكليزية بعرض لمساعدة الدولة العثمانية على محاربة نابليون، فقبلت الدولة العثمانية هذا العرض. وكذلك تقدمت الروسيا بعرض مماثل من أجل إرسال اسطولها للعمل مع الاسطول العثماني، فتم قبول هذا العرض أيضاً. وأعلنت الدولة العثمانية الحرب رسمياً على فرنسا في ٢١ ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ (٢ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٧٩٨ م). وشرعت في حشد جيوشها بمدينة دمشق، وبجزيرة رودس، لإرسالها إلى مصر. وتقدم الاسطول الروسي من البحر الأسود إلى مضيق الأستانه، وخرج الى البحر الأبيض المتوسط، جنباً إلى جنب مع سفن الاسطول العثماني، وذلك بموجب معاهدة أبرمت بين الدول الثلاث؛ العثمانية

الى مصر. واستولى على مصر العليا (الصعيد) وقد اضطلع بدور أساسي وحاسم لاحراز النصر في معركة مارنغو: (MARENGO) في إيطاليا. وقتل في لحظة احراز هذا النصر (يوم ١٤ حزيران - يونيو - سنة ١٨٠٠ م).

(١) نلسون: (NELSON-HORACE) أميرال انكليزي (١٧٥٨ - ١٨٠٥ م) انتصر في معركة أبي قير ودمر الاسطول الفرنسي، كما انتصر على الاسطولين الفرنسي والاسباني في معركة الطرف الأغر. وقتل في لحظة انتصاره. فنقلت جثته الى لندن، ودفنت في كنيسة ويستمينستر وأقيم له نصب رائع في ساحة حملت اسم معركته الأخيرة (ساحة الطرف الأغر).

والانكليزية والروسية، والتي اتفقت على عمل حربي مشترك، مع ما كان بين الدولة العثمانية والروسيا من العداء التقليدي والثابت والمستمر.

توافرت المعلومات عند نابليون بونابرت عن حشود القوات العثمانية، وأدرك بأنه من المحال عليه الاحتفاظ بسيطرته على مصر ما لم يبسط نفوذه على بلاد الشام أيضاً. فقرر التحرك بسرعة لمباغتة القوات العثمانية في منطقة دمشق قبل أن تكمل هذه القوات استعدادها. فقاد قوة - هزيلة - لم يتجاوز عدد أفرادها ثلاثة عشر ألف مقاتل. ومضى بها عبر سيناء حتى وصل مدينة العريش. فاحتلها في أواخر شعبان سنة ١٢١٣ هـ = شباط، فبراير، ١٧٩٩ م، وقام باحتلال غزة بعد ذلك بعشرين يوماً تقريباً. ثم سار منها إلى الرملة فاصطدم بمقاومة ضارية أرغمته على التوقف، وفرض الحصار، إلى أن فتحها عنوة. وتابع تقدمه إلى يافا، ثم تحرك نحو عكا، ووجد بأن أرتال أسرى المسلمين قد باتت تثقل تحركه، فأمر بذبحهم، وذبح معهم جميع الجرحى والمرضى من جنده. ثم حاصر مدينة (عكا) من جهة البر، وهاجمها مراراً، لكنه لم يتمكن من فتحها لوصول الامدادات إليها تباعاً من طريق البحر، واستيلاء الأميرال الانكليزي (سيدني سميث)[1] على مدافع الحصار التي جاء بها نابليون من مصر، لتدمير أسوار عكا. كما أبدى والي عكا (أحمد باشا الجزار) كفاءة عالية في قيادة الحامية المدافعة عن المدينة، وتمكن من افساد المتفجرات والملاغم التي كان يصنعها الفرنسيون لتدمير الأسوار. وعلم نابليون أثناء حصار (عكا) أن الجيش العثماني قد تحرك من دمشق لدعم الحامية المدافعة عن عكا، فأرسل قوة بقيادة الجنرال كليبر في محاولة لمنع هذا الجيش من الوصول إلى عكا. والتقى كليبر بالجيش العثماني عند جبل طابور - الى الجنوب الشرقي من مدينة الناصرة. فأحاط الجيش العثماني بقوة كليبر، وكاد يدمرها لولا وصول نابليون مع ثلاثة آلاف جندي وقيامه بالهجوم من وراء - خلف - الجيش العثماني، فتمكن بذلك من انقاذ كليبر، وتشتيت الجيش العثماني.

(١) سيدني سميث: (SMITHW-SIDNEY) أميرال انكليزي من مواليد مدينة ويستماينستر: (WESTMINSTER) (١٧٦٤ - ١٨٤٠ م). أصبح قائداً عاماً للقوات البحرية البريطانية سنة ١٨٢١ م.

وعاد نابليون إلى عكا، فعلم بأن القوات العثمانية التي كانت محتشدة في رودس قد ركبت البحر، فتعرضت بذلك مصر ذاتها للتهديد، ولم تعد قاعدة قوية ولا مأمونة بالنسبة للجيش الفرنسي، فقرر نابليون العودة إلى مصر بسرعة، وقاد من بقي من جيشه. ورجع إلى القاهرة.

تحرك الجيش العثماني من رودس - وقد ضم ثمانية عشر ألف مقاتل بقيادة (مصطفى باشا). ونزل على أرض خليج أبي قير، فقاد نابليون جيشه، وحارب هذا الجيش، وانتصر عليه، وتمكن عدد من أفراد هذا الجيش - ليس بالقليل - من العودة الى السفن والفرار من القتل، فيما وقع قائد هذا الجيش مع عدد من جنده في أسر القوات الفرنسية (وذلك في يوم ٢٤ صفر سنة ١٢١٤ هـ = ٢٨ تموز - يوليو - ١٧٩٩ م).

علم نابليون - من خلال الصحف التي سرّبها إليه الأميرال سميث عن عمد - بانتصار النمساويين على الفرنسيين، وبتدهور موقف الجبهة الداخلية الفرنسية، وتفاقم الفوضى والاضطراب، فقرر العودة بسرعة إلى فرنسا، وغادر الاسكندرية بصورة سرية ومعه بعض قادته - حتى لا يقع أسيراً في قبضة الاسطول البريطاني. وترك جيشه في مصر بقيادة (الجنرال كليبر). وكانت قوة هذا الجيش قد نقصت بسبب وباء الطاعون الذي فتك بالجيش أثناء المسير الى عكا وحصارها، ثم بسبب الخسائر التي نزلت به في معاركه المتتالية. فوصلت قوته حتى خمسة عشر ألف رجل لا أكثر. وظهر للجنرال كليبر بوضوح أنه من المحال على مثل هذا الجيش حماية السواحل. والسيطرة على الطرق والمحافظة على الأمن، فدخل في مفاوضات مع الدولة العثمانية ومع الأميرال سدني سميث لتأمين انسحاب القوات الفرنسية من مصر بسلاحها ومدافعها، وأن تعود إلى فرنسا على السفن البريطانية. وتم الاتفاق على ذلك (في ٢٤ كانون الثاني - يناير - سنة ١٨٠٠ م). ولكن ما إن أخذت القوات الفرنسية بالجلاء عن بعض القلاع، حتى أرسل قائد الاسطول الانكليزي إلى كليبر من أعلمه بأن الحكومة البريطانية قد رفضت هذا الاتفاق. وأنها تصر على أن يقوم الفرنسيون بالقاء أسلحتهم وتسليمها إلى الانكليز. فقرر كليبر أن يبذل ما بوسعه للاحتفاظ بسيطرته على مصر، وسار بجيشه

لقتال الجيش العثماني الذي كان قد وصل إلى مصر بقيادة الوزير (يوسف باشا)، والتقى به عند المطريه يوم ٢٣ شوال سنة ١٢١٤ هـ = ٢٠ - آذار - مارس - سنة ١٨٠٠ م، ودارت معركة ضارية انتهت بانتصار كليبر، وتمزق الجيش العثماني، وعاد كليبر إلى القاهرة فوجد أن الأمير ابراهيم بيك قد احتلها ونشر قواته فيها أثناء انصرافه لقتال جيش الوزير يوسف باشا. فما كان منه إلا أن أمر بقصف القاهرة بالقنابل. فدمر قسماً كبيراً من أحيائها، واقتحم الفرنسيون المدينة حيث دارت في شوارع القاهرة اشتباكات عنيفة استمرت طوال عشرة أيام، أمكن للفرنسيين بعدها فرض سيطرتهم على القاهرة. ولكن (سليمان الحلبي) استطاع طعن كليبر وقتله يوم ٢١ محرم سنة ١٢١٥ هـ = ١٤ حزيران - يونيو - سنة ١٨٠٠ م. فحل محله الجنرال منو الذي كان قد اعتنق الإسلام (وتسمى باسم عبدالله منو). وتسلم قيادة القوات الفرنسية.

وجه العثمانيون والبريطانيون حملة جديدة - عبر البحر - ضمت ثلاثين ألف مقاتل بقيادة (الجنرال ابركرومبي) في مطلع سنة ١٨٠١ م. وجرى انزالها بأبي قير. فسار القائد منو لقتالها، غير أنه لم يتمكن من الصمود في مواجهتها، وتراجع نحو الاسكندرية ليمتنع بها، فقطع الانكليز سدّ أبي قير، الذي يحجز مياه البحر عن الفيضان وغمر مناطق واسعة من الأرض؛ وذلك حتى يتم احتجاز (مينو) وقواته في الاسكندرية. ثم سارت القوات العثمانية والانكليزية نحو القاهرة، وحاصرت بقية القوات الفرنسية، وقام قائد هذه القوات باجراء مفاوضات للجلاء وأمكن التوقيع على اتفاق انسحبت بموجبه هذه القوات ومعها أسلحتها ومدفعيتها، وتحركت الى ثغر رشيد تحت حماية القوات العثمانية الانكليزية المشتركة. وركبت البحر على سفن انكليزية أما القائد منو، فبقي في الاسكندرية ضمن دائرة الحصار. واشتبك مع القوات العثمانية - الانكليزية في معركة ضارية قتل فيها عدد كبير من قوات الطرفين. ووجد نفسه في النهاية مرغماً على الاستسلام، (في ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢١٦ هـ = الفاتح من أيلول - سبتمبر - سنة ١٨٠١ م) وجاءت السفن الانكليزية فحملت مينو ومن بقي معه من القوات، وعادت بهم إلى بلادهم - فرنسا -.

استطاع نابليون بونابرت بعد عودته إلى فرنسا أن يزيل حكومة المديرين، وأن يمارس السلطة باسم (قنصل) ثم (امبراطور). وقد عمل خلال فترة صعوده على إعادة تنظيم علاقات فرنسا مع الدول الأجنبية، وكان من مصلحته دعم نفوذه لدى الدولة العثمانية، فاتصل بالسفير العثماني (أسعد أفندي). وأظهر له خطر تحالف الدولة العثمانية مع الروسيا وانكلترا، لاسيما وقد احتلت الروسيا جزر اليونان الواقعة بين جنوب ايطاليا وشبه جزيرة موره. كما أن انكلترا قد أبقت على جندها في مصر وهي تماطل في الجلاء عنها، أو في الجلاء عما احتلته من ثغور - موانىء - بلاد الشام. وأقنعه بضرورة تجديد العلاقات الودية مع فرنسا. وقام السفير العثماني (أسعد أفندي) باجراء الاتصالات مع دولته، وحصل منها على الموافقة بعقد معاهدة صداقة مع نابليون بونابرت. **فتم التوقيع على مشروع معاهدة في الأول من جمادى الآخرة سنة ١٢١٦ هـ (١٩ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٨٠١ م) وتضمنت ما يلي:**

البند الأول: ينعقد السلم والولاء بين الجمهورية الفرنسية والدولة العثمانية، فيزول بناء على ذلك ما وقع بينهما من العداء ابتداء من اليوم الذي يتم فيه تبادل التوقيع على بنود مشروع هذه المعاهدة، وتقوم القوات الفرنسية بالجلاء فوراً عن مصر. وترد فرنسا للدولة العثمانية كافة الأراضي والممتلكات كمثل ما كانت عليه قبل الحرب الحالية، على أنه من المقرر بعد جلاء الفرنسيين أن يسمح لفرنسا بكافة الامتيازات الممنوحة لسائر الدول الأجنبية في الأراضي المصرية.

البند الثاني: تعترف الجمهورية الفرنسية بتشكيل جمهورية السبع جزائر وبلاد البندقية السابقة، وتكفل استمرارها، وتقبل الدولة العثمانية ذلك بكفالة فرنسا وروما.

البند الثالث: ستتفق الجمهورية الفرنسية والدولة العثمانية على تعيين طريقة نهائية تختص بأموال رعاياهما وأمتعتهما التي احتجزت أو أخذت مصادرة أثناء الحرب، ويطلق سراح الموظفين السياسيين والوكلاء التجاريين والأسرى على اختلاف درجاتهم ومرتباتهم، فور التصديق على هذه البنود الابتدائية.

البند الرابع: تتجدد بذلك كافة المعاهدات التي سبق عقدها بين فرنسا والدولة

العثمانية ـ قبل الحرب الحالية، ويحق للجمهورية الفرنسية أن تتمتع في كافة أنحاء الممالك العثمانية بجميع الحقوق التجارية وحقوق الملاحة التي كانت متمتعة بها من قبل أو تلك التي ستمنح لغيرها من الدول الأكثر تفضيلاً في المستقبل. ويتم تبادل التوقيع على هذه البنود، والمصادقة عليها خلال ثمانين يوماً.

أبرم نابليون عقب ذلك معاهدة مع عامل الجزائر، ومعاهدة مماثلة مع تونس، تضمنتا احترام سفن فرنسا التجارية، كما كان مطبقاً في أيام السلطان سليمان القانوني.

حاول نابليون في هذه الفترة ذاتها تحسين علاقاته مع انكلترا، فشرع باجراء مباحثات معها، وأمكن له بعد مفاوضات طويلة عقد (معاهدة أميـــان)[1] التي حاولت انكلترا ادخال الدولة العثمانية فيها حتى تثبت اشتراكها وتحالفها معها بصفة دولية. لكن الدولة العثمانية رفضت ذلك، كما رفضته فرنسا، حيث أصر نابليون على الاتفاق مع الدولة العثمانية بصورة مباشرة. وتم هذا الاتفاق بينهما في ٢٣ صفر سنة ١٢١٧ هـ (٢٥ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٨٠٢ م) على أن تعود مصر إلى الدولة العثمانية مع كافة ما كان لها من الحقوق، وأن تقام في جزائر اليونان جمهورية مستقلة تحت حماية الدولة العثمانية (وكان ذلك بالاتفاق مع الروسيا). وتعهدت الدولة العثمانية بردّ ما تمت مصادرته من أملاك الفرنسيين ببلادها، ومنح فرنسا جميع امتيازاتها السابقة والمضمونة لها بمعاهدة سنة ١٧٤٠ م. وأن يكون لمراكبها التجارية حق الملاحة في البحر الأسود أسوة بمراكب الروسيا، وبعد ذلك سحبت انكلترا قواتها من مصر والاسكندرية. (في ذي القعدة سنة ١٢١٧ هـ = شباط ـ فبراير ـ سنة ١٨٠٣ م).

---

(١) أميان: (AMIENS) مدينة فرنسية قديمة، كانت عاصمة دولة بيكاردي: (PICARDIE) تقع على نهر السوم: (SOMME) وتبعد عن باريس مسافة ١٣٠ كم. عقدت فيها معاهدة بين فرنسا وانكلترا وهولاندا واسبانيا في ٢٥ ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٨٠٢ م احتفظت فرنسا بموجبها بجميع ما استولت عليه جيوشها ـ ما عدا روما ونابولي وجزيرة البا ـ وأعادت انكلترا لفرنسا واسبانيا وهولاندا ما كانت استولت عليه من مستعمراتها ـ ما عدا جزيرة سيلان بجنوب الهند وجزيرة ترينتي بأمريكا الوسطى.

لم تكن ظروف الحرب ضد نابليون عندما اجتاح مصر هي المناسبة الوحيدة التي أبرزت مدى الحاجة لإجراء إصلاحات داخلية. فلقد تبين من خلال متابعة الأحداث أن الدولة العثمانية كانت متيقظة باستمرار لاستخلاص الدروس من كل تجربة تعيشها.

وكان السلطان سليم الثالث قد شرع في تنظيم الجيوش تنظيماً جديداً وحديثاً، غير أن الإنكشارية قاوموا هذه الإصلاحات العسكرية خوفاً من أن تكون مقدمة لالغاء تنظيماتهم. فلما مات الجنرال الفرنسي (دوبيت) سنة ۱۷۹۷ م، والذي كان قد استحضر للاشراف على التدريب في التنظيم الجديد، عمل الإنكشارية مع بعض العلماء المعارضين لكل أمر مستحدث لالغاء الفرق المنظمة حديثاً. فما كان من أمير البحر (كوجك حسين باشا) إلا أن جمع ستمائة مقاتل منهم ونظمهم في كتيبة جديدة ـ على نفقته الخصوصية ـ وأجزل إليهم الهبات، مما شجع الشبان للانضمام إليها، فأخذ الإنكشارية في الوقوف أمام السرايا وقت تدريب الجند، للسخرية بهم والهزء منهم والتهديد لهم، غير أن حسين باشا تجاوز هذه الاستفزازات، وتابع العمل لتنفيذ مشروعه. فلما سار بونابرت من مصر إلى الشام، ارتحل هو بفرقته إلى عكا، فكانت القوة النظامية الجديدة في مقدمة القوات التي صمدت في الدفاع عن عكا، وكانت من أشدها بأساً على الجيش الفرنسي. فلما عادت من عكا، تحت ظل رايات النصر، أمر السلطان سليم الثالث أن تكون نفقة هذه القوة على الدولة، وأن يزاد عدد أفرادها، حيث ظهر بوضوح أهمية وفائدة النظام في حياة الجيش في مواجهة جيوش اوروبا النظامية. ثم انتهز فرصة وجود أكبر قادة الإنكشارية بمصر ـ لقتال الفرنسيين ـ فأصدر مرسوماً (خط شريف) بفصل المدفعية عن الإنكشارية، وتنظيمها على الطراز الأوروبي، وكذلك البحرية، مع إنشاء فوجين من الفرسان ولواءين من المشاة النظاميين، وحددت الآستانة قاعدة لهذه القوة، وأن يكون لها موسيقى عسكرية وإمام لتعليم الدين وإقامة الصلاة. وأن يتم بناء معسكرين. وخصصت لها الموارد المالية الضرورية. ثم أصدر السلطان أمره إلى والي بلاد القرمان (عبد الرحمن باشا) بتنظيم عدد من الألوية وتدريبها على النظام الجديد، ولم تمض أكثر من ثلاثة أعوام حتى تم

تنظيم ثمانية ألوية كاملة العدد والأعتدة والتجهيزات.

لقد جاءت حملة نابليون بونابرت على مصر لتشكل نقطة التحول الحاسمة في حياة الدولة العثمانية. فقد أثارت هذه الحملة رياح الثورة العاتية، إذ أنها أظهرت ضعف الدولة العثمانية في مواجهة القوى الجديدة التي برزت على المسرح العالمي. لقد تعرضت الدولة العثمانية من قبل لعدد من الهزائم، غير أنها كانت قادرة في كل مرة على إعادة تنظيم قواتها والعودة لاحراز نصر كبير يزيل ما لحق بها من هزيمة أو فشل. ولكنها في هذه المرة لم تعمل وحدها، بل عملت معها الروسيا وبريطانيا، مما جعل للدولتين المذكورتين ولسواهما دوراً أكبر في التدخل بشؤون الدولة الداخلية. وقد انعكس ذلك على شكل حركات تمرد عنيفة كان مسرحها أرض أوروبا.

ولقد أفادت مراكز القوى في الدول العظمى الناشئة من التناقضات الداخلية الكامنة في التنظيم الإداري للدولة العثمانية. ذلك أن هذه الدولة قد اعتمدت منذ فتوحاتها المبكرة للأقاليم الأوروبية على ما يمكن تسميته (نظام الإدارة المحلي) فتركت لكل اقليم أن يحكم نفسه بنفسه، وتحت قيادة أمرائه المحليين الذين يتم انتخابهم من صفوفهم وبحيث تتم إدارة الحكم بحسب عادات أهل الاقليم وشرائعهم، واكتفت الدولة العثمانية بفرض جعل أو خراج محدد لدعم الخزانة المركزية للدولة، مع اقطاع الفرسان الصبايحية (السباه) اقطاعات يعيشون منها. وبذلك احتفظ أهل البلاد بلغتهم ودينهم ولم يتم دمجهم وربطهم دينياً ولغة بالدولة العثمانية. وكان بالمستطاع أن تعتنق الجماهير الواسعة في أوروبا الدين الإسلامي، وأن تتبنى اللغة العربية لو استقرت الأمور، غير أنه ظهر من خلال العرض السابق أن التحريض الخارجي، والحملات الصليبية المتتالية، قد حرمت الأقاليم الأوروبية من نعمة الاستقرار الذي يفسح المجال لبناء المجتمع الإسلامي. وزاد الأمر سوءاً من جراء عسف ملتزمي الاقطاعات وظلمهم في جبايتهم للخراج، مما ساعد على تفاقم النقمة، وتكوين المناخ المناسب للتحريض الخارجي. فلما نشبت الحرب الأخيرة بين الدولة العثمانية من جهة والروسيا والنمسا من جهة ثانية، انضم عدد كبير من أبناء الصرب الى الجيش النمساوي، وانتقلوا إلى بلاد المجر. فلما وضعت هذه الحرب أوزارها، عادوا الى بلادهم وقد اكتسبوا خبرات قتالية جيدة،

كما تم ربطهم فكرياً ودينياً بالغرب الصليبي، وأشبعوا بروح الاستقلال. مما جعلهم يصطدمون بالإنكشارية الذين كان السلاح هو اللغة الوحيدة التي يتقنون استخدامها. فعملوا على نهب قرى الصرب وتوسيع دائرة العدوان والإذلال مما زاد النقمة حدة، والهياج تفاقماً. وحمل أهل الصرب شكواهم ونقلوا ما أحاق بساحتهم من الظلم الى الدولة التي أمرت والي بلغراد بمعاقبة الإنكشارية وإخراجهم من أراضي الصرب كافة، فلم ينفذ الإنكشارية ما طلب إليهم تنفيذها، مما حمل والي بلغراد على محاربتهم بمساعدة الفرسان الصبايحية (السباه) وانتصر عليهم، وأخرجهم من ولاية بلغراد، بعد أن قتل قائدهم (دلي أحمد). فالتجؤوا الى - بازوند أوغلي - الذي سبق ذكر تمرده واستقلاله تقريباً بولاية (ودين). وهو الذي توسط لهم لدى السلطان واستحصل لهم على الأذن بالعودة إلى بلغراد بشرط التزام الهدوء والمحافظة على النظام. لكنهم لم يرجعوا عن غيهم، فعملوا على متابعة اضطهادهم للصرب بمجرد عودتهم، وزادوا طغياناً بإقدامهم على محاصرة مدينة بلغراد بمساعدة (بازوند أوغلي) ودخلوها عنوة وقتلوا واليها، وانتشروا في أطراف البلاد، يعبثون فيها فساداً. وضاق الصربيون ذرعاً، فاجتمع كبار رجالهم، وقرروا الدفاع عن أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وانتخبوا لهم زعيماً منهم وهو (جورج بتروفتش)[1] وطاردوا الإنكشارية حتى أبعدوهم عن البلاد والقرى، ولم يعد باستطاعتهم الخروج من ثكناتهم في المدن لتربص الأهالي بهم. وأرسل السلطان سليم الثالث أمراً إلى والي بوسنة (بكير باشا) يأمره بمساعدة الصرب على محاربة الإنكشارية وطردهم ثانية من بلغراد، فقاد بكير باشا جيشه، وحاصرهم مع بتروفتش حتى دخلاها وأخرجا الإنكشارية منها. ورجع بكير باشا إلى ولايته (بوسنة). غير أن أهالي الصرب الذين حققوا انتصاراً على طريق الاستقلال، لم يقنعوا بما حصلوا عليه، فتابعوا صراعهم لانجاز الاستقلال الكامل (الإداري ثم السياسي).

---

(١) جورج بتروفتش: ثائر صربي - ولد بمدينة بلغراد (١١٨٤ - ١٢٣٣ هـ = ١١٨٤ - ١٢٣٣ م) وكان يلقب بقره جورج (أي جورج الأسود) وهو أول من جمع كلمة الصربيين ضد الدولة العثمانية وطلب الاستقلال. وبدأ بقتل أبيه وأخيه بسبب ولائهم للدولة العثمانية. ونال بعض الامتيازات =

كانت الاضطرابات تهيمن في هذه الفترة ذاتها على ألبانيا (بلاد الأرناؤوط) بسبب تمرد والي (يانية) (علي باشا) وعصيانه على الدولة العثمانية، واستئثاره بالسلطة. وكان علي باشا هذا هو ابن أحد زعماء الروم الذين اعتنقت عائلاتهم الإسلام في بداية الفتح العثماني، ثم أصبح قائداً لإحدى العصابات التي نظمت بدعم من الروسيا وتوجيهها، للعمل على قطع الطرق وايقاف الحركة التجارية بين جبال اليونان وألبانيا، غير أنه ما لبث أن اقتنع بخطر نهجه على بلاده، وأدرك ما تريده الروسيا من التوسع والسيطرة. فأقلع عن ممارسة السلب والنهب، والتمس من السلطان تعيينه حاكماً على موطنه الأصلي (أبيروس العليا - باليونان). واستجاب السلطان لطلبه، وكلفه بمحاربة والي اشقودره ووالي (دلونيو - في شمال البانيا والى الغرب من أشقودره) اللذين أعلنا تمردهما وعصيانهما فحاربهما وانتصر عليهما. ولما اندلعت الحرب مع الروسيا (سنة ١٧٨٧ م) ونشطت العصابات المسلحة في ممارسة أعمال التخريب وقطع الطرق، كلفه السلطان بالمحافظة على الطرق والقضاء على العصابات، ثم عينه والياً على (يانية) سنة ١٧٩٧ م. ولما استولت فرنسا على كافة السواحل والثغور التابعة لجمهورية البندقية. راسلهم علي باشا، وأكد لهم ولاءه لنابليون وحكومته، ولم يكن ذلك منه إلا لحماية البلاد العثمانية من عدوان فرنسا.

عندما جاء نابليون إلى مصر، وجاءت معه رياح الثورة، عادت أعمال العصيان إلى بلاد الصرب. فوجهت الدولة العثمانية جيشاً احتل ثغري (بوترنتو) و(بروازه) في ألبانيا، وحارب الفرنسيين وانتصر عليهم. ثم تابع هذا الجيش أعماله (سنة ١٢١٧ هـ = ١٨٠٢ م) للقضاء على قبيلة (السوليين) التي كانت قد اعتصمت في جبال البانيا الوعرة، والمنيعة، وانضم إلى هذا الجيش المسلمون الألبان والمسلمون الروم الذين استوطنوا هذه الجبال وعرفوا وهادها ومنافذها فحاصروا (السوليين) من كل

= سنة ١٨٠٦م. ثم حرمته الدولة العثمانية من هذه الامتيازات، وطردته من بلاد الصرب سنة ١٨١٣ م. فهرب الى روسيا التي أكرمته وعينته قائداً في جيوشها. ثم إنه حاول الرجوع الى الصرب بهدف إثارة الفتن، فقبض عليه والي الصرب (ميلوش أورسوفتش) وقتله. وأرسل رأسه الى الأستانة.

الاتجاهات، وضيقوا عليهم الخناق. فلم يرَ الثائرون مخرجاً إلا الاستسلام أو الموت، فطلبوا الأمان (سنة ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣ م). والتمسوا السماح لهم بالهجرة إلى جزر اليونان، فسمح لهم. وعاد الأمن والنظام الى جبال ألبانيا وأبيروس. وصار باستطاعة الدولة توجيه جهدها لقمع الثورة في (مقدونيا) والتي رفعت بدورها شعار الاستقلال. فسار الصدر الأعظم (علي باشا) على رأس جيش من ثمانين ألف مقاتل، وأمكن القضاء على الثورة، وتم إحباط جهود التحريض الروسي.

لم تكن بلاد الروملي - والتي كانت القاعدة الأساسية للدولة، بعيدة بدورها عن الفوضى والاضطراب. فقد انتشرت فيها العصابات المسلحة بأكثر من انتشارها في بقية ولايات الدولة بأوروبا. بحيث لم يتمكن الإنكشارية من قمع نشاط هذه العصابات التي نجحت في تحقيق عدد من الانتصارات على الإنكشارية، وصارت البلاد في كرب عظيم، وبلاء شديد. لاسيما وقد أخذت العصابات في تهديد مدينة أدرنة ذاتها رغم قوتها ومنعتها. وعندها قرر السلطان سليم الثالث استخدام الجيوش النظامية، واختبار قدرتها وكفاءتها، فأرسل في سنة ١٢١٩ هـ = ١٨٠٤ م من الأستانة لواء مع فرقة من المدفعية وفرقة من الخيالة وثلاثة ألوية نظامية من التي نظمها والي بلاد القرمان. فقامت هذه القوة بتنفيذ مهمتها على أفضل وجه، ولم تتمكن العصابات من الصمود في وجهها، ولم تمض أكثر من فترة وجيزة حتى أمكن تطهير بلاد الروملي من فلول العصابات الممزقة، وعاد الأمن والاستقرار للاقليم. ورجع جند هذه القوة الى الآستانة تحت رايات النصر. وأفاد السلطان سليم من هذه التجربة الناجحة فأصدر مرسوماً (خط شريف) في آذار - مارس - سنة ١٨٠٥ م إلى جميع الولايات بتركيا وأوروبا لجمع الشبان كافة من الإنكشارية والمواطنين البالغين سن الخمسة والعشرين، وتدريبهم على النظام الجديد. ورفض الإنكشارية تنفيذ هذا المرسوم. وأعلنوا تمردهم. فأرسل السلطان إلى والي بلاد القرمان (عبد الرحمن باشا) الذي كان من أكبر دعاة الإصلاح العسكري، وطلب إليه الحضور بجيوشه النظامية إلى الآستانة، من أجل التوجه الى البلاد التي اعتصم بها الإنكشارية وامتنعوا عن تنفيذ مرسوم الإصلاح. فجاء (عبد الرحمن باشا) الى العاصمة (إسلام بول) في أوائل سنة ١٨٠٦، ومكث فيها

شهراً تقريباً، جرى خلاله استعراض القوات وعرضها على السلطان سليم، ثم توجهت إلى أدرنه بقيادة (عبد الرحمن باشا) الذي وجد لدى وصوله إليها بأن الانكشارية قد أوصدوا أبواب المدينة. وجرت مجموعة من الاشتباكات غير الحاسمة. وظهر للسلطان احتمال امتداد العصيان، وانضمام العلماء والطلبة ضد النظام الجديد، فأعلن قبوله لطلب الإنكشارية بسحب القوات النظامية وإعادتها إلى آسيا، وعزل الوزراء وتعيين قائد الإنكشارية في منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء). فأمكن تهدئة ثائرة الإنكشارية بصورة مؤقتة.

لقد كانت تلك بعض الانعكاسات غير المباشرة لحملة نابليون على مصر. أما النتائج المباشرة فقد ظهرت بعد خروج القوات الفرنسية من مصر. حيث أرسل نابليون الجنرال سيباستياني إلى الآستانة لتجديد التحالف ولتنسيق التعاون مع الدولة العثمانية. وتمكن خلال إقامته بالآستانة من عزل أميري الفلاخ - الأفلاق - والبغدان بسبب انحيازهما للروسيا (في ٥ جمادى الثاني سنة ١٢٢١ هـ = ٢٠ آب - أغسطس - سنة ١٨٠٦م). وعين بدلاً عنهما أميرين ممن عرفوا بصدق ولائهم للدولة العثمانية، فثارت ثائرة الروسيا، وخشيت من تعاظم نفوذ فرنسا، فأرسلت جيوشها لاحتلال اقليمي الأفلاق والبغدان بدون إعلان حرب، بحجة أن تغيير أميري الاقليمين هو أمر مضر بحقوق جوارها. وبدأت الأعمال القتالية بينها وبين الجيوش العثمانية.

ووقفت انكلترا إلى جانب الروسيا، فأرسلت أحد أساطيلها الى الدردنيل بقيادة اللورد (دوق وورث). وأرسل سفير انكلترا (السيراربوثنوت) انذاراً إلى السلطان سليم، طلب فيه تحالف الدولة العثمانية مع انكلترا، وتسليم الأساطيل العثمانية وقلاع الدردنيل إلى إنكلترا، والتنازل عن ولايتي الأفلاق والبغدان إلى الروسيا، وطرد الجنرال سبستياني من الآستانة، وإعلان الحرب على فرنسا.

ورفضت الدولة العثمانية هذا الإنذار، وشرعت في تحصين مضيق الدردنيل، وإقامة القلاع على ضفتيه، غير أن ضيق الوقت لم يسمح بإكمال بناء التحصينات بطريقة تجعل من المحال عبور الدردنيل. فاجتاز الأميرال اللورد (دوق وورث) بأسطوله الدردنيل يوم ١٢ ذي الحجة سنة ١٢٢١ هـ = ٢٠ شباط - فبراير - سنة ١٨٠٧ م، ووصل

إلى مرفأ (غاليبولي) ودمر كافة السفن الحربية العثمانية الراسية في المرفأ. ومكث خارج البوسفور ينتظر تنفيذ بنود الإنذار. وجابهت الحكومة العثمانية مأزقاً صعباً، وهيمن على العاصمة جوّ من الهلع، فقد باتت القصور الملكية والدواوين الحكومة المنتشرة على ضفتي البوسفور تحت رحمة الاسطول الانكليزي. وانصرف مجلس الوزراء لبحث الموقف وبعد مناقشات طويلة تقرر الإذعان لانذار انكلترا، وأرسلت الحكومة طلباً إلى الجنرال سبستياني بمغادرة الآستانة. ولكن سبستياني امتنع عن إجابة الطلب، والتمس مقابلة السلطان سليم الثالث على انفراد، فلما جرت المقابلة أظهر سبستياني استعداد فرنسا لمساعدة الدولة العثمانية، وأعلمه أن نابليون بونابرت قد أصدر أمره فعلاً إلى كافة جيوشه المنتشرة على سواحل البحر الأدرياتيكي بالتوجه إلى الآستانة لدعم القوات العثمانية ضد القوات الإنكليزية، ولرفض انذارها. فاقتنع السلطان سليم وقرر المقاومة. وأصدر أوامره بتحصين العاصمة، وبناء القلاع حولها، وتسليحها بالمدافع الضخمة. وشكل الفرنسيون بالآستانة قوة من مائتي مقاتل، معظمهم من رجال المدفعية، وانضم إليهم الاسبانيون الذين كان سفيرهم (المركيز دالمنيرا) ممن يناهضون سياسة انكلترا في الشرق ويقاومونها. وهب أبناء العاصمة بشيوخهم ونسائهم وأولادهم لتحصين مدينتهم والدفاع عنها. وبذل الإنكشارية من الجهد، وأظهروا من الحماسة بأكثر مما كان متوقعاً منهم، وكان السلطان سليم يشرف بنفسه على أعمال التحصين وتنظيم المقاومة، واتصل العمل في الليل والنهار، ولم تمض إلا أياماً قليلة حتى صار باستطاعة المدينة مجابهة العدوان.

ورأى الأميرال الانكليزي أنه بات من المحال على سفن اسطوله الوصول الى البوسفور، وشاهد قرب الانتهاء من تحصين الدردنيل، فخشي أن تقع سفنه في الحصار بين مضيقي البوسفور والدردنيل بحيث يصبح من السهل تدميرها، فقرر الانسحاب الى عرض البحر الأبيض المتوسط، ونفذ هذا القرار يوم ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٢١ هـ = أول آذار - مارس - سنة ١٨٠٧ م. ولم يكن انسحابه بدون ثمن، فقد قتل من رجاله ستمائة، وغرق من سفنه اثنتان - من مقذوفات قلاع الدردنيل، والتقى بسفن الروسيا عند مدخل مضيق الدردنيل.

وحاول الأميرال (اللورد دوق وورث) الانتقام لهزيمته على ضفاف البوسفور، فتوجه بأسطوله الى ثغر الاسكندرية ومعه خمسة آلاف جندي من المشاة - بقيادة الجنرال فريزر - فاحتلها في ١٠ محرم سنة ١٢٢٢هـ = ٢٠ - آذار - مارس - سنة ١٨٠٧م. ثم وجه قوة إلى ثغر رشيد لاحتلاله، فأرسل والي مصر - محمد باشا - قوة هزمت القوة الانكليزية وردتها على أعقابها. وتكررت المحاولة الانكليزية لاحتلال رشيد، وتكرر فشلها، مما أرغم القوات الانكليزية على الانسحاب والجلاء عن مصر (في ١٠ رجب سنة ١٢٢٢هـ = ١٣ - أيلول - سبتمبر - ١٨٠٧م).

بقيت الحرب بين الدولة العثمانية والروسيا خلال ذلك، فعمل والي البوسنة - أميرها على زج جيشه في بلاد الصرب ليمنع الثائرين من الانضمام إلى الجيش الروسي. كما تولى الصدر الأعظم قيادة فرقتين من الإنكشارية وجيوش آسيا النظامية إلى مدينة (شومله). وكان حاكم مدينة (روستجوق) مصطفى باشا البيرقدار يستعد لاجتياح بلاد الأفلاق بخمسة عشر ألف جندي قام هو بتنظيمهم وتدريبهم. وخصص مجموعة قتالية كبيرة من قوات النظام الجديد لحماية قلاع البوسفور والدردنيل والدفاع عن تحصيناتها. وتصادف خلال هذه المرحلة الحرجة أن توفي المفتي الذي كان يدعم السلطان سليم لادخال الاصلاحات العسكرية، وخلفه في منصب الافتاء قاضي عسكر الروملي الذي كان على النقيض من سلفه، فعمل مع قائم مقام الصدر الأعظم مصطفى باشا - والذي ناب عن الصدر الأعظم خلال تغيبه في الحرب ضد روسيا - وانضم إليهما لفيف من العلماء للمطالبة بإلغاء النظام العسكري الجديد، بحجة أن هذا النظام هو بدعة مخالفة للشرع. وشرعوا في تحريض الجنود غير النظاميين الذين انضموا الى الفرق النظامية، وأشاعوا بينهم أنهم لم ينقلوا من بلادهم إلا لارغامهم على الانخراط في سلك النظام الجديد، وإكراههم على ارتداء الثياب الغربية، ولبس زي النصارى، مع ما في ذلك من مخالفة للقرآن الكريم والشرع الحنيف - على حد زعمهم -. وعندما أدرك مصطفى باشا والمفتي الجديد أن تحريضهما قد لقي نجاحاً، عمل مصطفى باشا على ارسال مندوبين إلى إحدى القلاع التي تقيم فيها قوة مشتركة من الجند النظاميين

وغير النظاميين، وتظاهروا بأنهم قد حضروا لارغام الجند غير النظاميين على ارتداء ثياب الجند النظاميين، فاجتاح الهياج القلعة، وحاول غير النظاميين قتل المندوبين، فمنعهم النظاميون. ووقعت معركة سالت فيها الدماء بغزارة، وما لبثت نار الفتنة أن امتدت الى جميع القلاع، ووقعت اشتباكات عنيفة بين الفريقين، في عدد من المواقع، وكان من نتيجتها قتل المندوبين ـ مثيري الفتنة، واعتصم الجند النظاميون بثكناتهم، ولما علم السلطان ببعض ما حدث، تدخل مصطفى باشا، وأعلم السلطان سليم بأن الأمر لا يستحق الاهتمام. ثم تابع مصطفى باشا دوره في المؤامرة، فأوعز إلى مثيري الشغب وزعماء الفتنة بالتجمع في (يبيوكدره) من ضواحي إسلام بول حيث انتخبوا لهم قائداً اسمه (قباقجي أوغلي). سار بهم إلى الآستانة وانضم نحواً من مائتي جندي من البحرية وثمانمائة من الإنكشارية، حتى إذا وصلوا إلى (آت ميدان) وهي ضاحية أخرى في إسلام بول، جاؤوا بقدور الإنكشارية وصفوها ـ وكانت هذه هي التعبير الثابت والمعروف لإعلان العصيان ـ. وقرىء عليهم أسماء جميع المؤيدين لمشروع التنظيم العسكري الجديد والداعين له، من الوزراء أو القادة أو رجال الدولة، فتوجه المتمردون إلى منازلهم وقتلوهم وحملوا رؤوسهم ووضعوها أمام القدور. ولما علم السلطان سليم بأمر هذه الثورة، أصدر على الفور أمراً بإلغاء النظام الجديد، وتسريح الجند النظاميين. ولكن هذه الإجراءات لم تقنع المتمردين، فقرروا عزل السلطان خوفاً من أن يعود لتنفيذ مشروعه بعد تهدئة الموقف، وساعدهم المفتي الذي مارس حتى الآن الدور الأساسي في التحريض على الفتنة، فأصدر فتوى: **«بأنه لا يصلح للملك كل سلطان يعمل على إدخال أنظمة الفرنج وعوائدهم»**.

واستمرت هذه الفتنة يومين، تم بعدهما عـزل السلطـان سليم الثـالـث. وتنصيب (مصطفى الـرابع)[1] في يوم ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٢٢ هـ = ٢٨ حزيران ـ

(١) السلطان الغازي مصطفى خان الرابع ـ ابن السلطان عبد الحميد الأول ـ (١١٩٣ ـ ١٢٢٣ هـ = ١٧٧٩ ـ ١٨٠٨ م). لم تستمر فترة حكمه لأكثر من ثلاثة عشر شهراً، فقد استمر أطراف المؤامرة في صراعاتهم التي حاول السلطان ايقافها عند حدودها، وانتهى الأمر بخلع السلطان مصطفى يوم ٤ جمادى الأولى سنة ١٢٢٣ هـ = ٢٨ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٨٠٨ م. وبقي =

يونيو ـ سنة ١٨٠٧ م. وكان لا بد للمتمردين الذين عملوا على إجراء هذا التغيير من فرض إرادتهم، فكان السلطان مصطفى أداة طيعة في قبضة أعداء التنظيم الجديد، فتم تثبيت الوزراء ممن لم يقتلوا في الثورة ـ في مناصبهم، وتم تعيين (قباقجي أوغلي) قائداً عاماً لجميع قلاع البوسفور. فأعاد الإنكشارية قدورهم إلى ثكناتهم، دلالة على عودتهم للهدوء والتزام النظام.

ما إن علم الإنكشارية الذين كانوا يخوضون الحرب ضد القوات الروسية عند نهر الدانوب، بما حققه اخوانهم من النصر في تغيير السلطة وخلع السلطان، حتى هيمنت عليهم البهجة لإلغاء النظام الجديد. فعملوا بدورهم على قتل الصدر الأعظم (حلمي ابراهيم باشا) الذي كان معروفاً بتبنيه للنظام الجديد، وحماسته له. وعينوا مكانه (جلبي مصطفى باشا) وتبع ذلك تدهور في الموقف بسبب ما ظهر على الإنكشارية من التهاون في القتال. ولم ينقذ الموقف إلا هزيمة القوات الروسية على يد نابليون في (فـريدلانـد)[1]. فانسحبت القوات الروسية من ولاية البغدان دونما حرب ولا قتال. وتم في عقب ذلك صلح (تلسيـت)[2] بين فرنسا والروسيا، والتي جاء في البند الثاني والعشرين وما بعده، من أن الروسيا تتوقف عن شنّ الحرب ضد الدولة العثمانية، حتى يتوسط نابليون بين الطرفين، وأنه بمجرد التوقيع على الهدنة الابتدائية (بالأحرف

= السلطان محجوزاً في السرايا لفترة قصيرة، ثم قتل، وهو التاسع والعشرين بين الخلفاء العثمانيين وخلفه السلطان محمود الثاني.

(١) فريدلانـد: (FRIEDLAND) وتعـرف اليـوم بـاسم: (TEHERNLAKOWSK) وهـي مـدينـة في ليتوانيا ـ في الاتحاد السوڤييتي، وكانت من قبل تابعة لألمانيا، اشتهرت بانتصار نابليون على القوات الروسية يوم ٦ ربيع الثاني سنة ١٢٢٢ هـ = ٣ حزيران ـ يونيو ـ سنة ١٨٠٧ م.

(٢) تلسيت: (TILSIT) وتعرف اليوم باسم: (SOVIETSK) وهي بلدة في ليتوانيا في الاتحاد السوڤييتي، تقع على نهر نييمن: (NIEMEN) الفاصل بين الروسيا وبروسيا. وبها اجتمع الامبراطور الفرنسي نابليون بونابرت وقيصر الروسيا الاسكندر الأول. يوم ١ ـ جمادى الأول سنة ١٢٢٢ هـ = ٧ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٨٠٧ م، واتفقا على تقسيم اوروبا بينهما. ولكنهما اختلفا بشأن الآستانة حيث كان كل طرف يرغب في الحصول عليها. ونسب لنابليون يومها قوله: «إن الأستانة هي مفتاح العالم، ومن يستولي عليها يستطيع السيطرة على العالم بأسره».

الأولى) تنسحب القوات الروسية من ولايتي الأفلاق والبغدان، بدون أن تدخلها الجيوش العثمانية حتى يتم الصلح النهائي.

وجاء في المعاهدة السرية التي وقعها نابليون وقيصر الروسيا الاسكندر الأول بأنه إذا لم يقبل السلطان العثماني بوساطة فرنسا - بسبب الأحداث الأخيرة التي وقعت بالآستانة - أو إذا لم يتم بلوغ الهدف بطريقة مرضية، بعد قبول هذه الوساطة بمدة خمسة وثلاثين يوماً، فإن فرنسا تتحد مع الروسيا على سلخ جميع الولايات العثمانية بأوروبا ما عدا الأستانة وما حولها. وتقسيمها فيما بينهما، مع إرضاء النمسا بجزء يسير، بحيث تكون بلاد البوسنة والبانيا - بلاد الأرناؤوط - وأبيروس وبلاد اليونان ومقدونيا لفرنسا. وتعطى للنمسا بلاد الصرب، وتحصل الروسيا على الأفلاق والبغدان والبلغار وإقليم حتى نهر (ماريتسا).

لقد كان عقد المعاهدة العثمانية - الفرنسية عاملاً في تفجر هذه الحرب مع الروسيا، ولكن ها هي فرنسا تعود لسياستها التقليدية، فتتخلى عن الدولة العثمانية وتتركها وحدها في مجابهة الروسيا، ليس ذلك فحسب، بل إنها عقدت مع الروسيا صفقة سرية لاقتسام الإمارات الأوروبية التابعة للدولة العثمانية. وقد أرسل نابليون أحد القادة في هيئة أركان حربه (الجنرال جلليمينو) في يوم ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٢٢ هـ = ٩ تموز - يوليو - سنة ١٨٠٧ م. لإبلاغ نصّ المعاهدة الرسمية لقادة الجيوش العثمانية والروسية وإبلاغهم بوساطة فرنسا التي قبل بها الطرفان. وتم التوقيع على هدنة ابتدائية بين قادة الجيوش العثمانية وقادة الجيوش الروسية بحضور المندوب الفرنسي. غير أن الروسيا لم تنسحب من ولايتي الأفلاق والبغدان، وهو أول نكوص عن تنفيذ شروط معاهدة (تلسيت). ولذا لم يحاول الطرفان الوصول الى اتفاق بشأن شروط صلح نهائي. ولكنهما لم يستأنفا القتال بسبب انصرافهما لمعالجة مشكلاتهما.

لم يكن خلع السلطان مصطفى الرابع، وتنصيب أخيه (محمود الثاني)[1] بالأمر

---

(١) السلطان الغازي محمود خان الثاني - ابن السلطان عبد الحميد الأول (١١٩٩ - ١٢٥٥ هـ = =

غير المألوف أو غير المعهود في نظام الخلافة العثمانية. غير أن هذا العمل الذي أصبح إجراء اعتيادياً في حياة الإنكشارية وحياة مراكز القوى في الدولة، قد اكتسب شكلاً مثيراً خلال تلك المرحلة الحرجة. فكان أول عمل قام به السلطان (محمود الثاني) هو تعيين (مصطفى باشا البيرقدار) في منصب الصدر الأعظم وتكليفه بإعادة تنظيم الإنكشارية وإرغامهم على الالتزام بأنظمتهم القديمة التي حددت لهم أعمالهم وواجباتهم منذ أيام السلطان سليمان القانوني، والتي أهملت يوماً بعد يوم حتى أصبحت نسياً منسياً، **فانصرف البيرقدار للقضاء على عناصر المقاومة الرئيسة. ثم استدعى جميع كبار رجال الدولة والوزراء والأمراء. وعقد مؤتمراً كبيراً، شرح فيه ما كان عليه الإنكشارية، وما وصل إليه تنظيمهم من التدهور والانحطاط، وما يجب أن تلتزم به من النظام والانضباط. وأظهر ضرورة تسليحهم بالأسلحة النارية المخترعة حديثاً، والتي كان استخدامها في جيوش الروسيا هو سبب انتصاراتها الأخيرة على جيوش الدولة العثمانية. وتقدم بعدد من الاقتراحات منها إلزام الإنكشارية بالسكن في ثكناتهم، خصوصاً غير المتزوجين منهم، وحرمان الذين يقيمون خارج الثكنات من جعالة الاطعام والسكن، وإلزامهم بالخضوع للتدريب، وتسليحهم بالأسلحة النارية، والإفادة من قواعد التدريب التي تطبقها الجيوش الأوروبية لتطوير التدريب.**

وغير ذلك من الاصلاحات الضرورية. وأقر الجميع ما جاء في خطة رئيس الوزراء (البيرقدار). كما استحصل على فتوى بضرورة تنفيذ أنظمة الإنكشارية بكل دقة وحزم. وأصدر أوامره بذلك، وضم معظم ضباط الجيش النظامي الذي كان قد أمر بالغائه إلى جيش الإنكشارية، وأسند إليهم القيادات العليا، فأخذوا في تنفيذ توجيهاته بعناية وشدة. وثار الإنكشارية - كعادتهم - ووقعت بينهم وبين القوات النظامية معارك عنيفة واشتباكات ضارية. قتل فيها الصدر الأعظم (البيرقدار) بعد أن بذل

= ١٧٨٥ - ١٨٣٩ م). نصب سلطاناً سنة ١٢٢٣ هـ = ١٨٠٨ م. وهو الثلاثين في تسلسل الخلفاء العثمانيين. أخذت (المسألة الشرقية) في عهده شكلها الواضح حيث تكالبت كل دول الغرب ضد الدولة العثمانية. وقد حاول جهده لايقاف عجلة التدهور، وحقق بعض النجاح.

جهده في المقاومة. وقام الإنكشارية بإحراق الآستانة، وكادت النار تلتهم المدينة بكاملها، مما حمل السلطان على الاستجابة لطلبات الإنكشارية.

وجد السلطان محمود الثاني أنه من المحال تطوير الدولة ما لم يتم اجراء إصلاح داخلي يبدأ بالقضاء على الإنكشارية، وأنه من المحال أيضاً البدء بهذا الإصلاح الداخلي ما لم تتم تهدئة الجبهة الخارجية، وتأمين استقرارها. **فوجد نفسه مرغماً بالتالي على عقد صلح مع انكلترا، وتم له ذلك في ٢٤ ربيع الثاني سنة ١٢٢٤ هـ = ٨ تموز - يوليو - سنة ١٨٠٩ م.** ثم بدأ باجراء مفاوضات مع الروسيا، غير أن المطامع الروسية أعاقت الوصول الى اتفاق مشرف. فتجددت الأعمال القتالية. وتولى الصدر الأعظم - ضيا يوسف باشا - إدارة الحرب وهو الذي كان قد انتصر على الفرنسيين في معركة المطرية بمصر - سنة ١٧٩٩ م. غير أنه لم يتمكن من إحراز النصر في هذه المرة، وتمكنت القوات الروسية من احتلال مدن اسماعيل وسيليستريا وروستجق ونيقوبوليس وبازارجق (في سنتي ١٨٠٩ و ١٨١٠ م). فما كان من السلطان محمود الثاني إلا أن عزله وعين مكانه (أحمد باشا) الذي قاد جيشاً من ستين ألف مقاتل، وانتصر على الروس، وأرغمهم على الجلاء عن مدينة (روستجق) في ١٣ جمادى الثانية سنة ١٢٢٦ هـ = ٥ تموز - يوليو سنة ١٨١١ م. وذلك بعد أن هدموا قلاعها وأسوارها بالمتفجرات وأضرموا النار في منازلها. وعبروا نهر الدانوب - الطونة - راجعين إلى شاطئه الأيسر، وتبعهم أحمد باشا بجيشه ودارت رحى معارك متتالية واشتباكات ضارية نجح الروس بعدها في استعادة السيطرة على (روستجق).

كانت العلاقات الروسية الفرنسية قد تدهورت خلال هذه الفترة بسبب امتناع الروسيا عن تنفيذ شروط معاهدة تلسيت. فبذلت الروسيا جهدها لعقد صلح مع الدولة العثمانية التي استجابت لطلب الروسيا، **وأرسلت مندوبين عنها للتفاوض مع المندوبين الروس في مدينة بوخارست. وجرت مباحثات مستفيضة انتهت بعقد (معاهدة بوخارست) في ١٦ جمادى الأولى سنة ١٢٢٧ هـ = ٢٨ أيار - مايو - سنة ١٨١٢ م.** وكان من أهم شروطها بقاء ولايتي الأفلاق والبغدان تابعتين للدولة

العثمانية مع إعادة الصرب للدولة العثمانية أيضاً، واحتفظت الروسيا لنفسها بإقليم بسارابيا وأحد روافد نهر الدانوب.

اعتبر نابليون بونابرت أن عقد هذه المعاهدة هو خيانة من الدولة العثمانية للروابط التقليدية القائمة بين هذه الدولة وبين فرنسا. إذ أن ابرام هذه المعاهدة قد سمح للروسيا بسحب جيوشها التي كانت تخوض الحرب ضد العثمانيين، وتوجيهها لقتال جيش نابليون، مما أرغمه على التقهقر عن موسكو - بعد إحراقها - وأدى ذلك إلى تدمير معظم قواته عند عبورها نهر (بيريزينا)[1]. **ونسي نابليون أو تناسى ما فعله عندما عقد مع الروسيا معاهدة - تلسيت - التي تضمنت بنودها السرية بتجزئة الدولة العثمانية.**

رفض قادة الصرب، وزعماء ثورتها، قبول معاهدة بوخارست، وأعلنوا امتناعهم عن الخضوع مجدداً لسلطة الدولة العثمانية، بعدما بذلوه من الجهود والتضحيات للحصول على نوع من الاستقلال الإداري. وزاد من غضبهم ونقمتهم نكث قيصر الروسيا الاسكندر الأول بوعوده لهم بالدعم، فقرروا المضي في مقاومتهم، فوجهت الدولة العثمانية جيشاً تمكن من إخضاعهم بالقوة. وعاد الموظفون العثمانيون الى مراكز أعمالهم التي كانوا يشغلونها قبل الثورة. واستعاد جند الفرسان الصبايحية - اشباه - اقطاعاتهم، فهاجر زعماء الثورة إلى النمسا والمجر وهم مصممون على متابعة نضالهم للحصول على الاستقلال. ولم يبق إلا (ميلوش أو برينوفتش) الذي قرر البقاء في بلاده، وتظاهر بالولاء للدولة العثمانية، وسعى جهده حتى عينته الدولة حاكماً لاحدى القرى، فانطلق من قريته للعمل بصورة سرية ومنظمة لاستثارة حماسة الصربيين وتحريضهم على حمل السلاح والثورة طلباً للاستقلال. حتى إذا ما أدرك بأن الظروف قد باتت مناسبة، قرر تفجير ثورته في يوم (عيد الزحف) وهو اليوم الذي يحتفل به المسيحيون في يوم الأحد السابق لعيد الفصح (من سنة ١٨١٥ م). واندلعت نار

(١) نهر بيريزينا: (BEREZINA) هو أحد روافد نهر دنيبر، ويبلغ طوله ٥٨٧ كم. وقد اشتهر في التاريخ بسبب عبور جيش نابليون (الجيش الكبير) له بين ٢٦ و٢٩ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٨١٢ م.

الثورة، بسرعة، وعاد زعماء الصربيين وانضموا إلى مواطنيهم الثائرين. والتحق المهاجرون ببلادهم، وشملت الثورة معظم بلاد الصرب. وبدأ القتال العنيف ضد القوات العثمانيين، غير أن قوات الثورة عجزت عن احراز النصر الحاسم في القتال الذي استمر سنتين. مما أرغم (ميلوش أوبرينوفتش)[1] على إعلان خضوعه للدولة العثمانية - باسم الصربيين جميعاً - وذلك مقابل عدم تدخل الدولة العثمانية في إدارة الشؤون الداخلية للصرب، أو في جباية الضرائب. وترك الإدارة المحلية وتوزيع الضرائب وجبايتها لمجلس تنتخبه الأمة الصربية باختيارها وحريتها وهذا المجلس هو الذي ينتخب من بين أعضائه الحاكم العام للصرب. وتكتفي الدولة العثمانية بالإشراف والمراقبة، وتحتفظ بحامياتها في القلاع والحصون. وأصدر السلطان أمره بتعيين (مرعشلي باشا) والياً على الصرب، وأعطيت إليه التوجيهات الصارمة بمعاملة الصربيين معاملة جيدة - بالرفق واللين - وذلك للمحافظة على ولاء الصربيين، وعدم إتاحة الفرصة لهم لفصم ما بقي من عرى السيادة (سنة ١٨١٧ م). ثم عين (ميلوش أوبرينوفتش) رئيساً لمجلس الصرب (سوبرانيا) وصارت الصرب مستقلة تقريباً. واستبد ميلوش بالسلطة. وتصرف كالملك، ولم يكن له من منافس في السلطة إلا (قره جورج) أكبر زعماء الثورة - والذي هاجر إلى الروسيا - كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فاستقبله القيصر بحفاوة ومنحه رتبة جنرال وقلده وسام (سانت آن). وخشي ميلوش من نفوذه ومن مساعدة الروسيا له، فتربص له، حتى إذا حضر إلى بلاد الصرب متنكراً، للتوجه الى بلاد اليونان، بناء على طلب زعمائها، أرسل إليه (ميلوش) من قتله وأرسل رأسه الى الآستانة للبرهان على صدق ولائه وإخلاصه للدولة العثمانية، صاحبة السيادة الإسمية على بلاده.

---

(١) ميلوش أوبرينوفتش: هو أحد زعماء الثورة الصربية - واسمه الحقيقي هو (تيودوروفيتش) وانما سمي أوبرينوفتش نسبة لابن زوج والدته. وكان أبوه من رعاة الخنازير. أما هو فثار أول بالتعاون مع (قره جورج) وانفرد بممارسة القيادة بعد هرب (قره جورج) الى الروسيا. وصار هو قائداً للحركة الثورية الصربية.

١٢ ـ محمد علي باشا الألباني .

عصفت رياح الثورة الفرنسية بحكم المماليك في مصر ، فقد استطاع نابليون بونابرت تدمير القوى التي استأثرت طويلاً بحكم مصر . ونشأ عن ذلك فراغ ملأته القوى الإسلامية التي زجتها الدولة العثمانية لحرب نابليون وطرده وقواته من مصر . وكان من بين هذه القوى مجموعة من المقاتلين الألبان (الأرناؤوط) بقيادة شاب طموح اسمه (محمد علي باشا)[١]. جاء واشترك في معركة (أبي قير). ورغم أن قوته لم تتجاوز الأربعة آلاف مقاتل، إلا أنه استطاع استخدامها بمهارة لضرب مراكز القوى بعضها ببعض حتى استطاع الانفراد بالحكم على وادي النيل. وبدأ محمد علي بالتعاون مع المماليك ـ أو بقايا المماليك ـ مما أغضب الوالي (خسرو باشا) الذي عينته الدولة العثمانية بعد خروج الفرنسيين من مصر ، فحاول خسرو باشا الإيقاع بمحمد علي، لكن الجنود الألبان أحبطوا المحاولة، وعملوا على طرده من القاهرة بحجة عدم دفعه لرواتبهم ـ وكان ذلك بإيعاز من محمد علي ـ. وعين أمراء مصر مكانه (طاهر باشا) مؤقتاً حتى تعين الدولة العثمانية بديلاً عن خسرو باشا. لكن الإنكشارية عملوا على قتل

---

(١) محمد علي باشا ـ الشهير بالألباني، ولد في مدينة قوله ـ في مقدونية القديمة موطن الاسكندر الكبير ـ وتبعد عن سالونيك ـ جنوباً ـ مقدار ١٢٨ كيلومتراً. وكان مولده سنة ١١٨٢ هـ = ١٧٦٩ م. وتوفي والده وهو صغير، فرباه عم له حتى بلغ الرشد فزوجه ابنته، ثم اشتغل بتجارة التبغ والتنباك ـ الدخان ـ وأصاب ثراء كافياً. ثم جاء إلى مصر على رأس القوة التي أرسلها والي ألبانيا لقتال نابليون، وأظهر كفاءة عالية ـ وعكف منذ وصوله إلى مصر لدراسة أحوالها دراسة التاجر لسوق رابحة. وشرع في العمل بحماسة. وتمكن من الحصول على فرمان بتعيينه والياً على مصر. وتوفي سنة ١٣٦٥ هـ = ١٨٤٩ م. وقد اعتبر أنه هو مؤسس السلالة الخديوية التي حكمت مصر من سنة ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٥ م، حتى سنة ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٢ م حيث قامت ثورة بقيادة اللواء محمد نجيب وزعامة المقدم جمال عبد الناصر وألغت النظام الملكي وأحلت محله النظام الجمهوري.

طاهر باشا لأنه عمل على دفع الرواتب لجند محمد علي - الألبان - ولم يدفع لهم رواتبهم. وأراد الإنكشارية تعيين أحد الأمراء العثمانيين واسمه (أحمد باشا) وكان قد وصل إلى مصر في طريقه الى الحجاز. ولكن محمد علي تحرك على الاتجاه المضاد، واستدعى أمراء المماليك للحضور الى القاهرة، فأقبلوا عليه، وكان من بينهم (عثمان بيك البرديسي). وعندها أدرك محمد علي أنه بات يمتلك قوة كافية لمحاربة الإنكشارية، فحاصر (أحمد باشا) وقتل معظم الإنكشارية الذين كانوا يقومون على حراسته، وفرّ الباقون. ثم سار محمد علي ومعه البرديسي وسواه لمحاربة خسرو باشا الذي كان قد اعتصم بدمياط. فحاربه وأسره وعاد به الى القاهرة وسجنه بالقلعة (في ١٤ ربيع الأول سنة ١٢١٨ هـ - (٤ تموز - يوليو - سنة ١٨٠٣ م). ولكن لم تمض سوى فترة قصيرة حتى وصل الى القاهرة قادماً من انكلترا أحد زعماء المماليك (واسمه محمد بيك الألفي) وكان قد توجه الى انكلترا لطلب المساعدة على الاستقلال بمصر مقابل تسليم بعض الثغور لانكلترا. وخاف محمد علي، من انضمام (البرديسي) الى (الألفي) فعمل على الايقاع بينهما. وشعر (الألفي) بما يدبره له محمد علي، فارتحل الى الصعيد. وعمل (محمد علي) على استثارة المصريين وتحريضهم ضد البرديسي، فحاصروه في منزله، وأطلق عليه (محمد علي) المدافع حتى أخرجه من مصر هو وكافة المماليك. ثم أخرج خسرو باشا من سجنه استجابة لطلب المصريين، وأرسله إلى (إسلام بول). وهكذا تخلص محمد علي من الإنكشارية ثم من المماليك. ونصب (خورشيد باشا) والياً على مصر، ونصب نفسه وكيلاً له، وأعد (محمد علي) العدة، وحمل المصريين على انتخابه والياً، وكتبوا الى السلطان سليم الثالث، فأصدر مرسوماً (فرماناً) باعتماد (محمد علي) والياً على مصر (سنة ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٥ م).

كان الانكليز يتابعون عن قرب ما يمارسه (محمد علي) من نشاط للاستئثار بحكم مصر. ولذا تملكهم الخوف من أن يتصدى لمشروعاتهم في السيطرة على مصر. فطالبوا الى السلطان سليم عزله أو نقله إلى ولاية أخرى، واستجاب السلطان لذلك، وأمر بنقله إلى ولاية (سالونيك) فحرض (محمد علي) العلماء وقادة الجيش الذين كتبوا إلى السلطان سليم يلتمسون ابقاء محمد علي والياً على مصر. فقبل السلطان، وأرسل إليه مرسوماً

بتثبيته (سنة ١٢٢١ هـ = ١٨٠٦ م) وتوفي في تلك الفترة أيضاً (محمد بيك الألفي) و(عثمان بيك البرديسي) وبذلك أصبح محمد علي والياً على مصر بدون منافس ولا منازع. فوجه محمد علي جهده للنهوض بمصر وجعلها قاعدة صلبة لحكمه، فلم يكتف بتجميل القاهرة والاسكندرية بعدد كبير من المباني المشيدة على الأسلوب العثماني. بل إنه أتم فوق ذلك إنشاء مرفأ الاسكندرية، ووصله بالفرع الغربي من النيل بواسطة قناة أمر بشقها. ولما كان همه الأول هو أن يجني من مصر أعظم محصول، فقد وضع يده في سنة ١٢٣١ هـ = ١٨١٥ م على محاصيل القطن والقنب والكتان وأضاف إليها بعد سنتين محاصل النيلة والسمسم والنباتات الزيتية الأخرى. ولكن هذه الموارد لم تستطع على وفرتها وغناها تأمين متطلباته المتعاظمة، وكان قد صادر منذ سنة ١٢٢٨ هـ = ١٨١٢ م جميع الاقطاعات وحتى الأوقاف الدينية، ثم ألف لجنة للتحقيق في صحة سندات التمليك العقارية - الكواشين -. وتعين على كل من لا يحتفظ سنداً صحيحاً - كوشاناً - أن يعمل في أرضه بصفته عاملاً زراعياً لا مالكاً للأرض. ولما كان معظم الفلاحين في مصر آنذاك يعملون في أراضيهم المتوارثة جيلاً بعد جيل بدون سندات تمليك، فقد تعين عليهم العمل عند الدولة - التي يمثلها الباشا -. ليس هذا فحسب بل إنه لجأ إلى نظام السخرة القديم لجمع النجارين وعمال البناء من أجل بناء اسطول حديث، واشترى الخشب بأسعار محددة، فكانت الدولة هي الاقطاعي الأكبر، وهي المالكة الرئيسة للتجارة والزراعة والصناعة، مما وضع الشعب في ضيق وضنك.

أدرك محمد علي أن من مصلحته فتح بوابات مصر على العالم الغربي، بعد أن تبين له بأن هذا الغرب قد بات وهو يمارس دوراً متعاظماً في أمور المشرق العربي الإسلامي فأخذ بنهج ما يمكن تسميته بسياسة الانفتاح على الغرب. وبدأ بإنشاء معاهد التعليم على الأسلوب الأوروبي، وفتح مدرسة لتعليم الرياضيات تقرر أن يتم التعليم فيها باللغة الانكليزية.

أما فيما عدا ذلك فقد كانت اللغة الفرنسية هي المعتمدة. واستعان بفئة من رجال مصر المخلصين الذين توجه جهدهم لخدمة مصر وتطويرها. وأقام المصانع، فعرفت

مصر نهضة سبقت بها بقية أقطار العالم الإسلامي. وكان وقوع الأخطاء الكثيرة أمراً ملازماً لعمليات البناء المتسرعة.

كانت الحركة الوهابية قد اكتسبت في هذه الفترة قدرة كافية لفرض سيطرتها على الجزيرة العربية وباتت تهدد بالزحف على بلاد الشام. وخشيت الدولة العثمانية خطر هذه الحركة الإصلاحية التي أرادت العودة بالدين الإسلامي إلى مناهله ومصادره الأساسية (كتاب الله وسنة رسوله) وتطهير الدين مما علق به من البدع والضلالات. فأصدر السلطان محمود إلى (محمد علي باشا) وقد بات يمتلك أكبر قوة، بمحاربة الوهابيين وانتزاع مكّة المكرمة والمدينة المنورة من قبضتهم. وأرسل إليه مرسوماً (فرماناً) بذلك في ذي القعدة سنة ١٢٢٢ هـ = كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٨٠٧ م. فقرر (محمد علي باشا) ارسال قواته عن طريق البحر الأحمر، حتى يتجنب تحرك القوات على الطرق البرية الوعرة والصعبة، ونقلها من مصر إلى ميناء (ينبع). وأقيمت مصانع السفن في (بولاق) وحمل إليها الخشب من جميع جهات القطر المصري، فكان يتم بناء السفن في بولاق، ثم تحمل من هناك على ظهور الجمال إلى السويس، ويتم تركيبها بعدئذ بسهولة.

ولكن كان على (محمد علي باشا) وقد فرغ من حشد قواته وتجهيز السفن أن يتخلص من طائفة المماليك، التي بقيت تشكل قوة كافية تهدد مشاريعه. فأقام حفلاً في القلعة يوم الجمعة ٥ صفر سنة ١٢٢٦ هـ = أول آذار - مارس - سنة ١٨١١ م. لتسليم ولده (طوسن باشا) المرسوم (الفرمان) بتقليده قيادة الجيش المتوجه لحرب الوهابيين، وتسليمه السيف الذي أهداه إليه السلطان محمود.

وجاء قادة المماليك جميعهم إلى القلعة في موكب منتظم، ولما دخل الجميع من باب الغرب، وانحشروا في المضيق الموصل منه إلى الباب الأوسط، أغلقت الأبواب، وأطلقت عليهم نيران البنادق من خلف الأسوار ومن أعلاها، حتى قتلوا عن آخرهم. وكان جند محمد علي باشا قد انطلقوا أثناء ذلك لنهب منازل قادة المماليك، وقتل من تخلف منهم عن الحضور. ثم أرسل إلى عماله في الأقاليم بقتل جميع المماليك القاطنين

خارج العاصمة، فقتلوهم، وصاروا يتنافسون في ارسال رؤوسهم إليه، **وبذلك زالت من الوجود طائفة كانت تحمل اسم المماليك.**

سافر (طوسن باشا) بعدئذ بجيشه الى الجزيرة العربية، وحارب الوهابيين، وانتزع منهم المدينة المنورة بعد أن نسف أسوارها بالمتفجرات والألغام، ودخلها عنوة. وكتب إلى والده بذلك. ثم حاصره الوهابيون في مدينة (الطائف). فتوجه محمد علي باشا بنفسه الى مكة المكرمة (في ٢٨ شعبان سنة ١٢٢٨ هـ = ٢٦ آب - أغسطس - سنة ١٨١٢ م) وقبض على شريف مكة (الشريف غالب) وأرسله إلى مصر، وأقام مكانه الشريف يحيي ابن سرور. واحتل عدداً من المراكز الهامة التي كانت في قبضة الوهابيين؛ مما أضعف من موقفهم؛ والذي زاده ضعفاً وفاة زعيم الوهابيين وقائدهم (سعود) في ١٩ ربيع الآخر سنة ١٢٢٩ هـ (١٠ نيسان - أبريل - سنة ١٨١٤ م) فساد الأمن، وسار الحج على ما هو معتاد، وقام (محمد علي باشا) وجميع من كان معه بأداء فريضة الحج، ثم عاد إلى مصر. وكان (طوسن باشا بن محمد علي) قد سار أثناء ذلك إلى بلاد نجد لمهاجمة قاعدة الوهابيين في مدينة (الدرعية). فاحتل بلدة الرس القريبة من الدرعية. وجرت اتصالات مع (عبدالله بن سعود) الذي تولى القيادة والزعامة بعد وفاة أبيه، وتم الاتفاق على هدنة لمدة عشرين يوماً، يقوم (طوسن) خلالها بإجراء اتصالات مع والده للاتفاق على الصلح. ولكن عودة (محمد علي) إلى مصر حملت (طوسن) على الاتفاق - بدون رأي والده - مع عبدالله بن سعود، على أن يحتل طوسن مدينة الدرعية، وأن يعيد الوهابيون ما أخذوه من المجوهرات والنفائس من الحجرة النبوية الشريفة - وخصوصاً الكوكب الدرّي الذي زنته مائة وثلاثة وأربعون قيراطاً من الماس -. وكتب (طوسن) إلى والده بما تم عليه من من الاتفاق، فرد (محمد علي باشا) بتكليف (عبدالله بن سعود) بالتوجه إلى الآستانة، لتقديم الولاء للسلطان، ومحاربته إن رفض. إلا أن (طوسن) علم في تلك الفترة بوقوع حركة تمرد في القاهرة وقيام المتمردين بنهب المدينة. فكلف (طوسن) أحد كبار قادته بمهمة قيادة القوات المصرية، وعاد هو بسرعة إلى القاهرة. ولم يكن من الصعب القضاء على حركة التمرد وقد استطاع (محمد علي) من قبل أن يزيل من الوجود جميع مراكز

القوى. فلما تم ذلك، عمل (محمد علي باشا) على تجهيز حملة جديدة لمحاربة الوهابيين، وأسند قيادتها إلى ابنه الأكبر (ابراهيم باشا) الذي تحرك بجيشه الى قنا فالقصير، وأبحر من (بولاق) وأنزل قواته في (ينبع) في ٩ ذي القعدة سنة ١٢٣١ هـ (١ - تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٨١٦ م) وسار منها إلى المدينة المنورة للقيام بزيارة قبر الرسول ﷺ. ثم سار بجيشه إلى نجد، ونظم في طريقه مجموعة من مراكز الاتصال لحماية محاور العمليات وطرق المواصلات ما بين ينبع وجوف الصحراء. واحتل الرس وعنيزة وسواهما. وكان جيش ابراهيم باشا يضم خبراء فرنسيين - أبرزهم المسيو فسيير - فكانت هذه هي المرة الأولى - ربما - والتي يقتحم فيها الصليبيون أرض الجزيرة العربية تحت راية محمد علي وجيشه. وقد عمل ابراهيم باشا على عزل (الدرعية) وحصارها والاستيلاء على القرى المحيطة بها. مما حمل (عبدالله بن سعود) على التقدم بطلب ايقاف القتال واجراء مفاوضات للصلح. وجاء (عبدالله بن سعود) بنفسه إلى معسكر ابراهيم باشا، ووافق على تسليم الدرعية لابراهيم باشا بشرط عدم تعرضه للمواطنين بسوء، ووافق أيضاً على السفر إلى الآستانة. وتوجه (عبدالله بن سعود) الى القاهرة، حيث قابل محمد علي باشا، ثم توجه إلى الآستانة، ولكن العثمانيين غدروا به، وعملوا على قتله فور وصوله الى الآستانة. وعاد ابراهيم باشا الى القاهرة، بعد أن ظن أنه قد دمر الوهابيين تدميراً نهائياً.

١٤ ـ حرب اليونان ـ ومعركة نافاران .

لقد سبقت الإشارة إلى محاولة حاكم إقليم أبيروس في أعالي اليونان (علي باشا) على الاستقلال بإقليمه وما يجاوره ، والتمرد على الدولة العثمانية ، مستفيداً من انشغالها عنه بمشكلاتها الداخلية الكبرى وصراعاتها الخارجية المعقدة ، مما حملها على التمهل في اخضاعه . الأمر الذي شجعه على المضي قدماً في تمرده ، حتى أنه امتنع عن تنفيذ الأوامر التي كانت ترسلها له الدولة ، وتوقف عن إرسال الخراج ، ولم يرسل ما طلبت الدولة إرساله من القوات . وليس ذلك فحسب ، بل إنه أرسل بعض عملائه لقتل أحد رجال السلطان ـ من العاملين في الديوان ـ بسبب معارضته له وعدم مساعدته ، وقام هؤلاء العملاء بقتل المقصود قتله في أحد شوارع الآستانة . وتبين خلال محاكمة القتلة دور (علي باشا) في القضية ، فأصدر السلطان محمود الثاني أمراً بتقديمه للمحاكمة واستدعائه إلى العاصمة (إسلام بول) لمعاقبته أو تبرئة ساحته بحسب ما يظهر في التحقيق . ولكن (علي باشا) امتنع عن الحضور ، وجاهر بالعصيان ، وأرسل إلى زعماء اليونان طلباً بمساعدته . غير أن الدولة لم تمهله فوجهت جيشاً بقيادة (خورشيد باشا) تمكن من اجتياح (أبيروس) وحصار (يانية) . مما أرغم علي باشا على الاستسلام (في ١٣ جمادى الأولى سنة ١٢٣٧ هـ = ٥ شباط ـ فبراير ـ سنة ١٨٢٢ م) فجرى قتله . وأرسل رأسه الى الآستانة ، وهدأت الثورة في ألبانيا .

كانت أوروبا الملكية قد وقفت صفاً واحداً ضد الثورة الفرنسية وضد ما أفرزته هذه الثورة إلى أن تم القضاء على نابليون بونابرت ، وأعيدت الملكية إلى فرنسا من جديد . ولكن هذه الدول الأوروبية الملكية أدركت قوة تأثير المبادىء التي طرحتها الثورة الفرنسية (الحرية والمساواة والإخاء) في إلهاب عواطف الجماهير واستثارتها ، فشرعت في الترويج لهذه المبادىء لتدمير الدولة العثمانية من الداخل ، وتمزيقها . ولما

كان لا بد لكل تنظيم ثوري من جهاز (كادر) للاضطلاع بأعباء القيادة، فقد عملت الدول الغربية الصليبية على فتح أبوابها أمام الشبان اليونان للتخصص في مختلف العلوم، مع التركيز على التوجيه السياسي، لربط الأنشطة والفعاليات في حدود تيار واحد يصب في النهاية بهدف الاستقلال عن الدولة العثمانية. وأمكن تنظيم عدد من الجمعيات السرية التي شرعت في نشر شبكاتها التنظيمية في أرجاء اليونان، سهلها وجبلها، قراها ومدنها، وهدفها نشر الوعي الثوري. واتخذت القيادة العليا لهذه التنظيمات الثورية من الروسيا والنمسا قواعد لتحركاتها وأعمالها. وكان من أكثرها أهمية وأوفرها نشاطاً الجمعية السرية (هيتيري)★ التي تشكلت بتحريض من قيصر الروسيا (الاسكندر الأول) والتي ترافق مع ظهور جمعية الفحامين (الكاربوناري)★. وقد استطاعت جمعية (هيتيري) بفضل ما تلقته من دعم كبير، أن تنشر فروعها في كافة أرجاء اليونان، وفي إقليم موره بخاصة، بحيث تجاوز عدد أفرادها في بداية سنة ١٨٢١ م، أكثر من عشرين ألفاً، جميعهم من الشبان الأقوياء القادرين على حمل السلاح، والمستعدين للثورة عند أول إشارة تصدرها القيادة. وقد أفادت الجمعية من توجه قوات الدولة العثمانية

(★) هيتيري: كلمة يونانية - معناها جمعية الأخوة، أطلقت على جمعيتين أسست أولاهما في عاصمة النمسا (ڤيينا) تحت شعار تنظيم المدارس، ونشر العلوم والمعارف بين اليونانيين، فيما نظمت الثانية بهدف تحقيق استقلال اليونان وفصلها عن الدولة العثمانية، فكانت جمعية سياسية وبقيت هذه الجمعية تمارس نشاطها بصورة سرية حتى سنة ١٨٢١ م، حيث عملت على تفجير الثورة، وانتقلت الى العمل العلني، وكان مركزها في مدينة (أوديسا) في بداية الأمر ثم انتقلت الى مدينة (كييف) عاصمة اوكرانيا. وكانت روسيا القيصرية هي التي تنفق على هذه الجمعية وتدعمها وتوجهها.

(★) الكاربوناري: جمعية سرية نشأت بايطاليا في مطلع القرن التاسع عشر، وانتشرت فروعها في فرنسا واسبانيا والبرتغال، وكان هدفها في ايطاليا هو طرد الأجانب وتوحيدها. وكان من أشهر رجالها غاريبالدي: (GARIBALDI-GLUSEPPE) وهو من مواليد نيس (١٨٠٧ - ١٨٨٢ م) حارب النمسا ثم دولة الصقلتين ثم البابوية لتوحيد إيطاليا. ثم وضع سيفه تحت خدمة فرنسا سنة ١٨٧١ - ١٨٧٢ م. وكان لجمعية الكاربوناري دور في فرنسا إذ أنها أسهمت في إسقاط حكومة ملك فرنسا شارل العاشر (سنة ١٨٣٠ م). وكان من رجالها في فرنسا - لافاييت رجل الثورة (MARIE JOSEPH MARQUIS DE LAFAYETTE) (١٧٥٧ - ١٨٣٤ م) والذي برز دوره في حرب الاستقلال الأمريكية، وفي ثورة سنة ١٨٣٠ م في فرنسا.

لمحاربة (علي باشا) حاكم (يانية). فأصدرت أمرها ببدء الأعمال القتالية، وسرعان ما انتشرت أعمال العصيان، وشرعت قوات الثورة بالهجوم على الحاميات العثمانية المتمركزة في الحصون والقلاع. مما دفع الدولة العثمانية لتوجيه الجيش الذي قضى على ثورة ألبانيا (علي باشا). وتكليفه بالقضاء على ثورة اليونان. غير أن اليونانيين تمكنوا من مجابهته والانتصار عليه في موقعة (الترموبيل)[1] في (ذي الحجة سنة ١٢٣٧ هـ = آب - أغسطس - سنة ١٨٢٢ م) حيث تمزق الجيش العثماني شرّ ممزق. وقتل قائده (خورشيد باشا) وقيل أنه قتل نفسه بالسم - منتحراً - حتى لا يحمل عار الهزيمة. ولقد كان وقع هذه الهزيمة ثقيلاً جداً على الدولة العثمانية، لاسيما وأنها جاءت بعد نجاح البحارة اليونانيين بإحراق الاسطول العثماني في ميناء جزيرة (ساقز) في ٢٧ رمضان سنة ١٢٣٧ هـ = ١٧ حزيران - يونيو - سنة ١٨٢٢ م. واستشهاد ثلاثة آلاف من جند البحرية الإسلامية. وقد أمكن الانتقام لهذه الهزيمة، بالقضاء على قوات الثورة في جزائر ساموس وساقز وغيرها، مع انزال العقاب الصارم بالسكان الذين ساعدوا قوات الثورة وذلك بقتل رجالهم وسبي نسائهم ومصادرة ممتلكاتهم. وبقيت الحرب بعدئذ سجالاً بين الدولة العثمانية والثوار اليونانيين حتى سنة ١٨٢٤ م. فوجد السلطان محمود الثاني بأن أمد هذه الحرب قد استطال بأكثر مما ينبغي، وأدرك عجز القوات العثمانية التي تم إرسالها عن حسم الصراع في مواجهة قوات غير نظامية، تعتصم بالجبال والمناطق الوعرة. وكانت قوات (ابراهيم باشا) قد فرغت من حرب الوهابيين وأحرزت هناك انتصاراً حاسماً، **فقرر الاستعانة بجيش مصر وأسطوله، وأصدر مرسوماً (فرماناً) بتعيين محمد علي باشا والياً على جزيرة كريت وإقليم موره - في ٥ رجب سنة ١٢٣٩ هـ = ٦ - آذار - مارس - سنة ١٨٢٤ م. وكلفه بالقضاء على الثورة.**

---

(١) الترموبيل: (THERMOPYLES) أو الأبواب الساخنة: (LES PORTES CHAUDES) مضيق في تساليا: (THESSALIE) بين جبال أنوبية وخليج مالياك. اشتهر بدفاع ملك اسبارطة (LEONIDAS I) ليونيداس الأول ضد هجوم ملك الفرس أكسرخس: (XERXES) سنة ٤٨٠ ق.م. حيث قتل ليونيداس وثلثمائة من رجاله دفاعاً عن اسبارطه عند مضيق الترموبيل. ثم نقلت جثثهم الى اسبارطه، وأقيم لهم نصب ضخم تمجيداً لبطولتهم.

وأسرع محمد علي باشا فجهز جيشاً مصرياً ضم سبعة عشر ألف جندي من المشاة، مع قوات من الفرسان والمدفعية، وأسند قيادته الى ابنه (ابراهيم باشا). وضم إليه لخبراء الفرنسيين الذين أشرفوا على تدريب الجيش (وفي طليعتهم الكولونيل الفرنسي سيف الذي سبق ذكره والذي عرف باسم سليمان بيك). وركب هذا الجيش البحر من ميناء الاسكندرية، وصحبه الأسطول الحربي الذي كان محمد علي باشا قد جهزه وسلّحه تسليحاً حديثاً. فغادر مياه مصر في ١٩ ذي القعدة سنة ١٢٣٩هـ = ١٦ تموز - يوليو - سنة ١٨٢٤ م. ووصل الاسطول المصري الى جزيرة رودس، حيث انضم إليه الأسطول العثماني، وترك (ابراهيم باشا) حامية للدفاع عن رودس بقيادة الكولونيل سيف. وسار بقوات الحملة الى (كريت) فاحتلها. ثم انطلق منها للهجوم على بلاد موره، ولقي مقاومة ضارية من الثوار اليونانيين. غير أنه استطاع بعد صراع عنيف أن ينزل قواته على أرض ميناء (مودن). ولم يكن قد بقي في قبضة القوات العثمانية يومها إلا هذه المدينة ومدينة (كورون). ولم يلبث (ابراهيم باشا) أن وجّه قوات الدعم وأرسل الذخائر إلى مدينة (كورون) التي كان يحاصرها الثوار اليونانيون، ثم حاصر مدينة (نافاران)[1] حصاراً شديداً حتى تمكن من فتحها في ٢٨ رمضان سنة ١٢٤٠هـ = ١٦ - أيار - مايو - سنة ١٨٢٥ م. وعمل بعدئذ على فتح (كلاماتا) و (تريبوليس)[2] ثم استدعاه رشيد باشا الذي كان محاصراً مدينة (ميسولونجي)[3] لمساعدته على فتحها بعد أن عجز عن فتحها باتباع مختلف الأساليب، لوقوعها على البحر، ووصول الامدادات إليها بصورة منتظمة عن طريق

---

(١) نافاران: (NAVARIN) مدينة في شبه جزيرة البيلوبونيز: (PELOPONNES) اقليم مسينا، وبها خليج - مرفأ - على البحر الأيوني: (IONIENNE) لم تشتهر إلا بسبب قيام القوات البحرية المشتركة لدول الروسيا وانكلترا وفرنسا بتدمير الأسطول العثماني في ٢٠ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٨٢٧ م.

(٢) كلاماتا: (KALAMAI) مدينة تقع في نهاية الخليج الغربي من شبه جزيرة موره. أما تريبوليس: (TRIPOLIS) فتقع في وسط جزيرة موره.

(٣) ميسولونجي - أو ميسولونجين: (MESOLONGION) مدينة تقع عند رأس الخليج في شمال شبه جزيرة موره.

البر. فأسرع ابراهيم باشا بجيشه، وتمكن من فتحها. كما نجح العثمانيون في فتح مدينة أثينا (سنة ١٢٤١ هـ = ١٨٢٦ م) وتم فتح قلعتها الشهيرة أيضاً (الاكروبول) رغماً عن دفاع اللورد كوشران القائد البحري الانكليزي الذي تم تعيينه قائداً عاماً للقوات البرية والبحرية اليونانية.

لقد تبين خلال هذا الصراع أنه كان من المحال على اليونانيين الصمود لثقل الهجمة العثمانية ـ المصرية، ومقاومة القوات الإسلامية بمثل تلك الضراوة، والعناد، لو لم يتوافر لقوات الثورة اليونانية دعم غير محدود ـ بالمال والرجال ـ. فتشكلت في أوروبا جمعيات كثيرة حملت اسم (محبي اليونان) أو (أصدقاء اليونان) وجمعت كثيراً من المال، وأرسلته الى قيادة الثورة، مع كميات وافرة من الأسلحة والذخائر. وقدم قيصر الروسيا (الاسكندر الأول)[1] الدعم الأكبر لقوات الثورة، غير أن جمعيات (أصدقاء اليونان) في أوروبا قد عملت بدورها على تقديم دعم لا يستهان به، حيث تطوع كثير من أعضائها للقتال إلى جانب الثوار اليونانيين، وكان من بينهم عدد كبير من مشاهير أوروبا وأمريكا من أمثال واشنطن ـ ابن محرر أمريكا جورج واشنطن ـ والشاعر الانكليزي (بيرون) وغيرهما ممن ألهبوا مشاعر الأوروبيين ضد الدولة العثمانية. وذلك بالإضافة الى الفرنسيين من أمثال (فيكتور هيغو)[2] و(كازيمير

---

(١) الاسكندر الأول: (ALEXANDRE-I) ابن بول الأول (PAUL-I) قيصر روسيا (١٧٦٧ - ١٨٢٥ م) أصبح قيصراً سنة ١٨٠١ م. أدخل عدة إصلاحات داخلية في بلاده، منها إلغاء المصادرات ومنع التعذيب وتخفيف الضرائب. تحالف مع دول أوروبا جميعها للوقوف في وجه نابليون بونابرت، وانتصرت في عهده الروسيا على غزو نابليون، واستمر في حربه له حتى دخل باريس سنة ١٨١٤ م على رأس الجيوش المتحالفة ثم عاد لقيادة التحالف ضد نابليون عندما رجع هذا من منفاه، وانتصر عليه في واترلو سنة ١٨١٥ م، واشتهر بمحاربته للنزعات التحررية، فشكل مع النمسا والبروسيا ما عرف باسم التحالف المقدس: (SAINTE-ALLIANCE). غير أن ذلك لم يمنعه من دعم الصرب واليونان. فكان نهجه المتناقض من مفهوم الحرية والاستقلال نموذجاً لما بات يعرف حديثاً بالفحش، أو العهر ـ السياسي والذي بات سمة مميزة من سمات الأزمنة الحديثة.

(٢) فيكتور هيغو: (HUGO-VICTOR) أشهر الشعراء الفرنسيين في القرن التاسع عشر (١٨٠٢ - ١٨٨٥ م) قضى معظم المرحلة الأولى من حياته في اسبانيا وإيطاليا، قبل أن يستقر في باريس حيث صدرت له مؤلفاته التي وضعته رائداً للمدرسة الرومانسية، وعضواً في الأكاديمية الفرنسية.

دولافـين)[1] . وقد استطاع هؤلاء الكتاب والشعراء حشد الرأي العام الأوروبي لتأييد القضية اليونانية، بعضهم تحت شعارات الثورة الفرنسية (الحرية والمساواة والإخاء) وبعضهم لأهداف سياسية ضمنية، في وقت كان ملوك أوروبا وقادتها قد أحكموا الحصار في بلادهم ضد كل ما صدر عن الثورة الفرنسية من شعارات ومبادىء. وكانت الروسيا في طليعة البلاد التي استمرت في دعم الثورة اليونانية. وفتحت ملف (المسألة الشرقية) وعملت على تأمين الحماية للثوار الذين يلجؤون إلى بلادها، الأمر الذي دفع الدول الغربية وخاصة انكلترا لتوجيه اللوم إلى قيصر الروسيا لتدخله السافر، ولعمله على توجيه الجهـد لاحتلال الآستـانـة وجعلهـا عـاصمـة للمـذهـب الأرثوذكسي بحيث تكون منافسة لعاصمة المذهب الكاثوليكي (روما). ولكن الروسيا امتنعت عن سماع الاحتجاجات الأوروبية، ومضت في سياستها العسكرية التقليدية، وحاولت التدخل مباشرة مع الدولة العثمانية بحجة الوساطة لاعطاء اليونان استقلالها، ولكن السلطان محمود اعتبر أن الصراع مع اليونان هو مسألة داخلية لا يجوز للروسيا أن تفرض عليه تدخلها من خلال المسألة اليونانية. وتصادف في تلك الفترة، وبينما كان ابراهيم باشا يستعد لفتح ما بقي من بلاد اليونان. والقضاء على القواعد الأخيرة للثورة أن مات قيصر الروسيا اسكندر الأول (في ١٨ ربيع الثاني سنة ١٢٤١ هـ = أول كانون الثاني ـ ديسمبر ـ سنة ١٨٢٥ م) وتولى بعـده (نقـولا الأول)[2] الذي سـار على نهج سلفه في دعم الثورة اليونانية، واستطاع أن يكتسب دعم انكلترا للقضية، **وألقت**

---

(١) كازيمير دولافين: (CASIMIR DELAVIGNE) شاعر فرنسي (١٧٩٠ ـ ١٨٦٨ م) له مؤلفات ومسرحيات ـ وهو بدوره عضو في الأكاديمية الفرنسية.

(٢) نقولا الأول: (NICOLAS-I) قيصر الروسيا، وهو الابن الثالث لبول الأول (١٧٩٦ ـ ١٨٥٥ م) تولى السلطة بعد موت أخيه اسكندر الأول في سنة ١٨٢٥ م. وقد ورث الحكم كما ورث الحقد الدفين ضد الإسلام وأهله، فكان من أشد ملوك الروسيا ـ قياصرتهَا ـ عداء للدولة العثمانية. فحاربها ووقع معها اتفاق (آق كرمان) ثم حاربها ووقع معها معاهدة أدرنة، وحارب الفرس ـ العجم ـ وانتزع منهم ايريفان. وكان من أكبر مساعدي اليونان على الاستقلال. وحارب بلاد المجر وأرغمها على البقاء تحت حكم النمسا، ثم حارب الدولة العثمانية. ومات قبل أن تنتهي هذه الحرب.

الدول العظمى ثقلها ضد الدولة العثمانية التي وجدت نفسها مرغمة على الدخَول في مفاوضات انتهت بمعاهدة (آق كرمان) التي تم التصديق عليها في ٢٨ صفر سنة ١٢٤٢ هـ = ١ - تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٨٢٦ م. وكان من أهم ما تضمنته:

أن يكون للروسيا حق الملاحة في البحر الأسود، والمرور من مضيقي البوسفور والدردنيل بدون أن يكون للدولة العثمانية حق تفتيش سفنها، وأن تنتخب حكام ولايتي الأفلاق والبغدان بمعرفة أمرائها وكبار رجالها لمدة سبع سنوات، مع عدم جواز عزلها أو عزل أحدهما إلا بعد الحصول على موافقة الروسيا. وأن تكون ولاية الصرب مستقلة تقريباً. وأن لا تحتل القوات العثمانية إلا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى. وغريب ما في الأمر أن الروسيا التي فرضت هذه المعاهدة، لم تتعرض للمسألة الأساسية التي نشب من أجلها الصراع، وهي (المسألة اليونانية). وانما تركتها معلقة لايجاد حل لها مع بقية الدول الأوروبية. وعلى هذا تقدمت انكلترا رسمياً بعرض وساطتها على الدولة العثمانية - باسمها وباسم بقية الدول - من أجل تسوية المسألة اليونانية، وايقاف الحرب. وتقدمت بهذه الوساطة يوم ٨ رجب سنة ١٢٤٢ هـ = ٥ شباط - فبراير - سنة ١٨٢٧ م. ولما كانت القوات العثمانية - المصرية على وشك تحقيق النصر النهائي على قوات الثورة، ولما كان تدخل الدول الأوروبية يمس بسيادة الدولة العثمانية، فقد جرى بحث طلب الوساطة - الذي كان بمثابة انذار عملي - وبعد دراسة مستفيضة تقرر رفض طلب انكلترا، وأبلغ السفير الانكليزي في الآستانة بذلك يوم ١٥ ذي القعدة سنة ١٢٤٢ هـ = ١٠ حزيران - يونيو سنة ١٨٢٧ م.

وعند ذلك أجرت الدول الثلاث: إنكلترا والروسيا وفرنسا مباحثات انتهت بالاتفاق على استخدام القوة لارغام الدولة العثمانية على منح اليونان استقلالها، وتم التوقيع على ميثاق هذا الاتفاق يوم ١١ ذي الحجة سنة ١٢٤٢ هـ = ٦ تموز يوليو - سنة ١٨٢٧ م.

وتضمن الميثاق بأن تدفع اليونان للدولة العثمانية جزية معينة يتم تحديد مقدارها فيما بعد، كما يتم الاتفاق على حدود الفريقين. وحددت للدولة العثمانية فترة شهر من أجل

ايقاف الأعمال القتالية ضد اليونانيين، مع احتفاظ الدول الثلاث بحرية العمل لتنفيذ هدفها إذا ما امتنعت الدولة العثمانية عن تنفيذ ما هو مطلوب منها تنفيذه.

ولم يكن باستطاعة الدولة العثمانية قبول هذا التحدي السافر والاستفزاز المثير. فلما مضت مدة الشهر المحدد لتنفيذ الانذار، أصدرت الدول الثلاث أوامرها إلى قادة أساطيلها بالتوجه إلى سواحل اليونان.

وهكذا تكونت قوة انكليزية فرنسية روسية قوامها اثنتان وتسعون قطعة حربية شراعية - من بينها عشر بوارج وعشر فرقاطات. وعهد بقيادة الأسطول هذا إلى الأميرال الانكليزي السير (ادوارد كودرينغتون) وعمره ٥٧ سنة، وكان تحت أمرته قائد الأسطول الفرنسي (الأميرال هنري دوريني) وعمره ٤٥ سنة، والأميرال الروسي هايدن. واحتشد هذا الأسطول في خليج نافاران - غير بعيد عن ميدان المعركة التاريخي لمعركة (اكتيوم) ومعركة (ليبانت) ونزل الأميرال الكونت الفرنسي (الأميرال هنري دوريني) وقابل ابراهيم باشا في ميناء نافاران - يوم ٢٢ أيلول - سبتمبر - سنة ١٨٢٧ م. وأنذره بطبيعة الخطر الذي يتعرض له فيما إذا استمر في إصراره على متابعة أعماله القتالية. واستمر الاجتماع لمدة ساعتين كاملتين، وكان مما قاله الأميرال الفرنسي: **« نحن نطلب منكم عقد هدنة طوعاً أو كرهاً ».** فأجابه ابراهيم باشا: « أنا في حيرة من أمري، فعيون الأتراك مفتحة علينا، وإذا أذعنا لكم فسيغضبون، وأنا لا أستطيع أن أتلقى الأوامر إلا من أبي أو من السلطان ». فقال له الأميرال الفرنسي: **« فكر جيداً في وراثتك العرش، فأبوك رجل عجوز، قلق ومهدد، فكر في مصر الغنية أكثر مما تفكر في شبه جزيرة الموره اليونانية التي تعمل على تحويلها إلى صحراء ».**

وانتهت المناقشة بالاتفاق على هدنة لمدة عشرين يوماً. وأرسل ابراهيم باشا كتابين إلى السلطان محمود وإلى أبيه محمد علي باشا، يستشيرهما في الموقف الذي يجابهه، وتعهد بعدم إخراج اسطوله من نافاران خلال فترة الهدنة الى عرض البحر. وكانت هذه الهدنة بحرية فقط، لأن المعارك ظلّت محتدمة على البر اليوناني، وبخاصة في مسينا وفي

أركاديا. ولم يكن الأسطول الصليبي المحتشد أمام نافاران بحاجة لسبب حتى يبدأ العدوان، وقد أكمل استعداداته. إلا أن قائده فضل ابتداع هذا السبب نظراً لعدم إعلان الحرب على الدولة العثمانية، فتقدم اسطول يوناني صغير بقيادة اللورد الانكليزي (كوكرين) ودخل ميناء باتراس فهدد بذلك قلعة (ڤاسيلادي) القريبة من مدينة (ميسولونجي). وما إن علم ابراهيم باشا بهذا الاستفزاز المثير حتى اعتبره بمثابة انتهاك للهدنة - وكان هو كذلك - وأصدر أمره بأن تقلع من ميناء نافاران بارجتان وفرقاطة ونقيرتان وبعض الحراقات، وعهد بقيادتها لأمير البحر (بترونابيك) وحدد له مهمته بالاقتراب من الميدان، وطرد السفن الحربية التي يقودها (كوكران). وكان هذا هو بدقة ما ينتظره (الأميرال كودرنغتون) وما يتوقعه، فأسرع لاعتراض سبيل هذه القوة البحرية قرب رأس (پاپا). رغم أنها كانت متوقفة تنتظر هبوب الرياح الموائمة لأشرعتها حتى تدخل خليج (ليبانت). ونقل الأميرال كودرنغتون تعليماته إلى قائد القوة البحرية التركية (بترونابيك) وأفهمه بوجوب احترام الهدنة، وأمره بالعودة من حيث أتى. وتأكيداً لانذاره، أطلقت سفنه بعض القذائف من فوق رؤوس البحارة المصريين والأتراك. فما كان من قائد القوة (بترونابيك) إلا أن رجع إلى ميناء نافاران وهو يحتدم غيظاً لهذا الاستفزاز الوقح الذي حرمه من حرية العمل العسكري، في الوقت الذي كانت فيه القوة اليونانية بقيادة اللورد الانكليزي (كوكرين) تمارس عملها بحرية تامة، وكأنها لا علاقة لها بشروط الهدنة.

انضمت إلى السفن الانكليزية والفرنسية - قرب ميناء زنطة - قوة بحرية روسية ضمت أربع بوارج وأربع فرقاطات وذلك يوم ٢٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٣ هـ = ١٤ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٨٢٧ م. حتى إذا ما كان ظهر يوم ٢٠ تشرين الأول - اكتوبر - هبّت ريح ملائمة، فدخل الأسطول الصليبي المشترك خليج نافاران، ورابط فيه، وأنذر الأتراك والمصريين انذاراً شديد اللهجة، بالانسحاب والعودة الى موانىء بلادهم الأصلية. وكان (كودرنغتون) يتقدم في الطليعة في سفينة قيادته (البارجة آسيا ذات الأربعة وثمانين مدفعاً) وفي أثرها البارجتان آلبيون وجنوا وفرقاطتان. وكان في مؤخرته قائد الأسطول الفرنسي الأميرال دوريني على متن سفينة

قيادته (سيرين) التي كانت تواكبها البوارج سيبيون وترايدن وبرسلاو والفرقاطة آرميد. وسار وراءه الأميرال الروسي (هايدن) على متن سفينة قيادته البارجة آزوف، تتبعه ثلاثة بوارج وأربع فرقاطات.

وهكذا حشرت في خليج نافاران سفن الأساطيل الصليبية كافة. ووقفت في مواجهة مائة وعشرين سفينة حربية - بين تركية ومصرية - كانت قد توقفت منذ الثامن من أيلول - سبتمبر - وعلى متنها خمسة آلاف مقاتل مع أسلحتهم وذخائرهم بهدف احتلال جزيرة هيدر اليونانية.

وكان هذا الاسطول الإسلامي، قد انتظم على شكل هلال وقد ضم ثلاث بوارج كبيرة وبارجة مسطحة وست فرقاطات وسبعاً وعشرين نقيرة - سفينة - وسبعاً وعشرين حراقة وسفن نقل عديدة. وكان هذا الأسطول مسلحاً بحوالي ١٩٦٢ مدفعاً مقابل ١٢٩٤ مدفعاً تحملها سفن الأساطيل الصليبية. ولكن المدافع التركية - المصرية، كانت موزعة على سفن من نوعية أدنى، وعاجزة عن التصدي للبوارج الأوروبية ذات الطوابق الثلاث وسواها من الفرقاطات الضخمة. وكان يدافع عن كل طرف من طرفي الهلال - لتشكيل الأسطول الإسلامي - قوة من ثلاث حراقات، تحتل موقعاً مناسباً. كما كان مدخل الخليج الذي لا يزيد عرضه على ميل واحد، محصناً من طرف نافاران. بقلعة حصينة مع بطارية مدفعية احتلت مربضها عند رأس جزيرة سفكتريا. وكان الجنود المسلمون في وضع الاستنفار.

دخلت بارجة قائد الأسطول المشترك (آسيا) ميناء نافاران في الساعة الثانية ظهراً، متجاهلة وجود البطاريات العثمانية الصامتة. وألقت مراسيها إلى جانب سفينة قائد الأسطول الإسلامي، الذي اشتهر بكفاءته (الأميرال حسن بيك). وحذت كل السفن البريطانية حذوها. ومن ثم توقفت البارجة الفرنسية سيرين على مرمى رصاص المسدس من أول فرقاطة إسلامية في خط الدفاع، وهي الفرقاطة ايزانيا المزودة بأربعة وستين مدفعاً والتي كانت هي سفينة القيادة للأميرال (حسن بيك).

بدأت المعركة عندما أطلقت حراقة مصرية قذيفة قتلت ضابطاً بريطانياً ضمن

قارب تابع للفرقاطة (دارماوث). فردت الفرقاطة الانكليزية بنيران كثيفة. وحاول الأميرال (ريني) على حد زعمه ـ السيطرة على الموقف، بأن خاطب الأميرال حسن بيك بمكبرات الصوت. ولكن البارجة ايزانيا ردت بطلقتي مدفع أودت بحياة أحد بحارته. كما حاول كودرنغتون ـ على حد زعمه أيضاً ـ تجنب المعركة فأرسل زورقاً لمفاوضة ابراهيم باشا، وأمره بإيقاف إطلاق النار. ولكن قنبلة قتلت البحار الانكليزي الذي كان فوق المركب المذكور. وهنا امتد لهيب المعركة، وتحول خليج نافاران إلى جحيم بسبب كثافة التراشق وتلاحم السفن. وبينما كان الروس منهمكين في التقرب لاحتلال مواقعهم المحددة لهم في تنظيم المعركة، سقطت سفنهم تحت وابل من نيران البطاريات الساحلية والقلاع التي كانت تستهدف البارجتين الفرنسيتين: ترايدن وبرسلاو. وعندها خاضت سفن الحلفاء تم التخطيط لها بإحكام، وتم تنفيذها بانضباط تام وخبرة كبيرة، فضلاً عن تنسيق كامل للتعاون بين بعضها البعض. ولم تستمر المعركة طويلاً، ففي الساعة الخامسة مساء (١٧٠٠) كانت معظم سفن الأسطول العثماني ـ المصري قد تعرضت للدمار، بعد أن حارب رجاله بكفاءة عالية وشجاعة نادرة، فلم يستسلم أي قائد ـ قبطان ـ بل عمل الكثيرون على تدمير سفنهم وإغراقها. وقفز الذين بقوا على قيد الحياة من سطح سفنهم إلى الماء، لبلوغ الشاطىء سباحة. أما سفينة القيادة العثمانية (ايزانيا) فقد اشتبكت مع نظيرتها الفرنسية (سيرين) وتعرضت لتدمير شديد أطاح بصواريها، واحترقت، وقفز قائدها حسن بيك مع ٥٦٠ من رجاله في البحر، وسط انفجارات مروعة، وحطام سفن محترقة، أحاطت بسفينة الأميرال دوريني، والتي تمكنت من تدمير حراقة تركية وسفينة حربية صغيرة، ونالها الحريق الذي أمكن السيطرة عليه، مثلما تعرضت لهجوم قوات تركية، كلفها تحطيم عدد من صواريها، فضلاً عن ست قذائف حطمت كل قوارب النجاة فيها. وأثناء ذلك تعرضت بارجة الأميرال الانكليزي الى نيران تركية شديدة أطاحت بصاريها الرئيسي، واقتلعت عدداً من مدافعها. كما لم تنج البارجة الروسية (آزوف) من أضرار، فقد احترقت معظم أشرعتها، وسقطت أكثر من خمسين قذيفة على سطحها، وبقرت سبع منها مجنّبتها. أما البارجة الفرنسية (سيبيون) فقد تعرضت لهجوم حراقة عثمانية كادت

ترسلها إلى قاع الخليج، وجنحت بصورة خطيرة نحو البارجة (دفنة) لولا إشارة استطاعت أن تحرفها عن مجموعة من السفن التركية. كما حوصرت الفرقاطة الفرنسية (أرميد) من قبل عدد من السفن الإسلامية، إلا أنها تملصت من الحصار.

التهم الحريق الأشرعة وحطام السفن الجانحة في سائر أرجاء الخليج. وظهرت صورة مرعبة على سطح البحر في خليج نافاران، الذي تحول الى صفحة محترقة تتوهج منها ألسنة اللهب وسط سحب الدخان الكثيفة والتي كانت تتمزق في وسطها أعمدة الشرر، قاذفة معها أنقاض السفن والجثث المشوهة للبحارة، وشهد هذا المنظر رجال البحر الذين نجوا بأنفسهم، ومعهم الجند، الذين كانت تعتصر قلوبهم مشاعر الحزن والغضب. وكانت السماء صافية الأديم، وقد ارتسمت في أجوائها صورة كئيبة عن آخر معركة بحرية كبرى خاضتها البحرية العثمانية الإسلامية. وكانت بدورها آخر معركة خاضتها السفن ذات الصواري والأشرعة.

غربت شمس يوم ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٤٣هـ (١٩ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٨٢٧م) وغرب معها وجود الأسطول العثماني - المصري. واستطاعت الأساطيل الصليبية لدول الروسيا وانكلترا وفرنسا تدمير مائة سفينة حربية إسلامية - ما بين تدمير كامل أو غرق -. فكانت المعركة عبارة عن عملية إبادة منظمة ومتعمدة، في حين جنحت البقية الباقية من فلول الأسطول الإسلامي الى الساحل، أو أحرقها بحارتها عن عمد حتى لا تقع غنيمة سهلة ورخيصة في قبضة المعتدين. وفقد العثمانيون والمصريون ستة آلاف قتيل وألف جريح. مقابل ١٧٥ قتيل من الصليبيين: حيث خسر الفرنسيون ثلاثة وأربعون بحاراً - منهم عشرون قتلوا على سطح البارجة سيرين - بالإضافة إلى عشرين جريحاً. وخسر الانكليز ثلاثة وستون قتيلاً ومائة وتسع وعشرون جريحاً. أما الروس فكانت خسائرهم ٥٩ قتيلاً و١٤١ جريحاً.

أخذت سفن الاسطول الصليبي المشترك بالانسحاب بعد خمسة أيام من المعركة فأبحرت السفن الفرنسية نحو ميناء مرسيليا وميناء طولون، في حين تم سحب السفن

الانكليزية والروسية إلى أحواض جزيرة مالطا لاصلاحها. ونقل الأميرال الفرنسي دوريني مقر قيادته الى البارجة ترايدن والتي لم تتضرر كثيراً، حتى يبقى في البحر الأبيض المتوسط لمواجهة كل احتمال. وعملت الحكومة الفرنسية - فيما بعد - على مكافأته فعينته وزيراً للحربية، ومنحه ملك بريطانيا (وسام الحمام) كما كافأه قيصر الروسيا بالوشاح الماسي من رتبة (القديس الكسندر نيوسكي).

أثارت معركة نافاران ردود فعل متناقضة في الغرب، وعكست صحافته وجهات النظر المتضادة والمختلفة. فقد أذهلت شدة (تظاهرة القوة) عقول الكثيرين، وزاد من بشاعة هذه التظاهرة ما رافقها من قسوة بالغة في سفك الدماء، ومن تطرف عنيف في تدمير البحرية الإسلامية. وتظاهرت الحكومة البريطانية بالاستجابة للانتقادات الموجهة إليها، فاستدعت الأميرال كودرنغتون الى لندن للدفاع عن موقفه. ثم تجاوزت تصرفه، وعينته قائداً للبارجة (كنال فليت).

استقبلت الدولة العثمانية بذهول أكبر أنباء معركة نافاران، لأنها وقعت بدون إعلان حرب، وذلك خلافاً لما جرت عليه العادة - حتى ذاك الوقت - بين الدول المتمدنة والمتحضرة، وأرسل السلطان محمود بياناً الى سفراء الدول الثلاث، احتج فيه على هذا العمل العدواني والمخالف للقوانين الدولية، وطلب فيه أن تمتنع هذه الدول امتناعاً نهائياً عن التدخل في شؤون الدولة العثمانية - وأن تدفع له تعويضاً عن الخسائر التي نجمت عن تدمير السفن العثمانية. فلم يجب السفراء على هذا البيان، وعملوا على قطع علاقاتهم مع الدولة، وأسرعوا لركوب السفن (في ٨ كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٨٢٧ م) وفي ١٨ منه، **نشر السلطان بياناً عاماً (خط شريف) جرى تعميمه على كافة الولايات، أظهر فيه النوايا السيئة لكافة الدول عامة - وللروسيا منها بصورة خاصة - تجاه الدولة الإسلامية الوحيدة - الدولة العثمانية -. وأكد للمواطنين أن الباعث على هذا العدوان هو الدين لا السياسة. وختمه بحض المسلمين وتحريضهم على الجهاد، دفاعاً عن الدين وأوطان المسلمين. فأظهرت الروسيا غضبها لذلك، وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ١١ شوال سنة ١٢٤٣ هـ (٢٦ نيسان - ابريل - سنة ١٨٢٨ م).**

عملت فرنسا على انزال جيش ضخم في اليونان في ١٧ صفر سنة ١٢٤٤ هـ = ٢٩ آب - أغسطس - سنة ١٨٢٨ م بقيادة الجنرال (ميزون) لإجلاء القوات الإسلامية عن اليونان، وتحقيق استقلال اليونان. وكان ابراهيم باشا قد أدرك عمق التجربة التي عاشها على أرض اليونان، وعرف قدرة الدول المتحالفة وسياساتها تجاه الدولة العثمانية، فاتفق مع الفرنسيين على الانسحاب من موره، والرجوع إلى مصر على ما بقي من السفن المصرية، وذلك بعد أن تلقى أمراً من والده - محمد علي باشا - بذلك. وشرع في تنفيذ هذا الانسحاب اعتباراً من يوم ٢٦ صفر - ٧ - أيلول - سبتمبر - ولم يترك إلا ألفاً ومائتي جندي للمحافظة على مودون وكورون ونافاران، ريثما يتم تسليمها للقوات العثمانية. وكانت القوات الفرنسية تسرع للانتشار في كل مكان تنسحب منه القوات المصرية.

ولم تلبث الدول الثلاث: الروسيا وانكلترا وفرنسا أن عقدت مؤتمراً في لندن (بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٤٤ هـ = ١٦ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٨٢٨ م) للاتفاق على تسوية المسألة اليونانية، ودعيت الدولة العثمانية لحضوره، غير أنها امتنعت عن إرسال مندوب عنها ليمثلها في هذا المؤتمر، وذلك حتى لا يعتبر ذلك إقراراً منها على ما يتم الاتفاق عليه، واستنكاراً لما قامت به الدول المشتركة في المؤتمر من تقديم المساعدة لليونانيين ضد الدولة العثمانية.

غير أن امتناع الدولة العثمانية عن الاشتراك في مؤتمر لندن، لم يمنع الدول الثلاث عن الاجتماع في الموعد المحدد، حيث اتفق المندوبون على استقلال موره وجزائر سكلاده - الواقعة الى الشرق من شبه جزيرة موره - وتكوين حكومة مستقلة لحكمها برئاسة أمير مسيحي تختاره الدول الثلاث ويكون تحت حمايتها. وتقرر أيضاً أن تدفع الحكومة اليونانية للدولة العثمانية جزية سنوية قدرها خمسمائة ألف قرش. ورفضت الدولة العثمانية مقررات مؤتمر لندن والتي اتخذتها دول لا علاقة لها فيما يقع بين دولة وبين اقليم من أقاليمها. **وانصرفت لمحاربة روسيا، ومتابعة أعمال الإصلاح الداخلي والتي كان من أهمها (إلغاء الإنكشارية).**

كان السلطان محمود يتابع باهتمام الأعمال القتالية في اليونان، حيث أكدت له

التجارب المتتالية أفضلية الأنظمة والأساليب التي تتبعها الجيوش الأوروبية وتعمل على تطبيقها. كما كانت الأعمال الرائعة التي اضطلعت بها القوات المصرية النظامية في شبه جزيرة مورة، وما أنجزه ابراهيم باشا من انتصارات على اليونانيين، بمثابة برهان ثابت على ضرورة القيام بالإصلاح العسكري. وتنفيذ المشروع الذي لم يتمكن السلطان سليم من تنفيذه. فعمل على عقد اجتماع لحكام الدولة وامرائها وكبار قادة الإنكشارية - في منزل المفتي في أوائل سنة ١٢٤١ هـ = ١٨٢٦ م. وترأس الصدر الأعظم (سليم محمد باشا) هذا الاجتماع. فعمل على اجراء عرض سريع لما وصلت إليه تنظيمات الإنكشارية من الضعف والانحطاط وانهيار أسس الانضباط، وانعدام الطاعة والانقياد للرؤساء والقادة حتى صارت من أكبر عوامل ضعف الدولة العثمانية بالمقارنة مع ما وصلت إليه الدول الأوروبية من التقدم والتطور، ثم أظهر ضرورة تطبيق النظام العسكري على كتائب الإنكشارية التي ظهر أنه من المحال عليها في وضعها الراهن مجابهة الجيوش الأوروبية النظامية. وأظهر الحضور قناعتهم بضرورة إصلاح الجيش. فنهض أمين سرّ الصدر الأعظم وتلا عليهم مشروعاً من ستة وأربعين بنداً ذكر فيها بكل وضوح ما هو مطلوب تنفيذه من الاصلاحات. ووافق المجتمعون على المشروع، وتم تحرير محضر للجلسة حمل تواقيع جميع الحاضرين، حتى ضباط الإنكشارية. وأفتى المفتي بجواز العمل بها شرعاً، ومعاقبة من يعارض في تنفيذها. ثم جرت قراءة المشروع على جميع ضباط الإنكشارية، فأقروا ما جاء فيه. غير أن موافقتهم عليه لم تكن إلا ظاهرية، لكسب الوقت من أجل الاعداد لاحباطه، إذ لم يكد يبدأ تدريب الضباط بإشراف الخبراء الذين تمت الاستعانة بهم من الافرنج، حتى بدؤوا في التحضير للثورة وإعلان العصيان، وتمكنوا من استثارة بعض الرعاع، ومحبي الاضطراب والفوضى والشغب، وتعرض بعضهم للجند في وقت التدريب (يوم ٨ ذي القعدة سنة ١٢٤٠ هـ = ٢٤ حزيران - يونيو - سنة ١٨٢٦ م).

فأصدر السلطان أمره بمعاقبة كل من يتعرض لهم بالقتل. ولذا تجمع المتعصبون في مساء ذلك اليوم، وقرروا القيام بالعصيان. وكان السلطان في سراي بشكطاش، فحضر على الفور إلى مقر الحكومة (السرايا) وجمع العلماء،

وأعلمهم بما قرره الإنكشارية، فاستنكروه، وشجعوا السلطان محمود على المقاومة. فاستدعى ألوية المدفعية التي نظمها عقب توليته. واستعد لقتال المتمردين. وأخرج الراية النبوية الشريفة - التي كان يتم إخراجها عند الخروج لقتال الكفار - في صباح يوم الجمعة ٩ ذي القعدة = ٢٥ حزيران - يونيو - وسار بجنود المدفعية تتقدمه الراية إلى ساحة (آت ميداني) حيث كان الثائرون في حالة هياج شديد. وتبعه كثير من العلماء والطلبة.

وما هي إلا فترة وجيزة حتى أحاطت المدفعية بالميدان، واحتلت جميع المرتفعات المشرفة عليه، وسلطت فوهاتها على الإنكشارية، وانطلقت مقذوفاتها من كل اتجاه. فخرج جميع جند الإنكشارية، وتوجهوا نحو المدافع لمهاجمتها والاستيلاء عليها، ولكن مقذوفات المدافع مزقت تجمعاتهم. شرّ ممزق. فحاولوا العودة للتجمع في ثكناتهم، غير أن مقذوفات المدفعية كانت قد دمرتها وأشعلت فيها النيران. فلما كان اليوم التالي أصدر السلطان محمود مرسوماً (فرماناً) بإلغاء تنظيم الإنكشارية وإزالة اسمهم وشاراتهم، وإبطال ملابسهم واصطلاحاتهم، من جميع أقاليم الدولة العثمانية، ونودي بذلك في الشوارع. وصدرت الأوامر الى جميع الولايات بالبحث عن كل من بقي منهم وإعدامه أو نفيه إلى أطراف البلاد حتى لا تبقى منهم باقية. ومن ثم شرع السلطان محمود في إعادة تنظيم الجيوش، وعين لجنة من كبار الوزراء لتطبيق هذه الاصلاحات وتنفيذها، وعين (حسين باشا) الذي اضطلع بالعبء الأكبر في إبادة الإنكشارية، قائداً عاماً للجيش. وبذل السلطان ومستشاريه جل اهتمامهم لتطوير الجيش الجديد، فلم تمض السنة حتى أمكن تنظيم عشرين ألفاً، وجرت الاستعدادات لرفع هذا العدد حتى مائة وعشرين ألفاً في السنة التالية.

غير أن الروسيا لم تترك للدولة العثمانية فرصة لإكمال تنظيم قواتها والمضي قدماً في تنفيذ إصلاحاتها، إذ أنها بمجرد إعلانها الحرب على الدولة العثمانية في ١١ شوال سنة ١٢٤٣ هـ = ٢٦ نيسان - ابريل - سنة ١٨٢٨ هـ - أمرت جيوشها التي كانت منتظرة ومتأهبة على الحدود، باجتياز نهر (بروث) الذي كان يفصل بين حدود الدولتين، واحتلت مدينة (ياش) عاصمة البغدان، ولم

تلبث أن دخلت عاصمة الأفلاق (بوخارست) يوم ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢٤٣ هـ = ١٣ حزيران - يونيو - سنة ١٨٢٨ م).

وعملت القوات الروسية على إلقاء القبض على حاكمي ولايتي الأفلاق والبغدان، وقامت بتعيين مندوبين عنها لإدارة الولايتين. ثم اجتاحت الجيوش الروسية البلاد العثمانية حتى نهر الدانوب (الطونة). واحتلت عدة مدن على ضفتي الدانوب، واجتازته بعد اشتباكات ثانوية. ثم حاصرت مدينة (ڤارنا) براً وبحراً، لعدم وجود سفن عثمانية تحميها من جهة البحر - بعد معركة نافاران -. وحضر القيصر نقولا ذاته للإشراف على الحصار، ثم تولى قيادة جيش ضخم لمحاصرة القائد الأعلى العثماني - حسين باشا - الذي كان مقيماً في (مدينة شوملة) واحتل مدينة (اسكي استانبول) تمهيداً لعزلها ومحاصرتها. ولكنه لم يلبث أن رفع عنها الحصار، بسبب المقاومة الضارية والمنظمة للجيش العثماني الجديد، واكتفى بحشد كل قواته حول (ڤارنا). ولكن أمير البحر - قبودان باشا - (عزت محمد) استطاع إمداد الحامية المدافعة عن فارنا، عن طريق البحر، رغماً عن سيطرة السفن الروسية على البحر، ودخل هو أيضاً إليها، وتولى قيادة الدفاع عنها، حتى كاد اليأس يداخل القيصر نيقولا من إمكان احتلالها، لولا خيانة أحد القادة (واسمه يوسف باشا). عمل على تسليم المدينة للروس في أول ربيع الثاني سنة ١٢٤٤ هـ (١١ - تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٧٢٨ م). والتجأ إلى بلادهم فراراً من العقاب، وليتمتع بثمرة خيانته.

تابعت القوات الروسية أعمالها القتالية على جبهة آسيا، واستطاعت احتلال عدد من القلاع والحصون التي كان من أشهرها قلعة (قارص). ثم توقف القتال بسبب اشتداد قسوة البرد، وتراكم الثلوج، وبسبب حاجة الروس لإعادة تنظيم قواتهم، فقد كانت نتائج الحرب أقل بكثير مما كانوا يتوقعون، نتيجة الكفاءة العالية التي أظهرتها قوات الجيش النظامي العثماني. وهذا ما أكده سفير الروسيا بباريس (بوتزودي بورجو) الذي كتب رسالة في تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٨٢٨ م. جاء فيها: **« لقد عانت القوات الروسية من مقاومة الجيوش العثمانية الجديدة، ما لم تعرفه من قبل في**

قتالها مع الإنكشارية . ولو تأخرت الروسيا في إعلان الحرب على الدولة العثمانية سنة واحدة، لما استطاعت تحقيق النتائج التي حققتها في هذه السنة» .

غير أن قوات الجيش العثماني الجديد، كانت قليلة جداً في عددها بالمقارنة مع الجحافل الروسية الضخمة، ولهذا فعندما استؤنف القتال في ربيع سنة ١٨٢٩ م. كان الفوز غالباً للجيوش الروسية، وذلك رغم ما أظهره القادة العثمانيون من الكفاءة الفذة في إدارة الحرب، ورغم ما أظهره جند الجيش الجديد من الشجاعة. فتمكنت الجيوش الروسية بعد عبور نهر الدانوب من اختراق جبال البلقان، ودمرت في طريقها المقاومات العثمانية حتى وصلت إلى مدينة (أدرنة) فاحتلتها عنوة. وعندها لم يبق أمامها عائق يوقفها عن التقدم إلى مدينة (الآستانة). وكانت سياسة انكلترا ـ خاصة ـ ومعها فرنسا وبقية الدول الأوروبية، ترغب في إضعاف الدولة العثمانية ومنعها من التقدم والتطور، ولكن مع بقائها عقبة في مواجهة الروسيا، وحاجزاً لمنعها من الوصول الى البحر الأبيض المتوسط. ولهذا فعندما استولت الروسيا على أدرنة، هبّت الدول الغربية، وألقت بثقلها ضد الروسيا ـ سياسياً ـ وبدأت باجراء المباحثات بين الدولتين المتحاربتين بواسطة ـ بروسيا ـ **إلى أن تم عقد الصلح ـ بموجب معاهدة أدرنة ـ التي تم التوقيع عليها في ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٤٥ هـ = ١٤ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٧٢٩ م.**

كان من أهم ما تضمنته معاهدة أدرنة، أن يبقى نهر البروث هو الحد الفاصل بين الروسيا والدولة العثمانية، على نحو ما كان عليه قبل الحرب، وأن تتنازل الدولة العثمانية للروسيا عن مصبات نهر الدانوب وما حولها من الأراضي. وعن وادي الخور والقلعة التي به، في حدود الأناضول، لتكون حاجزاً يمنع الاتصال بين الدولة العثمانية وقبائل الجركس المسلمة والمستقلة، وذلك تمهيداً لاستيلاء الروسيا على بلاد هذه القبائل الجركسية. وأن يكون للروسيا حق الملاحة ما بين البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط ـ بما في ذلك حقّ المرور من مضيقي البوسفور والدردنيل بدون التعرض لأي تفتيش من قبل موظفي الدولة العثمانية. وأن تعطي الدولة العثمانية إلى تجار الروسيا الذين أصابهم ضرر بسبب الحروب تعويضاً مالياً قدره ستة عشر مليون

فرنك. وأن يكون تعيين أمراء ولايتي الأفلاق والبغدان لمدة حياتهم، وعدم عزلهم، إلا لأسباب قوية، وبموافقة الروسيا، وأن تمنح ولاية الصرب الامتيازات التي تضمنتها معاهدة (آق كرمان). أما بخصوص اليونان، فقد وافق السلطان محمود على كل ما جاء في اتفاق لندن، والذي تم ابرامه بين الدول الثلاث سنة ١٧٢٧ م. وأن يعين بعد اتمام الصلح مندوباً مفوضاً من قبله للاتفاق مع مندوبي الروسيا وفرنسا وانكلترا على حدود الدولة اليونانية الجديدة، التي شكلتها الدول الصليبية لاضعاف الدولة الإسلامية الوحيدة.

أضيف إلى معاهدة أدرنة ملحق حدد فيه مبلغ التعويض الذي اتفق على دفعه للتجار الروس - على مدى أربع سنوات -. وأن تدفع الدولة العثمانية للروسيا مبلغ خمسة ملايين جنيه استرليني - انكليزي - تعويضاً حربياً يتم دفعه على عشرة أقساط سنوية متساوية، وأن تبقى الجيوش الروسية في الممالك العثمانية، ثم تنسحب منها تدريجياً، فتبدأ بالجلاء عن مدينة أدرنة بعد دفع القسط الأول. وترجع الى ما وراء جبال البلقان بعد دفع القسط الثاني، ثم إلى ما وراء نهر الدانوب بعد دفع القسط الثالث، وتنسحب من إمارة البلغار، ولا تتخلى تماماً عن ولايتي الأفلاق والبغدان إلا بعد دفع آخر قسط، أي بعد عشر سنوات، **وأن يتم إخراج جميع المسلمين من الأفلاق والبغدان وسواهما بعد ثمانية عشر شهراً، على أن يسمح لهم ببيع عقاراتهم وممتلكاتهم. وأعلنت الدولة العثمانية التصديق على ما ورد من بنود في اتفاقية لندن يوم ٧ ذي الحجة سنة ١٢٤٥ هـ = ٣٠ أيار - مايو - سنة ١٨٣٠ م.**

لم تكتسب الروسيا من الدولة العثمانية - وفقاً لبنود معاهدة أدرنة - مناطق جغرافية جديدة، غير أنها فرضت عليها من القيود ما يكفل بإضعاف مقاومتها، وما يحرمها من تطوير قدراتها القتالية أو بناء قدرة بحرية جديدة عوضاً عن تلك التي تم تدميرها في نافاران. فقد كانت الغرامات المالية - الحربية التي فرضتها الروسيا على الدولة العثمانية ثقيلة إلى درجة مذهلة لاسيما وأنها جاءت في مرحلة كانت فيها الحروب المستمرة على الجبهة الخارجية قد اعتصرت ما بقي من الموارد في خزانة الدولة. ولقد

زاد من ثقل هذه الغرامات سلخ أقاليم الصرب والأفلاق والبغدان عن الدولة العثمانية، بالإضافة الى احتلال القوات الروسية لبلاد الدولة العثمانية.

سار السلطان محمود في تنفيذ خطة الإصلاح الداخلي رغم هذه الاحباطات جميعها، ورغم العوائق كلها. وعمل بعزم وتصميم دونما تعب ولا نصب، فأبطل طوائف القوات غير النظامية (مثل السلاحدارية والعلوفه جيه وسواهما) وصار الجيش كله مؤلفاً من الجند النظاميين والمسلحين بأفضل الأسلحة. وألغى جميع الامتيازات السابقة. ولم يلتفت الى المقاومات التي كانت تعترض سبيله والتي كان ينظمها المتضررون من التنظيمات الجديدة. وأنزل العقاب الصارم بكل من حاول احباط جهود الاصلاح. حتى أنه لما رأى جماعة (البكطاشية) التي كانت تدعم الإنكشارية، تحاول استعمال نفوذها المعنوي لاستثارة الجماهير وتحريضها، أصدر أمره بإلغائها ومصادرة جميع تكاياها، فألغيت، وشتت رجالها في جميع أطراف الدولة، وقتل ثلاثة من كبار قادتها بناء على فتوى شرعية.

ظنّ السلطان محمود، وهو في غمرة حماسته لخطة الإصلاح، أنه قد يمكن التخفيف من حدة الحقد الصليبي، إذا ما أخذ بظواهر الحضارة الغربية، وإذا ما عمل على تغيير العادات والتقاليد، فاستبدل العمامة بالطربوش الرومي، وأخذ باللباس الغربي وأمر بأن يكون هو الزي الرسمي للمدنيين والعسكريين. ووضع وساماً أطلق عليه اسم (وسام الافتخار).

ثم قام بجولة في إمارات الدولة الأوروبية لاستطلاع أحوالها، ودراسة أمورها ميدانياً - على الطبيعة - ومعرفة مشكلاتها وما يشتكي منه المواطنون ويتذمرون. وعمل على إعادة تنظيم المدارس العسكرية - وخاصة مدارس المدفعية - كما أسس مدرسة حربية لتخريج الضباط على نحو مماثل للمدرسة الحربية الفرنسية (سانت سير)★.

(★) مدرسة سانت سير: (SAINT-CYR-L'ECOLE) بلدة في مقاطعة سين و - واز (SEINE ET OISE) في دائرة فرساي من ضواحي العاصمة باريس. وبها المدرسة التي أسسها الملك لويس الرابع عشر سنة ١٦٨٥م، لتكون منزلاً لتعليم ٢٥٠ بنتاً من بنات الأشراف الفقراء، في السنة، ثم حولها =

كان من نتائج معركة (نافاران) أيضاً، وتدمير الأسطول العثماني، ضعف الاتصال مع أقاليم المغرب العربي - الإسلامي (المغرب والجزائر وتونس).

وكانت انكلترا قد أفادت من ظروف حروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية لتجريد فرنسا من معظم ممتلكاتها فيما وراء البحار. فأخذت بعد عودة الملكية إليها بالتطلع للتعويض عن خسائرها وذلك بالحصول على مستعمرات جديدة، استجابة لمتطلبات الثورة الصناعيـة وكانت سيطرة بريطانيا على خوانق البحر الأبيض المتوسط باستيلائها على جبل طارق وجزيرة مالطا وهيمنتها على مصر، تشكل حافزاً إضافياً لاحتلال موقع مهيمن على البحر الأبيض المتوسط، لاسيما وأن فرنسا تمتلك قواعد بحرية ولها جبهة ساحلية واسعة على البحر الأبيض المتوسط، بينما لا تمتلك بريطانيا مثل هذه الجبهة. فهي دخيلة على المنطقة، بينما كانت فرنسا تعتبر نفسها صاحبة حق في التوسع على حساب ما حولها. وإذا كانت الروسيا قد وسعت حدودها على حساب الدولة العثمانية، فإن باستطاعة فرنسا السير على هذا النهج أيضاً.

وبالإضافة إلى ذلك كله، فقد عادت الملكية إلى فرنسا لتتربع على أنقاض مخلفات الثورة الفرنسية. ولهذا فقد كانت تتطلع لإحراز انتصارات خارجية تسمح لها بممارسة ضغوطها على الجبهة الداخلية لاخماد نار البركان المتفجر، والذي جعل عرش الملكية الفرنسية يترنح تحت وطأة المعارضة المتصاعدة بحيث أن اشتراك فرنسا في معركة (نافاران) لم يخفف من حدة المقاومة ضد الاجراءات الظالمة التي اتخذها ملك فرنسا (شارل العـاشر)[1] ضد الحريات - وخاصة الحرية السياسية والصحافية - فأخذ

= نابليون بونابرت سنة ١٨٠٨ م إلى كلية حربية لتخريج الضباط - برتبة ملازم - ودمرت في سنة ١٩٤٠ - ١٩٤٤ م. فنقلت مؤقتاً إلى كوتكيدام (COTQUIDAM) سنة ١٩٤٧ م إلى أن أعيد إصلاحها.

(١) شارل العاشر: (CHARLES-X) ملك فرنسا - من مواليد فرساي (١٧٥٧ - ١٨٣٦ م) وهو حفيد الملك لويس الخامس عشر، وشقيق لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر والذي خلفه على عرش فرنسا سنة ١٨٢٤ م. عرف بمزاجه المتقلب، وحرم نفسه من دعم الشعب الفرنسي بسبب القوانين الرجعية التي أصدرها، وبسبب اعتماده على (الجزويت) المتعصبين، مما أدى في النهاية، وبعد سلسلة من الاضطرابات في جهاز الحكم، إلى قيام ثورة ٢٥ تموز - يوليو - سنة =

شارل العاشر ـ وحكومته ـ في التطلع لتحقيق نصر خارجي، ووقع الاختيار على (الجزائر) لتكون مركز استقطاب الجهد الاستعماري ـ الصليبي ـ. والمعروف أن فرنسا كانت قد استدانت مبالغ ضخمة من الجزائر، ثمناً للقمح وسواه مما كانت تحتاجه أثناء حملة نابليون على مصر ـ خاصة ـ. وكان مؤتمر ڤيينا قد اتخذ في جملة مقرراته (سنة ١٨١٥ م) قراراً بإلغاء القرصنة البحرية وإلغاء الرق. ولم تعترف الجزائر بهذا القرار، نظراً لقيام أوروبا بممارسة ما هو مضاد له على نطاق أوسع (تحت اسم الاستعمار). وهكذا ـ وكما بات معروفاً ـ فقد كان باستطاعة فرنسا افتعال أي سبب للعدوان على الجزائر، وجاء قنصل فرنسا (المسيو دوفال) بهذا السبب، إذ أنه تصرف خلال إحدى مقابلاته لوالي الجزائر (**حسين باي**) تصرفاً مهيناً وبعيداً عن قواعد اللياقة الديبلوماسية مما حمل (حسين باي) على التلويح بالمنشة التي كان يحملها بيده في وجه القنصل الفرنسي. وأمسكت الحكومة الفرنسية بهذا السبب الذي بات معروفاً في عالم الديبلوماسية باسم (**منشة الداي**) تعبيراً عن اصطناع الأسباب الواهية لإشهار الحرب، **وقررت فرنسا احتلال الجزائر في ١٣ شعبان سنة ١٢٤٥ هـ (٧ شباط ـ فبراير ـ سنة ١٨٣٠) ووجهت جيشاً من ثمانية وعشرين ألفاً من مقاتليها مع أسطول من مائة سفينة، وثلاثة سفن تحمل سبعة وعشرين ألف جندي بحري، للقيام باحتلال الجزائر، التي كان الأسطول الفرنسي يحاصرها منذ سنة تقريباً بحجة تنفيذ قرار مؤتمر ڤيينا بمنع القرصنة.**

حاولت إنكلترا إبعاد فرنسا عن منازعتها نفوذها في البحر الأبيض المتوسط، فلم تجد وسيلة أفضل من تقديم النصح للسلطان محمود بالتساهل مع فرنسا، وتقديم ما تطلبه من التعويضات، والايعاز إلى عامل الجزائر بالاستجابة لمتطلبات فرنسا، ووافق السلطان محمود على الأخذ بهذه (الموعظة) نظراً لعدم تمكنه في تلك الفترة بالذات من اتخاذ إجراء آخر، فأوفد مندوباً عنه لتبليغ تعليماته إلى والي الجزائر (حسين باي). لكن الاسطول الفرنسي اعترض سبيل السفينة التي كانت تحمل المندوب العثماني،

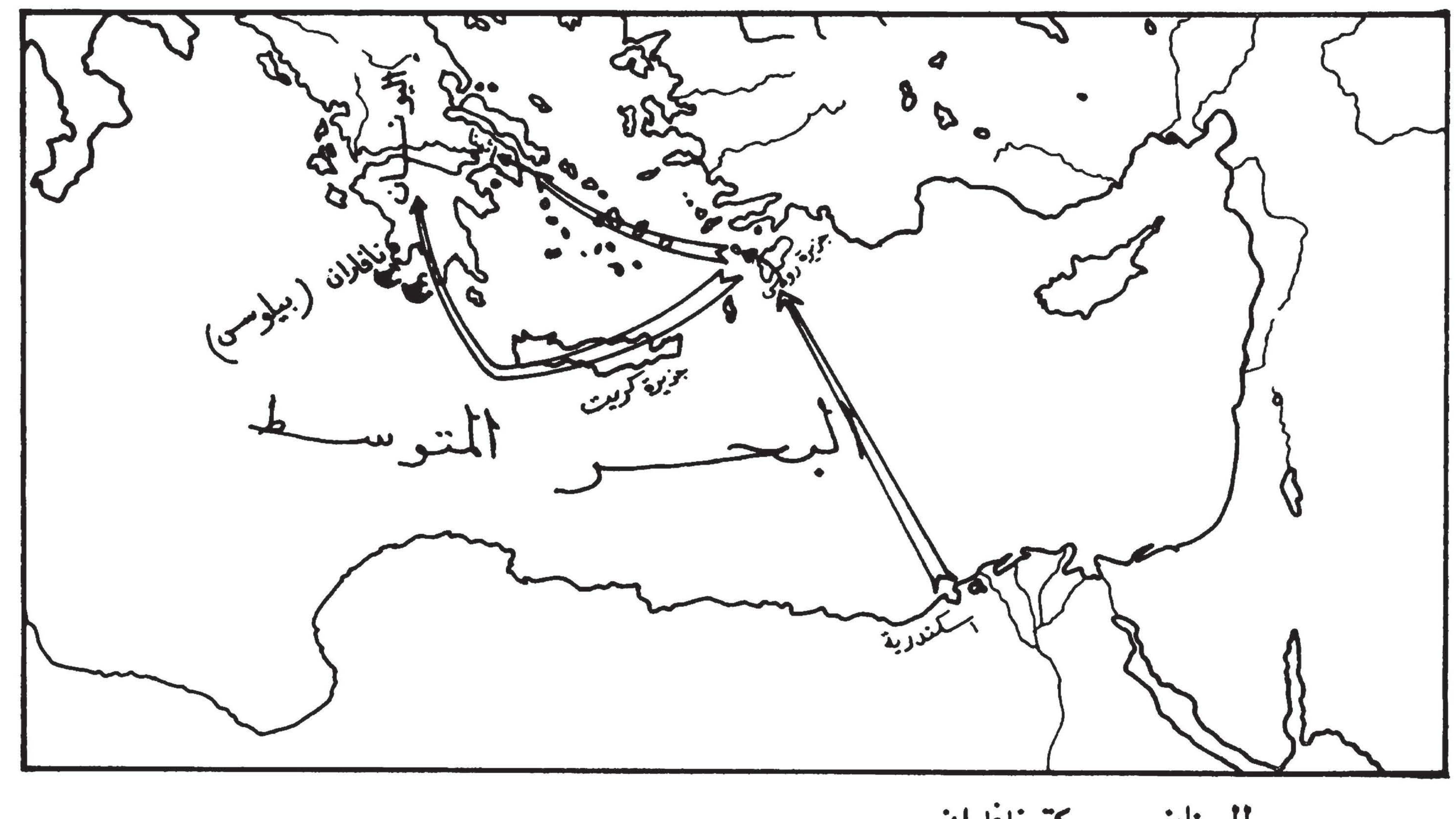
= ١٨٣٠ م. ولم تفلح جهوده في فتح الجزائر واستعمارها في تخفيف النقمة ضده، وحلّ محله الملك لويس فيليب: (LOUIS-PHILIPPE) الذي أكمل عملية استعمار الجزائر.

واحتجزها في ميناء طولون بعد أن اقتادها إليه، ولم يسمح لها بمغادرته إلا بعد أن تم انزال القوات الفرنسية بالقرب من مدينة الجزائر في يوم ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٤٥ هـ (١٢ حزيران - يونيو - سنة ١٨٣٠ م).

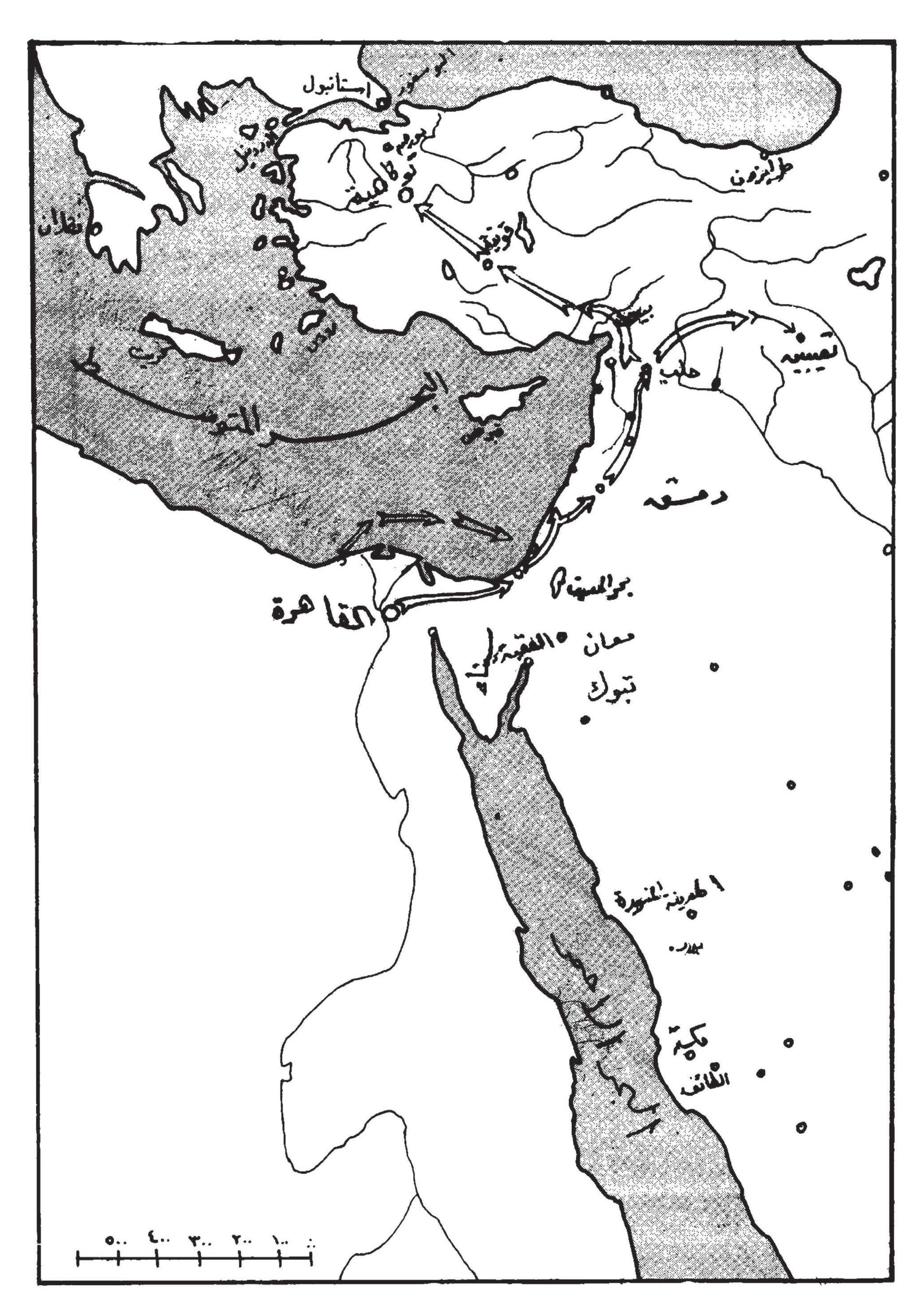
لقد جاءت الأعمال العدوانية ضد الجزائر بعد مرحلة طويلة من الإعداد الذي بدأ في عهد نابليون بونابرت والذي أراد بسط نفوذه على أقطار المغرب العربي الإسلامي. ولكن الأحداث المتتالية والمتسارعة صرفت نابليون عن تنفيذ مشروعه، وشغلته عنه بأمور أكثر خطورة - مثل اجتياح الروسيا والحرب الاسبانية. ولكن مشروع احتلال الجزائر لم يسقط بسقوط نابليون وإنما بعث من جديد. وجرت عليه تطورات في كل مرحلة بحسب المعلومات المستحدثة التي كان عملاء فرنسا يعملون على جمعها، وبحسب تطورات الموقف الدولي. وقد فكرت فرنسا بالاستعانة بحاكم مصر (محمد علي باشا) بعد أن فتح لفرنسا أبواب مصر على مصاريعها، ووافق محمد علي على ضم المغرب العربي الإسلامي لحكمه مقابل مساعدات (أربع قطع بحرية - سفن - و ٢٨ مليون فرنك). ثم ارتفعت الى مائة مليون فرنك، ولكن فرنسا قررت في النهاية الانفراد بالعمل وحدها، بحيث وصف مشروع (محمد علي - بولينياك) للتعاون المشترك من أجل فتح الجزائر بأنه: «**مشروع غير عملي، وغير ممكن، وفظيع، وغير مفيد لفرنسا لأنها تستخدم مسلماً ضد مسلم**». كما اعترضت الروسيا وانكلترا على هذا المشروع فمضت فرنسا لتنفيذ الاحتلال بقواتها وأسطولها، ووقف وزير الحربية (كليرمونت تونير) فوصف الحملة أمام الملك لويس العاشر، وقال: «**إنها حملة صليبية هيأتها العناية الإلهية لينفذها الملك الافرنسي الذي اختاره الله للثأر من أعداء الدين والإنسانية. ولغسل الاهانة التي لحقت بالشرف الفرنسي. ولعل الوقت سيجعل من حظنا نحن الفرنسيين تمدين الجزائريين بجعلهم مسلمين**».

لم تكن عملية احتلال الجزائر بالعملية السهلة، فقد اصطدمت القوات الفرنسية بمقاومة الجزائريين. واستطاعت الموجة الأولى التي حملتها مائتي قطعة بحرية، أن تستولي على ميناء (سيدي فرج) وعلى قلعة صغيرة مجاورة للميناء. ثم جاءت الموجة الثانية وهي مكونة من (١١٠) قطع بحرية من أنواع مختلفة وأحجام متباينة، وألقت مراسيها أمام

الجزائر يوم ١٦ حزيران - يونيو - وقامت بانزال ما تحمله من الجنود والذخائر والمواد التموينية، ثم استمرت عملية نقل القوات من طولون الى الجزائر. ودارت خلال ذلك معارك ضارية، كان من أهمها الهجوم على معسكر الفرنسيين في سيدي فرج يوم ١٩ حزيران - يونيو - واستطاعت القوات الفرنسية في النهاية الوصول الى الجزائر - المدينة - واحتلالها يوم ٥ تموز - يوليو - ووقعت الجزائر المحروسة تحت قبضة القراصنة الكبار. وكان ذلك هو البداية فقط لليل الاستعمار الطويل - والذي صمد فيه شعب الجزائر المسلم صموداً مذهلاً أمام أقسى محنة عرفها شعب من شعوب الأرض. ووقفت الدولة العثمانية عاجزة عن تقديم الدعم لاخوة الجهاد. فقد شغلتها الدول الصليبية بأمورها الخارجية، وبشؤونها الداخلية. لقد تمزق ثوب الدولة العثمانية في الجزائر. وكان لا بد لهذا التمزق من الاتساع.



حرب اليونان ومعركة نافاران



محاور عمليات محمد علي باشا ضد الدولة العثمانية

١٥ ـ محمد علي في مواجهة الدولة العثمانية.

وضعت معركة (نافاران) الدولة العثمانية تحت رحمة مبضع الدول الصليبية، فظهرت مخططات كثيرة للاجهاز على الدولة الإسلامية، وتقسيم أقاليمها. وكانت فرنسا ـ منذ حملة نابليون بونابرت ـ تطمع في أن تجعل من مصر قاعدة لها. فلما انتهت الحملة الفرنسية الى الفشل وظهر محمد علي باشا، شرعت فرنسا في تغذية أطماعه وتوجيهها لخدمة مصالحها. وفي هذا الإطار أرسلت بعثة عسكرية الى محمد علي بقيادة الجنرال بوير (في ٢٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٨٢٤ م). وحددت الوزارة الفرنسية للجنرال بوير مهمته: «بأن يقنع محمد علي بعدة مبادىء، وأن يجعله يتصرف بشكل يكسب فيه عطف أوروبا المسيحية.. وأن يركز قواه من أجل إعادة البناء الداخلي، عن طريق إصلاح البنى القائمة، إذ أن ذلك يجعله يحقق كسباً أكبر في نظر العالم المتمدن ـ المتحضر ـ أما إذا أراد أن ينطلق في سياسة توسع وطنية، فإن أفريقيا وسوريا تشكلان إمكانات عظيمة لا تحمل معها مجازفات ذات شأن». ولم يكن باستطاعة محمد علي التوسع في أفريقيا، إذ أن السفير الانكليزي (سالت) كان قد حذره (منذ ٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٨٢٠ م) بعدم التفكير في غزو الحبشة عندما قال له: «تقع الحبشة ـ أثيوبيا ـ تحت حمايتنا، وهي البلد الوحيد في أفريقيا الذي اعتنق الدين المسيحي، وصمدت صموداً مظفراً خلال أجيال أمام هجمات المسلمين، ولا ينبغي لأحد أن يتوقع من أوروبا عامة ـ ومن انكلترا خاصة ـ أن تقف موقف اللامبالاة إذا ما تعرض هذا البلد للهجوم.. وهناك كثيرون من ـ جمعية الكتاب المقدس ـ في بريطانيا، يهتمون بمستقبل هذا البلد». وهكذا وجد محمد علي نفسه بعد الانسحاب من اليونان، مدفوعاً للتوسع على حساب البلاد الإسلامية ذاتها، ولم يكن أمامه غير بلاد الشام التي تقوده نحو خط الصدام المباشر مع

الدولة العثمانية، وكانت الدول الصليبية ـ عامة ـ تشجع هذا النهج الذي يزيد ضعف الدولة العثمانية على ما هي عليه من الضعف، ويتيح للدول الصليبية أفضل الظروف للتحكم بالدولة العثمانية وأقاليمها.

ولما كانت سياسة محمد علي الداخلية ـ قد أرغمت اعداداً كبيرة من المصريين على الهجرة الى بلاد الشام ـ وخاصة من الصناع والحرفيين ـ هرباً من نظام السخرة والمصادرات. ووجد محمد علي في ذلك حجة للتوسع وضم بلاد الشام لحكمه، فكتب إلى والي عكا (عبد الله باشا الجزار) بإعادة من لجأ إليه من المصريين الى مصر. فرد والي عكا بالامتناع على أساس أن الاقليمين هما من أقاليم الدولة العثمانية، وأنه من حق أبناء الدولة التنقل بحرية والاستيطان حيث يريدون، فما كان من (محمد علي باشا) إلا أن أمر بإعداد الجيوش، البرية والبحرية، للتوجه لبلاد الشام. وأسند قيادة القوات الى ابنه (ابراهيم باشا) وعين سليمان بيك الفرنساوي ـ الجنرال سيف ـ معاوناً له. وغادر ابراهيم باشا بجيشه مصر في ٢٦ جمادى الأولى سنة ١٢٤٧ هـ (٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٨٣١ م) مخترقاً صحراء سيناء، فيما كان الاسطول المصري يواكب حركة القوات البرية.

استولى ابراهيم باشا على مدن العريش وغزة ويافا والقدس ونابلس وحيفا الذي جعل منها قاعدة لأعماله القتالية ومقراً لهيئة أركان حربه ومستودعاً لمواده التموينية وذخائره، **ثم ارتحل عنها لمحاصرة مدينة عكا. فحاصرها براً وبحراً في ٢٠ جمادى الثاني سنة ١٢٤٧ هـ (٢٦ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٨٣١ م)** حتى لا تصلها الامدادات عن طريق البحر فلا يتمكن من فتحها على نحو ما تعرض له نابليون بونابرت عندما قام بحصارها سنة ١٧٩٩ م.

ما إن علم السلطان محمود باجتياح الجيش المصري بقيادة ابراهيم باشا بلاد الشام، وإلقاء الحصار على عكا، حتى اعتبر ذلك تمرداً وعصياناً من محمد علي باشا. فأصدر أمره إلى والي حلب (عثمان باشا) بالسير لمحاربة ابراهيم باشا وإعادته وجيشه إلى حدود مصر. فقاد (عثمان باشا) جيشاً من عشرين ألف جندي وانحدر به جنوباً نحو عكا، غير أن ابراهيم باشا لم يمهله، بل إنه ترك قوة كافية لمتابعة حصار عكا، وسار

بمعظم جيشه لقتال جيش حلب، **والتقى الجيشان بالقرب من مدينة حمص، وانتصر المصريون، وتمزق جيش حلب.** ورجع ابراهيم باشا إلى عكا، وشدد الحصار عليها، واستطاع فتحها بالقوة في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٢٤٧ هـ (٢٨ - أيار - مايو - سنة ١٨٣٢ م) وأخذ عبد الله باشا الجزار أسيراً، وأرسله إلى مصر.

أصدر السلطان محمود أمره بجمع ما هو متوافر من القوات النظامية، وذلك فور إعلامه بسقوط عكا في قبضة المصريين. فأمكن له حشد ستين ألف مقاتل خلال فترة وجيزة، وكلّف قائده (حسين باشا) بقيادة هذا الجيش، فسار (حسين باشا) بجيشه متمهلاً، حذراً، مما ساعد ابراهيم باشا على الاستعداد للقتال، والتوجه بجيشه شمالاً. فالتقى بمقدمة الجيش العثماني قرب حلب، فانتصر عليها ومزقها ودخل مدينة حلب الشهباء (في ١٨ صفر سنة ١٢٤٨ هـ = ٧ تموز - يوليو - ١٨٣٢ م). وعندها تراجع (حسين باشا) بالكتلة الرئيسة للجيش العثماني. **وتحصن بمضيق بيلان الشهير،** في جبال طوروس الفاصلة بين بلاد الشام والأناضول.

فتحرك ابراهيم بجيشه، وسار بسرعة حتى لا يترك له فرصة كافية لانهاء استعدادات خصمه. وخاض ضده معركة حاسمة، أمكن له فيها تمزيق الجيش العثماني - بعد مضي شهر واحد على معركته السابقة - وقام بمطاردة فلول الجيش العثماني حتى الاسكندرونه، حيث ركب هؤلاء البحر، وعادوا الى العاصمة (إسلام بول).

وأسرع السلطان محمود فجمع جيشاً جديداً أسند قيادته إلى (رشيد باشا) الذي أظهر كفاءة عالية في إدارة حرب موره. وأرسله الى الأناضول لصد هجمات ابراهيم باشا، ومنعه من التقرب من العاصمة إسلام بول، حيث كان ابراهيم باشا في هذه الفترة قد اجتاز بجيشه جبال طوروس، واحتل اقليم أضنه وما وراءه حتى مدينة قونية في وسط الأناضول. والتقى بالقرب من هذه المدينة برشيد باشا وجيشه فانتصر عليه، وأخذه أسيراً في ٢٧ رجب سنة ١٢٤٨ هـ (٢٠ كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٨٣٢ م) وعندها اجتاحت الآستانة موجة من القلق، فقد تقدم ابراهيم باشا

بجيشه حتى وصل إلى ضواحي مدينة بورصة، وظهر خطر استيلاء الجيش المصري على عاصمة الدولة العثمانية.

أثارت انتصارات ابراهيم باشا هياجاً في عواصم أوروبا، إذ أن استيلاء ابراهيم باشا على عاصمة الدولة العثمانية من شأنه ضياع التوازن الذي حرصت أوروبا على إقامته والتمسك به. وكانت الروسيا هي الدولة الأكثر تأثراً بهذا التطور الذي قد يحرمها من تحقيق هدفها بالاستيلاء على الدولة العثمانية وتحويل عاصمتها إلى مدينة صليبية. ولهذا تقدمت بعرض لمساعدة الدولة العثمانية، ودعمها بالقوات، وأنزلت على شواطىء الأناضول خمسة عشر ألف جندي لحماية الآستانة والدفاع عنها. ووجدت فرنسا وانكلترا أن التدخل العسكري الروسي قد حرمها من حرية العمل، وأن هذا التدخل سيدعم من مكانة روسيا ونفوذها - على حساب مكانتها ونفوذها، فتدخلتا لدى السلطان، وحملتاه على الاتفاق بسرعة مع محمد علي باشا لإنهاء الأزمة.

وجرت مباحثات ومفاوضات انتهت بعقد اتفاق تضمن قيام القوات المصرية بالجلاء عن الأناضول والعودة إلى ما وراء طوروس. وتعطى لمحمد علي ولايات الشام الأربع (عكا وطرابلس وحلب ودمشق). وعلى جزيرة كريت. وأن يعين ابنه ابراهيم باشا والياً على (أضنه). وصدرت بذلك معاهدة كوتاهية ١٣ ذي الحجة ١٢٤٨ هـ = ٥ أيار - مايو - سنة ١٨٣٣ م.

أفادت الروسيا من وجود جيشها على أراضي الدولة العثمانية، ففرضت عليها إبرام معاهدة هجومية - دفاعية عرفت باسم معاهدة (خونكار اسكله سي) وعقدت يوم ١٧ محرم سنة ١٢٤٩ هـ = ٧ حزيران - يونيو - سنة ١٨٣٣ م. وتعهدت بها الروسيا بالدفاع عن الدولة العثمانية إذا ما هاجمها المصريون أو سواهم. وصارت الدولة العثمانية تحت حماية الروسيا.

ما كانت التسوية بين الدولة العثمانية ومحمد علي باشا أكثر من هدنة مؤقتة، فقد بقي ابراهيم باشا مصمماً على متابعة فتوحاته في أقرب فرصة - وعندما تسنح له ظروف دولية أفضل، كما بقي السلطان محمود مصمماً على استرداد بلاد الشام، وجعل مصر

ولاية عثمانية محرومة من كل امتياز، وكان بحاجة أيضاً لعامل الوقت حتى يعيد تنظيم قواته وحشد جيوشه. وبات كل طرف ينتظر الفرصة السانحة للانقضاض على شروط معاهدة كوتاهية. وقد جاءت هذه الفرصة من جوف بلاد الشام ذاتها. فقد أدّت سياسة محمد علي القمعية الى انفجارات ثورية ضد محمد علي، كما قام الدروز بإشهار العصيان وقد تلقوا من الانكليز مساعدات بالمال والسلاح للعمل ضد ابراهيم باشا وإضعافه. فحاول محمد علي باشا إعداد الظروف الدولية لاجراء تسوية نهائية تكون في مصلحته، وتجنبه في الوقت ذاته خوض حرب جديدة قد لا تكون نتيجتها في مصلحته. فأجرى مباحثات مع قناصل الدول المعتمدين في مصر للتدخل لدى السلطان محمود من أجل تكوين مملكة تكون تحت حكمه وحكم أبنائه من بعده على أن تضم هذه المملكة مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام. وقامت الدول الكبرى بإبلاغ السلطان محمود طلبات محمد علي بطرائق مختلفة، وعملت فرنسا على دعم مطالب محمد علي باشا، بينما عارضتها انكلترا والروسيا والنمسا وبروسيا. وشجعت السلطان على محاربته واخضاعه. وأفاد سفير فرنسا في الآستانة من مكانته المميزة لدى الدولة العثمانية، للقيام بوساطة هدفها الوصول الى تسوية يقبل بها الطرفان العثماني والمصري. وجرت مباحثات مستفيضة انتهت الى اتفاق بمنح ولايتي مصر والجزيرة العربية لمحمد علي باشا وورثته من بعده، مع منحه حق حكم بلاد الشام مدى حياته - حتى جبال طوروس. -إلا أن السلطان محمود لم يقبل بهذا الاتفاق وأصر على أن تكون جبال طوروس ومضائقها تحت حكم الدولة العثمانية. وكذلك صمم محمد علي باشا على الاحتفاظ بهذه الجبال ومضائقها بحجة أن إعادتها إلى الدولة العثمانية سيساعدها على مهاجمة بلاد الشام في أي وقت أرادته. وظهر أن الحل العسكري قد أصبح هو المخرج الوحيد للمأزق. فأصدر السلطان محمود أمره الى القائد العام (سرعسكر) حافظ باشا، بقيادة الجيوش المحتشدة في سيواس بأرمينية، للتقدم في بلاد الشام بأقصى سرعة ممكنة. فعبر حافظ باشا بجيشه نهر الفرات عند مدينة (بلاجيق - أو بيره جك) الى الشمال الشرقي من مدينة حلب.

ولم يلبث أن التقى بالجيش المصري - بعد عدة مناورات - بالقرب من بلدة نصيبين. ودارت معركة حاسمة يوم ١١ ربيع الثاني سنة ١٢٥٥ هـ (٢٤

حزيران - يونيو - سنة ١٨٣٩) وخرج ابراهيم باشا منتصراً، وتمزق الجيش العثماني، وغنم المصريون ١٦٦ مدفعاً وعشرين ألف بندقية، وكميات ضخمة من الذخائر والمواد التموينية (وكان الجنرال البروسي الشهير فون مولتكه في هيئة أركان حرب الجيش العثماني، ففر مع الهاربين وترك ملابسه وأوراقه الخاصة التي وقعت في قبضة المصريين).

لم يعلم السلطان محمود بأنباء هذه الكارثة الجديدة. فقد وافته المنية قبل وصول خبرها إليه، وخلفه (السلطان عبد المجيـد)[1] الذي تولى الحكم أثناء تقدم الجيش المصري واحتلاله لمدن عين تاب وقيصرية وملطية. فكان موقف الدولة في بداية عهده سيئاً وخطيراً. **ولقد زاد من خطورته خروج الأسطول العثماني بكامل سفنه من العاصمة (الآستانة) وانتقاله الى الاسكندرية وانضمامه الى الأسطول المصري؛** نظراً لما كانت تربط بين قائد هذا الأسطول (الأميرال أحمد باشا) وبين حاكم مصر (محمد علي باشا) من روابط الولاء والمحبة. غير أن مجابهة هذا الموقف الصعب لم تكن من القضايا الملقاة على عاتق السلطان وحده، بعد أن أصبحت الدول العظمى أطرافاً لها دورها المباشر في إدارة أمور الدولة العثمانية، إذ لم تكد الدول الغربية تعلم بانضمام الأسطول العثماني إلى محمد علي باشا، حتى انتابتها المخاوف من قيام ابراهيم باشا بالتقدم لاحتلال الآستانة مما سيحمل روسيا على اغتنام الفرصة لإرسال الجيوش لقتاله بالاستناد لمعاهدة خونكار أسكله سي -. لاسيما بعد أن فقدت الدولة كافة جيوشها البرية وقواتها البحرية.

فأسرعت الدول الخمسة: فـرنسـا وانكلترا والروسيـا والنمسـا والبروسيـا بإرسال مذكرة مشتركة وقعها سفراء هذه الدول، ورفعوها الى السلطان عبد المجيد (في ١٦ جمادى الأول سنة ١٢٥٥ هـ = ٢٨ تموز - يوليو - سنة ١٨٣٩ م) وتضمنت طلباً الى السلطان بأن يمتنع عن اتخاذ أي قرار بشأن المسألة

---

(١) السلطان الغازي عبد المجيد خان (١٢٣٧ - ١٢٧٧ هـ = ١٨٢٢ - ١٨٦١ م) تولى السلطة بعد وفاة أبيه السلطان محمود (سنة ١٢٥٥ هـ = ١٨٣٩ م) واعتبر الخليفة ٣١ في تسلسل الخلفاء العثمانيين.

المصرية، إلا بعد اطلاعهم والاتفاق معهم. وأظهرت الدول الخمس استعدادها للوساطة بين الدولة العثمانية ومحمد علي باشا من أجل تسوية هذه المسألة الهامة.

قبل السلطان عبد المجيد وساطة الدول العظمى، ولم يكن أمامه خيار آخر غير قبولها، واجتمع السفراء عند رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) يوم ١٨ جمادى الأولى سنة ١٢٥٥هـ (٣٠ تموز - يوليو - سنة ١٨٣٩م). وجرى بحث ما يمكن تقديمه لمحمد علي باشا، فأظهر سفير فرنسا وسفير الروسيا أن دولها ترغب في منح محمد علي باشا ملك مصر وولايات الشام الأربع (عكا وطرابلس وحلب ودمشق). في حين أبدى سفير انكلترا وسفير النمسا رغبة دولتيهما في إعادة الشام لحكم الدولة العثمانية، وانحاز سفير بروسيا الى سفيري انكلترا والنمسا، فتقرر الأخذ بهذا الرأي - بالأغلبية. ثم طلب رئيس وزراء النمسا (مترنيخ)[١] عقد مؤتمر دولي في (ڤيينا) أو (لندن) لإكمال البحث في المسألة المصرية، فرفض السفراء هذا الطلب - وخاصة سفير فرنسا وسفير انكلترا. لعدم توافر الثقة بسياسة (مترنيخ) كما أن الروسيا لم توافق على تخويل مؤتمر دولي حق تحديد علاقاتها مع الدولة العثمانية، وأعلنت اصرارها على التمسك بنص معاهدة (خونكار اسكله سي) وخاصة ما يتعلق بحماية الدولة العثمانية بقواتها البرية والبحرية، وبالتالي احتلال بلادها بدون حرب فيما إذا تجاوز ابراهيم باشا حدود بلاد الشام. وعندها طلبت كل من فرنسا وانكلترا من السلطان عبد المجيد السماح لسفن دولتيهما بالمرور من مضيق الدردنيل لحمايته عند الضرورة من الروسيا ومن المصريين. وجاء الأميرال ستوبفورد بنفسه الى إسلام بول للحصول على هذا التصريح. وظهر خطر الإنقسام بين الدول القائمة بالوساطة، وأعلن سفير الروسيا بأنه إذا دخلت

---

(١) مترنيخ: (KLEMENS LOTHER WENZEL, PRINCE DE METTERNICH-WINNERBURG) رجل دولة نمساوي - من مواليد كوبلنتز (١٧٧٣ - ١٨٥٩م) عمل سفيراً لبلاده في باريس من سنة ١٨٠٦ حتى سنة ١٨٠٩م، وهو الذي أوصى بزواج ماري لويس من نابليون بونابرت، ثم أصبح مستشاراً للنمسا. وانتخب رئيساً لمؤتمر ڤيينا في سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥م. والذي عقد لإعادة تنظيم أمور أوروبا بعد انهيار حكم نابليون بونابرت، حيث شغل منصب عميد - أو عراب - السياسة الأوروبية في التحالف المقدس. ولم يلبث أن اعتزل السياسة بعد سنة ١٨٤٨م لفشله في قمع الثورات التي اجتاحت أوروبا.

السفن الفرنسية والانكليزية مضيق الدردنيل، فإن دولته ستقطع علاقاتها الديبلوماسية مع الدولة العثمانية على الفور، ويغادر الآستانة، وأرسلت له الروسيا مركباً حربياً خاصاً ليستقله إذا ما تطلب الموقف. وكتب (مترنيخ) الى وزارتي لندن وباريس بأن طلبهما هذا قد يهدد السلم في أوروبا، وأنهما إذا ما أصرا عليه فإن النمسا تنسحب من التحالف وتحتفظ لنفسها بحرية العمل. وأدرك السلطان عبد المجيد أن هذا التطور قد جاء في مصلحة بلاده فرفض طلب فرنسا وانكلترا، وطلب إليهما إبعاد سفنهما عن مدخل المضيق. وتوقفت المباحثات والمفاوضات حتى مستهل شهر رجب سنة ١٢٥٥ هـ = أيلول - سبتمبر - سنة ١٨٣٩ م. حيث عرض سفير انكلترا لدى الدولة العثمانية (اللورد بونسوبني) استعداد انكلترا لإرغام (محمد علي باشا) على إعادة الأسطول العثماني مقابل منح انكلترا حق إدخال سفنها الى خليج إسلام بول لصد الروسيا عند الضرورة. فلما علمت بذلك حكومة فرنسا، أرسلت إلى قائد أسطولها في المياه التركية (الأميرال لالاند) أمراً بتاريخ ١٨ كانون الأول - ديسمبر - سنة ١٨٣٩ م. بالامتناع عن العمل مع الأسطول الانكليزي في تنفيذ أية مهمة ضد محمد علي باشا.

سرعان ما شاع أمر الخلاف بين فرنسا وانكلترا بشأن المسألة المصرية، وأخذت الدول المهتمة بهذه المسألة حذرها تجاه علاج مختلف المواقف. فأعلنت النمسا بأنها لا ترغب في التورط بعد احباط طلبها بشأن عقد مؤتمر دولي في ڤيينا أو لندن، فيما أعلنت الروسيا وبروسيا أنهما تقبلان كل ما تقرره الدول بهذا الشأن. ولكن بشرط الحصول على موافقة السلطان عبد المجيد، وأن تتم هذه الموافقة دونما إكراه، وبحريته الكاملة، فكان ذلك بمثابة قبول لما كانت انكلترا وفرنسا قد اتفقتا عليه مع السلطان عبد المجيد، غير أن هذا الاتفاق قد أصيب بشرخ بسبب رغبة انكلترا بإرجاع المصريين إلى حدود مصر، بينما رفضت فرنسا ذلك استجابة لرغبتها في دعم محمد علي باشا ومساعدته.

وكانت فرنسا تريد أن تبقى ولايتي مصر والشام ملكاً لمحمد علي وذريته بالإضافة لمنحه حكم إقليمي أضنه وطرسوس طوال حياته. بينما كانت انكلترا ترفض إعطاءه حكماً إلا على ولاية مصر، ولكنها أظهرت تساهلاً لارضاء فرنسا، فقبلت أن يعطى

مدة حياته النصف الجنوبي من بلاد الشام، بشرط ألا تكون مدينة عكا من هذا النصف. ورفضت فرنسا هذا الاقتراح بحجة أن حرمان محمد علي من ثمار فتوحه، لاسيما بعد أن قهر الجيوش العثمانية (في نصيبين)، سيترك باب الحرب مفتوحاً على مصراعيه، مما يسمح للروسيا بالتدخل بشكل أوسع بأمور الدولة العثمانية، مما قد يفجر حرباً عامة. ولهذا فإن إعطاء محمد علي باشا البلاد التي فتحها لأنه أقدر على إدارتها، وأكثر حقاً بهذه الإدارة نظراً لما تعرض له من المشاق الصعبة والنفقات الباهظة. وما لبثت النمسا وبروسيا أن أعلنتا ـ رسمياً ـ بأنها تنحازان إلى إحدى الدولتين التي لا تحرم الدولة العثمانية من أقاليمها، وبعبارة أخرى الى انكلترا. وأما الروسيا فإنها أرادت اغتنام فرصة اختلاف الدولتين لدعم نفوذها في الشرق، وتأكيد حق حمايتها للدولة العثمانية دون غيرها. وأرسلت إلى لندن (البارون دي برونو) بصفة سفير فوق العادة، فوصلها في أواخر أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٨٣٩ م. وعرض على حكومتها استعداد الروسيا لأن تترك لانكلترا حرية العمل في مصر، وأن تساعدها على إذلال محمد علي، بشرط أن تسمح لها بإنزال جيش بالقرب من إسلام بول، في مدينة (سينوب) الواقعة بالأناضول على شاطىء البحر الأسود، وذلك حتى تتمكن من دعم السلطان العثماني، فيما إذا حاول ابراهيم باشا التقدم الى إسلام بول. وأظهر (بالمرستون ـ رئيس وزراء انكلتـر)[1] استعداده لتبني الاقتراحات الروسية، غير أن معارضة الصحافة البريطانية وهياج الرأي العام حملته على تقديم اقتراح للسفير الروسي وذلك بأن تعلن الروسيا قبل كل شيء تنازلها عما تخوله لها معاهدة (خونكار اسكله سي) من حق حماية الدولة العثمانية. فرفضت الروسيا ذلك، وتوقفت عن اجراء الاتصالات والمباحثات بشأن تسوية المسألة المصرية حتى شهر تموز ـ يوليو ـ سنة ١٨٤٠ م حيث عادت وأرسلت

---

(١) بالمرستون: (HENRY TEMPLE LORD PALMERSTON) رجل دولة انكليزي. (١٧٨٤ ـ ١٨٦٥ م) أتم دراسته في جامعة كمبريدج، وانتخب عضواً في مجلس العموم، وانضم الى حزب المحافظين سنة ١٨٠٦ م. ثم انفصل عن حزب المحافظين وانضم الى حزب الأحرار وعمل وزيراً للخارجية، ودافع عن سياسة بلاده ضد فرنسا طوال أربعين عاماً. وكانت مقاومته لمحمد علي باشا هي السبب الرئيسي ـ إن لم تكن السبب الوحيد ـ في إحباط مخططات محمد علي ومشاريعه.

سفيرها من جديد إلى لندن بهدف طلب تعديل المشروع الأول، بحيث تمنح انكلترا وفرنسا حق إرسال ثلاث سفن حربية الى بحر مرمره للاشتراك مع الجيش الروسي في حماية إسلام بول - إذا ما هاجمها ابراهيم باشا. ولكن الحكومة الانكليزية رفضت مجدداً - هذا التعديل الروسي -.

كان (محمد علي باشا) يتابع بدقة ما يجري بين الدول العظمى من مفاوضات ومباحثات. وأيقن أن هذه الدول الأوروبية - وخاصة منها انكلترا - تعتزم إعادة جيوشه إلى مصر، وتريد إرغامه على إعادة كل ما فتحه من البلاد للدولة العثمانية، وأن فرنسا عاجزة عن دعمه دعماً حقيقياً، قرر القيام بتظاهرة قوة حتى يحتفظ بما يمكن له الاحتفاظ به. فكلف (سليمان باشا الفرنساوي - سيف) بالقيام بجولة لتحصين ساحل بلاد الشام وتنظيم الدفاع عنه، لاسيما مدينتي عكـا وبيروت. وأمر بتدريب كل قادر على حمل السلاح - في بلاد الشام - للدفاع ومساعدة الجيش المصري، كما استدعى جيشه من الجزيرة العربية (الحجاز والنجد). وأطلق سراح شريف مكة (محمد ابن عون) الذي كان قد ألزمه على الإقامة بمصر، وأخذ في حشد الموارد الاقتصادية والمالية لتأمين متطلبات الحرب المحتملة. كما أصدر أمره الى ابنه ابراهيم باشا بقمع كل ثورة والقضاء على كل تمرد قد يعلنه سكان جبل لبنان - من أي طائفة -.

عادت النمسا في مطلع سنة ١٨٤٠ م فطلبت إلى الدول الخمس عقد مؤتمر في ڤيينا لتسوية المسألة المصرية التي تورط بها الجميع، فوافقت الدول على عقد المؤتمر في لندن لا في ڤيينا. وطلبت فرنسا أن يكون للدولة العثمانية مندوباً خاصاً في هذا المؤتمر نظراً لما لها من السيادة العظمى على البلاد المتنازع عليها. فلما اجتمع المؤتمر طلبت فرنسا إبقاء الشام كلها تحت حكم محمد علي باشا، فعارضتها انكلترا في ذلك، وتمسكت بموقفها السابق بحيث لا يعطى لمحمد علي إلا النصف الجنوبي منها. لكنها قبلت أخيراً، وبناء على إلحاح فرنسا إدخال عكا ضمن هذا القسم - بشرط أن يكون ذلك لمحمد علي مدة حياته فقط، ولا ينتقل إلى ورثته، بل يعود إلى الدولة العثمانية. وقبلت الروسيا والنمسا وبروسيا بهذا الاقتراح الذي رفضته فرنسا بحجة أن حرمان ورثة محمد علي باشا من بلاد بذل جهداً كبيراً وتضحيات ضخمة لفتحها حتى يتركها لهم بعد موته، هو مما

يزيد من غضبه على دول أوروبا. ثم إنه قد يرفض هذا القرار المجحف، فتلتزم الدول بإكراهه، مما قد يؤدي إلى حرب تجري فيها الدماء بغزارة، وهو الأمر الذي لم ينعقد المؤتمر إلا من أجل منعه. فأصرت انكلترا على التمسك بموقفها ـ وأبدى رئيس وزرائها بالمرستون ـ تصمياً لتنفيذ ما تم الاتفاق عليه ـ وانتهى هذا المؤتمر الى الفشل في اتخاذ موقف موحد. وعاد المؤتمرون الى بلادهم دونما أي نتيجة ايجابية. وبقي الموقف مجمداً إلى أن تولى (المسيو تيير)[1] رئاسة الوزارة الفرنسية في أول ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٨٤٠ م قرر العمل مباشرة مع طرفي الصراع: السلطان عبد المجيد ومحمد علي، لانهاء المسألة المصرية، وذلك بأن يلزم السلطان العثماني بترك ولايات مصر والشام لمحمد علي باشا ولورثته، وتهديده إذا رفض بتقديم الدعم لمحمد علي. وأرسل إلى محمد علي باشا وطلب إليه رفض مطالب انكلترا، والتمسك بموقفه، والاستعداد للحرب، وأعلمه أن فرنسا مستعدة لدعمه ومساعدته ضد انكلترا.

وجابه رئيس وزراء انكلترا ـ بالمرستون ـ الموقف الفرنسي بحزم، وسارع للاتفاق مع الروسيا وبروسيا والنمسا على إعادة محمد علي باشا إلى حدود مصر، وإلزامه بالقوة إن هو رفض ذلك. ونجح بالمرستون في مسعاه، فوقع معاهدة ـ وافق عليها المندوب العثماني ـ يوم ١٥ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٨٤٠ م. وتضمنت ما يلي:

أولاً: أن يلزم محمد علي باشا بإعادة ما استولى عليه من بلاد الدولة العثمانية، ويحتفظ لنفسه بالجزء الجنوبي من بلاد الشام، مع عدم إدخال مدينة عكا في هذا القسم.

---

(١) تيير: (ADOLPHE THIERS) رجل دولة ـ ومؤرخ فرنسي. من مواليد مرسيليا (١٧٩٧ ـ ١٨٧٧ م) بدأ حياته محامياً في (ايكس) ثم انتقل الى باريس، وعمل في الصحافة. وأصدر جريدة الأمة (لاناسيون) سنة ١٨٣٠ م. وكان من أكبر العاملين على الانقلاب الذي أطاح بالملك شارل العاشر، فلما تولى لويس فيليب الملك عينه وزيراً (سنة ١٨٣٢ م) ثم أصبح رئيساً لمجلس الوزراء (سنة ١٨٣٦ م). وانتخب رئيساً للجمهورية بعد انتصار بروسيا على نابليون الثالث (سنة ١٨٧١ م) ومن مؤلفاته (تاريخ الثورة الفرنسية ـ في ١٠ مجلدات) و(تاريخ القنصلية والامبراطورية).

ثانياً: **أن يكون لانكلترا بالاتفاق مع النمسا. حق محاصرة المدن الساحلية في بلاد الشام، ومساعدة كل من أراد من سكان بلاد الشام خلع طاعة المصريين، والرجوع الى الدولة العثمانية، وبعبارة أوضح، تحريضهم على العصيان لاشغال الجيوش المصرية في الداخل، حتى لا تتمكن من مقاومة السفن النمساوية والانكلنزية.**

ثالثاً: **أن يكون لسفن الروسيا والنمسا وانكلترا معاً حق الدخول في البوسفور لحماية القسطنطينية إذا ما تقدمت الجيوش المصرية نحوها.**

رابعاً: **أن لا يكون لأحد الحق في الدخول في مياه البوسفور ما دامت القسطنطينية غير مهددة.**

خامساً: **يجب على الدول التي وقع مندوبوها على هذا الاتفاق، أن تصادق عليه خلال فترة لا تزيد على الشهرين، وبحيث تتم هذه المصادقة في مدينة لندن.**

وضمت هذه المعاهدة ملحقاً صادق عليه مندوب الدولة العثمانية وتضمن الحقوق والامتيازات التي يمكن منحها لمحمد علي باشا. **وشرعت انكلترا - قبل التوقيع على المعاهدة - بتحريض سكان لبنان من دروز وموارنة ونصيرية على شق عصا الطاعة والتمرد على السلطة المصرية.** حيث أرسل السفير الانكليزي في العاصمة العثمانية (اللورد بونسونبي) أحد موظفي سفارته (المستر وود) الى بلاد الشام بمهمة التحريض على الثورة. وكتب بذلك رسالة الى رئيس الوزراء الانكليزي بالمرستون يوم ٢٩ ربيع الثاني - سنة ١٢٥٦ م (٣٠ حزيران - يونيو - سنة ١٨٤٠ م). ونجح المستر وود في تنفيذ مهمته، فأعلنت طوائف الاقليات الثورة في جبل لبنان، وامتنعت عن تقديم المواد التموينية والضرائب المفروضة. غير أن التحرك المبكر للثورة، وعدم ارتباطها بالدعم الخارجي - عسكرياً - ساعد ابراهيم باشا وسليمان باشا الفرنسي على قمع الثورة وهي في مهدها. ومن ثم أخذ سليمان باشا في تحصين مدينة بيروت لأنها كانت المدينة الأكثر تعرضاً لتهديد الأسطول الانكليزي. وكذلك شرع في تشييد القلاع لحماية كل الثغور البحرية، ووضع بها المدافع الضخمة. ولكن هذه

الوسائط الدفاعية على وفرتها وقدرتها بقيت أقل من الوسائط المتوافرة للأسطولين الانكليزي والنمساوي.

علمت الحكومة الانكليزية أن محمد علي باشا يعتزم ارسال قواته والأسلحة والذخائر الى بلاد الشام عن طريق البحر. فأرسلت أمراً الى قائد أسطولها في شرق البحر الأبيض المتوسط (الكومودور نابير) في أوائل شهر تموز - يوليو - سنة ١٨٤٠ م. وكلفته بالتوجه بأسطوله إلى مياه بلاد الشام ومصر، لاستخلاص الأسطول العثماني إذا ما غادر مياه الأسكندرية، وتدمير وإحراق سفن الأسطول المصري. وعلمت فرنسا بهذا الأمر، فأرسلت إحدى بوارجها التجارية الى بيروت لابلاغ ابراهيم باشا بهذه المعلومات. فعادت المراكب المصرية على الفور الى الاسكندرية. ولما وصل الكومودور نابير، ولم يجد سفن الأسطول المصري، أصيب بخيبة أمل، ولم يحصل على الغنيمة التي كان يتوقعها.

انتشرت في مدن مصر والشام، مع بداية شهر آب - أغسطس - سنة ١٨٤٠ م، أنباء معاهدة لندن، في الوقت الذي تلقى فيه قائد الأسطول الانكليزي (نابير) أمراً جديداً بمحاصرة سواحل بلاد الشام، وأسر المراكب والسفن المصرية، حربية كانت أو تجارية، فعاد (نابير) إلى بيروت واستولى في طريقه على كل ما قابله من السفن، ووصل الى بيروت يوم ١٥ جمادى الثاني سنة ١٢٥٦ هـ = ١٤ - آب - أغسطس - سنة ١٨٤٠ م، وطلب الى القوات المصرية بالجلاء عن بيروت وعكا، ووزع على بلاد الشام منشورات تضمنت مقررات الدول التي اتخذت في لندن، وتحريض المواطنين على الثورة ضد الحكومة المصرية، وإعلان الولاء للدولة العثمانية. وفي هذا اليوم ذاته (١٥ جمادى الثاني = ١٤ - آب - أغسطس) تم إبلاغ محمد علي باشا رسمياً بنص معاهدة لندن، وأمهلوه عشرة أيام لإعطاء جوابه، وأعلمه سفراء الدول الأربعة الموقعة على معاهدة لندن - بعجز فرنسا عن مساعدته، وأبلغوه أن الدول مصممة على تنفيذ ما اتفقت عليه ولو أدى ذلك إلى حرب أوروبية. ولكن محمد علي رفض قبول ما جاء في المعاهدة، وأظهر تصميمه على الدفاع - عن حقه - حتى آخر رمق من حياته. وعندما انتهت مهلة الإنذار - العشرة أيام - جاءه قناصل الدول الأربعة ومعهم مندوب

الدولة العثمانية (يوم ٢٥ جمادى الثاني = ٢٤ ـ آب ـ أغسطس) وأعلموه بأنه لم يعد له الحق بعد الآن بولاية عكا، وأن الدول لا تسمح له إلا بولاية مصر فقط له ولذريته، واهتاج محمد علي، وثار غضباً، وطرد القناصل وهو يقول لهم: **«كيف يمكن لي أن أسمح لكم بالإقامة في بلادي وأنتم وكلاء أعدائي في هذه الديار، فانصرفوا».**

وامتثل القناصل، غير أنهم منحوه مهلة عشرة أيام أخرى لإعطاء رده. وأنذروه بأنه إذا لم يقدم إجابته، فإنه يتحمل مسؤولية ما قد يتعرض له من الضرر. وانقضت المهلة، ولم يقدم محمد علي الردّ المطلوب، فكتب القناصل بذلك إلى سفرائهم في إسلام بول، فاجتمع هؤلاء مع الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) واتفقوا بالإجماع على أخذ مصر والشام من محمد علي. وجابه رئيس وزراء فرنسا مأزقاً صعباً، فقد عمل على توريط محمد علي، وأقنعه بالصمود، ووعده بالدعم والمساعدة. ولكن ها هي انكلترا تقود التحالف بحزم وتصميم، ولم يبق أمام رئيس الوزراء الفرنسي (تيير) إلا التملص، فأعلن أن مجابهة الدول المتحالفة تتطلب فترة ستة أشهر لاعداد الأسلحة والذخائر الكافية. وأصدر أمره الى الأسطول الفرنسي بالابتعاد عن سواحل مصر والشام والانسحاب الى مياه اليونان، ثم العودة إلى فرنسا. ونفذ الأسطول الفرنسي الأمر، فرجع يوم ١٤ شعبان سنة ١٢٥٦ هـ = ٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٨٤٠ م. واهتاج الرأي العام الفرنسي، وأفاد خصوم (تيير) من فشل سياسته، فحملوه على الاستقالة (يوم ٣ رمضان سنة ١٢٥٦ = ٢٩ تشرين الأول ـ اكتوبر ـ سنة ١٨٤٠ م) ولم تكن استقالة تيير تعني شيئاً بالنسبة لمحمد علي باشا، فقد بات لزاماً عليه مجابهة العاصفة وحده.

وقع عبء العمل ضد محمد علي باشا على عاتق الدولة العثمانية وبريطانيا بصورة رئيسة، إذ لم تشترك النمسا إلا بقوة بحرية رمزية مع وحدات قليلة للإنزال، أما بروسيا فلم تكن تمتلك سفناً تستطيع زجها في العملية. وفضلت الروسيا عدم الابتعاد عن هدفها وهو العاصمة العثمانية ـ إسلام بول ـ.

كان سليمان باشا الفرنسي (أو سيف الفرنساوي) هو المسؤول عن الدفاع لحماية

ساحل بلاد الشام، فلما علم بارسال قائد الأسطول البريطاني (الكومودور نابير) لمنشورات الداعية الى الثورة، أصدر أمره على الفور بإعلان الأحكام العرفية، واعتبر أن البلاد قد أصبحت في حالة حرب. وعمل على زج قوات إضافية في مدينة بيروت، وأرسل إلى ابراهيم باشا - الذي كان معسكراً بالقرب من بعلبك - يستدعيه لقيادة جيشه والانتقال الى بيروت للدفاع عن ساحل بلاد الشام. وتحرك ابراهيم باشا بسرعة فوصل وجيشه الى ضواحي بيروت وأقام معسكره فيها.

قام أميرال البحر الانكليزي (ستوبفورد) بقيادة أسطوله للقيام بجولة استعراضية في مياه الاسكندرية، ثم تحرك من هناك نحو بيروت ليشترك مع قوة (الكومودور نابير) في الأعمال القتالية على سواحل بلاد الشام. فوصل الى بيروت يوم ١٢ رجب سنة ١٢٥٦ هـ = ٩ - أيلول سبتمبر - سنة ١٨٤٠ م. وانضم إليه في اليوم التالي جند المشاة (وعددهم ثمانية آلاف جندي من الأتراك والألبان - الأرناؤوط -. مع ألف وخمسمائة من الانكليز). وتم انزال هذا الجند على بعد عشرة كيلومترات الى الشمال من بيروت، ولم يتمكن ابراهيم باشا من منعهم من النزول، بسبب ما وفرته مدافع الأسطول من الحماية لعملية الإنزال. وتبع ذلك قيام أميرال البحر الانكليزي وزميله النمساوي بتوجيه انذار الى سليمان باشا بالجلاء عن بيروت على الفور. فطلب سليمان باشا منحه مهلة لمدة أربع وعشرين ساعة ريثما يناقش الموقف مع إبراهيم باشا، فرفض طلبه وبدأت المدفعية بإطلاق نيرانها على بيروت طوال فترة بعد الظهر وحتى المساء من يوم ١٤ رجب (١١ - أيلول - سبتمبر). ثم استأنفت المدفعية عملها منذ فجر اليوم التالي، ولم تتوقف إلى أن تم تدمير معظم أحياء المدينة وإحراقها. وفي هذه الفترة كانت كافة المدن الساحلية ببلاد الشام تتعرض لقصف مماثل، وبذلك أمكن إخراج المصريين من كافة المدن الساحلية ببلاد الشام. ووجد محمد علي باشا أنه بات مكرهاً لتنفيذ مطالب أوروبا والإذعان لها، فأصدر أمره الى ابنه ابراهيم باشا بالامتناع عن مقاومة لم نعد لها أية فائدة، وسحب القوات من أطراف بلاد الشام، والجلاء عنها، مع اتخاذ تدابير الحيطة والأمن لحماية القوات من هجمات أهل جبل لبنان، وقبائل البدو الضاربة في عرض الصحراء.

عمل ابراهيم باشا على إعادة تجميع قواته، ثم قسمها إلى مجموعات قتالية أسند قياداتها إلى القادة الذين عرف كفاءتهم عبر التجارب القتالية المتتالية، ثم شرع بتنفيذ عملية الجلاء، والانسحاب نحو مصر (في شوال سنة ١٢٥٦ هـ = منتصف شباط - فبراير - سنة ١٨٤٠ م). وكانت رحلة العودة مثيرة للحزن، فقد تعرض الجند لأنواع المعاناة من جوع وتعب، فيما كانت قبائل البدو تنقض على مؤخرات القوات، وتنزل بها أفدح الخسائر. وبالرغم من ذلك، فقد استطاع سليمان باشا أن يضمن انسحاب مائة وخمسين مدفعاً مع خيولها، بالإضافة إلى خيول الفرسان - السواري - التي هلك قسم كبير منها بسبب العطش وشدة التعب. وأما إبراهيم باشا وفرقته، فلم يتمكن من العودة إلى القاهرة عن طريق صحراء العريش، بسبب ما تعرض له وقواته خلال الإنسحاب من فلسطين على أيدي العصابات وقبائل البدو التي سيطرت على محاور تحرك القوات المصرية، واحتلت كافة الجسور القائمة على الأنهر، مما أرغم قوات ابراهيم باشا على الاشتباك طوال ساعات النهار من كل يوم. حتى إذا ما وصل ابراهيم باشا إلى غزة، وجد أنه فقد أكثر من ثلاثة أرباع قوته، علاوة على عدد كبير من الموظفين المدنيين الذين رافقوا وعائلاتهم الحملة للاضطلاع بأعباء إدارة البلاد. فكتب ابراهيم باشا إلى والده بطلب السفن اللازمة لنقله وقواته ومتاعها وذخائرها ومؤونتها إلى الاسكندرية. وجاء الأسطول المصري فنفذ عملية النقل بشكل رائع.

كان (الكومودور نابير) قد عرض على حاكم مصر (محمد علي باشا) ما تبذله الحكومة الانكليزية من الجهد لدى السلطان عبد المجيد من أجل اقناعه بإعطائه حكم مصر له ولورثته لو تنازل عن الشام، ورد الأسطول العثماني إلى الدولة العثمانية. فوافق (محمد علي باشا) على هذه الشروط. وتم بينهما الاتفاق في ٢ شوال سنة ١٢٥٦ هـ = ٢٧ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٨٤٠ م. وقام السلطان عبد المجيد بإجراء مباحثات مع مندوبي الدول الأربعة الذين كانوا يعقدون مؤتمراً مفتوحاً ومستمراً في مدينة (لندن) وصدر بذلك (مرسوم) أو (فرمان) أقر لمحمد علي باشا بحكم مصر - وورثته - وحدد شروط الحكم والإدارة.★

(★) انظر قراءات ٣ - في نهاية الكتاب «مرسوم منح محمد علي باشا حكم مصر».

لقد كان إخراج محمد علي من بلاد الشام بمثابة انتصار للسياسة الانكليزية ليس على حساب السياسة الفرنسية فحسب، بل على حساب السياسة الروسية أيضاً. ولهذا فما إن فرغت انكلترا من تصفية (المسألة المصرية) وتسويتها على نحو ما تتطلبه مصلحتها. حتى سارعت للاتفاق مع فرنسا للعمل ضد الروسيا، لإلغاء شروط معاهدة (خونكار اسكله سي) القاضية بأن يكون لمراكب الروسيا حق المرور من مضيقي البوسفور والدردنيل في أي وقت أرادت.

جرت مباحثات مستفيضة واتصالات متشعبة ومعقدة، انتهت باتفاق الدول أجمع - بما فيها الروسيا - على أن لا يكون لاحداها أبداً حق المرور من مضائق الآستانة التي يجب أن تبقى مقفلة أمام جميع سفن الدول. **وتم التوقيع بذلك على معاهدة في لندن يوم ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٥٧ هـ = ١٣ تموز - يوليو - سنة ١٨٤١ م.** وقد أطلق على هذه المعاهدة التي ضمت موافقة الدول: الدولة العثمانية والنمسا وفرنسا وانكلترا والروسيا وبروسيا، اسم **(معاهدة المضائق)** وبذلك تساوت الروسيا بباقي الدول، وفقدت كل ما اكتسبته بمساعيها السابقة - وتضمنت هذه المعاهدة:

البند الأول: يعلن السلطان - عبد المجيد - عزمه وتصميمه على حفظ واتباع القاعدة القديمة في المستقبل، والتي بموجبها منعت جميع مراكب الدول الأجنبية الحربية من المرور من مضيقي البوسفور والدردنيل، وإنه ما دام في حالة السلم لا يسمح لأي مركب حربي أجنبي بالمرور من هذين المضيقين. ويعلن كل من جلالة أمبراطور النمسا وملك المجر وبوهيميا، وملك فرنسا وملكة بريطانيا العظمى وارلنده المتحدة، وملك البروسيا وامبراطور جميع الروسيا باحترام هذا العزم الصادر من جلالة السلطان العثماني واتباع القاعدة المقررة سابقاً.

البند الثاني: وقد تقرر أنه مع الإقرار بعدم جواز النيل من هذه القاعدة المقررة قديماً، فإن السلطان يحتفظ لنفسه بحق كما كان له ذلك في السابق في إصدار المراسيم بجواز مرور بعض السفن الحربية الخفيفة لتكون في خدمة سفارات الدول المتحالفة.

البند الثالث: وكذلك يحتفظ جلالة السلطان لنفسه بحق إبلاغ نص هذا الاتفاق لجميع الدول التي بينها وبين الدولة العثمانية اتصالات ودية وعلاقات صداقة ودعوتهم إلى القبول بأحكامه.

البند الرابع: يتم التصديق على هذا الاتفاق في مدينة لندن ويتم تبادل التوقيع عليه بعد شهرين أو قبل ذلك إن أمكن. وبمقتضى ذلك فقد وقع مندوبو الدول المذكورة، ومهروه بأختامهم.

تحريراً ـ لندن ـ ١٣ ـ تموز ـ يوليو ـ سنة ١٨٤١م.

بذلك أمكن الوصول إلى تسوية مقبولة ـ ظاهرياً على الأقل ـ بالنسبة للمسألة المصرية، وبالنسبة للعلاقات الروسية ـ العثمانية. وكان باستطاعة الدولة العثمانية الإفادة من هدوء العاصفة لاتخاذ الإجراءات المناسبة قبل هبوب العاصفة الجديدة، وقد باتت الأعاصير تعصف بالدولة العثمانية من كل مكان. وكانت هناك حاجة لإجراء مجموعة من الإصلاحات الداخلية للقضاء على الرواسب المتتالية التي تركتها حرب نابليون، ثم ضياع اليونان، ثم الحرب مع محمد علي. وقد أدركت الدولة العثمانية هذه الحقيقة واستوعبتها. وشرعت في إجراء ما هو ضروري من الإصلاحات. غير أن عجلة الأحداث دهمتها من جديد، فقد انطلقت من الغرب عاصفة ثورية جديدة، فيما كانت هناك عاصفة أخرى تتجمع على تخوم الدولة الشمالية المجاورة لدولة الروسيا.

١٦ ـ حرب القرم.

استطاعت الأنظمة الملكية أن تستعيد بعضاً من سيطرتها وبعضاً من هيبتها في كل من المانيا والنمسا وفرنسا والروسيا. غير أن هذه الأنظمة لم تدرك عمق التحولات التي جاءت مع رياح الثورة الفرنسية فكانت كمن يجلس على فوهة بركان يهدد في كل وقت بالانفجار. ولم يتأخر موعد هذا الانفجار على كل حال، ففي سنة ١٢٦٥ هـ = ١٨٤٨ م، اجتاحت أوروبا عاصفة عاتية اتخذت من شعارات الثورة الفرنسية حجة لها، وحددت هدفها بإقامة أنظمة دستورية ووضع حد للملكية المستبدة. وكان العرش الفرنسي هو أول ما أطاحت به هذه العاصفة التي لم يحاول الملك الفرنسي (لويس فيليب)[١] مجابهتها، بل تسلل في هدوء من الباب الخلفي لقصر التويلري ومضى إلى انكلترا ليقضي فيها ما بقي له من العمر في هذه الحياة الدنيا، وقامت في فرنسا (الجمهورية الثانية) غير أن العاصفة لم تقف عند حدود فرنسا بل انتقلت الى برلين وفيينا وبراغ وغيرها من العواصم فلقيت مقاومة ضارية حيث عمدت الأنظمة الملكية الى قمعها بقوة الجيش وباستخدام المدفعية. واستقبلت بولونيا العاصفة الثورية بالأمل في إعادة توحيد أقاليمها الممزقة، والتي قسمت بين الروسيا والنمسا والبروسيا بعد فصلها عن الدولة العثمانية.

---

(١) لويس فيليب: (LOUIS PHILIPPE I) ابن فيليب المساواة ووالدته لويز دو بوربون بانثييغر ـ من مواليد باريس سنة ١٧٧٣ ـ أصبح ملكاً لفرنسا من سنة ١٨٤٠ حتى سنة ١٨٤٨ م ومات في كلارمونت ـ بإنكلترا (CLAREMONT). انضم الى قوات الثورة الفرنسية وكان له دوره الكبير في معركتي فالمي وجيماب (سنة ١٧٩٢ م) ثم غادر فرنسا وعاش حياة غامضة، وتزوج ماري ـ اميل دوبوربون. ثم عاد الى فرنسا مع لويس الثامن عشر، وعين قائداً أعلى لقوات المملكة سنة ١٨٣٠ م وعندما أصبح ملكاً، استعان بالأحرار ـ الليبراليين ـ. ثم تحول عنهم واستعان بالمحافظين. ونشبت ضده ثورات كثيرة ومتفرقة في الأقاليم، تمكن من قمعها. وعندما نشبت ثورة سنة ١٨٤٨ م. تنازل عن العرش. وارتحل الى انكلترا حيث قضى فيها بقية سني حياته.

وتصدت الروسيا للموقف، إذ لم يكن من سياستها إعادة توحيد بولونيا، وكانت تعارض في انفصال المجر عن النمسا وتشكيل دولة مستقلة فيها حق لا تشكل عائقاً يعيق تقدمها نحو الآستانة. ولهذا أرسلت جيوشها الى بولونيا للقضاء على الثورة وهي في مهدها، وساعدت النمسا على محاربة المجر وإخضاعها. **وطلبت من الدولة العثمانية - بإلحاح وصل الى حد التهديد بإعلان الحرب - لتسليم زعماء المجر الذين لجؤوا إلى الدولة العثمانية، ولكن الدولة العثمانية امتنعت عن تسليمهم، والتزمت بالقانون الدولي الذي يحرم تسليم المجرمين السياسيين.**

غير أن الدولة العثمانية لم تتمكن من البقاء بعيداً عن (عاصفة الثورة الأوروبية). فقد كان المواطنون في الأفلاق والبغدان يميلون إلى الاستقلال ويرغبون في الانضمام الى إخوانهم (السلاف) في ترانسلفانيا وبكوفين لتكوين مملكة رومانية جديدة. فثارتا على أميريها وأرغمتها على الفرار، وعملتا على تشكيل حكومة مؤقتة، مما حمل الدولة العثمانية على إرسال جيوشها بقيادة أحد رجالها المشهود لهم بالكفاءة (عمر باشا) من أجل إعادة الاستقرار لاقليمي الأفلاق والبغدان. وأرسلت الروسيا في الوقت ذاته جيوشها الى اقليم البغدان (في ٢٢ رجب سنة ١٢٦٥ هـ = ١٣ حزيران - يونيو - سنة ١٨٤٨ م) وطردت الحكومة المؤقتة، واحتلت إمارة الأفلاق. وعارضت الدولة العثمانية هذا التدخل السافر في ولايتين كانتا تعتبران تابعتين للدولة العثمانية، وكادت هذه المعارضة تؤدي للصدام فالحرب، التي لم يكن أي من الطرفين يرغب في اندلاعها خلال تلك الفترة المضطربة.

فجرت مفاوضات في (بلطه ليمان الواقعة على مضيق البوسفور من جهة أوروبا) وانتهت بتوقيع معاهدة أقرت للدولة العثمانية بحق تعيين الأمراء في ولايتي الأفلاق والبغدان - كمثل ما كان عليه الأمر من قبل - وأن يقوم جيش تركي - روسي مشترك باحتلال الولايتين لمدة سبع سنوات بهدف القضاء على الحركات الثورية، وضمان الاستقرار.

كانت الروسيا خلال ذلك تتابع جهودها لاضعاف الدولة العثمانية من الداخل، واتخذت من حجة (حماية الارثوذكسية) ستاراً لتوحيد جهد

الأرثوذكس المقيمين في كافة البلاد العثمانية والذين كان عددهم في حدود عشرة ملايين. وأخذت في توجيههم لدعم سياستها، ونشر نفوذها بين رعايا الدولة العثمانية.

وأفادت (الروسيا) من تناقضات فرنسا خلال فترة الثورة والحروب النابوليونية لتضعف من قوة الروابط التي كانت قائمة بين فرنسا وأتباع المذهب الكاثوليكي) في بلاد الدولة العثمانية، وهي الروابط التي تم دعمها بمجموعة من الامتيازات وفقاً للمعاهدات المتتالية التي عقدتها فرنسا مع الدولة العثمانية والتي كان من أهمها (معاهدة سنة ١٧٤٠ م) حيث ضمنت هذه المعاهدة للقسس الكاثوليك حق امتلاك الكنائس في مدينة القدس - خاصة -. فلما جاء نابليون الثالث لحكم فرنسا (سنة ١٨٤٨ م) حاول اكتساب الرأي العام الفرنسي عن طريق إعادة دعم الكاثوليكية وحمايتها - في القدس - وفي سائر أقطار الدولة العثمانية. وأرسل الى السلطان العثماني طلباً بذلك لمساعدته على تحقيق هدفه - فشكلت الدولة العثمانية لجنة ضمت ممثلين عن مختلف المذاهب لإعادة فصل الكنائس والأديرة، واخضاعها لمن كانوا يملكونها من قبل بموجب المعاهدات المبرمة سابقاً. وأجرت اللجنة تحقيقاتها، وانتهت باتخاذ قرار بأولوية الكاثوليك في امتلاك عدد من الكنائس والأديرة. فعارضت روسيا هذا القرار الذي أخذ شكل معاهدة (في ١٤ ربيع الثاني - سنة ١٢٦٨ هـ = ٦ شباط - فبراير - سنة ١٨٥٢ م). وهددت الدولة العثمانية بالحرب فيما إذا أمرت بتنفيذها. ولكن الدولة العثمانية رفضت التهديد - بعد فترة من التردد - وقررت تنفيذ ما تم الاتفاق عليه بين أعضاء اللجنة الاختصاصية التي تم تشكيلها لهذا الغرض.

اتخذت الروسيا من ذلك حجة للعدوان على الدولة العثمانية، غير أنها كانت راغبة في إلقاء مسؤولية هذا العدوان على السلطان العثماني. ولهذا عملت على ارسال (الأمير منتشيكوف)[1] وكلفته بتنفيذ مهمة مزدوجة: التظاهر باجراء

---

(١) منتشيكوف: (MENTCHIKOV-ALEXANDRE) قائد عسكري ورجل دولة روسي ولد في سانت بيترسبورغ: (SAINT-PETERSBOURG) والتي كانت معروفة قديماً باسم بيتروغراد ثم أصبحت تعرف حديثاً باسم لينينغراد. (١٧٨٧ - ١٨٦٩ م). قام بدور كبير في حرب القرم. وانتصرت =

مباحثات مع الدولة العثمانية في مسألة الأماكن الدينية في القدس، وافتعال الأسباب لدفع الدولة العثمانية لخوض الحرب.

عمل قيصر روسيا (نيقولا الأول) خلال ذلك على اجراء مفاوضات مع انكلترا - عن طريق سفيرها في بيترسبورغ - فشرح له ضرورة اتحاد دولتي روسيا وانكلترا معاً وتحالفهما لإضعاف نفوذ فرنسا في الشرق. واتخاذ التدابير لتجزئة أقاليم الدولة العثمانية، التي أصبحت (الرجل المريض) والذي لا يرتجى أمل بشفائه، وذلك حتى لا تتبدد تركة هذا المريض عند وفاته. وعرض قيصر روسيا على سفير انكلترا استعداده للتساهل فيما إذا ساعدته انكلترا على تنفيذ مشروعه وذلك بإعطائها القطر المصري وجزيرة كريت. ولما كانت سياسة انكلترا قائمة - حينذاك - على الحد من مطامع روسيا التوسعية في البلاد الآسيوية - الإسلامية - حتى لا تشاركها نفوذها البحري، في المياه الدافئة، فقد عارض السفير الانكليزي مشروع القيصر الروسي (نيقولا) وأجابه بأنه «من الأفضل معالجة (الرجل المريض) وتعهده بالعناية حتى يشفى من مرضه، وحتى يستعيد قوته، إذ أنه لو مات لحصلت حروب طاحنة تهدر فيها سيول من الدماء، لدى اقتسام التركة».

كان نابليون الثالث يتابع تحركات الروسيا، فقام بتحرك مضاد، وأجرى مباحثات مع ملكة بريطانيا العظمى (فيكتوريا)[1] للتحالف مع الدولة العثمانية ومساعدتها على تنفيذ تعهداتها بشأن الأماكن المقدسة، وذلك للحد من نفوذ روسيا في وسط رعايا الدولة العثمانية - الارثوذكس - سيما وأن سيطرة الروسيا على الأماكن المقدسة في القدس وما يجاورها، هو مما يهدد طرق انكلترا الى مستعمراتها في الهند. وتم الاتفاق بين انكلترا وفرنسا على العمل المشترك ضد المطامع الروسية. إلا أن هذا

= عليه القوات الفرنسية - الانكليز في معركة آلما - ALMA سنة ١٨٥٥ م.

(١) فيكتوريا: (VICTORIA) ملكة انكلترا (١٨١٩ - ١٩٠١ م) توجت ملكة سنة ١٨٣٧ م. وأصبحت امبراطورة لبريطانيا العظمى سنة ١٨٥٢ م. وكانت قد تزوجت سنة ١٨٤٠ م من أحد أمراء ألمانيا (البرنس البرت) وأنجبت ثمانية أولاد. وخلفها ابنها باسم (ادوارد السابع (EDOUARD VII) الذي حكم الامبراطورية البريطانية حتى سنة ١٨٠٩ م.

الاتفاق لم يحبط من عزيمة القيصر نيقولا الأول، فقرر الدخول في مباحثات مع فرنسا لاقناعها بقبول ما كانت انكلترا قد رفضته (وهو اقتسام تركة الرجل المريض). فقابل سفير فرنسا في البلاط الروسي، وعرض عليه استعداد الروسيا للتساهل في قضية الأماكن المقدسة في فلسطين، ودعمها لاحتلال تونس، مقابل مساعدة الروسيا على دعم نفوذها في الغرب، والحد من نشاط انكلترا في جزيرة مالطة. ولكن السفير الفرنسي اتخذ موقفاً مشابهاً لموقف زميله الانكليزي. ولم يترك لقيصر روسيا ثغرة للمساومة.

قرر قيصر روسيا (نيقولا الأول) المضي للعمل بصورة منفردة، فأوفد (منشيكوف) إلى الآستانة، ومضى هذا وهو يحمل لقب سفير فوق العادة، فغادر عاصمة الروسيا في الأول من جمادى الأولى سنة ١٢٦٩ هـ = ١٠ شباط - فبراير - سنة ١٨٥٣ م. وتوجه الى الأقاليم الجنوبية من روسيا - والمتاخمة لحدود الدولة العثمانية - حيث أشرف على حشد الجيوش وتفقدها. وقام باستعراضها بطريقة استفزازية مثيرة، في محاولة لارهاب الدولة العثمانية والضغط عليها. ثم مضى الى الآستانة بعد الانتهاء من تظاهرة القوة، ومعه عدد من كبار قادة القوى البرية والبحرية والذين لازموه خلال مقابلاته الرسمية وزياراته للوزراء. وتجاوز ذلك كله لدى مقابلته للسلطان عبد المجيد، حيث تعمد التصرف بفظاظة وسماجة تجاوزت حدود الأعراف الديبلوماسية والسلوك السياسي، مما خلق أزمة كادت تؤدي للحرب لولا إسراع سفيري انكلترا وفرنسا لبذل الجهود من أجل تطويق الأزمة. غير أنه تبين بوضوح أن هدف منشيكوف هو استفزاز السلطان عبد المجيد لإعلان الحرب على الدولة العثمانية والاستيلاء عليها. مما حمل فرنسا على الإسراع بإرسال أسطولها البحري الى مياه اليونان، حيث وصل الى ميناء (سلامين - أو سالامين) في ٢٤ جمادى الثاني سنة ١٢٦٩ هـ = ٤ نيسان - ابريل - سنة ١٨٥٣ م. بينما أصدرت بريطانيا أمرها إلى أسطولها بالاستنفار والبقاء في مالطة حتى صدور أوامر لاحقة. وتابع الأمير منشيكوف خلال ذلك بذل جهده لتجديد شروط معاهدة (خونكار اسكله سي). ولكن السلطان عبد المجيد لم يظهر تسرعاً في تلبية طلب الروسيا بأن يكون لها حق حماية جميع

المسيحيين في البلاد العثمانية، ومضى السلطان عبد المجيد الى ما هو أبعد من ذلك، فأعاد (رشيد باشا) الى منصب رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) وكان قد عزله من قبل إرضاء لروسيا، واستجابة لطلبها. فكان أول عمل قام به رشيد باشا هو رفض طلبات الأمير منشيكوف. فأرسل هذا انذاراً نهائياً (يوم ٢٦ رجب سنة ١٢٦٩ هـ = ٥ أيار - مايو - ١٨٥٣ م) تضمن تنفيذ مطالب دولته خلال خمسة أيام، فلما انقضت هذه المهلة ولما يصله الرد، عمل على تمديد مهلة الانذار لفترة ثمانية أيام أخرى. ولكن السلطان عبد المجيد أعلن عن رفضه للإنذار مع الإعلان باحترام حقوق الكنيسة الأرثوذكسية. فرد منشيكوف على ذلك بإعلان قطع العلاقات مع الدولة العثمانية. وغادر الآستانة على مركب روسي (يوم ١٧ شعبان = ٢٦ أيار - مايو). ولم ينس قبل رحيله أن يوجه تهديداً باستعداد القوات الروسية لاجتياح ولايتي الأفلاق والبغدان إذا ما استمرت الدولة العثمانية في رفض الطلبات الروسية. وقامت الدولة العثمانية بإبلاغ نص هذا التهديد إلى السفير البريطاني في الآستانة (اللورد ستراتفورد) فعمل هذا على نقل صورة التهديد الى حكومته التي أصدرت أمرها إلى أسطولها بمالطة بالانضمام إلى الأسطول الفرنسي، والتعاون معه. وأصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية أوامرهما الى أسطوليهما بالتوجه الى مضيق الدردنيل، وتقديم المساعدة للدولة العثمانية إذا ما تطلب الأمر. ووصلت سفن الأسطولين إلى خليج (بزيكا) ★ في ٢٢ رمضان - ١٨ حزيران - يونيو، من السنة ذاتها.

كان وزير الخارجية الروسية (المسيو دي نسلرود) (١) قد عمل بعد مغادرة الأمير منشيكوف لمدينة الآستانة على توجيه انذار جديد إلى الباب العالي، وأبلغ صورته إلى جميع الوزارات وجاء فيه:

(★) بزيكا: مدينة لها خليج رحب تقع على مدخل مضيق الدردنيل، على شاطىء آسيا، وتبعد مسافة ٢٧٥ كيلومتراً عن مدينة الآستانة، ولهذا فهي ذات أهمية استراتيجية.

(١) نسلرود: (CHARLES ROBERT-COMTE DE NESSELRODE) ديبلوماسي روسي، من مواليد لشبونه (١٧٨٠ - ١٨٦٢ م) كان ممثلاً لقيصر روسيا في مؤتمر ڤيينا (سنة ١٨١٥ م) وعمل قطباً من أقطابه، ثم مارس دوراً أساسياً في توجيه السياسة الروسية خلال عهد الكسندر الأول - ثم في عهد نقولا الأول (أي من سنة ١٨١٦ م حتى سنة ١٨٥٦ م).

« إذا لم تقبل الدولة العثمانية اقتراحاته الأخيرة، فإن الجيوش الروسية ستحتل ولايتي الأفلاق والبغدان، وتبقى فيها حتى تعود الدولة العثمانية عن إصرارها، وترضخ لطلبات الروسيا » .

رفضت الدولة العثمانية هذا الإنذار الجديد، فقامت الجيوش الروسية باجتياح ولايتي الأفلاق والبغدان، بعد اجتيازها لنهر البروث الفاصل بين حدود الدولتين وذلك في ٢٥ رمضان سنة ١٢٦٩ هـ = ٢١ تموز - يوليو - سنة ١٨٥٣ م. وتبين أن قيصر روسيا (نيقولا الأول) قد أقدم على هذا العمل وهو على ثقة من أن الدول الغربية لن تعمل بجد لدعم الدولة العثمانية. كما كان على ثقة أيضاً من أن امبراطور النمسا (فرانسوا جوزيف) لن يحرك ساكناً، نظراً لما قدمه له من المساعدة على قمع ثورة المجر (في سنة ١٨٤٨ م). غير أن (فرانسوا جوزيف) وجد نفسه أمام مأزق صعب، إذ لم يكن باستطاعته التحالف مع الروسيا أو حتى البقاء على الحياد. وفاء لما قدمته الروسيا له من المساعدة في السابق، مع معرفته بمطامع الروسيا التي لا تقف عند حد، كما لم يكن من مصلحة بلاده الوقوف بعيداً عن فرنسا وانكلترا. ولهذا وجد الحل الأمثل - بالنسبة له - هو في بذل الجهد للتوفيق بين الروسيا وبين الدولة العثمانية، والعمل على منع الحرب، فأعلن عن عقد مؤتمر في مدينة (ڤيينا) برئاسة وزير خارجيته، وطلب الى الروس والعثمانيين الامتناع عن إعلان الحرب إلى أن يتم عقد المؤتمر، وأن تتوقف جيوش الدولتين على ضفتي نهر الدانوب. فوافقت الدول على طلبه، وتم عقد المؤتمر في شهر ذي الحجة (آب - أغسطس). وبذل ممثلو بروسيا والنمسا جهودهم للتحالف مع ممثلي فرنسا وانكلترا للتوفيق بين الطرفين المتصارعين، وتجنب إشعال فتيل حرب لم يكن من مصلحة أحد تفجيرها في وقت كانت فيه كافة عروش الأنظمة الملكية تهتز قلقة تحت ضغط الشعوب التي لا زالت تعيش في مناخ ثورة سنة ١٨٤٨ م. ووصل المؤتمر بعد جلسات متتالية إلى صورة وفاق قبلته الروسيا نظراً لصياغته بعبارات غامضة تحمل تأويلات متناقضة، ورفضته الدولة العثمانية لهذا السبب ذاته، وهي التي تعرف أكثر من سواها أساليب الدولة الروسية وأهدافها. وانفض المؤتمر دون الوصول الى حسم المسألة التي انعقد من أجلها، وتأكد الجميع من سوء نوايا

الروسيا، فعملت فرنسا وانكلترا على تشجيع السلطان عبد المجيد للصمود في وجه الضغوط الروسية، ورفض طلباتها. ووعدتاه بالدعم المادي. فأرسل السلطان عبد المجيد انذاراً إلى الأمير غورتشاكوف قائد الجيوش الروسية في ولايتي الأفلاق والبغدان - في الأول من محرم سنة ١٢٧٠ هـ (٤ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٨٥٣ م) وطلب إليه الجلاء عن هاتين الولايتين خلال فترة خمسة عشر يوماً، وإلا فإن الدولة العثمانية تعتبر بأن بقاء القوات الروسية في الأفلاق والبغدان هو بمثابة إعلان حرب. وأمرت قائد جيوشها (سرعسكر عمر باشا)[1] باعداد جيوشه لعبور نهر الدانوب، وابتداء الحرب، إذا لم تنسحب القوات الروسية عند انتهاء مدة الانذار. وانتهت مدة الانذار ولما تنسحب الجيوش الروسية فكان لا بد من الحرب.

قاد (عمر باشا) جيشه، وعبر نهر الدانوب في أول صفر سنة ١٢٧٠ هـ (٣ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٨٥٣ م) وجرت معركة رهيبة انتصرت فيها القوات العثمانية انتصاراً رائعاً، وأرغمت القوات الروسية على الانسحاب من مواقعها ومعاقلها القائمة على الضفة اليسرى للنهر. ووقفت دول العالم الغربي وهي في حالة من الذهول، إذ لم تكن تتوقع أن تنتصر القوات العثمانية على القوات الروسية. غير أن (عمر باشا) لم يتمكن من استثمار هذا النصر ومطاردة القوات الروسية بسبب قسوة المناخ وتراكم الثلوج وشدة البرد. فعاد بقواته لقضاء فصل الشتاء في الحصون والمواقع.

أحرزت القوات العثمانية نصراً آخر على جبهة القفقاس في آسيا، حيث اجتازت هذه القوات بقيادة (عبده باشا) حدود الروسيا، واحتلت قلعة (سانت نيقولا) بعد معركة حاسمة، وحاولت القوات الروسية استعادة هذه

---

(١) عمر باشا - هو قائد عثماني شهير، من مواليد كرواتيا - كرواسيا - سنة ١٨٠٦ م. حمل الجنسية النمساوية بحكم مولده، وخدم في الجيش النمساوي، ثم هاجر الى البوسنة، واعتنق الإسلام ديناً، وتطوع للخدمة في الجيش العثماني، وأظهر من الكفاءة ومن الإخلاص ما أهله للوصول إلى أرفع الرتب العسكرية. انتصر على الروس في معركة أوباتوريا - في حرب القرم - وتوفي سنة ١٨٧١ م.

القلعة إلا أن القوات العثمانية صدتها بنجاح، وهنا أيضاً توقفت الأعمال القتالية بسبب هجوم فصل الشتاء.

حاول القيصر نيقولا الأول الإفادة من العطالة التي فرضها الشتاء لإعادة تنظيم قواته العسكرية والاستعداد لهجوم الربيع، كما حاول إعادة تنظيم علاقاته السياسية، فعقد لقاء قمة مع امبراطور النمسا (فرانسوا جوزيف) وطلب إليه التحالف معه ضد فرنسا وانكلترا، ولكن امبراطور النمسا أظهر بوضوح أن مثل هذا التحالف لا يخدم مصلحة بلاده.

كانت القوات البحرية الفرنسية ـ الانكليزية قد غادرت خلال هذه الفترة خليج (بزيكا) وتقدمت من مضيق البوسفور ـ بموافقة السلطان عبد المجيد ـ حتى تصبح أكثر قرباً من البحر الأسود، وأكثر قدرة على حماية الآستانة فيما إذا حاولت البحرية الروسية مهاجمتها. وعملت فرنسا في الوقت ذاته على ارسال سفير فوق العادة إلى الآستانة من أجل بذل الجهود الممكنة للصلح مع روسيا، ولدراسة الموقف عسكرياً ـ في الوقت ذاته ـ حتى تتخذ فرنسا ما هو ضروري من التدابير والاجراءات لخوض الحرب إذا ما تدهور الموقف. واستقبل السلطان عبد المجيد السفير الفرنسي باحتفال مهيب (يوم ١٥ ذي الحجة سنة ١٢٦٩ هـ = ١٩ ـ أيلول ـ سبتمبر ـ سنة ١٨٥٣ م).

ولم يلبث الموقف الهادىء أن تفجر فجأة عندما قام الأسطول الروسي بالهجوم على سفن الأسطول العثماني المحتشدة في ميناء سينوب، على البحر الأسود، ودمرها تدميراً كاملاً تقريباً يوم ٢٨ صفر سنة ١٢٧٠ هـ = ٣٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٨٥٣ م. فنقضت الروسيا بذلك التعهد الذي قدمته لدولتي فرنسا وانكلترا بعدم شن أي عمل عدواني في البحر الأسود إذا ما بقيت سفن اسطولي الدولتين المذكورتين في البوسفور، ولم تدخل الى البحر الأسود.

ردّت فرنسا وانكلترا على هذا العدوان الغادر بأن أصدرتا أمراً بإدخال سفنهما الى

البحر الأسود. وأعلمتا الروسيا ـ رسمياً ـ بأنهما تعتبران أي عدوان على موانىء الدولة العثمانية أو إحدى سفنها هو عدوان يستوجب الرد بالقوة. وأرسل امبراطور فرنسا (نابليون الثالث) رسالة الى قيصر روسيا (نيقولا الأول) في ٢٩ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٨٥٤ م، ضمنها شرحاً للمسألة في أصولها وتفرعاتها وما قامت به الروسيا من المماطلة والتلاعب فيها، وما ارتكبته من الغدر والخيانة، وعرض عليه عقد مؤتمر للصلح بشرط جلاء القوات الروسية عن ولايتي الأفلاق والبغدان. وتعهد له بسحب سفن الأسطولين الفرنسي والانكليزي من البحر الأسود مقابل الانسحاب من الأفلاق والبغدان. ورد القيصر (نيقولا الأول) بأنه ليس باستطاعته التراجع عن خطته، إذ أن سحب القوات الروسية سيؤدي إلى احباط عزيمة القوات الروسية، وهو أمر غير مقبول حتى لو لم يبق إلا جندي روسي واحد. وإذ تبين للقيصر (نيقولا الأول) أن الحرب باتت هي المخرج الوحيد للمأزق الذي يجابهه، أصدر أمره الى سفيريه في فرنسا وانكلترا بالعودة الى روسيا. كما أرسل سفراء فوق العادة الى ڤيينا وبرلين، لاجراء مباحثات مع امبراطور النمسا وملك بروسيا من أجل وقوفها على الحياد عند تفجر الحرب ـ طالما أنهما لا يستطيعان مساعدته. وسرعان ما تبين لقيصر روسيا بأن النمسا وبروسيا ستقفان ـ على الأغلب ـ الى جانب فرنسا وانكلترا. وأنهما قد لا تلتزمان بموقف الحياد. هذا من جهة، **ومن جهة ثانية قامت فرنسا وانكلترا بعقد معاهدة مع الدولة العثمانية، تم توقيعها في الآستانة يوم ١٢ جمادى الثاني سنة ١٢٧٠ هـ = ١٢ ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٨٥٤ م. وتضمنت تعهد الدولتين بالوقوف الى جانب الدولة العثمانية في حربها ضد الروسيا. وتضمنت هذه المعاهدة أيضاً بأن ترسل فرنسا قوة من خمسين ألف جندي، وأن ترسل انكلترا خمسة وعشرين ألف جندي، وبشرط أن تعمل القوتان الفرنسية والانكليزية على الانسحاب من بلاد الدولة العثمانية بعد انقضاء خمسة أسابيع من يوم عقد الصلح مع الروسيا.**

ولم يلبث (نابليون الثالث) أن وجه رسالة الى مجلس النواب الفرنسي أعلمه فيها بإعلان الحرب على الروسيا، بالتحالف مع انكلترا وذلك يوم ٢٧ جمادى الثاني سنة

١٢٧٠ هـ = ٢٧ ـ آذار ـ مارس ـ سنة ١٨٥٤ م. وكانت فرنسا وانكلترا تجريان مباحثات خلال ذلك، انتهت بعقد معاهدة بينهما (في ١٢ رجب = ١٠ نيسان ـ ابريل) في مدينة لندن، وتعهدت فيها الدولتان بالدفاع عن الدولة العثمانية، ومنع روسيا من ضم أي جزء أو اقليم منها إلى بلادها، وأن تقوم الدولتان بتقديم المال والرجال لإرسال عدد أكبر من القوات إذا ما تطلب الموقف. وألا تنفرد أحدهما باجراء اتصالات مع الروسيا لايقاف القتال أو الصلح، إلا بالاتفاق مع حليفتها. وأخذت بعدئذ الدولتان المتحالفتان فرنسا وانكلترا في حشد قواتهما. ووضعت فرنسا قواتها تحت قيادة الجنرال (سانت ارنو)[1] فيما وضعت انكلترا قواتها تحت قيادة (اللورد راغلان)[2] وبدأت قوات الدولتين في الوصول الى الأستانة وخليج (غاليبولي) خلال شهري نيسان ـ وأيار (ابريل ـ ومايو) من سنة ١٨٥٤ م.

كانت الأعمال القتالية قد بدأت من قبل في منطقة البحر الأسود، فقد حدث أن أرسلت البحرية الانكليزية السفينة (فوريوس) الى ميناء (أوديسا) ★ بمهمة إجلاء القنصل الانكليزي والرعايا الانكليز منها وذلك يوم ٨ رجب سنة ١٢٧٠ هـ = ٦

---

(١) سانت آرنو: (ARMAND-LEROY DE SAINT ARNAUD) ماريشال فرنسي (١٨٠١ ـ ١٨٥٤ م) اكتسب شهرته في قتال العرب المسلمين خلال فترة فتح الجزائر واستعمارها، وحصل على الترفيع في سلم الرتب العسكرية بسرعة، ورفع الى رتبة مشير (ماريشال) من قبل نابليون الثالث لاشتراكه في الإنقلاب الذي وقع في ٢ كانون الأول ـ ديسمبر ـ سنة ١٨٥٢ م والذي جاء به الى حكم فرنسا. وتوفي أثناء حرب القرم بسبب مرض عادي.

(٢) اللورد راغلان: (JAMES HENRY LORD RAGLAN) قائد انكليزي (١٧٨٨ ـ ١٨٥٥ م) كان في هيئة أركان الدوق ويلينغتون في معركة واترلو ضد نابليون بونابرت ـ وخسر بها أحد ذراعيه، ثم قاد القوات الانكليزية في حرب القرم. ومات بمرض الكوليرا أثناء حصار سيفا ستوبول.

(★) اوديسا: (ODESSA) مدينة اوكرانية في جنوب روسيا تقع على البحر الأسود كان اسمها (حاجي بيك). قبل أن تحتلها قوات روسيا القيصرية. وقد أدركت القيصرة كاترينا الثانية أهميتها، فأمرت (في سنة ١٧٩٥ م) بتحصينها وتوسيعها وأطلقت عليها اسم اوديسا، تيمناً باسم مستعمرة يونانية قديمة كانت بالقرب منها تدعى أودسوس. وينسب فضل توسيعها وتطويرها إلى الدوق الفرنسي (دوريشيليو) الذي حكمها سنتي ١٨٠٣ و١٨٠٤ م.

نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٨٥٤ م. وتعرضت هذه السفينة للقنابل التي أطلقتها القلاع الروسية مع أنها كانت ترفع العلم الأبيض ـ فكان ذلك انتهاكاً لقواعد (لعبة الحرب) رد عليه الأسطول الفرنسي ـ الانكليزي باطلاق مدافع السفن على المدينة، وذلك بعد انذار حددت مدته بيوم وليلة لتقديم اعتذار امتنع الروس عن تقديمه، وقد استمر إطلاق المدافع حتى تم تدمير القلاع والتهمت النار قسماً من المدينة. ثم انسحبت سفن الأسطول الفرنسي ـ الانكليزي واصطفت أمام ميناء سيفاستوبول، ودعت الأسطول الروسي للقتال. ولكن الأسطول الروسي رفض هذه الدعوة (الكريمة). فقرر قائد الأسطولين ضرب الثغور الروسية الواقعة على البحر الأسود. وتم تنفيذ هذا القرار. وأثناء ذلك **أعلن الامبراطور نيقولا الأول الحرب على الدول المعادية (في ١٣ رجب = ١١ نيسان ـ ابريل). وأصدر أوامره إلى قائد الجيوش المحتشدة على الضفة اليسرى لنهر الدانوب بعبور النهر ومحاصرة (سلستريا). ونفذت القوات الروسية هذا الحصار (من ١٧ شعبان حتى ٢٣ رمضان = ١٥ أيار ـ مايو ـ حتى ٢٠ حزيران ـ يونيو). وبالرغم من تفوق القوات الروسية التي ضمت ستين ألف مقاتل، فإنها لم تتمكن من إضعاف مقاومة الحامية العثمانية ـ المصرية التي كانت تضم خمسة عشر ألف مقاتل بقيادة القائد الشهير (موسى باشا) والذي استشهد أثناء الدفاع عن (سلستريا) ★. ولقد أبرزت هذه المقاومة الضارية القيمة القتالية للجندي المسلم، فاعترف الحلفاء الانكليز والفرنسيون بشجاعة التركي وقوة بأسه.**

وقرر قادة قوى الحلفاء التقدم بقواتهم نحو مدينة (فارنا) من أجل تقديم المساعدة للحامية المدافعة عن سلستريا. ولكن القوات الروسية لم تنتظر وصول قوات الحلفاء، وأيقنت بعجزها عن فتح المدينة المحاصرة، فاكتفت من الغنيمة بالاياب، ورفعت الحصار عن سلستريا. وأفاد (عمر باشا) من تحول الموقف، وأعاد تنظيم قواته بسرعة،

(★) سيلستريا: (SILISTRIE) مدينة بلغارية تقع على المجرى الأسفل لنهر الدانوب ـ وهي مدينة قديمة تحتل موقعاً منيعاً.

وانطلق لمطاردة القوات الروسية، وعبر نهر الدانوب، واصطدم بمؤخرة القوات الروسية عند مدينة (جورجيو) فألحق بها الهزيمة.

استطاعت النمسا أن تقف على الحياد، واحتفظت لنفسها بحق استثمار الصراع بعدم دعمها لأي طرف من الأطراف. واتخذت موقف الحكم، وكان هدفها هو منع الروسيا من التوسع نحو الدانوب، مما يساعدها على بسط سيطرتها على ضفتي النهر. ولهذا فعندما علمت بنصوص معاهدتي الآستانة ولندن، سارعت لعقد معاهدة مع بروسيا (في ٢٢ رجب سنة ١٢٧٠ هـ = ٢٠ نيسان - أبريل - سنة ١٨٥٤ م) تضمنت اتفاق الدولتين - النمسا وبروسيا - على اتخاذ موقف موحد من (المسألة الشرقية) وعملتا على ابلاغ هذه المعاهدة الى بقية الدول.

ثم عقدت النمسا معاهدة مع فرنسا وانكلترا والدولة العثمانية في ١٧ رمضان سنة ١٢٧٠ هـ = ١٣ حزيران - يونيو - ١٨٥٤ م. وذلك لقيام النمسا باحتلال ولايتي الأفلاق والبغدان إذا ما قامت القوات الروسية بالجلاء عنهما، وأن تتحالف مع هذه الدول ضد روسيا فيما إذا اجتازت جيوشها جبال البلقان. ولما كانت روسيا تفضل أن تقوم النمسا - الصليبية - باحتلال الأفلاق والبغدان بدلاً من إعادة تسليمها للدولة العثمانية - الإسلامية -. وكانت ترغب أيضاً في منع النمسا من التحالف مع فرنسا وانكلترا خلال تلك المرحلة الصعبة. فقد أصدر القيصر نيقولا الأول أمراً إلى جيوشه بالانسحاب الى ما وراء نهر البروث وهو الحد الفاصل بين الدولة العثمانية وروسيا. وسارعت القوات النمساوية لاحتلال كل موقع في إثر جلاء القوات الروسية. وكان الجيش العثماني بقيادة (عمر باشا) قد فرغ من تدمير مؤخرة القوات الروسية عند (جورجيو). وتوجه لإعادة احتلال (الأفلاق والبغدان) فوجد بأن القوات النمساوية قد انتشرت في الولايتين، ومنعت القوات العثمانية من العودة إليهما.

قرر قادة قوات الحلفاء عقد مؤتمر لهم لإعادة بحث الموقف بعد أن زال الخطر الروسي الذي كان يتهدد جبهة البلقان. وعقدوا هذا المؤتمر في مدينة (فارنا) (يوم ٢٥ شوال = ٢١ تموز - يوليو) واتخذوا قراراً بنقل مسرح الأعمال القتالية الى الأراضي الروسية - لاسيما بعد أن أخذ وباء الكوليرا في الفتك بقواتهم -. وتم الاتفاق

على نقل القوات الى شبه جزيرة القرم، وإلقاء الحصار على (سيفـاستوبول) الشهيرة بقوة تحصيناتها ومنعة حصونها.

وبدأ تنفيذ عملية الانزال في ميناء (ايباتوريا)★ في ٢٠ ذي الحجة سنة ١٢٧٠ هـ = ١٣ - أيلول - سبتمبر - سنة ١٨٥٤ م حيث جرى إرسال اثني وستين ألف مقاتل من الفرنسيين والانكليز والأتراك والمصريين. ووقعت بعد ذلك بأسبوع واحد أول معركة مع القوات الروسية التي منيت بهزيمة ساحقة أعقبها قيام القوات الفرنسية باحتلال المرتفعات المشرفة على نهر (آلما). ونصب المارشال دي سانت آرنو خيمته في ذات الموضع الذي كان القائد الروسي (منشيكوف) قد أقام خيمته فيه.

وارتكبت قوات الحلفاء خطيئة فادحة - بسبب جهلها بحجم القوات الروسية وقوتها، ولاعتقاد قيادة قوات الحلفاء بمنعة التحصينات وقوتها، فسمحت للقوات الروسية بالانسحاب من (آلما) إلى (سيفـاستوبول) ولم تقم بمطاردتها على الفور حتى لا تسمح لها بإعادة تنظيم قـواتها ودعـم حـاميـاتها. ثم هـاجمت قـوات الحلفـاء ميـنـاء (بـالاكلافـا)★★ يـوم ٣ محرم سنـة ١٢٧١ هـ = ٢٦ أيلـول - سبتمبر - سنـة ١٨٥٤ م.

وتمكنت من الاستيلاء عليها بعد يومين. وصار باستطاعتهم الإفادة من هذا الميناء لانزال الجنود والذخائر والمواد التموينية التي يتم استيرادها من أوروبا. وأفاد الروس من هذا التأخير، فعملوا على دعم تحصينات (سيفاستوبول) براً وبحراً، بقيادة قائدهم الشهير (تـودلبين)[1] حتى بات من المحال مهاجمتها واحتلالها. وقد بدأ الحلفاء

(★) ايباتوريا: (JEV PATORIJA) ميناء يقع الى الغرب من شبه جزيرة القرم.

(★★) بالاكلافا: (BELGOROD) ميناء يقع في الخليج الكائن الى الجنوب من مدينة أوديسا.

(١) تودلبين: (EDOUARD FRANCOIS COMTE DE TODLEBEN) مهندس وقائد روسي من مواليد ميتو: (MITAU-JELGAVA) في اقليم ليتوانيا (١٨١٨ - ١٨٨٤ م) برز اسمه في الأعمال القتالية في القفقاس سنة ١٨٤٨ م، وتولى قيادة الدفاع وتنظيمه عن سيفاستوبول سنة ١٨٥٤، فأظهر كفاءة عالية. ثم قام بتنظيم حصار بلغنه.

بإطلاق النار عليها في يوم (١٧ محرم = ١٠ تشرين الأول ـ اكتوبر) ثم هاجموها بعنف وضراوة بعد ذلك باسبوع. ولكن القوات المهاجمة اضطرت للتراجع، فانطلقت القوات الروسية بهجوم مضاد هدفه الوصول الى (بالاكلافا) وجرت معركة طاحنة اضطرت القوات الروسية بدورها للتراجع بعد أن تعرضت كافة الأطراف لخسائر كبيرة.

غير أن القوات الروسية عادت للهجوم بعد عشرة أيام من هجومها السابق (في ١٣ صفر = ٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر) وعلى الرغم من تفوق القوات الروسية على القوات الانكليزية التي تعرضت لثقل الهجوم بنسبة عشرة إلى واحد، فقد صمد المشاة الانكليز وفرسانهم صموداً رائعاً، حفظته لهم وثائق الحرب البريطانية بالفخر والاعتزاز، وقاوموا بعناد الهجمات الروسية إلى أن تقدمت القوات الفرنسية والعثمانية وردت القوات الروسية على أعقابها. وتوقفت بعدئذ الأعمال القتالية بسبب شدة البرد، وبسبب انتشار الأوبئة ـ الكوليرا ـ فيما استمرت أعمال الحصار والدفاع حول مدينة سيفاستوبول وداخلها.

عملت بريطانيا وفرنسا خلال ذلك على ارسال أسطوليهما إلى بحر البلطيق وبحر الشمال والمحيط الهادي من أجل ضرب الموانىء البحرية الروسية. غير أن هذه الحملة الباهظة التكاليف لم تحقق من الفائدة ما يغطي نفقاتها. وكل ما أمكنها تحقيقه هو الاستيلاء على جزيرة (رومرسند) في بحر البلطيق في ٢٢ ذي القعدة سنة ١٢٧٠ هـ = ١٦ ـ آب ـ أغسطس ـ سنة ١٨٥٤ م.

شهدت عاصمة النمسا (ڤيينا) نشاطاً ديبلوماسياً مكثفاً مع اقتراب السنة من نهايتها. فتقدمت فرنسا وانكلترا الى النمسا بعرض للتحالف معها ضد الروسيا. ووافقت النمسا على إقامة هذا التحالف الذي وقعت معاهدته في ١١ ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ (٢ كانون الأول ـ ديسمبر ـ سنة ١٨٥٤ م). وتبع ذلك اعلام السفير الروسي في ڤيينا ـ بطلبات الدول المتحالفة لتحقيق الصلح. وهي:

أولاً: عدم استئثار الروسيا بحماية المسيحيين في الدولة العثمانية وحماية ولايتي الأفلاق والبغدان.

ثانياً: ضمان حرية الملاحة لجميع الدول في نهر الدانوب.

ثالثاً: تعديل المعاهدات المتعلقة بالمرور من مضيقي الآستانة، ولاسيا معاهدة سنة ١٨٤١ م.

رابعاً: وضع قاعدة جديدة لتوازن القوى في البحر الأسود.

ووافقت روسيا مبدئياً على هذه الشروط، غير أنها طلبت اجراء بعض التعديلات، كما طلبت مهلة زمنية لمناقشة هذه الشروط والحصول على موافقة قيصر روسيا. وانتهى العام ١٨٥٤ م ومضى وهو يحمل الأمل بالوصول الى الصلح فيما كانت الاستعدادات القتالية مستمرة حول سيفاستوبول وداخلها طوال أيام فصل الشتاء.

انطلقت القوات الروسية لشن هجوم حاسم بعد أن أنهت استعداداتها، وركزت هجومها على القوات العثمانية - والقوات المصرية العاملة معها - وذلك يوم ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٢٧١ هـ = ١٧ شباط - فبراير - سنة ١٨٥٥ م. واستشهد قائد القوات المصرية (سليم باشا الشهير بأبي طربوش) وصمدت القوات الإسلامية صموداً رائعاً أذهل الحلفاء والأعداء على السواء. وأظهر قائد القوات الإسلامية (عمر باشا) ما عرف عنه من الكفاءة، فتمكن من رد القوات الروسية على أعقابها بعد أن أنزل بها خسائر فادحة. ولم تجد قوات الحلفاء - الانكليز والفرنسيين - فرصة للتدخل، فقد استطاع المسلمون حسم الصراع وحدهم. وهذا مما زاد من ثقل الهزيمة على نفس قيصر روسيا - نقولا الأول - الذي قيل بأنه مات غماً وكدراً (يوم ١٠ جمادى الثاني - ٢٨ شباط - فبراير) وخلفه على حكم روسيا ابنه (الاسكندر - الكسندر - الثاني)[١].

---

(١) الكسندر الثاني: (ALEXANDRE-II) قيصر روسيا (١٨١٨ - ١٨٨١ م) قام بمجموعة من الاصلاحات منها إلغاء الرق - الاقنان - سنة ١٨٦١ م. وحارب المسلمين بضراوة فاستولى على سمرقند وإمارات جنوة وبخارى وخوقند KOKAND. وساعد الصرب على محاربة العثمانيين، ثم عاد فأعلن الحرب على العثمانيين (١٨٧٦ - ١٨٧٧ م) وهي الحرب التي انتهت بمعاهدة برلين سنة ١٨٧٨ م. وقد حاول العدميون NIHILISTES قتله عدة مرات الى أن تمكنوا من ذلك. وكان =

كانت ايطاليا قد أخذت طريقها إلى الوجود، وأراد ملكها (فيكتور عمانوئيل)[1] على ما يظهر أن يفرض وجود دولته على الحلبة الدولية، فوقع مع الدولة العثمانية والحلفاء معاهدة هجومية دفاعية ضد روسيا (في ٧ جمادى الأولى سنة ١٢٧١ هـ = ٢٦ كانون الثاني - يناير - سنة ١٨٥٥ م) وأرسل إلى شبه جزيرة القرم جيشاً من ثمانية عشر ألف مقاتل بهدف الاشتراك في فتح قلعة سيفاستوبول. ولكن المعارك لم تتجاوز مرحلة الاشتباكات بالنيران. إلى أن قامت القوات الانكليزية - الفرنسية بهجوم تمكنت بواسطته من احتلال مدينة كيرش ومضيق بيريكوب وبحر آذاق مما ضمن عزل سيفاستوبول، ومنع الامدادات من الوصول إليها، وتبع ذلك الاستيلاء على القمة الخضراء (ماملون فير) في ٢١ رمضان سنة ١٢٧١ هـ (١٨ حزيران - يونيو - سنة ١٨٥٥ م). فاعتقد الجميع بقرب الاستيلاء على سيفاستوبول. فقام الفرنسيون بالهجوم على حصن (ملاكوف) فيما قام الانكليز في الوقت ذاته بالهجوم على (غراندريدان). ولكن القوات الروسية صدت الهجومين بنجاح، وأنزلت بالقوات المهاجمة أفدح الخسائر.

حققت قوات الحلفاء انتصاراً حاسماً على القوات الروسية في معركة تراكيتو التي وقعت يوم ١٢ ذي الحجة سنة ١٢٧١ هـ (٢٦ - آب - أغسطس - ١٨٥٥ م). وكانت مدفعية الحلفاء قد شرعت في إطلاق مقذوفاتها باستمرار وبدون توقف من يوم ٣ حتى ٢٥ ذي الحجة (١٧ - آب حتى ٨ أيلول - سبتمبر). حيث تمكنت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال ملكاهون من احتلال حصن ملاكوف في هذا اليوم بعد أن دافع الروس عنها دفاع الابطال. واحتلت القوات الانكليزية قلعة (غراند

= هؤلاء العدميون يعتنقون مذهب التدمير الاقتصادي والسياسي والاجتماعي. وقد انتشر مذهبهم انتشاراً كبيراً قبل أن تستوعبه الشيوعية.

(١) فيكتور عمانوئيل: (VICTOR-EMMANUEL) أو فيكتور الثاني (١٨٢٠ - ١٨٧٨ م) ملك سردينيا سنة ١٨٤٩ م، ثم ملك ايطاليا سنة ١٨٦١ م. اشتهر بأنه محرر ايطاليا وموحدها. اعتمد في حكمه على الوزير كافور (CAMILLO BENSO COMTE DE CAVOUR) فتحالف مع نابليون الثالث وحارب النمسا وانتصر عليها وضم لومبارديا، ثم ضم إليه أقاليم ايطاليا الوسطى. ودخل روما سنة ١٨٧٠ م. وتنازل لفرنسا عن مدينة نيس وولاية سافوا مقابل مساعدتها له.

ريدان) إلا أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها بسبب قيام القوات الروسية بتركيز رمايات مدفعيتها عليها وقصفها باستمرار مما حمل القوات الانكليزية على تدمير القلعة بالمتفجرات والملغومات (الملاغم) والانسحاب منها.

وفي مساء هذا اليوم المشهود. انسحبت القوات الروسية من (سيفاستوبول) بعد أن أحرقوها ودمروها تدميراً تاماً بحيث أن قوات الحلفاء التي دخلتها (يوم ٢٦ ذي الحجة = ٩ أيلول - سبتمبر) لم تجد إلا الإطلال والخرائب.

سارت قوات الحلفاء بعد ذلك نحو مدينة (قلبرون) واحتلتها (في ٢ صفر سنة ١٢٧٢ هـ = ١٤ تشرين الأول - اكتوبر - سنة ١٨٥٥ م. وقامت القوات الروسية في اليوم التالي بهدم قلاع مدينة (أوتشاكوف). وانسحبوا منها إلى الداخل، ولولا هجوم فصل الشتاء الذي يأتي مبكراً في هذا الاقليم، لما تمكنت القوات الروسية من ايقاف قوات الحلفاء أو منعها من الوصول الى عاصمة أوكرانيا (كييف) وهي المدينة المقدسة عندهم.

كانت الأساطيل الفرنسية والانكليزية قد عملت خلال ذلك على قصف الثغور والموانىء البحرية الروسية الواقعة على بحر البلطيق. وفرضت حصاراً بحرياً محكماً في وجه التجارة الروسية، كما حاصرت مدخل بحر الشمال، ومنعت المراكب التجارية من الدخول إليه. كما احتلت ميناء (بتروباولوسك - في المحيط الهادي). وكان التعويض الوحيد الذي وجدت روسيا فيه بعض العزاء عما نزل بها من الكوارث المتتالية والنكبات المتعاقبة، هو استيلاء قواتها على قلعة قارص الشهيرة والواقعة على حدود آسيا الصغرى (الأناضول) وذلك في ١٨ ربيع الأول سنة ١٢٧٢ هـ (٢٨ تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٥٥ م).

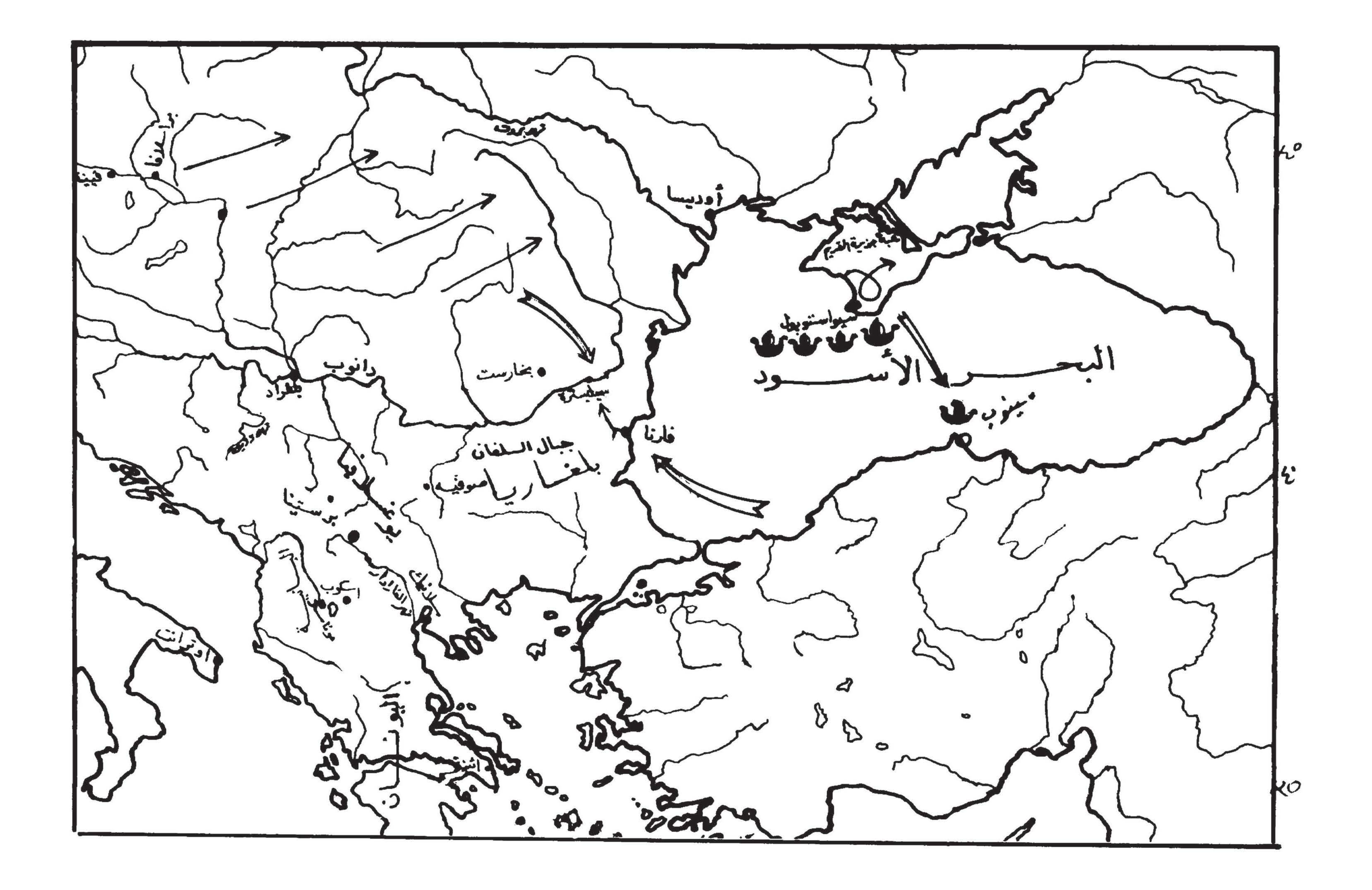
توقفت بذلك الأعمال القتالية المثيرة، والمعارك الكبيرة، واقتنع القيصر اسكندر الثاني بعقم هذه الحرب فقرر إفساح المجال لمتابعة العمل السياسي، وأوعز إلى سفيره في ڤيينا (غورتشاكوف) بمتابعة المفاوضات مع الحلفاء على أساس الشروط الأربعة التي كان الحلفاء قد وضعوها من قبل - والتي سبقت الإشارة إليها -. وقام سفراء انكلترا

وفرنسا والنمسا والروسيا والدولة العثمانية بعقد عدد من الجلسات في (ڤيينا) **لكن** المؤتمر فشل في الوصول إلى تسوية، إذ تقدم الحلفاء بطلب جديد وهو أن يكون البحر الأسود حراً لجميع الدول، وأن لا تحتفظ روسيا فيه بأكثر من ثمان مراكب حربية. ورفضت روسيا هذا الشرط. وأخذت في المماطلة على أساس تحقيق نصر حاسم في سيفاستوبول يسمح لها بفرض الشروط التي تريدها، غير أن هزيمتها في سيفاستوبول قلب الموقف بصورة سيئة ضد مصلحة روسيا. **مما شجع السويد على التحرر من سياسة التهديد والوعيد التي كانت تستخدمها روسيا ضدها للحصول على امتيازات تختص بالصيد على شواطىء النروج. فأبرمت مع فرنسا وانكلترا معاهدة هجومية دفاعية ضد روسيا (في ١٠ ربيع الأول سنة ١٢٧٢ هـ = ٢٠ تشرين الثاني - نوفمبر - سنة ١٨٥٥ م). وأعلمت كافة الدول بذلك.**

أيقن قيصر روسيا بأنه بات من المحال عليه إحراز نصر وقد تألبت كافة الدول ضده وبات مستعداً لقبول الصلح الذي تفرضه الدول المتحالفة. وتقدمت النمسا باقتراح - في أواخر سنة ١٨٥٥ م - بأن يتم ارسال بلاغ نهائي الى روسيا، لقبول الشروط الأساسية وما أضيف إليها من الشروط. فإذا رفضت روسيا قبول هذه الشروط، فإن للدول المتحالفة، وللدول التي انضمت إليها مؤخراً، وهي النمسا والسويد والنروج، أن ترسل جيوشها لاستئناف القتال، واجتياح روسيا في ربيع سنة ١٨٥٦ م. ووافقت روسيا - مبدئياً - على قبول هذه الشروط، وجرت مباحثات طويلة واتصالات كثيرة أدت إلى اتفاق لعقد مؤتمر جديد في مدينة باريس لاقرار السلم. وتم التوقيع على ميثاق بذلك في مدينة (ڤيينا) في ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٧٢ هـ = أول شباط - فبراير - سنة ١٨٥٦ م. وعقد هذا المؤتمر فعلاً في باريس - برئاسة وزير الخارجية الفرنسي - في ١٨ جمادى الثانية (٢٥ شباط، فبراير). واستمرت هذه الاجتماعات حتى ٢٣ رجب (٢٨ آذار - مارس). حيث تم التوقيع على معاهدة باريس الشهيرة★ والتي حفظت للدولة العثمانية أراضيها، وأسدل الستار على الحرب الروسية - التركية. ولكن إلى حين.

(★) انظر قراءات في نهاية الكتاب (معاهدة باريس - ونهاية حرب القرم).

لقد كانت حرب القرم مختبراً للأسلحة الحديثة (البارودة المحلزنة والمدافع الجديدة، والسفن التجارية) كما كانت تجربة لتنظيم التحالفات السياسية والعسكرية. بالاضافة الى التنظيمات العسكرية الجديدة والخدمات الصحية. فكانت هذه الحرب هي القاعدة لمجموعة التطورات التي أدت إلى الحرب العظمى (الحرب العالمية الأولى).



البحر الأسود
أوديسا
شبه جزيرة القرم
سيواستوبول
سينوب
فارنا
بخارست
دانوب
بلغراد
جبال البلقان
بلغاريا
صوفيه

١٧ ـ المسألة اللبنانية (طوشة النصارى).

لم يكن الصراع بين محمد علي باشا والدولة العثمانية سوى الثغرة التي أرادت صنعها الدول العظمى لاختراق الجبهة الداخلية في بلاد الشام وتمزيقها، فبمجرد جلاء القوات المصرية من بلاد الشام، تحركت الدول العظمى لمتابعة تنفيذ مخططاتها للتوغل في المنطقة عن طريق استخدام الطوائف الدينية (الأقليات) ودعمها، فتبنت فرنسا مساعدة الكاثوليك ـ الموارنة ـ فيما اعتمدت انكلترا على الدروز ودعمتهم للضغط على الكاثوليك وإرغامهم على اعتناق المذهب البروتستانتي. مما يفسح المجال الرحب أمام الدولتين المتنافستين لزيادة تدخلها في بلاد الشام من أجل (حماية الأقليات). وقد أفادت الدولتان العظميان من تجاربها ـ وتجارب سواهما ـ في أوروبا، سواء في اليونان أو في بلاد البلقان. لتطوير مخططاتها. وسرعان ما استجاب الموارنة والدروز لعامل التحريض الخارجي، وبدون التفكير فيما ينجم عن هذه الاستجابة من تدمير ذاتي تكون الأطراف المتورطة هي أول من يتعرض لهذا التدمير، وهي أول من يحترق به. وهكذا اجتاح الهياج الطائفي جميع أنحاء لبنان، **فقام الدروز سنة ١٢٥٧ هـ = ١٨٤١ م بالانقضاض على الموارنة، ودخلوا (دير القمر) وارتكبوا فيه ما تقشعر منه الأبدان من النهب والسلب وقتل النساء والولدان، وسبي الحرائر. ولكن القوات العثمانية تحركت بسرعة واستطاعت تطويق الأزمة، والقضاء على الفتنة.**

وأصدر السلطان عبد المجيد مرسوماً (فرماناً) بعزل (الأمير بشير الشهابي)[1].

(١) كانت الدولة العثمانية قد عينت الأمير بشير الشهابي حاكماً على جبل لبنان، ومنحته بعض الامتيازات، فلما فتح ابراهيم باشا بلاد الشام، انضم الى ابراهيم باشا، ثم انقلب ضده على أمل أن تمنحه الدولة العثمانية اسم (أمير الجبل). ولكن الدولة العثمانية عزلته، وأرغمته على مغادرة بلاد =

وابطال جميع امتيازات سكان الجبل التي كانت ممنوحة لهم قديماً، وما منح لهم مؤخراً باتفاق الدول عقب جلاء القوات المصرية، حيث ظهرت للسلطان عبد المجيد ضرورة اخضاع الجبل لحكم وال واحد، مما يحسم نار الطائفية الدينية بين الدروز والموارنة، وعمل على تعيين وال عثماني. غير أن الدول العظمى ـ انكلترا وفرنسا ـ لم تقبل بذلك، وحملت السلطان عبد المجيد على أن يعيد للجبل بعض امتيازاته، وأن يتم تعيين نائبين للوالي العثماني (قائم مقام) أحدهما ماروني والآخر درزي يتولى كل منهما معالجة شؤون أبناء طائفته، وذلك سنة ١٢٥٨ هـ = ١٨٤٢ م. إلا أن هذه الطريقة لم تحقق الاستقرار، ولم تضمن الأمن، وذلك بسبب اختلاط سكان بعض القرى من موارنة ودروز. فقررت الدولة العثمانية فصل اقليم الجبل الآهل بالموارنة من حكومة الجبل، وضمه الى ولاية طرابلس ـ بدون امتيازات مثله كمثل بقية أقاليم الجبل ـ. **فاعترض بطريق الموارنة على ذلك، وأرسل الى جميع القناصل مذكرة احتجاج ضد هذا الاجراء المنافي للاتفاق الأخير.**

وزعم أن الدولة العثمانية قد أرادت من ذلك إضعاف العنصر الماروني وتقوية العنصر الدرزي. فما كان من السلطان عبد المجيد إلا أن رد على هذه الشكوى بارسال وال على الشام اشتهر بالاستقامة وأصالة الرأي (أسعد باشا العظم) لتسوية هذه المسألة، فاقترح إعادة (بشير الشهابي) إلى إمارة الجبل كما كان، فرفض السلطان هذا الاقتراح. وانتدب آخر يدعى (خليل باشا) للتحقيق في شكاوي الطرفين، وتقديم تقرير عما يراه حلاً حاسماً للنزاع. فاختلف مع أسعد باشا في الرأي. واقترح اعتبار جبل لبنان مثله كمثل باقي الولايات العثمانية، بدون أدنى امتياز. لكن قناصل الدول الغربية رفضوا هذا الاقتراح، واتفقوا في سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) على أن يعين في القرى المختلطة وكيلان أحدهما درزي والآخر ماروني. ويكون كل منهما تابعاً للقائم

= الشام. حيث نقلته سفينة انكليزية مع بعض اتباعه الى جزيرة مالطة (في ٦ رمضان سنة ١٢٥٦ هـ = أول تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ سنة ١٨٤٠ م) وكان عمره يومها خمساً وثمانين عاماً. وما لبث أن أظهر ندمه، فانتقل الى إسلام بول حيث قضى الأيام الأخيرة من حياته، وتوفي فيها (سنة ١٢٦٧ هـ = ١٨٥٠ م) ودفن في حي غلطة في العاصمة.

مقام الذي على مذهبه. فرفض الدروز ذلك، وأصروا على أن تكون لهم السيادة على الموارنة في الجهات المختلطة. بينما أعلن الموارنة أنهم يفضلون التبعية لاحدى الولايات العثمانية على أن يكونوا تحت سيادة الدروز. ووافقت الدولة العثمانية على هذا الرأي الأخير، واعتمدته.

إلا أن الدروز رفضوه، وقاموا بتنظيم هجوم جديد في جمادى الأولى سنة ١٢٦١ هـ = ١٨٥٤ م. حيث قتلوا رئيس أحد الأديرة (واسمه شارل دي لوريت) واثنين من رهبان الدير وحرقوا جثثهم، ثم أضرموا النار في الدير حتى تحول الى ركام. وذلك بعد أن نهبوا كل ما به من المنقولات والأمتعة، كما اعتدوا على القسس الكاثوليك الفرنسيين، وقتلوا المسيحيين. ولم يتعرض أحد من رجال الارساليات البروتستانت - من الانكليز والأمريكيين - لأي ازعاج أو أذى.

فما كان من الدولة العثمانية إلا أن وجهت قوات ضخمة قامت باحتلال لبنان - سهله وجبله - احتلالاً عسكرياً. وأعلنت فيه الأحكام العرفية. وأسرعت الدول العظمى لاجراء المباحثات مع الدولة العثمانية من أجل إعادة الأمن والاستقرار فوراً، وضمان بقائه في المستقبل. وتم الاتفاق بعد مداولات كثيرة ومناقشات مستفيضة على أن يبقى في القرى المختلطة وكيلان درزي وماروني. وأن يعين لكل من القائمي مقام الدرزي والماروني - مساعدي الوالي - مجلس يشاركه في الإدارة مع بقائه تحت رئاسته. ويتشكل كل من هذين المجلسين من عشرة أعضاء: خمسة قضاة وخمسة مستشارين: اثنان منهم من الدروز واثنان من الموارنة واثنان من المسلمين واثنان من المدنيين واثنان من المتمذهبين بمذهب الروم الأرثوذكس. ويكون من اختصاصها توزيع الضرائب بالعدل والمساواة على الجميع - بدون نظر إلى اختلاف دين أو مذهب -. وتجري جبايتها بمعرفة القائمي مقام ووكلائها في القرى والمدن والأرياف. ومن اختصاصها أيضاً النظر في القضايا الجنائية والحقوقية، ويرفع إلى الوالي العثماني أي اعتراض لأي مندوب من مندوبي الطوائف المختلفة، على قائمة توزيع الضرائب إذا ما اعتقد هذا المندوب بوقوع ظلم أو سوء تقدير على أبناء طائفته، حيث يصدر الوالي

العثماني حكمه النهائي بشأن مثل هذه الاعتراضات. كما يوقع القائم مقام المختص بالتوقيع على قائمة الضرائب قبل تنفيذها. وخصص راتب ضخم لكل عضو من أعضاء المجلسين. وراتب للقائم مقام ووكلائه.

لقد ظهر يومها أن المسألة اللبنانية قد سويت بطريقة نهائية، غير أنه كان من المحال تسوية أية مسألة تسوية نهائية طالما أن عامل التحريض الخارجي مستمر في ممارسة دوره، وطالما أن هناك استعداد لقبول هذا التحريض الخارجي. ولهذا لم يوافق الدروز على التسوية، بعد أن أشاع الانكليز في صفوفهم أنهم سيعملون على منحهم السيادة الكاملة على الجبل، إلا على أساس أن هذه التسوية هي بمثابة (هدنة مؤقتة).

كما أن الانكليز من جهتهم تابعوا ممارسة دورهم هذا ـ التحريضي التخريبي ـ في مناطق أخرى ـ كالصرب والجبل الأسود ـ. وامتد تحريضهم إلى (جدة) ذاتها. حيث قام النصارى ـ وهم أقلية هناك ـ بأعمال استفزازية (سنة ١٢٧٥ هـ = ١٨٥٨ م) مما دفع المسلمين للرد عليها، فقتل بعض المسيحيين، وأصيب قنصل فرنسا وكاتبه إصابات بالغة وقتلت زوجته.

ولما علم وزير الخارجية (فؤاد باشا) بذلك أسرع لارسال قوة بقيادة (اسماعيل باشا) للسيطرة على الفتنة وقتل القتلة، ولكن فرنسا وانكلترا تحركتا بسرعة أيضاً، ووجهتا إلى السلطان العثماني مذكرة مشتركة أعلمتاه فيها بأنهما أصدرتا أوامرهما إلى سفنهما للتدخل وانهاء الفتنة. فرد (فؤاد باشا) بأن الدولة العثمانية تعرف واجباتها، وأنها أرسلت قوة لتسوية الأزمة، وأن الدولة مستعدة لتقدير التعويضات الواجب دفعها لمن لحقهم الضرر.

كان والي مكة (نامق باشا) قد أسرع في هذه الفترة بالانتقال إلى جدة، وقبض على من ثبت ارتكابهم لجرائم القتل، وحكم على كثير منهم بالاعدام ـ. ولكن سفينة حربية انكليزية (اسمها سيكلوب) وصلت في هذه الفترة إلى جدة، ووجه قبطانها انذاراً إلى (نامق باشا) بتنفيذ حكم الإعدام فوراً، وأمهله فترة أربعة وعشرين ساعة، يتم بعدها قصف جدة. ولم يكن باستطاعة (نامق باشا) تنفيذ حكم الإعدام قبل اكمال

المحاكمات، **فسلطت السفينة (سيكلوب) مدافعها على جدة. واستمرت في إطلاق قذائفها لمدة عشرين ساعة.**

وكان في نية القبطان الانكليزي متابعة القصف حتى تدمير المدينة تدميراً كاملاً. ولكن وصول (اسماعيل باشا) وسفينته أوقف المجزرة. ونزلت القوات العثمانية ومعها القوات الانكليزية حيث تم إعدام المتهمين، ورجعت القوات الانكليزية الى سفينتها.

لم تكن (جدة) على كل حال هي التربة المناسبة لاستقبال بذور الفتنة، نظراً لعدم وجود طوائف مختلفة يمكن استثمارها لمشاريع الفتنة وإثارة الاضطراب، بينما كانت لبنان هي التربة الصالحة لتحقيق الهدف. ولهذا لم يكن غريباً أن ينهض الموارنة للعدوان (سنة ١٢٧٦ هـ = ١٨٥٩ م) فعملوا على اجراء مذبحة قتل فيها عدد من الدروز، وتبع ذلك - بالضرورة - قيام الدروز للثأر والانتقام. ولم يلبث شرر الفتنة المتطاير أن امتد ليشمل جميع بلاد الشام، فكثر القتل والنهب، ووقعت المذابح في طرابلس وصيدا واللاذقية وزحلة ودير القمر ودمشق. وقام الأمير عبد القادر الجزائري وكبار رجال دمشق بحماية عدد كبير من المسيحيين. ووجه الأوروبيون اتهامهم إلى قائم مقام حاصبيا واعتبروه مسؤولاً عن تسهيل المذبحة، كما اتهموا والي دمشق (أحمد باشا) بمساعدة الدروز وقتل كل من لجأ إلى دار الحكومة - السرايا - من المسيحيين. وشنوا حملة إعلامية من الافتراءات والتحرضات في جميع أرجاء الدولة - تمويهاً وخداعاً - للرأي العام الإسلامي المتعصب بحسب مزاعمهم. ولم يكن هدف هذه الحملة الإعلامية العالمية إلا إعداد الرأي العام الأوروبي قبل الإسلامي للتدخل، الذي قد يؤدي إلى حرب مثل (حرب القرم) التي كانت ذكرياتها المريرة ماثلة أمام أنظار الأوروبيين بسبب قرب العهد بها.

كانت فرنسا، وقد بسطت نفوذها على الجزائر، وصار هدفها إضعاف روابط المسلمين بالدولة العثمانية، هي أول دولة تطوعت للعمل، فأعلمت الدول الغربية أنها مستعدة لإرسال جيوشها لاحتلال بلاد الشام والقضاء على الفتنة وانزال العقاب بمثيري الشغب، وتأمين الحماية للموارنة.

ولكن الدول الغربية رفضت الاقتراح - أو المشروع - الفرنسي، وعارضته، حتى لا تفسح لفرنسا المجال أمام احتلال أقاليم جديدة. وعندما وقعت مذبحة دمشق - التي قتل فيها على ما أعلنته الدول ستة آلاف مواطن - وجهت جميع الدول، كل بمفردها، انذارات الى الدولة العثمانية، هددتها فيها بالتدخل إن هي لم تضع حداً لهذه الفتن. فعقد رئيس الوزراء (الصدر الأعظم فؤاد باشا) جلسة وزارية خاصة جرت فيها مناقشة الموقف، وضرورة دعم الجيش العثماني ببلاد الشام، واخماد الثورة، قبل أن تتفق الدول على التدخل عسكرياً. وتقرر الإجماع توجيه جيش ضخم لإعادة الأمن والاستقرار في بلاد الشام. وانزال العقاب بكل من تثبت إدانته. وتولى (فؤاد باشا) بنفسه قيادة الجيش، وتحرك بسرعة فوصل الى بيروت في ٢٨ ذي الحجة سنة ١٢٧٦ هـ = ١٧ تموز - يوليو - سنة ١٨٦٠ م. وتوجه منها على رأس قوة من خمسة آلاف مقاتل إلى دمشق، حيث شكل فيها على الفور مجلساً عرفياً، وحاكم قادة الفتنة، وشنق عدداً كبيراً ممن ثبت اشتراكهم في الفتنة والقتل، سواء كانوا من الدروز أو المسيحيين أو المسلمين أو حتى من كبار موظفي الدولة.

استطاعت فرنسا حمل الدول الأوروبية على السماح لها بارسال جيش الى بلاد الشام من أجل مساعدة الجيش العثماني على تحقيق الأمن والاستقرار، فيما إذا عجز الجيش العثماني عن تحقيق ذلك. وتم التوقيع على اتفاقية بهذا الشأن في باريس يوم ١٥ محرم سنة ١٢٧٧ هـ (٣ - آب - أغسطس - سنة ١٨٦٠ م) وحدد عدد أفراد الجيش الفرنسي بستة آلاف جندي يمكن زيادتهم إذا ما اقتضت الضرورة الى اثني عشر ألفاً. مع السماح لهذا الجيش بالبقاء في بلاد الشام إلى أن يستتب الأمن، ويتم انزال العقاب بالمجرمين.

وصل الأسطول الفرنسي إلى بيروت يوم ٢٢ محرم (١٠ - آب - أغسطس) فوجد أن الهدوء والأمن مستتبان. وبالرغم من ذلك فقد صمم الفرنسيون على انزال ستة آلاف جندي، على أمل القيام بأي تحرك عسكري أو إجراء استعراض للقوة. ولكن هذا الأمل لم يلبث أن تبدد بفضل الجهود الكبيرة التي بذلها (فؤاد باشا) للسيطرة على الموقف وضمان الاستقرار، فلم يتحقق للفرنسيين مجال للعمل، إلا أن قائد

القوة الفرنسية (الجنرال دوبول) أصر على إرسال قوة من ألف وخمسمائة جندي إلى الجبل بحجة إعادة الموارنة الى قراهم، وحمايتهم من اعتداءات الدروز.

انعقدت خلال ذلك في مدينة بيروت لجنة أوروبية مشكلة من مندوبين معتمدين من قبل الدول الموقعة على معاهدة باريس. واتفق المندوبون بعد مداولات طويلة مع (فؤاد باشا) على أن يعطى للمسيحيين الذين حرقت دورهم مبلغ خمسة وسبعين مليون قرش (٧٥٠ ألف ليرة ذهبية) باسم تعويض. وأن يمنح أهالي الجبل حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية، يكون حاكمها مسيحي المذهب. وأن يكون للدولة العثمانية حامية من ثلثمائة جندي في حصن على الطريق الموصل من دمشق إلى بيروت. واتفق المندوبون أيضاً - وبالاجماع - على تعيين رجل أرمني (اسمه داود أفندي) ليعمل أميراً للجبل لمدة ثلاث سنوات، وألا يتم عزله إلا بعد الحصول على موافقة الدول. وبذلك تمت تسوية المسألة على حساب هيبة الدولة العثمانية وكرامتها -.

لم يبق للقوات الفرنسية ما تعمله، وهي لم يكن لها في الأصل ما تعمله، وبالرغم من ذلك فقد تمهلت فرنسا في سحب قواتها حتى ٢٧ ذي القعدة سنة ١٢٧٧ هـ (٦ حزيران - يونيو - سنة ١٨٦١ م). حيث رجعت القوات الفرنسية إلى بلادها، غير أن فرنسا حاولت قبل الجلاء اقناع مسيحيي الشام بأنها ضمنت حمايتهم من عدوان - المسلمين المتعصبين المتوحشين -.

توفي السلطان عبد المجيد بعد انسحاب الفرنسيين من بيروت بمدة عشرين يوماً. وخلفه السلطان (عبد العزيز)★ فأقر الوزراء في مناصبهم، ومضى على نهج أسلافه الذين حاولوا اخراج الدولة العثمانية من مأزقها الذي زجتها فيه الصليبية الحاقدة.

(★) السلطان الغازي عبد العزيز خان - ابن السلطان محمود الثاني (١٢٤٥ - ١٢٩٣ هـ = ١٨٣٠ - ١٨٧٦ م) تولى السلطنة سنة ١٢٧٧ هـ = ١٨٦١ م. وبذل جهداً كبيراً لانقاذ الدولة العثمانية، وحقق نجاحاً كبيراً، غير أنه انتهى نهاية سيئة، حيث تم عزله - وتبع ذلك موته في ظروف غامضة تشير المؤشرات إلى أنه قد قتل بمؤامرة من الدول العظمى وأشيع أنه انتحر.